آرَاءٌ

فِي ٱلسِّيَاسَةِ وَٱلتَّشْرِيعِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
1429هـ ـ 2008 م

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

آراءٌ

في السِّياسةِ والتَّشريعِ

الدكتور المحامي
منير محمد طاهر الشواف

قتيبة

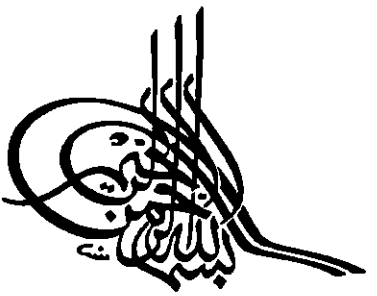

مقدمة

منذ سقوط جدار برلين عام 1990م وما تبعه من انهيار للاتحاد السوفييتي في عهد الرؤساء: بوش الأب وجورباتشوف ويلتسين، وعلى أثر اجتماع ريغان وجورباتشوف في (كيركيافيك) والعالم بدأ بالتغيُر، فقد انتهت المرحلة الدولية التي أطلق عليها الحرب الباردة، والتي قامت على تعايش النظامين: الأمريكي والسوفييتي، بعد اجتماع الرئيسين: كندي وخروتشوف في فيينا عام 1961م، حيث استقرت أحوال العالم على سياسية القطبين العالميين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وتم على أثر ذلك إقصاء أوربا القديمة عن السياسة الدولية وخاصة بريطانيا وفرنسا.

لكن العالم بدأ بالتغيُر الحقيقي بعد أن تنفست أوربا الصعداء على أثر انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي، وزوال خطره عن أوربا نهائياً، فبدأ الأوربيون بالعمل من خلال الاتحاد الأوربي والسوق الأوربية المشتركة والمجموعة الأوربية، إلى تحويل أوربا ككيان سياسي واقتصادي وعسكري مواز للولايات المتحدة. عندما نجحت أوربا بقيادة بريطانيا وفرنسا وألمانيا، في عهد (تاتشر، ميتران، كول) في تفكيك الاتحاد السوفييتي ضد رغبة الولايات المتحدة، التي كان طموحها هو إنهاء الماركسية وإبقاء اتحاد سوفييتي قوي بعقلية ليبرالية على حدود أوربا الغربية، يبقي الأوربيين تحت المظلة الأمريكية في حال خوف وهلع من روسيا موحدة وقوية تنسق مع الولايات المتحدة لاستمرار تحجيم أوربا الغربية، ولكن ذلك لم يتحقق فقد استفاد الأوربيون من جهود الولايات المتحدة من عام 1945 إلى 1990م، وأسقطوا وفككوا الاتحاد السوفييتي، ليحل مكانه روسيا المحتاجة للاتحاد الأوربي والمنسقة معهم ضد الولايات المتحدة، وليكون للأوربيّين حصة في قيادة العالم، وليعودوا منافسين للولايات المتحدة بل مشاركين لها الند للند كما يأملون، وليس أوربا ضعيفة كما هو حالها في نهاية الحرب العالمية الثانية، عندما طردت الولايات المتحدة بريطانيا وفرنسا من معظم مراكز نفوذهما في العالم، تحت شعار حرية الشعوب في تقرير مصيرها، ولكن في الحقيقة كان هذا الشعار هو، وضع شعوب العالم في ظروف تحكُّمٍ

مباشر من قبل الولايات المتحدة بمصائرها بعد أن تم عزل بريطانيا وفرنسا عن قيادة العالم جراء خسارتها الضمنية للحرب العالمية الثانية والخسارة الصريحة لكل من ألمانيا وإيطاليا واليابان.

هذه المتغيرات إذا أضيفت إلى وضع الصين العالمي، حيث استفادت من ظروف الحرب الباردة لتكون قوة اقتصادية عملاقة تخطط للوصول إلى قوة سياسية وعسكرية عالمية على النفس المتوسط، وبدون حروب خارجية، كما هي سياسة الصين في كل عهودها، فلا يستطيع أن يستقر بها غازٍ ولا ترغب بالغزو العسكري، لأن ظروفها البشرية والاقتصادية تمكنها من تحقيق طموحاتها الدولية وهي متربعة في داخل بلادها، وتجعل الآخرين يحتاجون إليها ويطلبون ودها والتعامل معها.

كما أنه بعد سقوط جدار برلين قام كثير من المفكرين بإسقاطات فكرية على هذه الوقائع السياسية التي استعرضتُها وجعلتها أسباباً أو حالات للتوتر السياسي في العالم، كما هي نظرية (هينتغتون)، في صراع الحضارات، ونظرية (فوكوياما) في نهاية التاريخ، مما حرضني على كتابة مواضيع عديدة لمعرفة أهداف الغزو الأمريكي للعراق والذي هو بمثابة غزو للمنطقة بكاملها بالطريق العسكري أو السياسي أو الفكري، وأثر ذلك على مستقبل المنطقة، وما سيؤثر على مستقبل الوضع السياسي والموقف الدولي في العالم بأسره، حيث الغزو الأمريكي كما أوضحته الإدارة الأمريكية على لسان الرئيس بوش ومساعديه، ليس هو غزواً عسكرياً فقط، بل هو صراع بين الخير والشر، صراع إما أن تكونوا معنا أو تكونوا علينا ولا خيار بيْنَ ذلك، فإنه صراع حضاري كما أعلنه بوش وإن غزوه للمنطقة تمَّ عن أمر ربه نتيجة إيحاءات إلهية من أجل سيطرة الحضارة الغربية بمفاهيمها وقيمها وتراثها، وتجلى ذلك بعد أن استغلت الإدارة الأمريكية أحداث 11 سبتمبر للقيام بهجمتها الشرسة على المنطقة لتمكين هيمنتها إلى الأبد كما تتصور هذه القيادة التي لم تخبُر هذه المنطقة وتجربها كما فعل أسلافهم الأوربيون، عندما لم يستطيعوا الصمود في هذه المنطقة في كل حملاتهم الصليبية السابقة، وعادوا من حيث أتوا، وهذا ربما يكون درساً نهائياً للولايات المتحدة في التأدب مع أهل هذه المنطقة الحضارية التي كانت السيادة لها

على العالم لقرون طويلة، عندما كان العالم الغربي الذي صدر قطاع الطرق واللصوص إلى الولايات المتحدة بحاجة ماسة إلى حضارة هذه البلاد العريقة، وهذا ما أكده ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز، عندما قدم فكره بمحاضرتين في بريطانيا يوصي بها باحترام حضارة العالم العربي والإسلامي، وإلاّ ستكون كارثة ليس على الولايات المتحدة بل على العالم الغربي كاملاً.

كل هذه المستجدات والأطروحات السياسية والفكرية التي انبثقت عن واقعة هدم سور برلين وغياب الاتحاد السوفييتي، الذي نتج عنه انتهاء سياسة القطبين والحرب الباردة، وابتدأت الحرب الساخنة التي نجمت عن الفوضى الدولية، من جراء محاولة الولايات المتحدة الاستفراد بالعالم وفرض نفوذها عليه كإرادة منفردة، ورفض المجتمع الدولي بالكامل لهذه السياسة، كما هو حال الاتحاد الأوربي وروسيا والصين واليابان، كل ذلك جعل الشرق الأوسط هو بؤرة التفجر ومسرح العمليات بين الأطراف الدولية جميعها حيث سيتقرر على نتائجها الموقف الدولي، فلقد مضى وقت طويل على نهاية الحرب العالمية الثانية، ولا بد من حروب عسكرية أو سياسية لتتقرَّر بموجبها خريطة النفوذ الدولي الجديد، هذه الأحداث هي التي حرضتني على كتابة مواضيع سياسية وفكرية أكثرها نشر في الصحف والمجلات كتشرين والثورة والاقتصادية والمحرر والشرق الأوسط والحياة ومجلة نهج الإسلام والمستقلة أو محاضرات في المراكز الثقافية.

ولما راجعت هذه المواد، وجدت أن الكثير منها ربما يفيد القارئ بعد أن جمعتها بالتسلسل حسب تواريخها، قاصداً من ذلك أن يربط القارئ الأحداث السابقة بالأحداث اللاحقة، فربما يكون بذلك فائدة كبيرة للقارئ والمتابع والباحث.

والله ولي التوفيق

الدكتور منير الشواف

مدخل في المكيافيلية السياسية

المكيافيلية كلمة مرنة ذات مدلول ضبابي واسع، استعان بها كل من يريد أن يسحق خصومه السياسيين، فهي عند من يتداولها تعني مزيجاً من الوصولية والتسلقية والحقارة والدناءة والخسة والنذالة، ولقد اختصرها من ترجم فكر مكيافيلي (بأن الغاية تبرر الوسيلة) أي إنَّ من يريد الوصول إلى غاية يعتبرها سامية فلا حرج عليه من استعمال أي وسيلة تمكنه من الوصول إلى هذه الغاية، أي إنَّ من يريد أن يصل إلى غاية يظنها طاهرة بمفهومه فلا بأس عليه أن يخوض في النجاسة ليصل إلى الطهارة.

هذا هو الذي أثار اهتمام الساسة والاقتصاديين وعلماء الاجتماع من فكر مكيافيلي وهذا ما ركز عليه الباحثون، واعتبروا أن مكيافيلي قد أتى بما لم تأت به الأوائل، فهو استحدث فكرة خبيثة منحطة ما سبقه بها أحد، وهو الذي أشاع الفاحشة في أوساط المفكرين والساسة والقواد، ولولا مكيافيلي لكنا نعيش الآن في طهارة وعفة، وقيم راقية وحياة ملائكية، ولكن المكيافيلية هي التي أفسدتنا، ومكيافيلي هو الذي ابتدع هذه البدعة الشنعاء وهو الذي استخدث هذا الفكر المنحط، وهو الذي أثر على موسوليني وهتلر وستالين وصغار الأصوليين، ولولا مكيافيلي لكان هؤلاء الناس ملائكة يمشون على الأرض؛ إلا أنهم أبَوا إلا أن يضعوا كتاب مكيافيلي (الأمير) تحت وسادتهم ليعيشوا معه وينهلوا من آرائه ويسيروا على خطاه.

والحقيقة التي أراها أن مكيافيلي كان واقعاً مفترىً عليه، وهو لا يعدو أن يكون شماعة يستخدمها بعض القادة والساسة من أجل تعليق ثيابهم القذرة عليها كلما رغبوا في ذلك، فمكيافيلي لم يكن في يوم من الأيام قائد دولة أو إمارة أي لم يكن الأمير الذي يدير سياسة الدولة، أي لم يكن الرجل المشرع ولا المنفذ، فهو لم يمارس مباشرة الأعمال السياسية داخلياً أو خارجياً في كيان ما، له شكل من أشكال الإمارة، بل كان مفكراً واقعياً، عاش في فلورنسا في القرن الخامس عشر وهي من أعمال إيطاليا اليوم، ولقد أحس هذا المفكر بقضايا شعبه وأمته ورغب بتكوين دولة واحدة، يجمعها سلطان واحد، ولها

قوة تحميها داخلياً من أعمال الثورات والعصيان والتمرد المسلح، وخارجياً من الأعداء المجاورين الذين طمعوا فيها، ولقد أثر عليه هذا الواقع فكان مصدراً لتفكيره وملهماً لأحاسيسه، فاستعمل عقله من خلال غرائزه، فكان فكرُهُ فكراً يعتمد على مصدرين أساسيين هما الواقع والغريزة.

فالميكافيليَّة بهذا المفهوم إذن فكر طبيعي تلقائي عند كل إنسان لا يقيد نفسه بعقيدة ما، بل يكون سلوكه منبثقاً عن الواقع والغرائز، فغريزة حب البقاء من مظاهرها حب السيادة والسيطرة وحب التملك، وكل ما إلى ذلك من المظاهر التي تجعل الناس يتصارعون من أجل البقاء، فمكيافيلي كان منظِّراً استمد آراءَه وأفكاره من الواقع المادي الذي عاشه، بما فيه أدواته المعرفية والاستدلالية، فقام بإشباع مظاهر غريزة حب البقاء الفطرية لديه بالأدوات والوسائل المسيطرة في مجتمعه، فكان فكره مثالاً للفكر الحيواني المتجرد عن أي قيمة اعتبارية فاعلة من خارج الواقع المعلوماتي. أي كان فكراً (ماركسياً) لا يعدوا أن يكون انعكاساً للواقع على الدماغ ومن شأن الواقع المنحط أن يعطي فكراً منحطاً.

إن محبة مكيافيلي لوطنه ولأمته ولشعبه، هي التي سوغت له بأن طريق التفكير الحيواني الغريزي (الفطري)، هو الطريق الوحيد الموصل إلى النهضة للأمم المنكوبة التي ابتليت بالحكام الضعاف المتفرقين الأنانيين، فكان لابد من طريقة تفكير حيوانية، تسوق الشعوب إلى العز والقوة عن طريق حكام همهم الوحيد الوصول إلى وحدة الشعب والأمة بأي وسيلة ممكنة طالما أن الهدف سامٍ، والمصلحة القومية هي المسيطرة على المصالح الفردية. ولهذا فإن صوفية مكيافيلي الوطنية والقومية ومحبته لأمته هي التي أصابته بعمى القيم والمثل، فأصبح لا يرى إلاَّ من خلال الواقع ومن خلال الغرائز. فكان تفكيره رد فعل على الواقع المزري الذي كانت تعيشه إمارات إيطاليا في ذلك الوقت.

وإنصافاً لمكيافيلي أضيف، بأن من كتب وشرح أفكار مكيافيلي ركز بصورة أساسية على مبدأ (الغاية تبرر الوسيلة) المنسوب إلى مكيافيلي وكأنه لم يبحث إلا هذه الفكرة، علماً أن لمكيافيلي أفكاراً هامة جداً في التكتيك السياسي والإرشاد العملي للقادة تتعلق بطريقة العمل القيادي والأساليب والخطط والوسائل والأدوات، حسب الظروف بما فيها المكان

والزمان. فأدّى عدم التفريق عند القادة بين ما هو من الطريقة وما هو من الخطة والأسلوب والأداة، إلى وقوع الكثير من القادة بأخطاء حيوانية قاتلة نزلت بالقادة إلى الدرك الأسفل من الانحطاط وهم يتصورون بأنهم يطبقون أفكار مكيافيلي.

بسبب أن الناس لم تفرق بين فكر مكيافيلي والمكيافيلية التي علقت كمفهوم في أذهان القادة والمفكرين والشعوب، فإن كوْن مكيافيلي قد نظَّر ووصف واقع الإنسان بغرائزه وحاجاته عندما يكون سلوكه انعكاساً عن الواقع، حيث الواقع المنحط يفرز سلوكاً منحطاً عندما يكون الاحتكام إلى الغرائز وليس إلى القيم التي مصدرها من نظَّم الواقع المادي. ولهذا أقول بأن مكيافيلي لم يكن مكيافيلياً لأن ميكافيلي شخص نظَّر بموجب بواعث ودوافع معينة آمن بها، بينما ما سمي بالمكيافيلية، هو أسلوب في التفكير زاوله الناس وعزوه إلى مكيافيلي وطبقوه عملياً في حياتهم حسب حاجاتهم ورغباتهم وشهواتهم فكان أسلوباً بالحياة تجاوز واقع مكيافيلي، بل هو واقع عرفه الناس قبل مكيافيلي وبعده، ولكن ظلموا مكيافيلي عندما اتهموه بأنه هو مخترعه وهو محدثه وهو مبدعه، فعزوا سلوكهم إلى فكر مكيافيلي، وبالحقيقة هم أساتذة مكيافيلي، وهو لا يعدو أن يكون تلميذاً كسولاً في مدرستهم التي علمت البشرية قبله وبعده أحط ما يكون من أنواع الفكر والقيادة ونسبته زوراً وبهتاناً إلى مكيافيلي.

إن الطريقة التي عولج بها فكر مكيافيلي جعلت الناس تنفر من السياسة باعتبارها رجساً من عمل الشيطان كما وصفها تلميذ اللورد (كرومر) المندوب السامي الإنجليزي في مصر، من أسموه شيخ الإسلام محمد عبده، حتى يترك المسلمون الاهتمام بالسياسة ويتركوا مصالح الشعب والأمة إلى تلاميذ المدارس البريطانية والفرنسية، لذلك لابد لنا من تحديد مفهوم السياسة والسياسي. والحاكم ورجل الدولة، وما يتبع ذلك من ألفاظ ومصطلحات تساعد على إبراز أهمية العمل السياسي وأهمية السياسي، وضرورة وجوده في الأمة.

السياسة والسياسي:

السياسة هي من الفعل الثلاثي (ساس) أصله (س و س) وهو ينم عن الرعاية والعناية والاهتمام من قبل من يسوسُ بمن يُساس. وقد يكون هذا الاهتمام بالحيوان

والإنسان في أساس اللغة والاستعمال، لأن كل مخلوق له حقوق وعليه واجبات سواء أكان حيواناً عاقلاً أي (إنساناً) أو حيواناً غير عاقل، وهو (الحيوان) المعروف بالمعنى العرفي الاصطلاحي. وحيث إنَّ الحيوانات غير العاقلة ليس لها مشاكل مع الحكام لأنها لا تنصحهم ولا تأمرهم بالمعروف ولا تنهاهم عن المنكر ولا تنافسهم على الجاه والسلطة والنفوذ، وكل الذي يهمها إشباع غرائزها وحاجاتها العضوية، وهذه الطلبات مصونة ومحترمة للحيوانات جميعها ولا يمانع منها الحكام والمحكومين، طالما أن هذه الحيوانات تقدم المنفعة والفائدة للحيوانات العاقلة وهم البشر الذين وهبهم الله العقل ليستفيدوا من كافة المخلوقات والكائنات الحية.

إذن مفهوم السياسة ينحصر بالاهتمام بشؤون الإنسان الذي فضله الله على كافة المخلوقات بنعمة العقل الذي هو أثمن وأغلى ما في الحياة.

منذ عهد أرسطو مروراً بابن خلدون وكبار وصغار مفكري العصور السياسية الحديثة، لم يخرج مفهوم السياسة عن الاهتمام بشؤون الناس ورعاية مصالحهم والاهتمام بأمورهم وعلاقاتهم الداخلية والخارجية، وهذا يعني أن كل من يعمل بالسياسة وهو السياسي، هو شخص دفعته محبته للجماعة والمجتمع والدولة إلى ترك (الأنا) الذاتية والمصالح الفردية الأنانية، دفعته إلى أن يضحي بوقته وماله وأحياناً بنفسه من أجل مصالح الأمة والدولة. وهذا الدافع للسياسي لا يتغير ولا يتبدل عند الإنسان سواء أكان المبدأ الرأسمالي الديمقراطي الغربي هو (فصل الدين عن الحياة) أو المبدأ الاشتراكي المادي (الماركسي) أو مبدأ الإسلام (وعقيدته لا إله إلا الله محمد رسول الله).

المفكر:

هو الإنسان المبدع الذي لا يكتفي بنقل المعلومات وحفظها وتكرارها، حتى ولو حفظ علوم الأولين والآخرين، يكون إنساناً ناقلاً قرديّاً لا يستطيع أن يؤثر بالمجتمع، لأنه مجموعة كتب متنقلة سيان كانت على الرفوف أو في الكمبيوتر أو في الدماغ البشري. فالمفكر إذن عكس المقلد، لأن المفكر توصل إلى أفكار عن طريق دراسة الواقع وفهمه وإدراكه، ثم تحول هذا الواقع إلى حقيقة في دماغه، عن طريق نقل الواقع إلى الدماغ

بواسطة الإحساس. ثم قام بعملية الربط مع المعلومات السابقة عن هذا الواقع، فنتج عن ذلك الفكر الذي تركزت صورته كحقيقة في الدماغ يسعى إلى تحويلها إلى واقع حي في المجتمع.

أما المقلد فقد نقل الأفكار مباشرة إلى دماغه كحقائق وبدون أيِّ استدلالات ولم يقم بالتحليل أثناء عملية الربط، لأنه تلقى هذه المعلومات على أساس أنها مسلمات ثابتة ويقينية، فهو لم يتعود استعمال دماغه على الإطلاق كأداة من أدوات المعرفة والتفكير.

الأدباء والشعراء ليسوا مفكرين:

يتصف الأديب والشاعر الصادق بأنه إنسان حساس تهزه الأحداث خيرها وشرها فيحاول ترجمة هذه الوقائع بالنثر أو الشعر، وحيث إنَّ العواطف والمشاعر أساس في التأثير على الأقوام والشعوب، لهذا يختلط في ذهن الشاعر والأديب فهم الواقع بوسيلة التعبير التي تفيض فيها مخاطبة المشاعر والعواطف، وهذا ما يجعل الخيال يختلط بالواقع عند كليهما.

كما أن سيطرة اللغة وآدابها على الناثر والشاعر تقيدهما أمام القارئ لإظهار رقيّ أسلوبهما اللغوي (الشكل) على حساب المضمون (الموضوع) لهذا لم يستطع الأديب أو الشاعر أن يكونا في عداد المفكرين، فهما متفائل أو متشائم لم يفهم الواقع أو فهمه بشكل خاطئ، فأثرت به العواطف والمشاعر سلباً أو إيجاباً، فعبر من خلال تصوراته وتخيلاته عن واقع خاطئ أو واقع متصور وجوده في ذهنه لكنه غير مربوط بالمعلومات السابقة.

إن ما ذكرت لا يعني الحط من شأن الأديب والشاعر، بل وجودهما ضروري في كل المجتمعات، ولكن دورهما ينحصر في خدمة أفكار المفكرين وتأمين الأجواء العامة العاطفية والمشاعرية لهذه الأفكار الأساسية التي أنتجها المفكر والتي تساعد على حل مشاكل الناس وعلاقاتهم الداخلية والخارجية.

الحاكم ورجل الدولة:

الحاكم هو الشخص الذي يتمتع بصلاحية إلزام المحكومين جبراً على التقيد بأحكام الدستور والقوانين، عندما يتبنى الأفكار فتصبح أحكاماً ملزمة على جميع الرعية.

فيتقَيدون بها جبراً أو طوعاً. سواء أكان بلداً راقياً أو متخلفاً ومن هنا يختلف الحاكم عن السياسي، الذي عمله الأساسي تبني مصالح الناس ورعاية شؤونهم فكرياً، فالسياسي لا يتمتع بقوة تنفيذية قادرة على إرغام الناس على التقيد بآرائه، بل هو ناصح ومرشد يسعى إلى إقناع الناس بأفكاره وآرائه لتكون أفكاراً للمجتمع يتبناها فتصبح مفاهيم، من ثم قناعات ومقاييس لسلوكه، ولكن ليس للسياسي أن يلزم الناس جبراً على الاقتناع بما يقول وليس له أن يحول أفكاره إلى قوانين قسرية، بل عمل السياسي هو الإقناع بالبرهان والحجة والدليل، والأمة تختار وتعتنق أفكار السياسي وآراءَه أو لا تعتنق.

أما رجل الدولة:

فهو الشخص القادر على قيادة الدولة داخلياً وخارجياً بحيث يستطيع السيطرة على زمام الأمور في الدولة في وقت الأزمات الحادة، فهو رجل القرارات الصعبة والمواقف الحرجة.

ليس كل مفكر يصلح لأن يكون سياسياً، وليس كل سياسي يصلح لأن يكون حاكماً، وليس كل حاكم رجل دولة. والتاريخ مليء بالحوادث والشواهد على ما أدعي، وهناك فروقات دقيقة تحدد مواصفات كل منهم.

إن كارل ماركس كان مفكراً أصولياً، حدد أصولاً للفهم والإدراك من خلال نظريته المادية الديالكتيكية والتاريخية. لكنه حتى موته بقي حبيساً بين المكتبة الملكية البريطانية ومكتبته الخاصة. فلم يستطع النزول إلى الشارع لتبني مصالح الناس ورعاية شؤونهم ومحاولة تولي قيادتهم، فمات منكفئاً في بلاد الرأسمالية، بينما لينين وستالين استطاعا تحويل أفكار ماركس إلى واقع حقيقي في الدولة والمجتمع، فكان كل منهما رجل دولة وحاكماً علماً أنه يقال: إنَّ لينين وستالين لم يقرأ أي منهما كتاب رأس المال لماركس.

العقلية السياسية والعقلية العسكرية:

تفادياً لأي سوء فهم، فإني أقصد بالعقلية، الكيفية التي يجري على أساسها عقل الأشياء فهماً وإدراكاً واستيعاباً، أي الكيفية التي يجري على أساسها اتخاذ القرار.

إن العقلية السياسية، عقلية نشأت وتربت على الاهتمام بشؤون الناس والاهتمام بمصالحهم من خلال وجهة نظر معينة عن الحياة، فهي عقلية تعيش من أجل الناس ولهم، عقلية مدبرة تتحسس مشاعر الناس وآمالهم وآلامهم وتحرص على مصالحهم، عقلية تنظر إلى الناس كلهم سواء متكافئون لهم حقوق وعليهم واجبات، بغض النظر عن الروابط القبلية والعشائرية والحزبية والدينية، عقلية تسوس الناس بموجب أحكام الدستور الذي كفل لكل من يحمل رعوية الدولة حقوقاً أساسية، من حقه أن يتمتع بها بدون منَّةٍ ولا فضل، عقلية آمنت وأدركت بأن الحكم مسؤولية ورعاية وعناية أمام الله والناس ورضيت بهذا الامتحان الصعب وهذه المسؤولية التي تؤرق صاحبها آناءَ الليل وأطراف النهار، فكلُّ إنسان مسؤول عن نفسه إلاَّ الحاكم، فهو مسؤول عن كل كائن حي من الإنسان والحيوان والنبات وسيحاسب عن أي تقصير في الدنيا من قبل الأمة، وفي الآخرة من قبل الله سبحانه وتعالى، عقلية تؤمن بأن للأمة حقّاً في أن تحاسب الحاكم وتزجره فيما إذا خرج عن أحكام الدستور أو أساء التصرف فيما أسند له من مهام نيابة عن الأمة، ولا يجد حرجاً في أن يقبل المحاسبة وبصدر رحب، لأن الأمة تعاقدت معه على هذا الأساس، فإذا خرج عن أحكام العقد وجبت محاسبته وحتى عزله أو اعتزاله. عقلية روضت نفسها على هذا الأساس فاستحقت أن تسمى عقلية سياسية لأنها تسوس الناس وترعى مصالحهم بموجب أحكام الدستور.

هذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يخطب المسلمين عندما بويع بالخلافة فيقول: (إني وليت عليكم ولستُ بخيركم أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم). وهذا عمر بن الخطاب يقول في خطبة البيعة (إذا رأيتم فيَّ اعوجاجاً فقوموني.. فينهض أعرابي ويقول: لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا..) هذه جيوش المسلمين في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحارب الروم والفرس في عواصمهم، وهو نائم في ظل شجرة بالمدينة المنورة أو مشغول بقراءة رسائل المجاهدين لنسائهم، وفي مساعدة من لا تجيد الكتابة على خط رسالة لزوجها المجاهد في سبيل الله، بل كان ينزل إلى الأسواق مع نساء المجاهدين ليؤمن لهم مشترياتهم من السوق، وهو يقول أنا رب العيال في غياب أزواجكم حتى يعودوا من الجهاد إن شاء الله. بل إنه رضي الله عنه كان يمتنع عن أكل

الطيبات التي أحلها الله سبحانه وتعالى حتى يؤمن هذه الطيبات للمسلمين جميعاً، ويقول: لمعدته قرقعي فلن تذوقي السمن حتى يأكله المسلمون جميعاً. بمثل هذه العقليات السياسية ساد المسلمون الدنيا وأصبحوا القوة الرئيسية في العالم.

أما العقلية العسكرية فهي عقلية تنفيذية زاجرة آمرة تنفِّذُ القرارات الصادرة عن القيادة السياسية بدون تلكؤ أو تردد، والإبداع عند العقلية العسكرية يتمثل في تفهمها لمهامها بدقة وفي إيجاد أحسن السبل لتحويل أوامر السلطة السياسية إلى واقع على الأرض ولا يجوز للقيادة العسكرية أن تتدخل في الدوافع الحقيقية للسلطة السياسية، ولا يجوز لها أن تسأل عن الغايات والبواعث والأهداف الحقيقية الكامنة وراء القرارات السياسية التي تنفذها العقلية العسكرية وإلا سادت الفوضى وعم الاضطراب من جراء تدخل السلطات العسكرية في القرارات السياسية، فقد أعفى عمر بن الخطاب خالد بن الوليد رضي الله عنهما من قيادة جند الشام بدون إبداء الأسباب، وخضع خالد لأمر القيادة السياسية. وكل ما ذكر من أسباب آراء للمؤرخين، لكن لاشك أن هناك أسباباً دعت القيادة السياسية لاتخاذ هذا القرار. وعلى القيادة العسكرية أن تخضع للقيادة السياسية وأن لا يكون عندها حرج من ذلك.

حتى الآن لا يعرف كبار القادة العسكريّين على وجه الدقة في الولايات المتحدة لماذا بدأت أمريكا حرب فيتنام ولماذا أوقفتها، وما هي دوافع غزو أمريكا (لجرينادا وبنما). إنما العسكري في الدول المحترمة محصورة مهامه في مدى مقدرته على تحويل أمر السياسي إلى واقع، فهو حر بأن يناقش ويجادل في كل أمر فني بحت يعوق أو يساعد على القيام بالمهام الموكولة إليه. فإذا اتخذت القيادة السياسة القرار بناء على خلل الدراسات عليه أن يوجد أنجع الطرق والأساليب العسكرية لتحويل هذا القرار إلى واقع ونقله من الخريطة إلى الأرض.

إن هذا لا يعني أن العسكري يستحيل عليه أن يكون صاحب عقلية سياسية، بل يعني أن العسكري طالما أنه في مهامه العسكرية تسيطر عليه العقلية العسكرية التنفيذية الآمرة والزاجرة والتي يتحدد نطاقها الزماني والمكاني حسب الأوامر الصادر له من

السياسي. وعندما تحول البعض من قيادة عسكرية إلى قيادة سياسية ونجحوا في ذلك أمثال الرئيس الأمريكي إيزنهاور، الذي كان قائداً لقوات الحلفاء في أوروبا في الحرب العالمية الثانية وكان المسؤول العسكري الأول عن إنزال الحلفاء الضخم في نورماندي، هذا الإنزال الذي كان بداية النهاية للقضاء على الرايخ الهتلري النازي في الحرب العالمية الثانية، ولقد انتخب إيزنهاور رئيساً للولايات المتحدة وخلع عقليته العسكرية بعد أن خلع زيه العسكري، ودخل مطبخ البيت الأبيض والكونجرس وخضع للمحاسبة والمساءلة، وساس الناس كقائد للأمة الأمريكية وليس قائداً عسكرياً للجيش الأمريكي ونجح في ذلك. أما التاريخ الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين، فكان يظهر فيه الفصل الواضح بين القيادات السياسية والقيادات العسكرية، والسيطرة المطلقة لأهل العقليات السياسية على أهل العقليات العسكرية، وكانت أوامر القيادة السياسية هي التي تسير الدولة بكل أجهزتها، ولم يتعدَ دور القيادات العسكرية دور تحويل أوامر السياسيين إلى واقع على الأرض، فهذه قيادات الأنصار العسكرية وهذا خالد بن الوليد وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم كثيرون كانوا يلتزمون بتعليمات القيادة السياسية الصادرة من المدينة المنورة وهم بعيدون عنها آلاف الكيلومترات في ذلك الزمان الخالي من التلكس والفاكس حتى إنَّ (الأندلس) أسبانيا كانت تحكم من دمشق، ويأتيها رسول الخليفة (بِرِق جلد) كتب عليه بعزل قائد عسكري أو تنصيب قائد، فتلتزم القيادة العسكرية بأوامر القيادة السياسية بدون تذمر، لأن كل قيادة كانت تعرف واجباتها ومسؤولياتها، وإن حكم دول بتلك المساحات الشاسعة يصعب في العصر الحاضر مع وجود التقدم التكنولوجي بوجود الطائرات التي تزيد سرعتها عن سرعة الصوت والصواريخ العابرة القارات، ولهذا كانت الدولة الإسلامية في عصر نهضتها حقيقة إعجازية لا يمكن تصورها بكل المقاييس لولا أنها حقيقة قد حدثت.

وما أجمل قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي يحدد به ماهية العقلية السياسية ومواصفاتها بقوله: (والله لو عثرت شاة على الفرات لخشيت أن يسألني الله عنها لمَ لمْ أعبد لها الطريق)، ويقول المتنبي:

ثلـــج دمـــوعي بـــالجفون كـــأنما　　جفـــوني لعينَـــيْ كـــل باكيـــه خـــدُّ

هذا هو الفرق بين العقلية السياسية والعقلية العسكرية عند الأمم المتحضرة والذي يساعد القارئ والشعوب والأمم لتفهم أهمية العمل السياسي في تقدمها واقتعادها مقعد الصدارة والريادة في العالم، عندما تنبذ الفهم السقيم لما أسموه الفكر المكيافيلي فكان حالها حال من كره العسل لأنه خرْءُ الذباب.

1997/7/23

الجزء الأول

الميكافيلية الأمريكية بين العقل والعاطفة

طالعنا السيد جورج ماكغفرن على صفحة الرأي بالحياة في العدد رقم 11456 يوم الخميس 30/ 6/ 1994م الموافق 21/ 1/ 1415هـ، بموضوع تحت عنوان جذاب (في العجلة الندامة: ملاحظات في السياسة الخارجية الأمريكية) ينتقد فيه بعضاً من القرارات السياسية الكبرى لعدد من الرؤساء الأمريكيين، وهم: جون كندي وما فعله حيال أزمة الصواريخ السوفييتية في كوبا، ليندون جونسون وما قام به ضد بناما وأسره لرئيسها نورييغا، هاري ترومان والحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي، ثم علق السيد ماكغفرن على السياسة الخارجية للرئيس الأمريكي الحالي بيل كلينتون وامتدحها لكونها لا تعرض حياة المواطن الأمريكي للخطر ونصحه بالتريث حيال ما يجري الآن في كوريا الشمالية حول ما يسمى بأزمة الأسلحة النووية في كوريا الشمالية وخطرها على العالم وذلك لكي لا يقع بما وقع به الرؤساء السابقون من أخطاء، وحيث إنَّ السيد ماكغفرن سناتور ومرشح سابق للرئاسة الأمريكية، فمن المتوقع أن يكون واعياً للسياسة الأمريكية خاصة أنه كان ممثلاً في السلطة التشريعية التي تشارك في صنع القرار بأمريكا، وحيث إنَّ السيد ماكغفرن قد جانب الصواب في كل ما طرحه من انتقادات للرؤساء الأمريكان السابقين على الأقل في رأيي الشخصي، فهو إما أن يكون قد طعن به السن بحيث لا يعلم بعد علم شيئاً أو أنه لم يعد إلى أوراقه ليتثبت مما قال أو أنه جاهل، وهذا ما أستبعدُهُ، أو أنه يكتب كما يظن إلى صحافة عربية أي إلى ناس لا يقرؤون وإذا قرؤوا لا يكترثون أي إنَّه يخاطبنا على قدر عقولنا كما يشير إلى ذلك حديث الرسول عليه الصلاة والسلام وفيما يلي تفنيد لكل ما ذكره في مقاله:

1 ـ إن الرئيس كندي لم يكن متسرعاً ولا مخطئاً في إنذاره للاتحاد السوفييتي بإزالة الصواريخ التي نصبها في كوبا كما يزعم السيد ماكغفرن. بل الصحيح أن القيادتين

الأمريكية والسوفييتية كانتا قد اتفقتا في عام 1961م باجتماع الرئيسين كندي وخروتشوف في فيينا على تحجيم الوجود الأوربي في العالم، وذلك بإيجاد قيادة جديدة للعالم بقطبين أمريكي وسوفييتي، مرتبطين بهاتف ساخن أحمر بينهما لحل القضايا الدولية الطارئة فوراً، دون إشراك أوربا في الدخول في صنع أي من القرارات السياسية العالمية، وأول خطوة اتخذاها بعد ذلك الاجتماع هي أزمة خليج (الخنازير) في كوبا، وهي السياسية التي أسمتها المصادر الدبلوماسية آنذاك بسياسة (حافة الهاوية)، أي تخويف العالم بتعريضه لحرب نووية لا تبقي ولا تذر، تؤدي إلى سحب البساط عملياً من مجلس الأمن وجعل القرار الحقيقي بيد الدولتين القطبين وبهذا يتم اقتسام النفوذ في العالم بينهما. وبذلك تمكن كيندي وخروتشوف من لفت الأنظار إليهما وجعل أوربا الفائزة في الحرب العالمية الثانية بلاداً ثانوية، وأصبح العالم ينظر إلى أن السلام والحرب هما بيد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. ولذلك فإن أزمة الصواريخ الكوبية كانت ضربة معلم من الرئيس كندي وعلى الشعب الأمريكي أن يفتخر بهذا الموقف الكبير لرئيسه الشاب، فهو موقف رجل دولة استطاع أن يحجم به بريطانيا وفرنسا ويفهمهما بأنهما دولتان من الدرجة الثانية، ولو أنهما تملكان القنبلة النووية، وعليهما عدم تجاوز حدودهما الأوربية، وأن الاتحاد السوفييتي تابع لهما بالمرصاد من خلال حلف وارسو. وهكذا بعد أزمة خليج (الخنازير) أصبح الصراع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي صراعاً رياضياً من أجل اقتلاع النفوذ البريطاني والفرنسي من العالم، ثم توالت بعد ذلك الانكسارات البريطانية والفرنسية واضمحلال نفوذهما من الهند الصينية شرقاً إلى شمال أفريقيا غرباً. فهل يعقل أن يعرف ذلك السيد ماكغفرن، خصوصاً أن كل ذلك كتبته الصحف العالمية في حينه، وهل إن كنا نحن العرب لا نقرأ فهل أن السيد ماكغفرن، لا يقرأ كذلك؟ والحقيقة أن ما حدث في عهد جورباتشوف بين السياسة الأمريكية والسياسة السوفييتية من تغيرات علنية كان يجب أن يحدث منذ كندي وخروتشوف، وبدأ ذلك خروتشوف بمهاجمته للطغيان الستاليني وبتأييد واضح من كندي، ولكن يبدو أن صناع القرار الكبار وجدوا أن ذلك كان مبكراً كثيراً فقتل كندي واختفى خروتشوف. وفي ذلك كفاية يا سيد ماكغفرن.

2 ـ إن الرئيس ليندون جونسون لم يكن متسرعاً ولا مخطئاً في أزمة (خليج تونكين) وصنعها واستغلها أفضل استغلال، وذلك بتوسيع حرب فيتنام براً وبحراً وجواً. وهذا ليس قرار ليندون جونسون منفرداً يا سيد ماكغفرن بل هو قرار الكونغرس الأمريكي كما تعلم، أي إنَّه قرار صناع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية وأنت كنت واحداً منهم.

وكان هذا القرار الرائع والمصيب من أجل مصلحة أمريكا وكل مواطن أمريكي سواء أفهم دوافعه أم لم يفهمها. فلقد استطاع ليندون جونسون بهذا القرار أن يضرب عدة عصافير بحجر واحد.

أولها: وأهمها جر الصين للتعايش السلمي وتخليها عن نظرية نشر الشيوعية بالقوة وعن طريق الثورات وإشعال الحرائق والحروب. فلم ينه الرئيس نيكسون هذه الحرب الطويلة المكلفة إلا بعد أن لعب فريق (البنغ بونغ) الأمريكي مع الفريق الصيني في بكين، وبعد ذلك ارتفعت الأصابع في الأمم المتحدة توافق على طرد تايوان من مجلس الأمن كدولة دائمة ودخلت مكانها الصين الشعبية الدولة العظيمة بعد أن وافقت على التدجين والتهجين والترويض. وبذلك رضيت عليها أمريكا، وسمحت للمجتمع الدولي أن تنزل بركاته عليها.

ثانيها: القضاء نهائياً على النفوذ الفرنسي في جنوب شرق آسيا.

ثالثها: تجريب وتطوير الأسلحة الأمريكية الفتاكة الممنوع استعمالها دولياً حيث جربتها أمريكا في تلك الشعوب البائسة واستعملتها مختبراً تجري عليها تجاربها عوضاً عن الفئران. متغاضية عن حقوق الإنسان التي تدوسها أمريكا بأقدامها كلما اقتضت مصالحها.

رابعها: تحريك الاقتصاد الأمريكي وزيادة الإنتاج الحربي الذي قضى على البطالة، وهذا ما يهم المواطن الأمريكي العادي كثيراً.

والآن ألا توافق معي يا سيد ماكغفرن على أن ما فعله جونسون هو ما يجب أن يفعله أي رئيس دولة يحرص على أن تكون دولته هي العظمى والمؤثرة في العالم، لأن الضعيف ليس له حقوق حتى ولو كان أمريكياً. لأن الرئيس الأمريكي أقسم على حماية

الأمن القومي الأمريكي بغض النظر عن القيم التي نص عليها الدستور الأمريكي، فالأمور النظرية غير العملية عند الساسة الأمريكان ومن وراءهم من أهل الفعاليات الاقتصادية.

3 ـ أما الرئيس ريغان فقد كان موفقاً كثيراً في قراره باحتلال جرينادا، وهو قرار بمنتهى الذكاء. فقد استهدف تهديد كل أرخبيل الجزر البريطانية الممتد بين البر الأوروبي والبر الأمريكي وفيه قواعد بريطانية كثيرة لها استخدامات عسكرية ومدنية. والهدف من ذلك أن يجعل بريطانيا تقوم بالضغط على المليشيات التابعة لسياستها التحتية في لبنان بأن تكف عن إزعاج الأمريكيين هناك، وأن تلقي بعصاها هي وكافة السياسيين اللبنانيين الذين يسيرون في ركاب السياسة البريطانية، وإلا فإن أرخبيل الجزر البريطانية على تلك المساحة الشاسعة في خطر، وتستطيع أمريكا خلق مبررات كثيرة من أجل ذلك بما فيها حقوق الإنسان، علماً أن الرئيس ريجان قد أمر بإنزال جرينادا بعد حوالي ثلاثة أيام من تفجير مبنى قيادة المارينز الأمريكي في لبنان. فماذا خسرت أمريكا في هذه المغامرة، لم تخسر شيئاً بل حققت أهدافها السياسية وربطت بين هدفين البعد بينهما حوالي / 15/ ألف ميل، ألا توافق على ذلك يا سيد ماكغفرن؟

4 ـ أما ضربة الرئيس بوش في (بناما) واعتقاله لرئيسها نورييغا، فكانت ضربة معلم حقيقية وفي وقتها المناسب، فهي إعلان عملي من قبل أمريكا أنها اتفقت مع الاتحاد السوفييتي في عهد جورباتشوف، على أن لأمريكا أن تعاقب من تريد من العصاة وأن الاتحاد السوفييتي لن يتدخل، ولقد أثبتت ذلك أمريكا علانية فضربتْ ضربة كما يقول عنتر ـ أضربُ الجبان ينخلع لها قلب الشجاع ـ وأكدت على مبدأ الرئيس الأمريكي (مونرو) بأن لا أحد يتدخل في جمهوريات الموز. كما أن اعتقال (نورييغا) دفن أسراره معه ودفن علاقاته مع بعض كبار صناع القرار في أمريكا بالنسبة لتجارة المخدرات. والرأي لكم بعد ذلك يا سيد ماكغفرن.

5 ـ أما الحرب الباردة التي بدأها الرئيس الأميركي ترومان والتي ينتقده فيها السيد ماكغفرن، هذه التي تسمى الحرب الباردة هي التي مكنت للولايات المتحدة من أن

تبدأ بقيادةِ المعسكر الغربي بـأسره، ولولاهـا لعـادت الجيـوش الأمريكيـة إلى الولايـات المتحدة وتقوقعت كما تقوقعت بعد الحرب العالمية الأولى. ولكانت الولايات المتحدة الآن ليست أفضل حالاً من البرازيل والأرجنتين. فلولا الحروب البـاردة لم يتطـور الاقتـصاد الأميركي ولم يسيطر الدولار على النقد العـالمي ولم تقبـل أوروبـا أن تعـيش تحـت مظلـة الولايات المتحدة الأميركية، تلك الدول الأوروبية المتعجرفة والمتحضرة والتـي تنظـر إلى الأميركيين أنهم رعاة بقر وبقايا منبوذين نبذهم المجتمع الأوروبي المتحـضر فهـاجروا إلى أميركا. ولقد ظهر خطؤكم الآن عندما تفكك الاتحاد السوفييتي وزال هذا الخطـر الـذي يهدد أوروبا برياً، وبعدها تنفست أوروبا الصعداء، أي بعد انتهاء الحرب الباردة، وتحاول الآن إزعاج السياسة الأميركية في كل مكان في العالم.

وإذا كنت تريد أن تحسب خطأ على الرئيس بوش، فهو الخطأ القاتل الذي أدى إلى سقوطه في الانتخابات الأميركية، هذا الخطأ هو كيف سمح للاتحاد السوفييتي أن يتفكك ويضعف، لأن سياسة سلفه ريجان كانت إنهاء الماركسية كفكـر ولـيس إضـعاف الاتحـاد السوفييتي وتفكيكه كدولة، ولكن نجحت أوروبا بقيادة بريطانيا في ذلك واستحق بوش السقوط عن جداره. وتحاول الآن إدارة كلينتون إصلاح ما أفسده بوش عن طريق إشغال أوروبا وتهديدها في سياستها بالبوسنة والهرسك وأفريقيـا، وفي كثـير مـن منـاطق العـالم الفائرة.

وفي الختام حبذا يا سيد ماكغفرن لو وفـرت نـصيحتك التـي قـدمتها إلى الـرئيس كلينتون بأن لا يتورط في كوريا بحرب نووية أو تقليدية، فإنه أذكى من ذلك ولن يتـورط لأنه يدرك ما يعمل، فهو يحاول أن يخيف اليابـان العمـلاق الاقتـصادي القـوي المجـاور لكوريا، ويريد أن يبقى اليابان عملياً تحت الحماية الأميركية لأن في ذلك مصالحها وإلا فإن أميركا سوف تستعمل العصا الغليظة عن طريق ما يـسمى الخطـر النـووي الكـوري. ألا تفكر يا سيد ماكغفرن كيف يمكن أن تكون كوريا الشمالية خطراً على العالم نووياً علماً أن معلمتها الصين الشعبية أصبحت من الدول الصديقة للولايات المتحدة والمتعاونـة معهـا من خلال مصالحهما المشتركة.

إذن الموضوع لا يعدو أن يكون تكتيكاً سياسياً المقصود منه إبقاء اليابـان في حجـم اقتصادي معقول لا يتنافى مع المصالح الاقتصادية الأميركية، وجائزة اليابـان لقـاء ذلـك دخولها بالنظام الدولي الجديد وبإعطائها مقعداً دائماً في مجلس الأمن الدولي.

أكرر هذا يا سيد ماكغفرن وهو أقل ما يمكن أن أقولـه في ردي عليـك باختـصار، وعلى الشعب الأمريكي أن يحمد الله تعالى أنه لم يوصلك إلى سدة الرئاسة، وإلا فإن كنـت صادقاً فيما ذكرت فإنك ستحول الولايات المتحدة إلى جمعية خيرية وهذا ما لا يـسمح بـه صناع القرار لأن رجل الدولة لا يستطيع أن يستمر إلا إذا ميز ما بين العقل والعاطفة.

15/ 7/ 1994م

الأمير تشارلز يدعو إلى
استلهام الإسلام لمقاومة المادية الغربية
الجزء الأول

نحن أبناء الغرب بحاجة إلى معلمين ليعلمونا كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا.

أكسفورد: الشرق الأوسط

دعا الأمير تشارلز، ولي عهد بريطانيا إلى استلهام الإسلام لمقاومة المادية الغربية، وجاءت دعوة الأمير تشارلز في اجتماع خاص عقد في قاعة مؤتمرات وزارة الخارجية البريطانية بـ «ويلتون بارك» في منطقة (ساكس) في إنجلترا حضره أكثر من 70 شخصاً من الأكاديميين ورجال الأعمال والزعماء الدينيين والعاملين في المؤسسات البريطانية المعنية. ودعا ولي عهد بريطانيا إلى العودة إلى مفهوم المقدس و«أن هناك ضياعاً في المعنى» في المجتمعات الغربية، وقدم التراث الإسلامي كمثال على كيفية اندماج الروحانية مع العصرنة. وأضاف الأمير تشارلز: إنَّ المادية العصرية غير متوازنة ومدمرة جداً في نتائجها على المدى الطويل... وإنَّ العلم حاول فرض احتكار، بل حتى طغيان على فهمنا، ونحن الآن فقط بدأنا نقيس النتائج الكارثية لهذا المفهوم.

وكان الأمير تشارلز قد عبر عن إعجابه بالإسلام وتعاطفه معه في محاضرة ألقاها في جامعة أكسفورد عام 1993م، لكن حديثه أول من أمس كان أقوى مؤشر على التعاطف والإعجاب بالإسلام كدين وتراث، والعلاقة بين الإسلام والغرب.

وقال الدكتور فرحان النظامي مدير مركز الدراسات الإسلامية في جامعة أكسفورد، تعليقاً على كلمة الأمير تشارلز: «إنها مناشدة يجب وبالضرورة الترحيب بها من أبناء الغرب على السواء».

ويذكر أن الأمير تشارلز يتلقى وبانتظام نصائح حول القضايا الإسلامية من هيئة مكونة من 12 شخصاً من رجال الدين والأكاديميين.

وهذه مقتطفات من كلمة الأمير تشارلز:

«ابتداءً، منطلقي هو الاعتقاد بأن للحضارة الإسلامية في جانبها المشرق شأنها شأن الكثير من ديانات الشرق (كاليهودية والهندوسية والجاينسية والبوذية) رسالة مهمة نقدمها للغرب في الطريق التي حافظت بها على نظرتها المتكاملة المتسقة لحرمة العالم المحيط بنا، ويمكن لنا نحن أبناء الغرب من أجل إعادة اكتشاف جذور فهمنا الخاص أن نلتمس العون على ذلك في تثمينِنا للاحترام العميق الذي يبديه التراث الإسلامي إزاء التكرار السرمدي للنظام الطبيعي».

وأظن أن عملية التثمين هذه يمكن أن تسهل مهمة التقريب بين معتقدينا. كما يمكن لها أن تسهل لنا نحن أبناء الغرب في إعادة النظر نحو الأحسن في المتابعة العملية للإنسان وبيئته كما نراها في ميادين مثل الرعاية الصحية، البيئة الطبيعية والزراعة إضافة إلى المعمار والتخطيط الحضري.

إن المادية المعاصرة تفتقر إلى التوازن، وأضرار عواقبها بعيدة الأمد في تزايد. مع ذلك فإن سائر الأديان الكبرى في العالم انطوت على نظرة متسقة على حرمة العالم. فرسالة المسيحية على سبيل المثال بمذهبها الروحاني والرمزي العميق القائل بالتجسيد، تجسَّد تقليدياً وحدة عالمي الروح والمادة، وبتجلي الخالق في هذا العالم وفي البشرية.

لكن القرون الثلاثة الأخيرة شهدت في العالم الغربي على أقل تقدير انقساماً خطيراً في طريقة رؤيتنا إلى العالم المحيط بنا. فقد حاول العلم بسط احتكاره بل حتى سطوته المستبدة على طريقة فهمنا للعلم وفصل الدين والعلم عن بعضهما، بحيث صرنا الآن كما قال الشاعر وردز ورث: «نرى إلا القليل من أمن الطبيعة التي نملكها» سعى العلم إلى الاستيلاء على عالم الطبيعة من الخالق: فجزأ الكون إلى فرق، وأقصى المقدس إلى زاوية نائية وثانوية من ملكة الفهم عندنا، وأبعده عن وجودنا العلمي اليومي.

والآن فحسب بدأنا نقدر العواقب المدمرة. ويبدو أننا نحن العالم الغربي قد فقدنا الحس بالكلية الجامعة لبيئتنا، وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء كامل الخليقة. وقادنا ذلك إلى فشل ممض في تقدير أو إدراك التراث وحكمة السلف، هذا التراث

المتراكم على مدار القرون. والحق أن ثمة تحاملاً شديداً على التراث. كما لو كان جذاماً اجتماعياً منفراً.

وثمة الآن بنظري حاجة إلى مقابلة كلية شاملة. لقد أدى لنا العلم خدمة جليلة في تبيانه لنا أن العالم أعقد بكثير مما كنا نتخيل تماماً. لكن العلم في شكله المادي الحديث الأحادي عاجز عن تفسير كل شيء. وإن الخالق ليس ذلك الرياضي الذي تخيله نيوتن، وليس الميكانيكي الساعاتي الأول. إن انفصال العلم والتكنولوجيا عن القيم والموازين الأخلاقية والمقدسة قد بلغ حداً مريعاً مفزعاً. وهذا ما نراه في التلاعب بالمورثات (الجينات)، أو في عواقب الغطرسة العلمية التي تتجلى في أبشع صورها في مرض جنون البقر. لقد كنت أستشعر دوماً أن التراث في حيواناتنا ليس من صنع الإنسان، بل وهبه الخالق لنا في إدراك إيقاع الطبيعة، والتناغم الجوهري الذي ينشأ عن وحدة أضداد متفارقة ماثلة في كل مظهر من مظاهر الطبيعة. إن التراث يعكس النظام السرمدي للكون، ويشدنا إلى مرسى الوعي بالأسرار العظيمة للكون الفسيح، بحيث إنَّنا كما قال الشاعر: «وليم بليك» نستطيع أن نرى كامل الكون في ذرة، ونرى الأبدية في لحظة.

لهذا أعتقد أن الكائن البشري شيء أكثر من مجرد ظاهرة بايلوجية، معتمداً على ما يبدو أنَّنا نعتبره الآن بمثابة «حصيلة» حساب الحياة التي يغدو فيها الفن كما تغدو الثقافة مجرد خيارات زائدة في الحياة.

إن هذه النظرة ناقضة تماماً، على سبيل المثال، لرؤية الفنان أو الصانع المسلم، الذي لا يعني بإظهار عمله بذاته لأجل ذاته، ولا لمجرد المضي قُدماً في براعته الخاصة، بل ينزع إلى تقديم إبداع الإنسان إلى الخالق. وتعكس هذه النظرة، في اعتقادي، الآية القرآنية التي لا يمكن أن تُنسى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 115).

وإذا قدِّر أن هذه البراءة الجوهرية قد تقوضت، وتقوضت في كل مكان، فإني معتقد مع ذلك أنَّ بقاء القيم المتمدنة، كما ورثناها عن أسلافنا، يعتمد بالمقابل على بقاء ذلك الإحساس بالمقدس والروحي عميقاً في أفئدتنا.

إن أديان التراث بنظرتها المتكاملة إلى الكون، يمكن أن تساعدنا على إعادة اكتشاف أهمية تكامل الجانبين الدنيوي والمقدس. وإن الخطر الناشئ عن إهمال هذا الجانب الأساسي من الوجود ليس مجرد خطر روحي أو فكري، بل يكمن في قلب تلك الهوة الواسعة التي تفصل العالم الإسلامي عن العالم الغربي بصدد المكانة التي تحتلها المادية في حياتنا. وحيثما يختار الإسلام رفض المادية الغربية، فإن هذه الحالات لا تنبع برأيي من تحبيذ سياسي، أو من حسد وشعور بالدونية. فالحال على العكس من ذلك تماماً. وإن خطر اتساع الهوة بين الإسلام وبقية أديان الشرق من جهة، والغرب من جهة أخرى، قائم تماماً، بل ومتزايد، ولن يسعنا ردم هذه الهوة إلا إذا رحنا نستقصي معاً الطرق العملية لتكامل المقدس والدنيوي في حضارتنا كلتيهما ابتغاء إعطاء الجيل المقبل الإلهام الصادق المرتجى.

إن الثقافة الإسلامية في شكلها التراثي جاهدت للحفاظ على هذه الرؤيا الروحية المتكاملة إلى العالم بطريقةٍ لم نجدها نحن خلال الأجيال السابقة في الغرب موائمة للتطبيق، وهناك الكثير مما يمكن لنا أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار.

هناك طرق شتى لبناء صرح الفهم والتقدير المتبادل. ولعلنا نستطيع على سبيل المثال أن نبدأ بزيادة عدد المعلمين المسلمين في المدارس البريطانية، أو بتشجيع تبادل المعلمين. فالناس في أرجاء المعمورة يريدون تعلم اللغة الإنجليزية. ولكننا نحن أبناء الغرب نحتاج إلى أن يعلمنا معلمون مسلمون كيف نتعلم بقلوبنا كما بعقولنا. وإن اقتراب الألف الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي يدفعنا إلى استكشاف هذه الصلات وتحفيزها وآمل ألا نفوت الفرصة السانحة لنا من ذلك لإعادة اكتشاف الجانب الروحي في رؤيتنا لوجودنا برمته.

15/ 12/ 1996م

الإسلام والعالم الغربي
الجزء الثاني

المحاضرة التي ألقاها أخيراً ولي العهد البريطاني الأمير تشارلز في جامعة أكسفورد أمام حشد من الحاضرين قدر بأكثر من خمسمائة نفر تركت صدى واسعاً في الأوساط الإسلامية والمسيحية، فقد أشاد بأفضال الإسلام على الإنسانية وانتقد في نفس الوقت تلاشي القيم المسيحية في بلاده، وتحامل الغرب على الإسلام، ولأهمية هذه المحاضرة وما أحدثته من ردود فعل ارتأت «الشرق الأوسط» أن تنشر نصها:

إننا في الغرب نحتاج أيضاً إلى أن نفهم الرؤية التي يحملها العالم الإسلامي عنا. إذ لا فائدة هناك بل على العكس هناك الكثير من الضرر إذا رفضنا أن نتفهم الخوف الإسلامي من مادية العالم الغربي والتراث الجماعي بأنه تحد للتراث الإسلامي ونوعية حياة المسلمين. بعضنا قد يعتقد أن المعدات المادية في المجتمع الغربي التي نقوم بتصديرها إلى العالم الإسلامي كالتلفزيون والوجبات الغذائية السريعة والمعدات الإلكترونية التي هي جزء من حياتنا اليومية، بأنها وسائل تحديث عصرية وتأثير في حد ذاتها، ولكننا سنكون ضحية الاستعلاء والاستكبار إذا نحن خلطنا بين التصرف العصري الحديث في بلاد أخرى واعتقادنا بأنهم أصبحوا مثلنا. والواقع أن هذه المادية الغربية قد تثير حفيظة المسلمين الطيبين المتدينين. ولا أعني هنا فقط المتطرفين منهم. إذ يجب علينا أن نفهم ردود الفعل هذه تماماً كرد فعل الغرب إزاء ظروف الحياة الإسلامية الأكثر حدة وشدة. إن هذا في اعتقادي سيساعدنا على تفهم خطر الأصولية الإسلامية، إذ يجب أن نكون حذرين عند استعمال كلمة «الأصولية» وأن نفرق، كما يفعل المسلمون بين مختلف الفرقاء الذين يمارسون منهاجهم الديني بكل خشوع وتعبد حقيقي وبين المتعصبين والمتطرفين الذين يتمسكون بالخشوع والمظهر الديني لأغراض سياسية، هناك إحساس قوي وشعور بالخيبة في القطاعات الإسلامية الدينية والاجتماعية والسياسية لإدراكهم أن التقنية الغربية والأشياء المادية الغربية لم تعد كافية وأنَّ العمق الحقيقي للحياة يوجد في مكان آخر ألا وهو في الجوهر الحقيقي للإسلام.

وفي نفس الوقت يجب ألا تنزلق أفكارنا بالاعتقاد بأن التطرف الحالي المعلم والجوهر في الدين الإسلامي هو وقفٌ على الإسلام فحسب، فهو موجود في صلب الأديان الأخرى ومنها الدين المسيحي.

والأغلبية العظمى من المسلمين مع أنها متدنية إلا أنهم يتبعون الاعتدال في حياتهم السياسية «فإن دينهم هو الطريق الوسط» والرسول صلى الله عليه وسلم كره التطرف وأبدى تخوفه منه، ولعل التخوف من اليقظة الإسلامية التي شاعت في الثمانينات بدأت الآن تشق طريقها في العالم الغربي لتفهم القوى الروحية التي تكمن وراء هذه الانطلاقة، ولكن إذا شئنا أن نتفهم هذه الحركة المهمة يتوجب علينا أن نفرق بكل وضوح بين ما تؤمن به الغالبية الكبرى من المسلمين وبين أعمال العنف الرهيبة التي تخوضها فئة قليلة والتي يجب على الشعوب المتحضرة في كل مكان أن تستنكرها.

سيداتي سادتي/ إذا كان الغرب يسيء فهم طبيعة الإسلام، فهناك ما زال جهل كبير حول ما تدين به حضارتنا وثقافتنا للإسلام، إنه نقصٌ نعانيه من دروس التاريخ الضيق الأفق الذي ورثناه، فالعالم الإسلامي في القرون الوسطى، من آسيا الوسطى إلى شاطئ الأطلسي كان يعج بالعلماء ورجال العلم.

ولكن بما أننا رأينا في الإسلام عدواً للغرب وكثقافة غربية بنظام حياتها ومجتمعها، فقد تجاهلنا تأثيره الكبير على تاريخنا، فلنأخذ مثلاً كيفية تقليلنا من أهمية 800 سنة من التراث الإسلامي في إسبانيا بين القرنين 8 و15 فلا مفر من الاعتراف بمساهمة إسبانيا الإسلامية في الحفاظ على الدراسات الكلاسيكية في العصور المظلمة والانطلاقات الأولية لعصر النهضة، ولكن إسبانيا المسلمة كانت أكثر من مخزن للحضارة الإغريقية التي التهمها العالم الغربي المعاصر. إذ لم تقتصر إسبانيا المسلمة على جمع وحفظ المحتوى الثقافي للمدنيَّتينِ الإغريقية والرومانية فحسب، ولكنها قامت بتفسيرهما والتوسع فيهما وأسهمت من ناحيتها في الجهد البشري في عدة قطاعات في العلوم والفلك والرياضيات والجبر (وهي كلمة عربية بحد ذاتها) والقانون والتاريخ والطب وعلم المستحضرات الطبية والبصريات والزراعة والهندسة المعمارية والدين والموسيقى. وكأمثالها في الشرق

مثل ابن سينا والرازي، فإن ابن رشد وابن زهر أسهما في دراسة الطب وممارسته بأساليب استفادت منها أوروبا لعدة قرون في ما بعد. لقد رعى الإسلام وحافظ على السعي وراء العلم والمعرفة.

وهناك قول مأثور جاء فيه «أن الحبر الذي يكتب به العالم لهو أكثر قداسة من دم الشهيد» ففي القرن العاشر كانت قرطبة أكثر مدن أوروبا حضارة. كانت هناك المكتبات في إسبانيا يستعير منها الناس الكتب في الوقت الذي كان فيه الملك يخبط خبط عشواء في فن الطهي في هذه البلاد، ويقال: إنَّ مكتبة والي قرطبة ضمت 400 ألف مجلد وكانتْ أكبر من مكتبات أوروبا كلها مجتمعة، وكان ذلك ممكناً لأن العالم الإسلامي عندئذٍ تمكن من نقل الكفاءات والقدرات الصينية في صنع الورق وسبقوا بذلك أوروبا غير المسلمة بمدة 400 سنة، وكثيرة هي السمات واللمسات التي تعتز بها أوروبا الحالية التي هي فعلاً مقتبسة من إسبانيا المسلمة، الدبلوماسية والتجارة الحرة والحدود المفتوحة والبحوث الأكاديمية في علم أصل الإنسان والأتكيت والأزياء والأدوية البديلة والمستشفيات فكل هذه وصلتنا من هذه المدنية العظيمة. وكان الإسلام في القرون الوسطى معروفاً بالحلم والتسامح عندما كان يسمح لليهود والمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية، واضعاً بذلك مثالاً لم يتعلمه الغرب لسوء الحظ لعدة قرون. أما الأمر العجب سيداتي وسادتي، فهو وجود الإسلام في أوروبا كجزء منها منذ أمد طويل، أولاً في إسبانيا ثم في البلقان، وكذلك مساهمته في حضارتنا التي كثيراً ما نعتقد خطأً أنها حضارة غربية كلياً. إن الإسلام جزء من ماضينا ومن حاضرنا في جميع ميادين الجهد البشري. لقد ساعد الإسلام على تكوين أوروبا المعاصرة فهو جزء من تراثنا وليس شيئاً مستقلاً بعيداً عنا.

وأكثر من هذا، فالإسلام يستطيع أن يعلِّمَنا اليوم كيف نفهم وكيف نعيش في عالمنا المسيحي الذي يفتقر إلى المسيحية التي فقدها. فالإسلام في جوهره يحتفظ بنظرة مدمجة للكون وهو كالبوذية والهندوسية يرفض أن يفصِل بين الإنسان والطبيعة أو بين الدين والعلم أو بين العقل والمادة، كما حافظ على وجهة نظر ميتافيزيقية موحدة للإنسان وللعالم الذي يحيط بنا. وفي جوهر المسيحية ما زال هناك نظرة مدمجة لقداسة العالم وشعور صاف

بالمسؤولية والأمانة التي أوكلت إلينا الحفاظ على الطبيعة التي تحيط بنا، وكما قال الشاعر المبدع «جورج هرم برت» في القرن السابع عشر:

عندما يحدق الرجل في امرأة فقد تستقر عليها عيناه

أما إذا شاء أن يمر عبرها فإنه عندئذ يلمح السماوات

ولكن الغرب بدأ يفقد رؤياه تدريجياً بقدوم العلماء أمثال: كوبرنيكوس وديكارت وانطلاقة الثورة العلمية. ولم تعد الفلسفة الشمولية للطبيعة جزءاً من اعتقاداتنا اليومية ولو استطعنا أن نكتشف مرة ثانية الأسلوب المعيشي السابق الشامل للعالم المحيط بنا وأن نشاهد ونلمس ونفهم معناها الحقيقي، لبدأنا في العالم الغربي نبتعد عن الاعتماد على العيش على القشور السطحية لما يحيط بنا ونبدأ بدراسة عالمنا لتطويعه والسيطرة عليه وإعادة التناغم والانسجام والجمال إلى حياتنا. إني أعتقد أنه من المؤسف أن العالم الخارجي الذي أوجدناه في مئات السنوات الأخيرة أصبح يعكس الانقسام الذي نعيش فيه في داخل بلادنا. فقد ازداد تمسك الحضارة الغربية بالتملك والاستغلال المادي متحدية بذلك الالتزامات المفروضة علينا تجاه البيئة التي نعيش فيها. ونستطيع أن نتعلم من الإسلام الشعور بأهمية الخصائص الروحية لهذا العالم الذي يحيط بنا، وأنا متأكد أن هناك من سيتهمني بأني أعيش بالماضي، كما يتهمونني دائماً بأني أرفض أن أتقبل ظروف وحقائق الحياة المعاصرة. ولكن على عكس هذا سيداتي سادتي ـ فإني أطالب بتفهم أعمق وأكثر شمولية لعالمنا، وأن نوجد بعداً ميتافيزيقياً ومادياً لحياتنا لنعيد عملية الاتزان التي فقدناها والتي أعتقد أن انعدامها سيكون مصيبة كبرى على المدى البعيد. فإذا كانت أساليب الفكر والتفكير الموجودة في الإسلام وفي غيره من الأديان تستطيع أن تساعدنا في هذا المسعى، عندئذٍ تكون هذه الأشياء هي التي يجب أن نتعلمها والتي أعتقد أن تجاهلنا إياها سيكون وبالاً علينا. إننا نعيش اليوم في عالم واحد، مشكلة الاتصالات السريعة والتلفون وتبادل المعلومات بصورة لم يحلم بها أجدادنا فالاقتصاد العالمي يعمل ككيان متبادل الاعتماد. إن مشاكل المجتمع ونوعية الحياة والبيئة هي حالات دولية بأسبابها وتأثيرها ولا يملك أحد منا القدرة على حلها بنفسه. فالعالم الإسلامي والغربي شركاء في

مشاكل مشتركة تواجهنا مثلاً: كيف نتكيف مع التغيرات في مجتمعاتنا وكيف نساعد الجيل الناشئ على مواجهة مستقبله بعد أن أصبح منعزلاً عن عائلته وقيم المجتمع الذي يعيشون فيه وكيف نواجه متطلبات مرض الإيدز والمخدرات والتفكك العائلي. وطبيعي أن تختلف هذه المشاكل في طبيعتها وحجمها من مجتمع لآخر.

إن مشاكل الأحياء الداخلية في مدننا لا تشبه مثيلاتها مثلاً في دمشق أو القاهرة. إن الشبه كبير في ما تختبره البشرية في هذه الميادين. فالتجارة العالمية في المخدرات هي مثال واحد على ما نواجه كما أننا شركاء في معاملتنا واهتمامنا بالبيئة التي نعيش فيها وهذا ما يفرض علينا أن نوحد جهودنا لحل هذه التهديدات الموجهة إلى مجتمعاتنا وإلى حياتنا معاً. إن تعرفنا واتصالنا ببعضنا البعض سيؤدي إلى منجزات مثمرة. وأذكر على سبيل المثال عندما اصطحبت جماعة من المسلمين وغير المسلمين قبل بضع سنوات لمشاهدة ما يقوم به المركز الصحي في حي ماريلبورن إذ إنّي أحد أبنائِهِ الفخريين، كان حماسهم لما شاهدوه والخبرة التي اكتسبوها مثار الإعجاب.

سيداتي سادتي/ يجب علينا بأي حال من الأحوال أن نتعلم كيف نفهم بعضنا البعض وأن نقوم بتدريس أطفالنا من الجيل الجديد والذين يختلفون عنا باتجاهاتهم ورؤياهم الثقافية. وأن نقوم بتدريسهم بأسلوب يتفهمون به متطلبات الحياة. يجب أن نثبت أننا نسعى وراء الاحترام المتبادل والتسامح إذا أردنا أن نوجد مسرحاً مشتركاً بيننا وأن نعمل سوياً للتوصل إلى الحلول المرجوة. إن المشروع الذي أشرف عليه في الأعمال التطوعية منذ عدة سنوات يؤكد الإنجازات الممكنة بالجهود المشتركة التي تتجاوز الطبقات والثقافات والأديان. لم يعد باستطاعة العالمين الإسلامي والغربي البقاء بعيدين عن بعضهما البعض وعدم الاشتراك في جهد مشترك لحل مشاكلهما المشتركة، إننا لا نستطيع العودة إلى الخلافات والتحديات الإقليمية والسياسية الماضية. يجب أن نساهم معاً في خبراتنا وأن نشرح أمور كل منا للآخر لنتفهم ونتسامح ونتحمل معاً وأن نبني على هذه المبادئ الإيجابية والتي هي عامل مشترك بين ثقافتينا، فالتجارة يجب أن تكون متبادلة. يجب أن يفهم كل منا أهمية المصالحة والتدبر في فتح عقولنا وقلوبنا كل منا للآخر.

إني مقتنع تمام الاقتناع أن العالمين الإسلامي والغربي يستطيعان أن يتعلما الكثير كل من الآخر. وكما هو الحال فإننا نجد مهندس نفط أوروبياً يعمل في الخليج كذلك نجد أن جراح عمليات القلب في بريطانيا هو جراح مصري. إذا كانت الحاجة إلى التسامح والتبادل هي حقاً رغبة عالمية، فيجب أن نقوم عندئذٍ بتنفيذها بقوة خاصة في بريطانيا نفسها. فقد أصبحت بريطانيا اليوم مجتمعاً متعدد الأجناس والثقافات. لقد ذكرت عدد المسلمين الذين يقيمون في بريطانيا في المدن الكبيرة مثل (براد فورد) أو في مجتمعات صغيرة نائية مثل مدينة «ستورن أوي» في غرب اسكتلندا. وهؤلاء يا سيداتي وسادتي يشكلون رصيداً لبريطانيا فهم يسهمون في جميع نشاطاتنا الاقتصادية. في الصناعة والخدمات العامة والمهنية وفي القطاع الخاص فمنهم المدرسون والأطباء والمهندسون والعلماء. وهم يسهمون أيضاً في ازدهار اقتصادنا ويضيفون الكثير إلى ثروتنا التراثية كأمة وكشعب، ومن الطبيعي أن التسامح والتحمل والتفهم يجب أن يكون باتجاهين وهذا يعني لنا نحن غير المسلمين بأن نحترم المشاعر الإسلامية اليومية ونتفادى أي عمل قد يثير الاستياء، وأقول للمسلمين في مجتمعنا بأن الحاجة تستدعي منهم احترام تاريخ وثقافة بلدنا وطريقتنا المعيشية وأن يشعروا بأهمية وتقدير الاندماج في مجتمعنا. وحيثما يوجد قصور وإخفاق في التفاهم والتسامح فإننا نحتاج إلى قدر أكبر من المصالحة بين مواطني هذا البلد.

إني أرجو أن نتعلم كلنا ونتعاون على تثبيت هذه الاتجاهات كلما ازداد التفاهم بين الجنسيات المختلفة، إني أعجب وأحيي الرجال والسيدات ذوي الجنسيات المختلفة في لندن وجنوب ويلز والمناطق الوسطى من بريطانيا الذين يعملون بكل جهد لتقوية الروابط الحسنة بين مختلف الجماعات والمثال الناجح على ذلك هو مركز الدراسات (الإسلامية ـ المسيحية) في برمنجهام ويجب أن نبدي امتناننا وشكرنا للإخلاص والمثالية للذين يتفرغون لدعم التفاهم بين الجنسيات والجماعات المختلفة.

سيداتي سادتي: إذا كنتم شاخصين بعيونكم في نصف الساعة الأخيرة نحو تمثال الصدق المنحدر على الفنون والعلوم في سقف (سير روبرت ستريتر) فوق رؤوسكم،

تلاحظون أن الجهل قد اختفى كلياً من الساحة، هناك أمام غلاف «الأورجن» إنِّي أشعر بالأسى على الجهل، وأرجو أن أغادر هذه القاعة وأنا في حال أحسن. وقبل أن أذهب أود أن أشدد على أهمية القضايا التي حاولت بجهدي المتواضع أن أناقشها. إن هذين العالمين الإسلامي والعربي هما على مفترق من الطرق من حيث علاقتهما ببعضهما. ويجب ألا نسمح لهما بالبقاء بعيدين عن بعض. ولا أقبل الجدل القائل بأنهما على وشك الاصطدام في عهد جديد من العداء إني مقتنع تماماً بأن عالمينا يستطيعان العطاء ومنح الكثير كل للآخر. هناك الكثير مما نستطيع أن نقوم بتنفيذه معاً. وإنَّه ليسرني بأن أعلم أن الحوار قد بدأ في بريطانيا وغيرها، ولكننا ما زلنا نحتاج إلى بذل جهد أكبر لتفهم كل منا الآخر وأن نتخلص من سموم التفرقة ومن أشباح الخوف والتشكك، وكلما طال مشوارنا في هذا الطريق فإننا نكون قد خلقنا عالماً أفضل لأطفالنا وللأجيال المقبلة.

1993م

الولايات المتحدة استعملت هينتغتون صندوق بريد لإيصال أفكارها للآخرين والأمير تشارلز فهم الرسالة

صحيفة الشرق الأوسط الدولية

الصراع بين الحضارات ليس في الحقيقة سوى صراع بين الولايات المتحدة التي تريد أن تقود العالم تحت مظلة النظام العالمي الجديد، وأوربا التي تريد أن يكون لها مقعد في غرفة قيادة هذا العالم.

هذا ما يتضمنه هذا المقال للمحامي السوري الدكتور منير الشواف الذي يعتقد أن كل أوروبا تجندت للدفاع عن نفسها، وليس أدل من ذلك من تحرك الأمير تشارلز ولي عهد بريطانيا.

منذ سقوط جدار برلين وتفكك ما عرف بحلف وارسو، الذي على أثره أطلقت الحريات لشعوب هذه الدول، زالت على أثر ذلك الماركسية، وما عرف بالاتحاد السوفييتي أصبح من التاريخ، حيث دخل العالم في مرحلة عدم التوازن، منذئذٍ والجميع ينظر إلى ولادة نظام عالمي جديد اسمه (النظام العالمي بعد سقوط جدار برلين). هذا النظام الذي لم يتشكل حتى الآن، حيث انتهى نظام ما بعد الحرب العالمية الثانية، وانتهت الحرب الباردة والعالم ما زال ينتظر هذا المولود، ولكن ما هو الثمن الذي سيدفع من دماء واقتصاد وحياة الشعوب حتى تتم هذه الولادة؟ لا أحد يدري، وإن كانت الإرهاصات قد بدأت مع سقوط جدار برلين.

بعد سقوط جدار برلين ما زال المفكرون والمنظرون والكتاب الصحفيون يتناولون هذا الموضوع ويبحثون أثره على النظام العالمي وعلى الموقف الدولي، ولم أجد ما يساعد على فهم هذا الحدث ويرتفع إلى مستوى النظر مما كتب ونشر بهذا الخصوص سوى مقالة الأمريكي صموئيل هينتغتون (صدام الحضارات) ومحاضرتين لولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز (وفاق الحضارات).

هينتغتون وصدام الحضارات

إن ما ذكره هينتغتون في مقاله وأصبح كتاباً بعد ذلك عن حتمية صدام الحضارات، ليس بالشيء الجديد، بل هي فكرة قديمة قدم الشعوب والحضارات. ولقد

ذكرتها كافة الكتب المقدسة (القرآن والتوراة والإنجيل)، وأصرت عليها الفلسفة اليونانية والرومانية والماركسية، وعرَّض بها مفكرون من الدرجة الأولى والسياحية سواءً أكانوا غربيين أم شرقيين، إسلاميين، يهوداً أم نصارى. فلماذا هذه الأهمية لكلمات في مقالة بسيطة ذكرها الأمريكي هينتغتون، ولماذا رحبت بها أجهزة الإعلام الأمريكية بالذات وبشكل منقطع النظير، وأصبح كاتبها رجلاً مشهوراً، وكأنه أتى بما لم تأت به الأوائل؟ علماً أن فكرته يعرفها في بلادنا كل من قرأ منهاج المرحلة الابتدائية، ولا أقول المرحلة الإعدادية أو الثانوية.

إن هينتغتون الأمريكي ليس إنساناً عادياً، فهو متخصص في الإدارة العامة ومدير معهد (جون أولين) للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد ولقد كان خبيراً من خبراء مجلس الأمن القومي الأمريكي عامي 1977 ـ 1978م. ومعروفاً بصلاته الوثيقة لدى صناع القرار السياسي الدولي الإستراتيجي في الولايات المتحدة الأمريكية. وإن طرحه هذه الفكرة عام 1993م ليس عبثاً أو رداً على كتاب (نهاية التاريخ) للأمريكي الياباني الأصل «فوكوياما» كما يتصور البعض. بل هي فكرة متبناة من قبل صناع القرار في الولايات المتحدة، أصحاب الفعاليات الاقتصادية، الحكام الحقيقيين سواءً ظهروا بالمظهر الجمهوري أو الديمقراطي، فهما وجهان لعملة واحدة. وقد سبق هينتغتون، بريجنسكي (المستشار الأسبق للرئيس الأمريكي كارتر)، فكتب بهذا الخصوص عن أهمية الهلال الإسلامي من جاكرتا وبنغلادش حتى تركيا. وصدام هذا الهلال الذي أسماه الهلال الأحمر مع العالم الغربي. كتب ذلك بريجنسكي قبل سنوات من هينتغتون، إذن لماذا هذه الأهمية الآن لما كتبه هينتغتون؟ لقد بدأ مسلسل الأحداث منذ ولاية «ريغان» مع سياسة ما سمي بحرب النجوم، وكانت سياسة الولايات المتحدة قائمة على أساس إنهاء الماركسية كفكر في الاتحاد السوفييتي، وليس تفكيك الاتحاد وإضعافه، لأن اتحاداً سوفييتياً رأسمالياً قوياً هو هدف السياسة الأمريكية في عهد ريغان، ليبقى الاتحاد السوفييتي قوياً وضاغطاً على أوروبا الغربية وكاتماً على أنفاسها حتى تبقى تحت مظلة الولايات المتحدة أمنياً. ولكن سارت الريح بما لا تشتهي السفن كما يقولون، واستطاعت أوربا الغربية وفي عهد

الرئيس بوش، بقيادة بريطانيا وفرنسا واطِّلاعِ ألمانيا وبمساعدة كل أوربا تفكيك الاتحاد السوفييتي وإيصاله إلى حالة الانهيار الدستوري. ولم تكتف بالقضاء على الماركسية فقط، بل تخلصت من هذا العملاق الذي كان يتمتع بأقوى قوة عسكرية قادرة على اجتياح أوروبا الغربية بالكامل في أيام. تحت هذه الظروف كشَّرت أوربا الغربية علناً عن أنيابها وأظهرت أحقادها تجاه الولايات المتحدة للمرة الأولى بعد الحرب العالمية الثانية ليكون لها كيان قادر على تحجيم وضع الولايات المتحدة في العالم. حيث أصبحت أوربا تشارك الولايات المتحدة في صنع القرار العالمي قسراً، كما ظهرت في حرب الخليج. ولهذا أسقط الرأسماليون في الولايات المتحدة الرئيس بوش عن جدارة لفشله في منع الاتحاد السوفييتي من التفكك والضعف، ولفشله في منع أوربا من الظهور كقوة مؤثرة في العالم بقيادة بريطانيا وفرنسا وألمانيا. لذلك كان لابد من تحرك الولايات المتحدة ضد الهجوم الأوربي الكاسح على سياستها في العالم، ورفضت أمريكا المشاركة في القرار العالمي برضاها، وفتحت نار جهنم جديدة على أوربا في يوغسلافيا السابقة ودعمت الكروات والمسلمين، كما هو معروف لإشعال هذه الحريقة التي لا تنطفيء في خاصرة أوربا الغربية. وبالمقابل تهدد الولايات المتحدة بتوسيع الحرائق إلى قبرص وكوسوفو ومقدونيا ورومانيا وألبانيا. ومن ثم اليونان وتركيا أربكان على الباب. في هذا الوقت بالذات وأثناء حرب البلقان في البوسنة والهرسك، خرجت مقالة هينتغتون عام 1993م، وأخذت أمريكا تعمل بطرق خفية وملتوية على إبراز حركات الإسلام بقصد تهديد أوربا بالحركات الدينية في العالم الإسلامي الذي يحد أوربا الغربية عن طريق الجمهوريات السوفييتية الإسلامية مكملة هلال بريجنسكي من أفغانستان والباكستان وإيران، وصولاً إلى تركيا وقلب منطقة البلقان.

ومن يتتبع الصحافة اليومية فقط يستطيع أن يدرك ذلك ببساطة. وباختصار أقول إن مقالة هينتغتون هي عصا غليظة تلوح بها أمريكا ضد السياسات العامة لأوروبا الغربية، فإما أن تكف أوروبا الغربية عن العقوق وتهديد مصالح الولايات المتحدة في العالم، وإلا فالمسلمون قادمون باتجاه الشمال، وإن العملاق الإسلامي المحصور في قوقعة

سيخرج باتجاه تهديد مصالح أوروبا، وفي ذلك مصلحة للولايات المتحدة حيث تجعل أوروبا الغربية تنفق أموالها السائلة التي جمعتها أيام الحرب الباردة بفضل الغطاء الأمريكي العسكري الذي أجهد الاقتصاد الأمريكي وأراح الاقتصاد الأوروبي الذي عاش هذه الفترة على حساب جهود الولايات المتحدة التي أصبحت عملاقاً عسكرياً ضخماً بقاعدة اقتصادية مفلسة وبديون زادت عن 4 ترليون دولار أمريكي.

لهذا فالولايات المتحدة استخدمت هينتغتون كصندوق بريد لإيصال أفكارها إلى الشعوب الأوروبية، فإما بقاء الولايات المتحدة على رأس العالم، وإما حروب بين الشمال والجنوب تعيد الصحة والعافية للاقتصاد الأمريكي، وتعيد تنظيم العالم من جديد بقواعد وأسس وخرائط جديدة تعيد هيكلة العالم. ولقد عبر عن ذلك بوضوح الفيلسوف الفرنسي أندريه غلوكمان، في قاعة (الميتياليتية) في الحي اللاتيني بباريس بقوله: «إن ما يجري في الجزائر هو معركة ستكون لها انعكاسات على مستوى الكرة الأرضية».

الأمير تشارلز «تفاهم الحضارات»

إن الأفكار التي طرحها تشارلز في محاضرتيه واضحة جداً، وهي رد على سياسة الولايات المتحدة التي تستهدف أوروبا الغربية عن طريق التلويح بصدام الحضارات بين العالم الإسلامي والعالم الغربي (أوروبا). وللعلم أنَّ جزءاً من لقب ملك بريطانيا هو (حامي الكنيسة الإنجليكانية)، وهو لا يتكلم بالسياسة إلا إذا تعرضت البلاد للخطر المحدق، أو إذا كان كيانها مهدداً داخلياً وخارجياً. إن مختصر أفكار تشارلز هي رغبته باسم الكنيسة والتجار وصناع القرار الحقيقيين والمثقفين والشعوب المسيحية أن يعيش العالم الإسلامي والمسيحي بسلام وأمان، حتى إنَّه طلب من العالم الإسلامي إرسال مدرسين إلى بريطانيا لتعليم شعوبها القيم الإسلامية الرفيعة، وهي القيم الروحية التي تكون دعامة من دعامات المجتمعات الراقية، لأنه بمنظور تشارلز لا يؤدي التقدم التقني والعمراني إلى الاستقرار الروحي، حيث تحدثت الصحف البريطانية أن الأمير تشارلز اقترح على السلطات المختصة بناء 200 مسجد للمسلمين في بريطانيا. وإني لا أريد هنا أن أستعرض كل أفكار تشارلز التي وردت بمحاضرتيه لأن من يقرأ الصحف أدركها إنما

أريد أن أؤكد أن ولي عهد بريطانيا باسم صاحبة الجلالة وباسم الشعب البريطاني والشعوب الأوروبية يرد على الولايات المتحدة بأنه قد فهم واستوعب خطورة أفكار الولايات المتحدة ضد أوروبا الغربية ولعبها بالنار عن طريق استعداء العالم الإسلامي ضدها. وإن تشارلز يطرح أفكار التسامح والعودة إلى الأديان ذات الأصول الواحدة من أجل تبادل القيم والمنافع حتى يعيش العالمان بأمان وسلام، وإن تشارلز يستعمل سياسة الإسفنجة التي تمتص الصدمة، فهو يريد أن ينزع الصاعق الذي تهدد به الولايات المتحدة وأن يفهم العالم الإسلامي أن هناك مصالح بين الحضارتين وأنه لا ضرورة لحتمية سياسة الولايات المتحدة في الاصطدام والصراع وإنه لن يستفيد أحد منها إلا الولايات المتحدة، وأن المتضرر سيكون العالمين الإسلامي والمسيحي، وأنَّ القيم الروحية الموجودة في الديانتين الإسلامية والمسيحية كفيلة بإيجاد التفاهم المشترك بينهما. وبناءً على ذلك بدأت أوروبا في طرح أفكار الشرق أوسطية والتعاون بين الشمال والجنوب والمصالح المشتركة وميثاق الأمن العربي الذي طرحه وزير الخارجية البريطاني، وهلع فرنسا وأسبانيا والبرتغال واليونان يؤكد ذلك. حيث دعوا إلى تشكيل قوات مشتركة للتدخل السريع في منطقة البحر الأبيض المتوسط خارج حلف الأطلسي الذي تتزعم قيادته العسكرية الولايات المتحدة. ويؤكد ذلك نزاع أوروبا بقيادة فرنسا مع الولايات المتحدة حول قيادة حلف الأطلسي ورفضها للقيادة الأمريكية.

إنها وجهة نظر تحتمل الصواب والخطأ والواقع والتصور، ولكن الوقائع والأحداث تؤكد الصراع الأمريكي الأوروبي في العالم من أجل تنظيم جديد، ولو أن هناك خلافاً حول تفسير هذه الأحداث وفهمها فهماً دقيقاً. وأما النتائج فهي احتمالات قد تحدث أو تتغير المعطيات فتتغير النتائج.

1993م

كلينتون الجمهوري وطوني بلير المحافظ

صحيفة المستقلة

إذا انطلقنا من حقيقة يسلم بها كل مطلع على سياسة الديمقراطيات الغربية بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، هذه الحقيقة هي إن الذي يحكم هذه الديمقراطيات هم أهل الفعاليات الاقتصادية أي مؤسسات المال والاستثمار بما فيها البورصة والمصارف والصناعات الثقيلة من عسكرية ومدنية وشركات البترول الضخمة، وكل فروع الاقتصاد الأخرى رجع لهذه المؤسسات ولا يهم أهل هذه الفعاليات إن كان الحاكم جمهورياً أو ديمقراطياً، محافظاً أو عمالياً، المهم أن يؤدي الحاكم بأجهزته المختلفة الدور المطلوب منه على الصعيد الداخلي والخارجي، هذا الدور الذي يحقق مصالح الهيئات المالية التي بدورها تخدم مصالح المواطن العادي، وتستطيع هذه المؤسسات أن تبرمج الناخب ليختار بإرادته ما اختاره له أهل الفعاليات الاقتصادية، إنها ديمقراطية ذكية تسيطر على شعوبها عقلياً ونفسياً لاختيار ما اختارته لها، إذن لا حاجة لديكتاتورية البروليتاريا التاريخية الهمجية طالما أن الديمقراطية الغربية قادرة على تسيير الشعوب (بالروموت كنترول) من خلال أجهزة التنويم المغناطيسي، التي تصنع لها الأفكار وتملي عليها السلوك من خلال الحريات الموجهة بسيطرة أهل الفعاليات الاقتصادية.

من هذه الحقيقة والمسلمة السياسية نعرف لماذا أسقط الجمهوريون الرئيس بوش وأتي بالرئيس كلينتون، ولماذا أسقط المحافظون جون ميجر المحافظ وأتي بالسيد طوني بلير العمالي.

الجمهوريون هم الحكام الفعليّون للولايات المتحدة:

إن الجمهوريّين هم الذين أسسوا كيان الولايات المتحدة العظيم، وهم الذين اخترعوا الحزب الديمقراطي من أجل اللعبة الديمقراطية الغربية، وفي كل وقت يزمع أهل الفعاليات الاقتصادية الحكام الحقيقيون على اتخاذ قرارات جوهرية وجريئة تحتاج إلى دعم كل الأمريكيين محافظين وليبراليّين يفسحون المجال لما يسمى بالحزب الديمقراطي ليقود البلاد، وبذلك تقف الأمة بمجملها خلف الرئيس في قراراته الخطيرة، وهذا ما

حدث كثيراً في تاريخ الولايات المتحدة السياسي فمثلاً دعم الجمهوريون وصول روزفلت وترومان من أجل ظروف الحرب العالمية الثانية المتوقعة، لتقاد البلاد باسم الديمقراطيين حتى يقدم الشعب الأمريكي بمجمله على القتال خارج الأمريكيتين متوهماً أنه يقاتل من أجل الحريات وليس من أجل مخططات ومصالح أهل الفعاليات الاقتصادية.

المحافظون هم الحكام الفعليّون لبريطانيا:

لا يخرج عن هذا السياق ما جرى في المملكة المتحدة في الأيام السابقة، حيث سقط جون ميجر زعيم المحافظين وفاز طوني بلير زعيم العمال، وإن ما حصل كان يجب أن يحصل، فالمحافظون هم من أسس حزب العمال بداية القرن العشرين عندما استشرى خطر الطبقة العاملة، من أجل استيعابها عن طريق النقابات لاستكمال اللعبة الديموقراطية كما هو الحال في أمريكا، حيث إنّ أهل الفعاليات الاقتصادية في بريطانيا سواءً أكانوا محسوبين على المحافظين أم العمال يهمهم صالح بريطانيا كما يتصوّرونَها والتي هي رجع لمصالحهم وهؤلاء هم الذين يسيطرون على القرار السياسي في بريطانيا سواء الذي يحكم في (10 داونينغ ستريت) محافظ أم عمالي وبعد حكم ثمانية عشرة سنة باسم المحافظين آن الأوان وحان الظرف السياسي لإفساح المجال للعمال، ليحكموا البلاد ويحلوا بعض المشاكل التي لا يستطيع المحافظون حلها لأنهم بنوا سياستهم على خلافها، وعندما قرر المحافظون ذلك أعادوا تثقيف حزب العمال وغيروا منهاجه وأعطوه وجه حزب العمال الجديد كما قال السيد طوني بلير: وهو لا يمت بصلة إلى المبادئ التي قام عليها حزب العمال عند تأسيسه. أهم هذه المشكلات على الصعيد الخارجي إعطاء بريطانيا دور أكبر في الاتحاد الأوربي وفي العالم، وحل مشكلات النظام الأساسي لبرلمانات أسكتلندا وويلز وإيرلندا لتكون بريطانيا بأرضية داخلية قوية استعداداً لتكريس موقفها الدولي الخارجي. حيث تتطلع بريطانيا لتكون أحد الشركاء الأساسيين في النظام العالمي الجديد عن طريق نفوذها في الاتحاد الأوربي من جهة وعلاقاتها المتميزة مع الولايات المتحدة من جهة أخرى ونفوذها القديم في دول الكومنولث.

من أجل ذلك وقفت كافة المؤسسات البريطانية المحسوبة على المحافظين مع السيد طوني بلير وحزب (العمال الجديد) الذي وافق على أن يمثل مصالح الشركات الاستثمارية الكبرى في المملكة المتحدة، لهذا وقفت المؤسسات النقابية المحسوبة على المحافظين مع حزب العمال، وكذلك الصحف المؤيدة للمحافظين سوقت لحزب العمال علناً مثل (الجارديان، صن، الأوبزرفر، نيوز أوف ذي وورلد، الأندبيندت، فايننشال تايمز، الصاندي تايمز) كما وقفت سوق المال والاستثمارات والبورصة والمصارف مع العمال أيضاً، وبذلك انضم لهم شارع المال الذي يملك القرار الحقيقي عن طريق غرف التجارة والصناعة في بريطانيا التي يترأسها نائب السيد جون ميجر السيد مايكل هالزتاين، حيث إنّ اختلاف حزب المحافظين تجاه الوحدة الأوروبية هو العامل الأساسي الذي جعل أمثال مايكل هالزتاين يؤيّدون سراً وصول حزب العمال الجديد المحافظ إلى السلطة بعد أن وافق على ارتداء (قبعة) محافظة بدل القبعة العمالية، ولهذا قام السيد طوني بلير مع معاونيه الرئيسين بارتداء ربطة عنق زرقاء أثناء الحملة الانتخابية علماً أنها عرفاً كانت شعاراً للمحافظين، وفوق كل ذلك أيدت الكنيسة الإنجليكانية البريطانية العمال وحملت على الرأسماليين الأشرار وطالبت بالخلاص منهم، وتصويت الكاثوليك مضمون لصالح العمال الجديد، وكذلك الاسكتلنديون باعتبارهم يمسكون بوزارات ظل هامة، وزاد على ذلك أن اختراع المحافظين حزباً جديداً بقيادة السيد جيمس غولد سميث أسموه حزب الاستفتاء لينافس القيادات المحافظة مثلما صنع الجمهوريون بالسيد (روس بيرو) ليترشح ضد الجمهوري بوش لإلغاء أي إمكانية لنجاحه، وكما رشح الديمقراطيون اليهودي ليبرمان نائباً لمرشحهم الرئاسي آل غور لإسقاطه وإنجاح بوش الثاني. إذن كيف للمحافظين أن يفوزوا في هذه الانتخابات وقياداتهم الأساسية المالكة للقرار هي التي عملت على نجاح العمال الجدد من أجل حل مشاكل بريطانيا المستعصية، ومن أجل الحصول على مقعد للمملكة المتحدة في سياسة العالم، فلا يهم أن يكون الحكم محافظاً أو عمالياً طالما أنه يتقيد برغبات الأسواق المالية المسيطرة على كل مصادر الحياة في الديمقراطيات الغربية.

إن ما حصل ليس بالأمر الخارق للعادة، فلقد حصل ما هو أهم منه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في بريطانيا، فقد فاز (كلينت أتلي) العمالي عام 1945م على تشرشل المحافظ الذي قاد بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، لأن المحافظين وجدوا أن التخلي للعمال في تلك الفترة ضرورة سياسية من أجل علاقات أفضل مع الولايات المتحدة التي كانت العامل الأساسي في كسب الحرب العالمية الثانية، بينما تشرشل في عناده وعنجهيته غير قادر على مسايرة الأمريكان الذين يعتبرهم أطفالاً في السياسة والقيادة فلا يستطيع تحمل سيطرتهم.

هذا هو الدهاء البريطاني الذي يلبس لكل عهد لبوسه ويأتي بالعمال عندما تكون لبريطانيا مصلحة في حكمهم بعد أن يهجنهم ويدجنهم ويثقفهم ثقافة تناسب المرحلة التي تخدم بريطانيا ومصالحها في العالم التي من خلالها وصلت شركة الهند الشرقية إلى أقاصي العالم ومن خلالها الآن يرى المحافظون أن بريطانيا بقيادة (طوني بلير) العمالي ظاهراً المحافظ واقعاً ربما تأخذ مقعداً لها مؤثراً في النظام العالمي الجديد.

5/ 5/ 1997م

لماذا يتهم مارتن أنديك الآن؟
وهل ليبرمان يسقط آل غور؟

دأبت الأوساط السياسية العربية الرسمية وغير الرسمية على تكرار مقولة شائعة ولكنها ليست دقيقة، وهي أن اليهود يسيطرون على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية وهم أصحاب القرار السياسي فيها، هذه المقولة أصابت السياسة العربية والشارع العربي بإحباط كبير، كان من جرّائه تسلط مفهوم شائع وخاطئ، هو من يحارب إسرائيل إنما يحارب الولايات المتحدة الأمريكية.

إن الولايات المتحدة الأمريكية دولة عظمى لها مصالح دولية في أصقاع العالم، هذه الدولة محكومة بموجب معادلات معقدة ومصالح متشابكة بين أهل الفعاليات الاقتصادية، من شركات النفط والصناعات الثقيلة والعسكرية وأصحاب المصارف وشركات التأمين وحتى الصناعات الاستهلاكية، هذه (اللوبيات) تؤثر على الهيئات النقابية في البلاد، وترتبط بها الجمعيات الكنسية على مختلف مذاهبها.

وتخدم هذه المؤسسات جميعها (الميديا) المؤسسات الإعلامية مقروءة أو مسموعة أو منظومة، والذي يدفع أكثر يتلقى خدمات أفضل، حيث لا قيمة للمبادئ والقناعات في العالم الغربي، والعبرة للمنفعة فقط، وهذه الفكرة كرست في العالم الغربي منذ عهد (آدم سميث) الذي يسمونه أبو المذهب الحر، حيث دُمرت القيم والمبادئ على يد هذا الإنسان المفكر، الذي حول الإنسان إلى سلعة مثله مثل أدوات الإنتاج حيث الذي يقرر العرض والطلب هو المنفعة الموجودة بالسلعة، ولذلك الإنسان حكمه حكم السلعة.

إن النظام الرأسمالي المتحكم في العلاقات المحلية أو الدولية في الولايات المتحدة والعالم الغربي قاطبة، هو نظام لا يعطي قيمة للمشاعر والعواطف والأحاسيس، ومن باب أولى أن لا يعطي قيمة للأديان إلا بالقدر التي تمكن الرأسمالي من استغلال هذه القيم لصالح تحريك العجلة الاقتصادية ونماء الثروة القومية، لأن الأخلاق عندهم صفات فردية بعيدةٍ عن الروح الجماعية وعن الزواجر والجوابر، يتمسك بها قوم سذج تغلبت العاطفة عندهم على العقل فلم يعودوا جديرين بتملك ثروات الأمة وأن يكونوا من الهيئة المسيطرة على مقدراتها.

إن رجل الأعمال بموجب العقيدة الرأسمالية (فصل الدين عن الحياة) ليس له دين أو مذهب يجعله يخرج من نطاق العقلانية والمصلحة ويدخل في نطاق العاطفة المدمرة حسب زعمهم، لذلك فهو مخلوق تجرد من الصفات الإنسانية وركب قطع غيار صناعية بلاستيكية مادية لا أثر للروح فيها.

إذن لا مكان للعواطف في مجتمعات رجال الأعمال المسيطرين على قرارات الحكام في الولايات المتحدة الأمريكية، فهم يدعمون الحكام للوصول إلى السلطة من الرئيس إلى أعضاء مجلس الشيوخ (سنتورات) والنواب ويعيشون حالة ارتباط عضوي بين أمن الولايات المتحدة القومي ومصالح أهل الفعاليات الاقتصادية ورفاهية المواطن الأمريكي العادي، فهناك تزاوج بين الجهات الثلاث جعلت استمرار الولايات المتحدة في قوتها يعتمد بشكل مصيري على بقاء هذه العلاقة مترابطة بشكل لا يتطرق إليه الخلل، وإلا كان دماراً للولايات المتحدة كدولة ونظام وأمة وشعوب.

وبذلك استطاع الساسة الأمريكيون الآباء الأولون للاستقلال أن يؤسسوا هذا النظام الرهيب الذي ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، فهو نظام يدّعي بأنه سيد العالم الحر الديمقراطي، وفي حقيقته نظام ديكتاتوري لا ترقى إليه دكتاتورية البروليتاريا الساذجة والمغفلة، حيث لم تستطع أن تقنع شعوبها بمصائرها، بل ساقتها بالعصا وأهملت الجزرة خلاف قناعاتها، بينما في الولايات المتحدة استطاعوا أن يجعلوا الناس تختار بإرادتهم ما اختاره لهم الرأسماليون، صناع القرار الحقيقيون، هذه هي العبودية الواعية والمهذبة للشعوب، فمن الرئيس إلى المواطن العادي مبرمجون حسب جدول (أجندا) قبلوا تحت ظروف مجتمعهم ونظامهم أن يلتزموا بها وهم يظنون أنهم اختاروها.

إن المواطن الأمريكي حر بأن يضع في صندوق الإقتراع الاسم الذي يريد برضاه واختياره، ولكن لا يستطيع أن يختار إلا ما اختاره له أهل الفعاليات الاقتصادية الحكام الحقيقيون للبلاد، بموجب مؤثرات خضع لها الجميع حكاماً ومحكومين، حيث لا فرق بين منهاج الديمقراطيين والجمهوريين، إلا بقدر ما أفهموهم أن أحدهم (ليبرالي) وآخر

محافظ، فلا منهج ولا أفكار أساسية، إلا بقدر ما تضفيه المؤسسات المتخصصة عن وسامة المرشح وذكائه وطلعته البهية، والفرق الوحيد أن الديمقراطي شعاره الحمار والجمهوري شعاره الفيل.

كان لابد من هذا الوصف الواقعي للنظام السياسي الرهيب في الولايات المتحدة الأمريكية، لتبيان كيف يتم صنع القرار فيها، والهيئات المؤثرة والفاعلة في هذه العملية المعقدة التي من شأنها أن تحدد مواصفات الرئيس الأمريكي الذي يصل إلى السلطة في ظروف معينة، وبشروط وأحكام يلتزم بها في السياسة الخارجية تحديداً، وهي السياسة التي تحدد مستقبل الموقف الدولي في العالم على الصعيد السياسي والاقتصادي والعسكري كما يراه أصحاب الفعاليات الاقتصادية، الذين حملوا الرئيس ليكون نائباً عنهم في تحقيق مصالح الولايات المتحدة وأمنها القومي من خلال مصالح الشركات الكبرى التي تملك البلاد والعباد، هذا النظام المؤسساتي الذي مكنهم من الاستغناء عن خدمات الرئيس نيكسون ليخرج من الحكم باكياً في قضية (وترجيت)، ومن قبل خرج نائبه (سبيرو أغنيو) بتهمة التهرب الضريبي ووصل الرئيس (فور) بدون انتخاب في اهم ديمقراطية حرة في العالم، إنها مهزلة ديمقراطية حقيقية.

عندما رشح آل غور نائب الرئيس كلينتون السيد (ليبرمان) ليكون نائباً له، علق أحد الأصدقاء بأن هذه السيطرة اليهودية بعينها في الولايات المتحدة، وأن اليهود والصهيونية العالمية قد فرضت على الديمقراطيين نائباً للرئيس يهوديّاً، وسوف يكون رئيساً يحكم الولايات المتحدة، بعد أن أحكموا سيطرتهم على مجلس الأمن القومي وعلى وزارة الخارجية وعلى المراكز الحساسة في البيت الأبيض، فأجبته: الرأي ليس كما ترى، بل هذا الترشيح هو الذي سيسقط آل غور، وإن رجال الأعمال الذين هم خلف آل غور اتفقوا مع رجال الأعمال الذين خلف بوش الابن، وقرروا أن تكون نتيجة الانتخابات سقوط آل غور وليبرمان، وفوز بوش ونائبه السيد تشيني، وهذا يدل على أن أهل الفعاليات الاقتصادية وممن يسمون أنفسهم جمهوريين أو ديمقراطيين قرروا مجتمعين أن (لوبي) النفط والصناعات الثقيلة والعسكرية هو الذي يجب أن يهيمن على القرار في

الولايات المتحدة، وذلك خدمة لرجال الأعمال سواءً أكانوا جمهوريّين أو ديمقراطيّين في المرحلة القادمة.

إن قناعتي هذه تقوم على أساس أن انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي هو الذي غير الموقف الدولي في العالم وأنَّ الاتحاد السوفييتي بزعامة (تاتشر ـ كول ـ ميتران) هو الذي استطاع بدهاء ودسيسة أن يستغل جهود الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى عام / 1991م/ ، حيث كانت سياسة الولايات المتحدة تقوم على إنهاء وإلغاء الماركسية في الاتحاد السوفييتي والعالم، ولم يكن هدفها إضعاف الاتحاد السوفييتي، بل ترغب باتحاد سوفييتي رأسمالي وقوي يقف ضد الاتحاد الأوربي، وعندما نجح الأوربيون بتفكيك الاتحاد السوفييتي وإضعافه، واستغلوا مخططات الرئيس ريغان في حرب النجوم وتجاوب الرئيس غورباتشوف معه، من خلال مصالح مشتركة للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، وأصبح العالم في حالة عدم توازن وبدأت الحرائق تشتعل في محيط الصين والاتحاد السوفييتي لتؤثر على أوربا من خلال هلال (بريجنسكي الإسلامي) من أندونيسيا إلى تركيا، مروراً ببنغلادش وباكستان إيران أفغانستان، الجمهوريات الإسلامية أضعف الاتحاد السوفييتي وجعله قوة غير مؤثرة على أوربا من الناحية العسكرية حتى تبقى تحت المظلة والحماية النووية الأمريكية.

أقول ما تقدم بإيجاز لأوضح بأن الحرب العالمية الثالثة غير المعلنة التي نتج عنها انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي وهذه الحرب لم يأخذ بعدها العالم موقفاً وشكلاً دولياً محدّداً، ولذلك لابد من رئيس أمريكي يعمل أولاً على تحجيم الدور الأوربي في العالم، وتثوير (هلال بريجنسكي الإسلامي) ثانياً وإشعال الحرائق في أفريقيا التي ما زالت أوربية ثالثاً، وإن شركات النفط والصناعات الثقيلة والعسكرية في الولايات المتحدة هي التي تدعم هذا الاتجاه، سواء أكانوا جمهوريين أو ديمقراطيين.

وحيث إنّ هذه الشركات على ما أعتقد وافقت على بوش الابن ليكون ممثلاً لها وللولايات المتحدة، وهو مناسب لهذه المرحلة، التي ستكون مرحلة حروب وحرائق واستهلاك للنفط والمعدات العسكرية والتجهيزات الصناعية التي ستدمر نتيجة هذه

الحروب، هذه الشركات هي التي نصحت أو فرضت على آل غور ترشيح (اليهودي) ليبرمان نائباً للرئيس، وقلت لمحدثي سوف ترى في وقت محدد ومعلوم قبل الانتخابات كيف ستعمل الشركات الأمريكية بدهاء عن طريق أجهزة الإعلام على التركيز بأسلوب خبيث، على أن اليهودي ولاؤه لليهودية ولإسرائيل وليس للولايات المتحدة الأمريكية، وهذا ما سيجعل آل غور أمام احتمالين إما أن ينحي السيد ليبرمان ويختار شخصاً آخر غير يهودي، وهذا يعني أنه إنسان متردد وجاهل ومتسرع،أو أنه سيُبقي ليبرمان وهذا يعني وصول شخص إلى الرئاسة في حال آل غور، وليس ليس موالياً للولايات المتحدة فكرياً وعاطفياً وعلى الحالتين سيسقط آل غور.

تذكرت هذا النقاش أمس الأحد في 24/ 9/ 2000م عندما أعلنت أجهزة الإعلام عن طريق أخبار البنتاغون أن السيد مارتن أنديك متهم بالتقصير والإهمال في الحفاظ على أسرار الدولة، وهو سفير الولايات المتحدة في إسرائيل، هنا تكون قد بدأت الخطة والممارسات على آل غور في كيفية اختياره ليهودي ليكون نائباً للرئيس وإنَّ كل أسرار الدولة ستكون عند هذا الرجل.

إن المواطن الأمريكي العادي هو إنسان بسيط وساذج ولا يعرف إلا أكله وشربه ومتعته بعد الساعة السادسة مساءً، بعد أن ينتهي من أعماله المملة في المصانع الكبرى، هذا الإنسان متقلب الأهواء والمزاج، وأجهزة الإعلام قادرة على أن تبرمجه وبسرعة باتجاه مسيحيته الموروثة سواءً أكانت البروتستانتية أم الكاثوليكية من حيث يدري أم لا يدري، المهم في علم النفس وعلم الاجتماع أن يفعل في الوقت المناسب، وهذا ما يدركه المسؤولون في الحملات الانتخابية، وهم قوم أذكياء ومتخصصون، ويخدمون بإخلاص لمن يدفع أكثر.

للقارئ الحق بأن يتساءل أليس اليهود هم الذين يسيطرون على الكثير من الفعاليات الاقتصادية والإعلامية في الولايات المتحدة، أقول: نعم ولكن ليس بالقوة التي تصورها أجهزة الإعلام العربية، فهناك مؤسسات إعلامية واقتصادية ضخمة تملكها العوائل (اللوبيات) ذات الأصول المهاجرة من أوربا، وهي عوائل يعدها بعض المتابعين

في (ثمانين عائلة) أوربية مسيحية تسيطر على أكثر الفعاليات، ولكن لا فرق بين الفعاليات المسيحية أو اليهودية عندما يكون الموضوع مصالح مادية تنشأ عن قرارات سياسية، لأن الأديان كما ذكرت عند الرأسمالي أداة من أدوات السيطرة والاستغلال ولا يوجد تدين حقيقي عند رجال الأعمال، إلا بالقدر الذي يحقق مصلحة وأمن أمريكا الذي يرتبط بمصالح أهل الفعاليات الاقتصادية سواءً أكانوا مسيحيين أو يهوداً.

إن أجهزة الإعلام العربية ساعدت بحسن نية أو بسوء نية على رسم صورة لليهودي بأنه إنسان مخلص وذكي وقادر على السيطرة أينما وجد من أجل مصالح إسرائيل، هذه المقولة ليست صحيحة بشكل مطلق ولا تنطبق خاصة على رجال الأعمال اليهود، بل هم رجال أعمال رأسماليون فحسب وينطلقون من خلال مصالحهم الشخصية لاستغلال اليهودية الصهيونية كحركة لصالحهم، ومثلهم مثل رجال الأعمال المسيحيين الأمريكان الذين يستغلون الكنيسة بأعمال البر والإحسان.

وأذكر القارئ بما كتبت الصحف كثيراً عن يهود باعوا ضمائرهم بدراهم معدودة عندما باع بعض الضباط في الجيش اليهودي أسلحة (لحماس) ولغيرها وعندما استطاعت بعض الأجهزة العربية تجنيد الكثير منهم وإن اليهود كانوا عبر التاريخ يفضلون الذهب (الأصفر الرنان) على كل شيء، فهم الذين ساهموا في إدخال العرب المسلمين إلى الأندلس ودلوا جيوش طارق بن زياد على عورات البلاد نظراً لاختلاف مصالحهم مع المسيحيين، وهم الذين جندهم هتلر في بداية الحرب بالمال في كثير من الدول الأوربية.

إذن القضية هي ليس إخلاص اليهودي وولاءَه بشكل مطلق، بل هي عدم وجود الإخلاص بشكل عام عند الرأسمالي لأنه لا يدين حقيقة بعقيدة سواءً أكان هذا الرأسمالي يهودياً أم مسيحياً أم مسلماً، فالعقيدة عند المصلحة والمنفعة ومن هنا تحدث الأجهزة الواعية الخرق في صفوف أصحاب المصالح، علماً أن ذلك لا يمنع من وجود متدينين يهود سذج نراهم على أجهزة التلفاز ولكن هؤلاء لا قيمة لهم ولا وزن عند اليهود الرأسماليين، إلا بقدر المصالح التي من الممكن أن يعملوا من خلالها من حيث يعلمون أو لا يعلمون لصالح الرأسماليين اليهود، وأدل على ذلك زعيم حركة (شاس) المتدينة في

إسرائيل الذي قبل رشوة بسيطة وخارت قواه وعقيدته أمام الذهب معبودهم، كما هي قصة العجل الذهبي الذي صنعه قوم موسى عليه السلام في غيابه وعبدوه.

في النهاية أصل إلى أن السيد مارتن أندك لن يكون الضحية الأولى والأخيرة في الصراع على الرئاسة الأمريكية، بل هو أداة من أدوات الصراع التي تركز عند المواطن الأمريكي العادي، أنّ اليهودي الذي ينافس الأمريكي على المصالح في الولايات المتحدة الأمريكية يبقى يهودياً موالياً بشكل عاطفي لإسرائيل، وأنّ الرئيس الأمريكي يقسم على الولاء للولايات المتحدة ومصالحها فقط، وهذا يناقض مواصفة أساسية للرئيس تحجب عنه الحياد الذي هو ركن أساسي في الإخلاص وهذا يكفي لإسقاط آل غور وليبرمان معاً على ما أعتقد إنها رؤية تحتمل الخطأ والصواب، ولكنها ليست بعيدة عن منطق الأحداث عند من خبر عملية صنع القرار السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية.

26/ 9/ 2000م

أثر الموقف الدولي في نشوء وانهيار الدول العظمى

الولايات المتحدة لن تستطيعَ أن تصمد على رأس هرم القيادة الدولية للعالم بشكل منفرد ومتعجرف، فرأس الهرم دائماً حاد ودقيق، وهو حالة من حالات التوازن القلق وغير المستقر، ولم يحدث في تاريخ الخليقة أن انفردت دولة من الدول بقيادةِ العالم بشكل منفرد، وإذا حاولت ذلك تكون أخطأت في التقدير وعرضت نفسها إلى انتكاسة مذلة، والتاريخ شاهد على سبيل المثال، ما حدث مع (هانيبال) ونابليون وهتلر.

إن القيادة لأي دولة عظمى لا تنجح إلا إذا قدرت الموقف الدولي تقديراً سلياً واستعانت بأيد إضافية تعمل معها من الباطن والظاهر من خلال المصالح المشتركة لهم جميعاً، فتبقى هذه الدولة تقود العالم إلى حين، من خلال فهمها الصحيح للموقف الدولي فيكون دورها دور (المايسترو) في الفرقة الموسيقية الذي يحدد الألحان ويحسن التوزيع والإخراج من جميع أعضاء الفرقة الموسيقية، بحيث يكون الجميع مسرورين ومقتنعين ومستعدين لإخراج أي صوت نشاز خارج الفرقة من خلال مصالح الجميع المشتركة، فمن كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته، وكل محفوظ كرامته.

إن ما ذكرته أعلاه ليس فلسفة خيالية، بل هي منطلقات عملية، كل من لم يراعها تاريخياً من الدول العظمى، كان استمراره على رأس هيكل التنظيم الدولي لمدة أقل من الدول الأخرى، بقدر إهماله لهذه المبادئ الأساسية التي تراعي النواحي المادية والنفسية للشعوب.

ما زال وضع الولايات المتحدة الدولي يتردى وينتكس إلى الأسفل منذ سقوط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي، على عكس ما يظن الكثير من المحللين السياسيين، حيث نجحت السوق الأوروبية المشتركة والاتحاد الأوروبي بالخروج من تحت المظلة الأمريكية التي طوقتها بها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، فلم تعد الدول الأوروبية تخشى اتحاداً سوفييتياً قوياً مستعداً لاجتياح أوربا في أي وقت من الأوقات، حيث كانت الولايات المتحدة تخيف أوروبا من هذا الواقع وتنسق مع الاتحاد السوفييتي القوي ضد أوروبا مفككة.

ليس صحيحاً بأن الولايات المتحدة هي التي فككت الاتحاد السوفييتي، وليس لها مصلحة في ذلك، لأن مصلحتها في إنهاء الماركسية وليس في إضعاف الاتحاد. ولكن اللعبة الخبيثة التي قامت بها أوروبا بقيادة (تاتشر وميتران وكول بالتواطؤ مع يلستين) هي التي فككت الاتحاد السوفييتي وأضعفته، حيث نجم عن ذلك تطلعات أوروبية قديمة للعودة إلى مشاركة الولايات المتحدة في قيادة العالم، بدأ بإزعاجها وإرباكها وإنهائها، فإما أن تشارك وإما أن تفارق وإما أن تصل الأمور إلى إذلالها.

وأضرب على ذلك مثالين قريبين وفي هذا الأسبوع بالذات:

ـ فشل لجنة الأمريكي (ميتشل ومستر تنيت رئيس C.I.A) في فلسطين، وفشل وزير الخارجية كولن باول وتصريحاته المتناقضة بأنه اتفق على حل مع شارون وياسر عرفات خلال أسبوع، إذا ثبت وقف إطلاق النار بين الفريقين، والذي حصل أن الولايات المتحدة فشلت في كل شيء، وثبت أن الجميع يتواطأ عليها داخلياً وخارجياً لإفشالها، وأنه لم يبقَ معها أي أوراق أساسية لنجاح سياستها، فهي تحاول إظهار قوتها الدولية وإنقاذ سمعتها، بأنها قائدة للعالم للإبقاء على ما تبقى من ماء وجه، هذا إن كانت جادة في إيجاد حل سياسي في المنطقة.

ـ فشل ما سمي بالعقوبات الذكية ضد العراق وانهيار سمعة الولايات المتحدة بأنها غدت مثل (طرطور) في قيادتها للعالم، حيث تقودها بريطانيا إلى هدفها بتواطؤ ظاهر مع أوروبا وبتنسيق مع روسيا في عهد بوتين، الذي يسعى إلى وضع دولي متفوق لبلاده من خلال دعم أوروبا له لإيجاد شبكة صواريخ مضادة للصواريخ لحماية أوروبا حماية ذاتية بدون الولايات المتحدة. لأنه ليس صحيحاً أن أوروبا تخاف صواريخ باكستان أو إيران.

إذا استمرت الولايات المتحدة في سياستها الحالية بعدم إدراك أن بريطانيا (حصان طروادة) تعمل بالتواطؤ مع أوروبا لإضعاف الولايات المتحدة لتقوية وضعها الدولي، وتحرض المطامح الروسية لدور دولي جديد يعيدها إلى مكانتها المؤثرة في العالم من الناحية الاقتصادية، وبتعاون مع روسيا من خلال مصالحهم المشتركة، ومما يساعد على تحجيم دور الولايات المتحدة المنفرد، ولتأسيس نظام عالمي جديد يكون فيه دور مؤثر للصين في شرق آسيا على حساب تراجع دور الولايات المتحدة.

طبعاً لن تقف الولايات المتحدة مكتوفة الأيدي حيال هـذا التطـور وعنـدها مـن الإمكانات الفاعلة والمؤثرة لتحجـيم هـذه الرؤيـة وإحباطهـا، مـن خِـلال تفجـير شرق أوروبا في منقطة البلقان، هذه القنبلة الموقوتة التي تهيئها الولايـات المتحـدة للانفجـار في وجه مخططات الاتحاد الأوروبي والتطرف الفرنـسي القـاضي بتحجـيم حلـف الأطلـسي لصالح قوات الانتشار السريع الأوروبية، ليكون أمان أوروبا بقوتها الذاتية ولـيس بقـوة الولايات المتحدة، وخاصة إذا استطاعت الولايات المتحدة تفجير تركيا في وجـه أوروبـا ولتكون عمقاً إستراتيجيّاً للتطرف الديني في البلقان. وكذلك تفجير الجزائر القريبـة مـن أوروبا، وهذا يهيئ لنظام دولي جديد لصالح الولايات المتحدة مـن خـلال النتـائج التـي ستسفر عنها حروب الشمال والجنوب، التي لا يعلم إلا الله حدودها وانعكاساتها، ولكن كما يقولون: آخر الدواء الكي.

12/ 7/ 2001م

ماذا يجري في العالم

المقولة السائدة والمسيطرة في العالم والتي ترددها وكالات الأنباء ويؤكد عليها عامة المحللون السياسيون، أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي فككت الاتحاد السوفييتي وأضعفته، وحولته إلى روسيا هزيلة وجمهوريات أخرى لا تعدو أن تكون فضاءً جغرافياً يتنافس عليها كل طامع.

هذه المقولة الخاطئة وكل محلل سياسي يتبناها ويجعلها منطلقاً لما يجري في العالم منذ بداية التسعينات، لا يستطيع أن يعطي رأياً سليماً في هذه المستجدات.

والحقيقة المغيبة أن الولايات المتحدة لم تعمل على إضعاف وتفكيك الاتحاد السوفييتي، بل عملت منذ أواسط الأربعينات وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، على إنهاء الماركسية كفكر عالمي قابل للتوسع والسيطرة، أي عملت على تدمير قواعد الماركسية الفكرية وتحويلها إلى فكر رأسمالي عن طريق التسلسل بكافة الوسائل الثقافية والاقتصادية والعسكرية.

إن سياسة الولايات المتحدة الحقيقية، وليست الظاهرة عملت على وجود اتحاد سوفييتي قوي، يحجم أوروبا الغربية، ويجعلها تعيش تحت هاجس أمني خوفاً من هجوم سوفييتي ساحق إذا لم تتدخل الولايات المتحدة لصالح أوروبا الغربية.

هذه السياسة الأمريكية هي التي روضت أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وحولتها إلى بلاد خائفة من هجوم سوفييتي، ولذلك حافظتْ الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على قيادة العالم من خلال ما سمي بالحرب الباردة التي خدمت مصالح الطرفين الأمريكي والسوفييتي، فانفردتا بقيادة العالم من خلال سياسة إثارة الأزمات من شرق آسيا إلى قلب أوروبا في برلين غرباً مروراً بالشرق الأوسط.

كان من جراء ذلك وبتواطؤ أمريكي سوفييتي أن فقدت بريطانيا وفرنسا أكثر مستعمراتها في العالم وحلت السيطرة الأمريكية مكان السيطرة الأوروبية.

لم تكف أوروبا خلال هذه السنوات الطويلة، من أواسط الأربعينات حتى بداية التسعينات عن إثارة المشاكل والاضطرابات لكي تعود إلى الساحة الدولية ولكنها فشلت

غالباً بسبب القيادة الثنائية للعالم من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، التي حجمت الدور الأوروبي بشكل لافت للنظر على أثر أزمة الصواريخ المصطنعة التي قادها كنيدي وخروتشوف عام 1961م، فيما سمي بأزمة الصواريخ في كوبا، حيث أدخلت الدولتان العالم إلى حافة حرب نووية ظن الناس أجمع أنها حرب حقيقية، ولكن نتيجتها كانت تقاعد أوروبا بشكل مؤقت عن التدخل بالشؤون الدولية بشكل رئيس، فانكفأت بريطانيا وفرنسا عن إثارة المشاكل رغماً عنهما. واستمرت بريطانيا بسياسةِ الدسائس على الحلف الأمريكي السوفييتي ولكنها فشلت أيضاً في تحقيق نتائج ملموسة على الصعيد الدولي.

استمر هذا الموقف الدولي حتى سقوط جدار برلين، عندها تحركت الأحقاد الأوروبية الكامنة بالخبث البريطاني المعهود واللؤم الفرنسي المسحوق والمطامح الألمانية المتربصة، ووراءهم أوروبا بالكامل إلى استغلال ما توصل إليه (ريجان غورباتشوف) في مؤتمر (كيركيافيك) حيث اتفقا على إنهاء الفكر الماركسي وتحويل الاتحاد السوفييتي إلى بلد رأسمالي من خلال (بروسترايكا، جلا سنوست) التي تعني إعادة التفكير وإعادة البناء.

إن أوروبا ذلك الوقت بقيادة (تاتشر، ميتران، كول) استطاعت القيام بنقلة نوعية خطيرة جداً باستغلال المخطط الأمريكي، حيث تمكنت من فرط الاتحاد وتفكيكه عندما ساهمت في وصول (يلستين) للسلطة وإقصاء آخر القيادات السوفييتية عن طريق انقلاب القادة السوفييت المزعوم، والذي كان مرتباً برضى غورباتشوف. منذ ذلك الوقت تفكك الاتحاد السوفييتي، ووصل العالم إلى مرحلة الفوضى الدولية، وهذا ما تريده أوروبا بقيادة بريطانيا، حيث ذكرت تاتشر في مذكراتها بأنها لو طرحت في مشروعها الانتخابي أنها ستفكك الاتحاد السوفييتي، فسيقول الناخب البريطاني إنها مجنونة، ولكن هذا هو الذي حدث.

تفكك الاتحاد السوفييتي، وتنفست أوروبا الصعداء وأظهرت مشاريعها العدوانية المنافسة للولايات المتحدة، والتي هدفها الأساسي، تحجيم دور الولايات المتحدة في العالم حتى تضطر إلى مشاركة أوروبا الموحدة، فسارت أوروبا بطريق الوحدة الاقتصادية والسياسية.

استشعرت أمريكا هذا الخطر الجائم، ومدى خطورة المصيدة التي أوقعتها بها أوروبا في تفكيك الاتحاد السوفييتي، فردت على أوروبا فوراً بتفكيك منطقة البلقان وأشعلت الحرائق في قلب أوروبا الشرقية وهي خط الأمان الأخير لأوروبا الغربية، فقامت حروب البلقان، وأوقعت أوروبا في هذا المستنقع عن طريق دعم الكروات والمسلمين ضد الصرب.

لم يكن أمام أوروبا مؤقتاً إلا الانحناء الخبيث أمام الولايات المتحدة حتى تنقذها من هذا الجحيم الذي سيمتد إليها في مستقبل قريب، فيقلق استقرارها ونموها الاقتصادي والسياسي.

ساهمت الولايات المتحدة في إطفاء هذا الحريق مؤقتاً بعد أن أذلت أوروبا، لكن أوروبا عادت إلى تنشيط أهدافها في الوحدة والوجود الدولي المؤثر في العالم وذلك بتشكيل قيادة تدخل سريع في البحر الأبيض المتوسط مضادة للحلف الأطلسي، والعمل على الوحدة النقدية والاقتصادية ومن ثم أطلت علينا بالوحدة السياسية.

إن أوروبا بلاد تتمتع بقاعدة اقتصادية ضخمة لكنها بدون سيقان عسكرية قادرة على فرض نفوذها في العالم، وهذا ما جعلها تدعم الإرهاب الدولي لإشغال الولايات المتحدة في الداخل والخارج واستفادت من طموحات المسلمين وشعورهم بالظلم والاضطهاد الأمريكي والاستعداد للتضحية من أجل إذلال الولايات المتحدة الأمريكية ابتداءً من البوسنة والهرسك إلى الشيشان وأفغانستان وكشمير، حتى الضربة الأخيرة للمركز التجاري العالمي الأمريكي وللبنتاغون.

جن جنون الولايات المتحدة وفقدت صوابها، هذه البلاد التي تعتبر نفسها أنها بلاد آمنة لا يصلها أي خطر من الأخطار قريباً أو بعيداً، فأدخلت أوروبا الولايات المتحدة في مستنقع أفغانستان، وسوف تدخلها في مستنقعات كثيرة، بحيث لا يبقى أمام الولايات المتحدة إلا إيجاد نظام دولي جديد تكون فيه أوروبا مشاركة في صنع السياسة الدولية العالمية بشكل صريح وواضح، ويعاد تنظيم العالم من جديد على أساس التكافؤ والتوازن الدولي بين أوروبا والولايات المتحدة.

هذا ليس بالسهل فهناك روسيا والصين، كلاهما يتربصان نتائج حروب الإرهاب بين الولايات المتحدة وأوروبا، وتنتظران الوقت الدولي المناسب لتعود روسيا بلاداً قوية ولها كلمة في المجال الدولي من جديد، وتظهر الصين بقوتها الجغرافية والبشرية ونموها الاقتصادي المتفوق بالعالم.

باختصار كل ما يجري في العالم الآن هو نتائج لتفكك الاتحاد السوفييتي وهدم سور برلين، ولن يهدأ العالم حتى يعاد تنظيمه من جديد بقيادة جماعة تأخذ بنظرها الفراغ الجغرافي من إندونيسيا إلى طنجة في المغرب.

إن التنظيم السياسي والاقتصادي الذي مورس على هذه المنطقة من العالم بما في ذلك وجود إسرائيل يخضع الآن إلى إعادة الدراسة والتحليل، حيث إنَّ العالم لن ينعم بالاستقرار المنشود إلا إذا سويت أوضاع هذه المنطقة بعيداً عن الظلم الدولي بحيث تساهم مساهمة فعالة تساعد على استقرار العالم ربما لقرون مقبلة.

22 ـ 28/ 3/ 2002م

هل تستطيع الولايات المتحدة أن تحتكر العالم بدون شركاء؟؟؟

ـ هناك قول مأثور عن السيد (دايان) وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق هو:

«العرب لا يقرؤون وإذا قرؤوا لا يفهمون»، لكن الولايات المتحدة ليست بأحسن حال من العرب، لأن رؤساءها وليس شعبها البسيط فقط، تنطبق عليهم هذه المقولة.

ـ ذكرني بهذه المقولة ما كتبه السيد هنري كيسنجر في كتابه المعروف «الدبلوماسية» في الصفحة (120) عندما كان يتكلم عن نابليون الثالث الذي أصبح رئيساً لفرنسا عام 1848م ثم أعلن نفسه إمبراطوراً، في فترة عصيبة حاول فيها نابليون تغيير الخريطة السياسية الأوروبية التي أسسها (مترنيخ) بعد معركة (واترلو) الشهيرة التي انكسر فيها نابليون الأول، فقال:

ـ «ولم ينجح نابليون الثالث أبداً في عقد مؤتمر آخر لإعادة رسم خريطة أوروبا، وذلك لسبب رئيسي واحد وهو ما أوضحه له السفير البريطاني لورد كلارينـدون عندما قال:

ـ «إن بلداً يحاول إجراء تغييرات كبيرة ويفتقد إلى الاستعداد لتحمل مخاطر كبيرة، لابد أن يلقي بنفسه في طريق العبث».

ـ إن حظَّ الرئيس بوش العاثر هو الذي جعله رئيساً لأكبر وأقوى دولة في العالم، لكن القوى الضاغطة الداخلية التي تعاقدت معه بشكل ديمقراطي لتولي هذا المنصب، لم تحسب الحساب لظروف سياسية جديدة تحتاج إلى رئيس آخر وبمواصفات أخرى يكون أكثر خبرة منه وأشد ذكاءً وأطول باعاً.

ـ فبعد ضربة / 11/ سبتمبر أصبح الثوب المفصَّل على بوش قبل / 11/ سبتمبر فضفاضاً، فالحل كان أن يضخَّم الجسم أو يضيَّق الثوب، وكلا الحالين يضع الولايات المتحدة على مفترق طرق كما هو حال نابليون الثالث عندما خسر حروب فرنسا في أوروبا فلم يستطع تحجيم بروسيا ومنع الوحدة الألمانية، ولم يستطع أن يوحد أوروبا الوسطى تحت قيادته، فخرج مخذولاً مهزوماً، فألقى بنفسه في طريق العبث لأنه رغب بتغييرات كبيرة لكنه لم يكن مستعداً لتحمل مخاطر كبيرة، فكان حال التغيرات المطلوبة وحال الرئيس بوش والولايات المتحدة كحال نابليون الثالث في ذلك الوقت لما يلي:

* تعتقد الولايات المتحدة أنها تستطيع تحجيم الدور الأوروبي وتجييره لصالحها وذلك بمنع الوحدة الاقتصادية والسياسية الحقيقية التي تجعل لأوروبا كياناً لا يقل أهمية عن كيان الولايات المتحدة الحالي.
* المحافظة على روسيا ضعيفة وغير قادرة على فرض سيطرتها على الجمهوريات السوفييتية الإسلامية السابقة، حيث تحكم الولايات المتحدة السيطرة على جمهوريات أواسط آسيا بالتنسيق مع تركيا كبلد إسلامي له سيطرة روحية على المسلمين في تلك البلاد، مما يساعد على إبقاء روسيا مشغولة بهمومها الداخلية، وإبقاء جمهوريات أواسط آسيا جرحاً نازفاً في خاصرة روسيا.
* النظر إلى الصين الشعبية كقوة بشرية استهلاكية يرتفع مستواها المادي ولكن بدون نفوذ سياسي خارجي، وأن تكون الصين قامعة لأي طموحات سياسية لليابان والهند.
* إشغال الصين والهند بقوة إسلامية مجاورة عن طريق توحيد باكستان وأفغانستان والجمهوريات الإسلامية المحيطة بهما.
* إعادة ترتيب العالم العربي عن طريق تمزيق الاتفاقية البريطانية الفرنسية التي وضعها (سايكس ـ بيكو) هذه الخريطة التي لم يكن للولايات المتحدة رأي فيها، ولقد أسست بموجب الطموحات الفرنسية والبريطانية، وإن أمريكا ترى أن الزمن تعدى هذه الاتفاقية، فلا بد من خريطة (رايس رامسفيلد) لا علاقة لأوروبا بها على الإطلاق، وذلك بحجة امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل.
* السيطرة على نفط الشرق الأوسط وآسيا الوسطى من خلال السيطرة على القرار السياسي والاقتصاد بشكل انفرادي في العالمين العربي والإسلامي.
* طرد النفوذ البريطاني والفرنسي بشكل خاص، والأوروبي الغربي بشكل عام من مستعمراتها ومناطق نفوذها في أفريقيا وأرخبيلات المحيط الهندي والهادي، كما طردتها من سائر أنحاء العالم الأخرى بعد الحرب العالمية الثانية.
* وباختصار هل تستطيع الولايات المتحدة أن تحتكر العالم بدون شركاء إستنادين وأيدي إضافية وبدون مخاطر انتحارية؟... وهل ستفشل كما فشل نابليون الثالث؟..

هذا السؤال لا يمكن الإجابة عنه بمقالة، بل يستحق كتباً أو أبحاثاً ودراسات، لكن بشكل مختصر إذا حصرنا الموضوع باستعداد الولايات المتحدة لتحمل مخاطر كثيرة من أجل التغييرات الكبيرة، فإنها قولاً واحداً لن تستطيع أن تشطب خريطة (سايكس ـ بيكو) بما فيه قهر الشعب العربي والعراقي بشكل خاص والعبث بحدودهِ وتركيبة شعوبه، بدون أن تشطب دولة إسرائيل معها بأي شكل من الأشكال، فإذا كانت الولايات المتحدة مستعدة أن تتحمل هذه المخاطرة الكبيرة على بنيتها السياسية الداخلية وفي علاقاتها الدولية الخارجية، تستطيع أن تقدم على شطب خرائط المنطقة ما بعد 1918م بما فيها إسرائيل، وإلا سيحصل معها كما حصل مع نابليون الثالث وستعود مقهورة خاسرة إلى مبدأ الرئيس مونرو بالاهتمام بأمريكا اللاتينية فقط.

ـ إن الاستغناء عن إسرائيل مقابل تنظيم العالم بما فيه العالم الإسلامي، أمر يستحق المخاطرة وعلى الرئيس بوش أن يعيد دراسة التاريخ، وأن يكون قارئاً جيّداً لما كتبه هنري كيسنجر في كتابه (الدبلوماسية) وأن يعيد قراءة كتابي (الأمير وفن الحرب) للكاتب والمفكر ماكيافلي حيث لا يوجد في السياسة ثوابت، بل هي مجموعة متغيرات مستمرة، ولا يوجد في السياسة عداء دائم بل مصالح تجمع وتفرق، والسياسة فن الممكن، والشاهد على ذلك ما فعله الرئيس الأمريكي أيزنهاور في العدوان الثلاثي عام 1956م عندما وقف مع إنذار (بولغانين) ضد إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، لأن هذا ما اقتضته المصالح الأمريكية، ولم يفِدْ إسرائيل النفوذ اليهودي والسيطرة المزعومة له والمبالغ بها في الولايات المتحدة.

ـ لقد تغير الموقف الدولي الذي نشأ بعد الحرب العالمية الثانية، حيث استطاعت الولايات المتحدة أن تتصدر سياسة العالم بأقل الخسائر وبدون تقديم تضحيات، عندما سقط جدار برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي، هذه القوة التي ساعدت على تحجيم الدور الأوروبي خلال الأربعين سنة الماضية، وانهار هذا البعبع المخيف الذي نسق مع الولايات المتحدة ضد أوربا الغربية والصين، فتنفست أوروبا الصعداء بعد هذا الانهيار الذي جعل أوروبا الغربية تستغني عن الدور الأمريكي في تحمل مسؤولية قيادة العالم، وتحررت

الصين الشعبية من نتائج النزاع العقائدي بينها وبين الاتحاد السوفييتي، حيث استغلته الولايات المتحدة أبشع استغلال، وأصبحت قوة عظمى ينظر الجميع إلى قيادتها ومستقبلها الواعد ونفوذها بما في ذلك الكوريتان.

ـ ولذلك أقول لقد انتهت مرحلة الكسب السياسي بلا ثمن للولايات المتحدة وجاءت مرحلة دفع الثمن والتضحيات من قبلها، إن كان عندها العزم والإرادة لأن تبقى على هرم العالم السياسي بقيادة منفردة.

ـ إن الظروف السياسية مكنت الولايات المتحدة من تحجيم وتقليص الدور البريطاني والفرنسي في العالم بشكل خاص والدور الأوربي بشكل عام، فنجحت وبدون ثمن بكنْسِ النفوذ البريطاني والفرنسي من العالم وتكسير أوروبا إلى مصاف الدول الثانية، وأمعنت في إذلالها وخاصة إذلال بريطانيا وفرنسا.

ـ فقد جعلت أوروبا قائدة العالم السابقة أضحوكة للنوادي السياسية في العالم، وجعلت من رؤسائها مهزلة عندما عاملتهم معاملة التلاميذ المشاغبين.

ـ واستطاعت الولايات المتحدة أن تقهر الاتحاد السوفييتي بدون ثمن أيضاً، عندما استغلتْه ضد الأصولية الدينية الإسلامية أبشع استغلال من الناحية الفكرية والسياسية فقضت على الماركسية بدون خسائر وبدون ثمن وبدماء المسلمين.

ـ أعود وأكرر بأن هذه الحقبة التاريخية قد ولّت إلى غير رجعة، ولن تستطيع الولايات المتحدة إجراء تغييرات كبرى بدون خسائر كبرى وبدون استعداد للتضحية بأبنائها في ساحات القتال، لأن الموقف الدولي العالمي الآن هو غير الموقف ما قبل عام 1990م.

ـ وإن العالم أجمع قد اجتمع عليها الآن، كما اجتمعت أوروبا على نابليون الأول في معركة (واترلو)، دولاً كبرى بشكل واضح، ودولاً صغرى رديفة للكبرى بشعوب مقهورة تنتظر ساعة الخلاص التي تجعلها تأتلف مع حكامها ضد الغطرسة الأمريكية التي أذلت الحكام والشعوب، وإذا لم تعد الولايات المتحدة إلى رشدها من خلال دراسة تاريخ الأمم البائدة، وتنظر إلى مصالحها ومصالح الآخرين فلن يمضي وقت طويل يحَدّث

فيه التاريخ عن الولايات المتحدة كدولة عظمى أسسها شعب طيب ومبدع وخلاّق عشق الحرية وقاتل من أجلها، إلى أن استبدت به مصالح أهل الفعاليات الاقتصادية مؤتلفة مع اليهودية فأفرزت طبقة سياسية تنفذ مصالحها الخاصة بغض النظر عن مصالح شعب الولايات المتحدة الطيب، فأهدرت قيم الشعب وحضارته من أجل مصالح رأسماليين باعوا البلاد والعباد فكان الانهيار وهذه الحكاية.

4/ 2002م

؟؟؟ ماذا تريد الولايات المتحدة ؟؟؟

ـ اختلفت آراء المحللين السياسيين والاقتصاديين في العالم حول الإجابة على هذا السؤال المفصلي الخطير. كل حسب الزاوية التي ينظر منها متأثراً بالمدرسة السياسية أو الاقتصادية التي درس عليها وأثرت على أفكاره ومنطلقاته، فنظر من زاوية حادة ضللته عن الزوايا الأخرى التي تصل إلى الزاوية المنفرجة، فكان حالهم حال عميان تجمعوا حول فيل، فقال من أمسك بأذنه هذه مروحة، ومن أمسك بذيله هذا حبل، ومن أمسك بخرطومه هذا أنبوب نفط، ومن أمسك بساقه هذه نخلة تمر، ومن التنطع والغرور أن يقول محلل: إنَّه يعرف ماذا تريد الولايات المتحدة، وإن كنت أعتقد أن بوش نفسه لا يعرف بالضبط ماذا يريد وإلى أين سيصل، وما هي النتائج المترتبة على هدفه المعلن ـ غزو العراق ـ؟، لأن للسياسي أهدافاً معلنة خلبية وأهدافاً حقيقية، (بمعنى آخر له محور أساسي مقصود ومحاور ثانوية قد تتحقق نتيجة لذلك)، لكن في مثل هذا الجو العالمي المتوتر بالصراع على (قرص الكاتو) وهو العالم هنا، من الصعب الجزم لمن سيكون القرص أو من سيكون له أجزاء منه في حال المشاركة، ومن سيكون له جوائز الترضية فيما إذا قطع القرص بالسكين، ومن سيكون له مخلفات القطع (الهراهير) كما يقولون، ومن سيقع عليه القطع الذي ينتج هذه المخلفات والبقايا.

ـ صعوبة الإجابة على هذا السؤال تكمن في مقولات سياسية وصلت عند المحللين السياسيين الدوليين والمحليين حد الحقائق الجازمة ومن خلالها تنبع تصوراتهم. وهي أن الولايات المتحدة تحكم العالم، وأنَّها تستطيع أن تلزم الجميع بما تريد وتسوقهم إلى رغباتهم سوقاً، وهي قوة سياسية عسكرية واقتصادية لا يمكن إزاحتها عن موقعها، فهي تسيطر على نفط الخليج ونفط أواسط آسيا من خلال شركاتها، كما تسيطر على القرار السياسي في العالم وتسيطر على الوضع الدولي والأوضاع الإقليمية، وهي تحكم مباشرة أفغانستان، وتسيطر على القرار في باكستان، وتمسك بخطوط أنابيب النفط الحالية والمتوقعة وهي التي أطاحت بالشاه وأتت بصدام حسين وتتحكم بمصير

الرئيس الروسي بوتين، وهي التي أسقطت جدار برلين، وهي التي تتحكم بقوة حلف الأطلسي، وإن (بلير) لا يزيد عن كونه سحَّاباً في بنطال بوش على حد تعبير إحدى الصحف البريطانية، وتتحكم أيضاً بالمصارف الدولية فتعطي القروض والمنح لمن تريد وتمنع عمن تريد. وهي التي تدعم إسرائيل، وتستطيع أن تطلقها ككلب مسعور في أي وقت ضد الأنظمة العربية المجاورة وغير المجاورة، باختصار هي الله الواحد الأحد الفرد الصمد للعالم والمسيطرة والمتحكمة به.

ـ إذا صحت هذه المقولات فلماذا تريد الولايات المتحدة أن تغير هذه الوقائع في العالم، والتي جميعها قد ابتدعتها بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولماذا تقدم على تغييرات في غير صالحها قد تجعلها في عنق زجاجة لا يعلم إلا الله كيف ستخرج منها.

ـ ببساطة لا يمكن أن تكون هذه المقولات جميعها صحيحة أو على أقل تعبير دقيقة. وتقدم الولايات المتحدة على تغييرها إلى ما هو أفضل، لأنه لا يمكن أن يكون أفضل من ذلك إذا كانت هذه الوقائع صحيحة.

بناءً على ذلك أزعم بأن الولايات المتحدة هي المهاجَمة من قبل أصحاب المصالح الكبرى في العالم الذين سئموا من قيادتها وتسلطها على العالم، فهي دولة في وضع دفاعي عن مكاسب حققتها، وإن نظاماً دولياً في طور التشكل يهاجم الولايات المتحدة لمشاركتها مشاركة الند للند لاقتسام خيرات العالم بشكل فيه أثر للعدل والإنصاف، حسب المقولة «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته»، مع قليل من الكرامة لدول تجد في نفسها أحقية في النظام الدولي المقبل، فقد انقضى العهد والزمن الذي كانت الولايات المتحدة تعيش فيه حياة مشاركة مع الاتحاد السوفييتي لقيادة العالم، حيث انتهى كل ذلك مع انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي، وأصبحت أوروبا قوة غير خائفة من هجوم سوفييتي، فقد انتهت مرحلة النظام الدولي الذي بدأه خروتشوف وكندي على أثر أزمة الصواريخ المصطنعة عام 1961م في كوبا، والتي على أساسها حكم العالم الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي مشتركين، وبروح رياضية عالية، وتمكنا من تحجيم الدور الأوروبي والصيني، وباتفاقهما تم القضاء على بقايا النفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط

وشمال أفريقيا وجنوب شرق آسيا، بعد أن خسرت بريطانيا وفرنسا الحرب العالمية الثانية وعادتا إلى دول من الدرجة الثانية، وفاز في تلك الحرب الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي فقط.

ـ إذن تغيرت الوقائع بعد سقوط جدار برلين، حيث عاد الاتحاد السوفييتي إلى روسيا التي تحاول ترتيب أوضاعها الداخلية مع محاولاتها للعودة لدور هام في قيادة العالم، حيث تفكك وسط أوروبا، وضم إلى عضويته أكثر دول أوروبا الشرقية والوسطى، وظهرت الصين الدولة العملاقة جغرافياً وبشرياً وفكرياً، وتريد حقها أيضاً في النظام الدولي الجديد، وأطلّت اليابان بقوة اقتصادية لا تقهر ينقصها النفوذ السياسي المطلوب، وزاد على ذلك حروب الإرهاب التي هددت الولايات المتحدة لأول مرة بعد حروب الاستقلال في عقر دارها، ولوحظ على الأقل شماتة هذه الدول الطامعة بنظامٍ دولي جديد ينصفها من الهيمنة الأمريكية.

ـ استشعرت الولايات المتحدة أن العالم بأجمعه يعمل على إقصائها عن القيادة الدولية، أو لمشاركتها على أقل تقدير، وبناءً على ذلك اصطنعت مشكلة حيازة العراق على أسلحة تدمير شامل، ورغبت في حرب تنظم العالم دولياً وإقليمياً بموجبها، مطبقة القاعدة المعروفة «خير وسائل الدفاع الهجوم» لأن ضرب العراق هو تهديد وترويض لأوروبا بالكامل بما فيها بريطانيا المراوغة والصين واليابان وروسيا وكل الطامحين لخلافة أو مشاركة الولايات المتحدة في النظام الدولي الجديد.

ـ إن الولايات المتحدة تتعرض إلى مخاطر لم تتعرض لها قط منذ قيامها وهي لن تستطيع أن تصمد أمام القوى الدولية الأخرى صاحبة المصلحة في أن تكون عنصراً أساسياً في النظام الدولي المقبل، فهذه الدول تعيق أي عمل منفرد تقوم به الولايات المتحدة ضد العراق، وأعتقد أنه لن يكون هناك مجال واسع لاتفاق كل هذه الدول على نظام دولي جديد بدون حروب إقليمية ربما تولد قوى جديدة تساعده على التنظيم الجديد للعالم، لأن الخلاف بينها كبير جداً، فإما ولايات متحدة منفردة، وإما قيادة جماعية للعالم.

ـ فالمخاطر كبيرة، وبدأت الولايات المتحدة تحس بضعفها وبعدم تمكنها من السيطرة على العالم عسكرياً، لأن كل عمل عسكري، لا يكون مغطى بوضع دولي سيكون عملاً عبثاً، وإن تحقق فيه نصر عسكري فقد تكون النتائج السياسية للدول التي لم تشارك بالحرب وتقطف الثمار المتوقعة، كما حدث هذا في التاريخ كثيراً، فإن دخول الحرب سهل وإنهاءها كما يريد من دخلها ليس مضموناً، فقد لا يوافق حساب الحقل حساب البيدر كما يقولون ـ!!!

5/ 2002م

لماذا اجتمع بلير وبوش في بلفاست؟

هل يعقل أن يجتمع في إيرلندا رئيس أعظم وأقوى دولة في العالم مع رئيس دولة تابعة له كما يقولون، وعلى أرض دولة تابعة للتابعة، فيقطع هذا الرئيس العظيم المحيط الأطلسي ويغادر عاصمته أثناء الحرب، وكأنه قد استدعي من طرف رئيس الدولة التابعة إلاّ لأمر جلل أو نبأ عظيم.

لمحاولة فهم هذه الحدث سوف أسرد على طريقة المحامين ما يسمى بالوقائع التي لا خلاف عليها حيث شاهدها المشاهد أو قرأها القارئ العادي وليس السياسي الفذ الألمعي.

ـ يوم الأحد 6/ 4/ 2003م

بينما السيد الصحاف يقول في مؤتمره الصحفي اليومي: إنَّه سحق (العلوج) الأمريكان في مطار صدام، تقف دبابتين أمريكيتين وكأنهما جبلان صغيران على جسر الرصافة في بغداد، حيث لا يبعد 2 كم عن فندق فلسطين مركز الصحافيين والإعلاميين الذين يغطون أحداث حرب العراق.

وتستمر الدبابتان في مشاغلة القوات العراقية القريبة ومشاغلة الصحافيين ليومين كاملين حتى يوم الثلاثاء مساء بدون أن يصيبهما مكروه.

ـ يوم الاثنين 7/ 4/ 2003م

اجتمع بلير وبوش في (بلفاست) إيرلندا وقيل: إنهما بحثا وضع العراق بعد انتهاء الحرب ودور الأمم المتحدة إن كان لها دور.

ـ يوم الثلاثاء 8/ 4/ 2003م

يقصف مكتب الجزيرة ويقتل الصحفي طارق أيوب رحمه الله وهو على سطح المكتب. وكذلك تقصف مكاتب محطة أبو ظبي الفضائية، ويزيد الموضوع إثارة عندما يقصف فندق فلسطين مقر الصحافيين جميعاً، وخاصة نافذة في الدور الثامن من الفندق، حيث يحاول المصوران الإسباني والأوكراني التصوير إلى بعيد، مما يوجب قتلهما.

ـ ليل الأربعاء 9/ 4/ 2003م

ينعم أهل بغداد بليل هادئ على غير العادة، وبدون قصف جوي أو مدفعي من الأطراف المتحاربة، ويصحو الناس فلا حرس جمهوري ولا فدائيي صدام، ولا قيادات.

ـ صباح الأربعاء 9/ 4/ 2003م

يعلن الجيش الأمريكي سقوط بغداد، وتدخل دباباته بشكل استعراضي إلى فندق فلسطين، ومعها مفاتيح بغداد وتكتفي بشنق صنم كبير لصدام بدلاً عن الأصلي، حيث أشغلت الإعلاميين والناس لساعات عديدة بهذه المهزلة التي من الممكن أن تتم في خمسة دقائق بضربة من (بلدوزر).

ـ يوم الخميس 10/ 4/ 2003م

بثت إذاعة قوات التحالف المسماة (نحو الحرية) كلمة للسيدين بوش وبلير موجهة للشعب العراقي، وأعلنت الإذاعة أن هاتين الكلمتين مسجلتين من بوش وبلير منذ يوم الاثنين 7/ 4/ 2003م في قمة بلفاست، حيث ابتدأ السيد بوش خطبته مستبقاً السيد بلير بقوله (في هذه اللحظة يتم خلع صدام حسين ونظامه من الحكم وتنتهي حقبة طويلة من الخوف والقسوة...).

هذه الوقائع البسيطة التي ذكرناها يعرفها أي مستمع ومتتبع للمحطات الفضائية، وبدون أن يتمتع بالذكاء والعبقرية والحصافة، على أن يقوم بعمليتي الربط والتحليل وفق أصولها الموضوعية، فيصل إلى رؤية من خلال المنظور التالي:

* لم يكن للسيد بوش المتغطرس والذي يتزعم أكبر قوة في العالم أن يقطع المحيط الأطلسي ويقبل باستدعاء السيد بلير له إلى إيرلندا لمقابلته حفاظاً على ماء وجهه حتى لا يستدعيه إلى لندن، وهذا مخالف للبروتوكول، وإلاّ فإن بلفاست ليست بعيدة كل البعد عن لندن. إن قبول بوش باستدعاء بلير له يعني أن بلير عنده معلومات هامة جداً ويتعلق بها مصير بوش وحربه في العراق.
* لماذا قبل بوش أن يسجل كلمته يوم الاثنين وبحضور بلير في (بلفاست) على أن لا تذاع إلاّ لاحقاً،؟ ولماذا ابتدأ بوش كلمة (في هذه اللحظة يتم خلع صدام..) أي يوم الاثنين.

* لا يحتاج التفسير إلى كثير من الذكاء حتى نرى أن بوش لم يكن يعلم بالضبط ما يجري في بغداد، وأن بلير هو الذي أعلمه بأن اتفاقاً ما مع جهات عراقية قد تم لإنهاء نظام صدام في بغداد، ولكن السيناريو يحتاج إلى يومين حتى يوم الأربعاء، وسوف يعطي بلير السيد بوش أولوية إعلان سقوط النظام في حينه إكراماً له ولدولته.

* إذن المفروض أن الاستخبارات البريطانية الخبيثة والخبيرة في الشرق الأوسط، كانت قد حسمت موضوع صدام مساء يوم الأحد أو صباح الاثنين 6/ 4/ 2003م بموجب اتصالاتها مع قيادات عسكرية وسياسية داخلة مع صدام في اللعبة أو مخترقة له منذ حركة عبد الرزاق النايف وإبراهيم الداود التي أطاحت بعبد الرحمن عارف عام 1968م، حيث أتت مرحلة الرئيس أحمد حسن البكر الذي مهد لاستلام صدام.

* ما كان للقوات الأمريكية الجوية وللدبابتين الواقفتين على جسر الرصافة أن تطلق النار على صحفيين ومصورين لو لم يكن الأمر خطيراً جداً، حيث اضطرت إلى قتل بعض الصحفيين والمصورين المتطلفين الذين رغبوا أن يصوروا ما هو محرّم عليهم في شمال وجنوب وشرق بغداد، لتفسير ما يتم في الخفاء بين الحلفاء ورجال النظام في بغداد، وكذلك قصف كل صحفي يخرج إلى السطح أو يرصد أو يصور من النافذة في الطوابق العليا.

وأخذ الصحفيون والمصورون يستمتعون بمناظر الدبابتين وانشغلوا في الاحتجاجات عن القصف الأمريكي وتشييع القتلى والمصابين، فيما كانت الصفقة تتم بالخفاء والانسحابات تتم تحت جنح الظلام والأمور يتم ترتيبها يومي الاثنين والثلاثاء حتى تتمكن بغداد من أن تستسلم صباح الأربعاء.

ـ أما كيف تم هذا الأمر فلا يعلم إلا الله وأولي العلم أمثال طوني بلير وأجهزته، ولكني كقارئ أسوق خبرين نشرتهما جريدة الحياة ربما يساعدان في تفسير هذا الحدث.

الأول: جريدة الحياة 12/ 4/ 2003م رقم العدد 14628، ذكرت تحت عنوان بريماكوف (طلبت منه التنحي فربت على كتفي)، ذكرت أن بريماكوف قال: في مؤتمر صحفي عقده في موسكو أن الرئيس فلاديمير بوتين اتصل به هاتفياً ليلة / 17/ آذار

(مارس) وأشار إلى ضرورة بذل قصارى الجهود لتفادي صدام مسلح سيؤدي حتماً إلى كثير من الضحايا البشرية.

ـ وبناءً على هذا التكليف توجه بريماكوف إلى بغداد وقال لصدام «إذا كنت تحب بلادك وشعبك وتريد تجنيبه الخسائر فإن عليك التنحي عن الرئاسة»، وأضاف بريماكوف إنَّ صدام أصغى إليه بصمت ثم طلب إليه أن يكرر اقتراحه بحضور نائب رئيس الوزراء طارق حنا عزيز، فوافق فعلاً وكرر رسالته.

الثاني: جريدة الحياة الجمعة 11/ 4/ 2003م العدد 14627: نهبت القصور الرئاسية وكذلك بيوت المسؤولين الكبار إلاّ بيت طارق عزيز تأخر نهبه، حيث جلس السارقون على أبوابه ولم يسمح لهم جنود التحالف حتى انقضى الليل، وقال لهم الجنود غداً صباحاً تسرقون ما تشاؤون، إننا نستخدم المنزل هذه الليلة، وبعد ذلك في الصباح سمحوا لهم وسرق الشعب أمواله من السارقين، ولم يسلم من السارقين حتى تمثال لمريم عليها السلام (العذراء)، كما أفاد أحد المشاهدين، حيث احتفظ طارق بهذا التمثال للذكرى بعد أن أسلم على يد صدام.

ـ يضاف إلى ذلك أن طباخين وخدم صدام حسين من طائفة طارق عزيز كما هو معروف، وهنا تكمن أهمية الطباخ والخادم حيث يعرفون عورات ونقاط ضعف أصحاب القصور ومعلومة قصة عدي عندما قتل أحد كبار الطباخين (السفرجية) منذ سنوات وهو من نفس الطائفة، يضاف إلى ذلك أن السيد طارق مدرس اللغة الإنكليزية الذي لم يكن في يوم من الأيام بعثياً قبل أن يكتشفه صدام ليكون صاحب الحظوة في الاتصالات والعلاقات الدولية عندما يدلهم الخطب.

ـ وإلاّ لماذا يطلب صدام من بريماكوف أن يقدم اقتراحه أمام طارق عزيز وليس أمامَ نائبيه عزت إبراهيم الدوري، وطه ياسين رمضان؟ ولماذا تمنع قوات التحالف مؤقتاً نهب بيت طارق عزيز قبل مصادرة كافة الأوراق والمستندات الرسمية والشخصية خوفاً من وقوعها في يد جهات أخرى، ومن يعلم ماذا جرى في الليل في بيت طارق عزيز عندما كانت قوات التحالف تمنع أي دخول إلى بيت السيد عزيز؟

ـ إذن صدام حسين يريد أن يُسمع طارق عزيز مباشرة الاقتراح من بريماكوف حتى لا يساء تفسير الحدث لأن مسؤول العلاقات الدولية في مثل هذه الأمور هو طارق عزيز وليس صدام حسين.

ـ إن ما ذكرته يقوم على تحليل نصوص ووقائع ويحتمل الصواب والخطأ، أما كيف تم (السيناريو) الداخلي، وهل كان ذلك برضا صدام أم رغماً عنه بحياته أو مماته؟ وما دور بطانته؟ وما دور (أبو ناجي) كما يسمي العراقيون الإنكليز؟ وكيف ضاع صدام وضيّع العراق وصعق آمال العرب والمسلمين بهذه البساطة؟ لا تستغربوا أي شيء يحدث، إذا قمع الشعب واستبد الحاكم وانتهكت الحريات؟؟

13/ 4/ 2003م

لماذا احتلت الولايات المتحدة العراق؟

إن القواعد التي تقام على مقدمات خاطئة تعطي نتائج خاطئة، وليس بالضروري أن تعطي المقدمات الصحيحة نتائج صحيحة. من هذا المنطلق سأحاول تحليل وضع الاحتلال الأمريكي للعراق وأسباب ودوافع هذا الاحتلال ونتائجه على المدى القريب والبعيد من خلال المقولات التالية:

* هناك شبه إجماع في وسائل الإعلام العربية والدولية المقروءة والمسموعة قبل وأثناء وبعد احتلال العراق، بأن الولايات المتحدة احتلت العراق للسيطرة على ثروته النفطية وليساعد ذلك في السيطرة على نفط العالم العربي، وإن شركات النفط العملاقة هي التي خططت لذلك، وهي التي تقف وراء الرئيس الأمريكي، وهي التي أتت به لتنفيذ هذا الجدول النفطي.

* إن اليهود الصهيونيين يسيطرون على القرار السياسي في الولايات المتحدة، وإن إسرائيل هي التي جرّت الولايات المتحدة إلى اتخاذ هذا القرار الاحتلالي، وإن احتلال العراق هو لمصلحة إسرائيل، وإن السياسة الأمريكية هي ألعوبة في يد اليهود، وإن غالبية المستشارين السياسيين في البيت الأبيض والبنتاغون هم من اليهود، وهم أداة للسيطرة الإسرائيلية على السياسة الأمريكية.

* إن الولايات المتحدة هي التي أنهت مرحلة الحرب الباردة عام 1990م عندما أسقطت الاتحاد السوفييتي وأسقطت جدار برلين وأصبحت الدولة المنفردة التي تتحكم في مصير السياسة الدولية للعالم.

* إن الاقتصاد الأمريكي في وضع سليم وصحي، وهو أقوى اقتصاد في العالم، وإن الدولار هو العملة المعترف بها في العالم للتعامل الدولي، وهو أداة التقييم لبرميل النفط في العالم.

إن قول نصف الحقيقة ليس بحقيقة، وإن تشويه الحقائق هو أكاذيب، وإن تكرار الأكاذيب حتى تصبح عقائد بديهية لا يرفعها إلى مستوى الحقائق الواقعية.

بناءً على ذلك أقول: إن النفط هدف مطلوب في سياسة الولايات المتحدة ونموها الاقتصادي، لكنه ليس الدافع الرئيس لاحتلال العراق، لأن الولايات المتحدة تسيطر على نفط العراق من أيام صدام حسين وقبل صدام، فالعبرة بالسيطرة على أسواق النفط، وليس على إنتاجه، فالولايات المتحدة كانت وما زالت مسيطرة على تسويق النفط في العالم سواءً أنتجته شركات أمريكية أم شركات عالمية أو محلية. فالتسويق أهم من الإنتاج، وخبراء النفط يعلمون ذلك، وإن الولايات المتحدة أسقطت حكومة مصدق في إيران عن طريق تسويق النفط وليس عن طريق الإنتاج، وكذلك أنهكت الاقتصاد العراقي بهذا السبب بعد الحظر الذي فرضته عن طريق الأمم المتحدة.

* أما أن اليهود يسيطرون على القرار الأمريكي في البيت الأبيض والبنتاغون، فهذه أكذوبة كبرى تنشرها بعض الصحف الأمريكية المرتبطة بالـ CIA حتى تخيف الحكام والشعوب العربية والمسلمين قاطبة، وهي وسيلة من وسائل الابتزاز الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط. وإن هذه الأكذوبة الكبرى غير لائقة بدولة كالولايات المتحدة يحكمها الآباء المؤسسون عن طريق عوائل سيطرت على مفاتيح الاقتصاد، وهؤلاء هم أهل الفعاليات الاقتصادية الذين يتعاقدون مع الرئيس الأمريكي ليحكم أمريكا كما يريدون، من خلال مصالح أمريكا ومصالحهم المرتبطة ارتباطاً عضوياً ومصيرياً. إن اليهودي الأمريكي هو إنسان رأسمالي قبل أن يكون يهودياً يفصل الدين عن الحياة إن كان يؤمن بدين، وهو يستغل كل الأديان لمصلحة أهدافه وقيمه المتجسدة في الدولة التي تحمي مصالحه، وكل من اعتنق الرأسمالية كمبدأ سواء أكان مسيحياً أم يهودياً أم مسلماً، يفصل الدين عن الحياة، والقيم الدينية ليس لها علاقة في سلوكه الدنيوي القائم على دراسة الوقائع وتحليله، وإحلال قيمه للسيطرة على الشعوب ولتكون قيادته هي العليا ـ وهذه الفلسفة لم تتغير منذ عصر آدم سميث أبو الاقتصاد الحر ـ لأن انهيار دولته التي تحمي اقتصاده يؤدي إلى انهيار إمبراطوريته الاقتصادية، وهذا ينطبق على كافة الفعاليات الاقتصادية بغض النظر عن أي كنيسة أو كنيس أو مسجد ينتمون إليه، فلا فرق بين جورج وكوهين وقحطان طالما أنهما رأسماليون يقرون بأن قيمة السلعة تقدر بما فيها من منفعة.

* أما أن الولايات هي التي أسقطت سور برلين وأنهت الاتحاد السوفييتي فهذه فرية كبرى، والحقيقة التي ذكرتها في كثير من مقالاتي بالتفصيل أن القيادة الأوروبية هي التي أسقطت الاتحاد السوفييتي وفككته، وإن الولايات المتحدة ما زالت بحالة انتقام من الاتحاد الأوروبي بسبب طعنها من الخلف عندما أسقط الاتحاد، واستفاد من جهود الولايات المتحدة بدءاً من عام 1945م لإسقاط الشيوعية، وإبقاء اتحاد سوفييتي رأسمالي قوي يضغط على أوروبا ويحجمّها.

* أما أن الاقتصاد الأمريكي معافى وصحي، فهذا خطأ كبير فهو اقتصاد ضخم وهائل ومتشعب ومؤثر على كل العالم ولكن كعب (أخيل) فيه هو الدولار غير المغطى بالمعادن الثمينة ولا بالدخل القومي، فهو أكبر اقتصاد مدين في العالم، وسوف تتكشف عورته ويكون سقوطه مريعاً إذا ضعفت الولايات المتحدة عسكرياً، فإن الغطاء الوحيد لهذا الاقتصاد المعلول هو قوة أمريكا العسكرية العملاقة والجبارة التي تنعكس على النفوذ السياسي في العالم ضعفاً أو قوة.

* إذن لماذا اجتاحت الولايات المتحدة العراق؟ ولم تلتفت إلى انتقادات العالم وركبت رأسها وأصرت على الاحتلال؟

* كان لابد للولايات المتحدة أن تفعل ما فعلت، وإلاّ سوف تخرج من قيادة العالم عن طريق التسلسل وبحكم عامل الزمن، فالاتحاد الأوروبي والصين يكفيهما عشرة سنوات ليكونا في وضع سياسي واقتصادي موازٍ للولايات المتحدة وبدون حروب وسفك دماء، وكذلك اليابان سوف تستفيد من هذه المنافسة ونتائجها وتصل إلى مستوى الدول العظمى ليس اقتصادياً فحسب بل سياسياً أيضاً. وروسيا عندها القوة الجغرافية والبشرية والأرضية العلمية لتعود قوة عظمى كما كانت عبر التاريخ.

* استبقت الولايات المتحدة الوقت لتجعل الفارق الزمني بينها وبين من يسعى لأن يكون من أندادها طويلاً ومديداً عن طريق اجتياح العراق، ليكون قاعدة عسكرية لها في وسط منطقة الشرق الأوسط، من أجل تنظيم هذه المنطقة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً وعلى عين الولايات المتحدة وبالتسيير المباشر من العراق، كما أنها ستغير لعبة الأمم في

مجلس الأمن والأمم المتحدة من خلال تنظيم جديد يحجّم دور الدول المنافسة المزعجة، ويغير طريقة التصويت في المجلس.

* أما لماذا اختارت الولايات المتحدة الحل العسكري لتنظيم المنطقة ثم العالم باحتلال العراق، علماً أنه لا يوجد عليها تمرد جماعي من قبل حكام المنطقة يستحق هذا الزلزال الذي أحدثته في المنطقة؟ أقول:

* لقد سئمت الولايات المتحدة من جوائز الترضية التي تمنحها لإسرائيل باعتبارها قاعدة عسكرية أوجدتها بريطانيا في المنطقة لتحافظ على هذه الحدود والتي أسسها (سايكس ـ بيكو) وحيث إنَّ تغيير هذه الحدود من منظور أمريكي أصبح حتمياً، ولا يمكن العبث بها بوجود إسرائيل قوة نووية مهيمنة ومنافسة، وتملك قراراً ذاتياً من خلال مصالحها كدولة مستقلة، فكان لابد من تحجيم دور إسرائيل بحيث لا تكون حجر عثرة أمام مخططات الولايات المتحدة الأمريكية المتعارضة مع المصالح الإسرائيلية.

* إن الولايات المتحدة تزمع القيام بتغييرات جغرافية في المنطقة مضادة للتغيرات التي يدعمها الاتحاد الأوروبي حيث يحاول الاتحاد الأوروبي بموافقة إسرائيل تطوير الجامعة العربية وتحويلها إلى (سوق شرق أوسطية) هذه السياسة التي أعلن عنها (بيريز) في كتابه (شرق أوسط جديد) فينشأ اتحاد شرق أوسطي اقتصادي وسياسي، وهذا ما اقترحه الأخ القائد معمر القذافي رئيس ليبيا العظمى، في مؤتمر القمة العربي الأخير، وظن الناس أن القذافي يهذي وفي الحقيقة هو يعلم ماذا يقول.

* إن الولايات المتحدة لن تقبل بشرق أوسط جديد مدعوم من الاتحاد الأوربي وتعيش فيه إسرائيل كدولة شرق أوسطية مع الدول العربية، بخطوط حديدية ومطارات واقتصاد متعاون مع الاتحاد الأوروبي، حيث تأمن أوروبا حدودها الجنوبية من الناحية الأمنية ويصبح الشرق الأوسط الجديد عمقاً إستراتيجياً واقتصادياً للاتحاد الأوروبي.

* إذا نجح الاتحاد الأوروبي بهذا المشروع فمعنى ذلك خروج الولايات المتحدة من منطقة الشرق الأوسط نهائياً، وإضعافها عالمياً، ولذلك كان لا بد للولايات المتحدة من اجتياح العراق وإعادة تنظيم الشرق الأوسط بالقوة والاستغناء عن دور إسرائيل

كقاعدة عسكرية خدمت الأوروبيين ونافست المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط وأفريقيا، وبذلك يساعد احتلال العراق على إنهاء دور إسرائيل السابق، وإحالتها إلى التقاعد كقاعدة متقدمة خدمت الولايات المتحدة من خلال مصالحها المشتركة، حيث وجود الأصيل يحجّم وينهي دور الوكيل.

* إن المؤسسات التي تحكم الولايات المتحدة لا تأبه لأي ضغوط سواءً أكانت داخلية أم خارجية إذا كانت تتعارض مع مصالحها، حيث يشترط بأهل الفعاليات الاقتصادية الرأسمالية أن يكون لهم مواصفات البلاستيك الخالي من الإحساسات الآدمية، فالمصالح هي الأول والأخير ولا عبرة للأديان والمقدسات، فإن المؤسسات الأمريكية قتلت كينيدي وأخرجت نكسون باكياً وأوصلت فورد للرئاسة بدون انتخابات، إنها عقلية براغماتية لا يمكن التفاهم معها إلاّ من خلال المصالح.

* إن مشروع الشرق الأوسط الأوسع الذي طرحته الولايات المتحدة بعد احتلال العراق، هو من أشد المشاريع خبثاً وخطورة في هذا الوقت، فقد طرحته بعد أن ساعدت على إبقاء المنطقة خمسة عقود في ظل الاستبداد، فأسست الفعل، والآن تساعد على رد فعل مواز له بالثقل والحجم، إن هذا الشعار هو (بلدوزر) تعمل أمريكا من خلالِهِ لاستغلال وضع الشعوب المقهورة ونقلها إلى ديمقراطية مكذوبة بإنهاء القطيعة الطويلة معها، فلم يعد يهمها الحكام الآن، وهذه هي العقلية البراغماتية، فقد نقل عن الرئيس شمعون عندما سأله أحد المقربين لماذا تصر يا سيادة الرئيس على البقاء مع الإنجليز، فالعهد عهد أمريكي، فأجابه الرئيس شمعون، بودي أن أفعل ذلك وأسير مع الأمريكان، ولكنهم غير ثقات، يضغطون على الدور المائة للمصعد، وفي الطابق ستون يوقف أحدهم المصعد ويرميك من هذا الطابق ويقول لك لقد تغير المخطط نحن آسفون أو غير آسفين.

* السؤال الآن طالما أن الأحزاب السياسية قد احترقت في المنطقة من خلال الحكام العسكريين، وطالما أن الفكر قد توقف من حوالي خمسة عقود، ولم يبق في الشارع إلاّ من تاب توبة نصوحاً أو غير نصوح عن التحزب والأحزاب، وعاد الناس بمختلف

أطيافهم إلى الإسلام كفر ومشاعر وعواطف، فالولايات المتحدة تعد العدة لاستغلال هذا الشارع الإسلامي.

* أعتقد أن الولايات المتحدة لا تمانع من وصول إسلاميين للحكم في المنطقة على الطريقة التركية، أو الطريقة الإيرانية، حيث ساعدت أو على الأقل غضت النظر عن وصول كليهما للسلطة في إيران وتركيا، وهذا ما أكده الجنرال الأمريكي هويزر في مذكراته وشاه إيران وأبو الحسن بني صدر بالنسبة لإيران، وما أكده واقع الحال بالنسبة لتركيا، فيما إذا استوعبوا مصالح الولايات المتحدة بالشكل الذي يخدم الرؤية الأمريكية للوضع الدولي المقبل، وبذلك يقطعون الطريق أمام أي فهم آخر للإسلام يشكل خطراً على نفوذ الولايات المتحدة.

* والسؤال الأبرز والملح هو ما هو موقف إسرائيل، أعتقد أن احتلال العراق والحضور العسكري المباشر للولايات المتحدة ليس مرحباً به من قبل إسرائيل، ولم أسمع أي تصريح مؤيد لهذا الحضور من قبل أي مسؤول إسرائيلي محترم من الدرجة الأولى، فاليهود يعلمون أن الأمريكان ليس لهم صاحب إلاّ من خلال مصالحهم، واليهود يعلمون اللغة الأمريكية جيداً وحرب السويس شاهد حي على ذلك، ولكن لا حول لهم ولا قوة بعد التواجد العسكري الأمريكي، حتى إن هذا التواجد هو الوحيد الذي يمنعهم من استعمال القوة النووية أو البيولوجية أو حتى القوة العسكرية التقليدية أثناء التغيير الأمريكي الجاري في الشرق الأوسط والذي سيكون مفتاحاً لتغيير العالم، كما قال كل الساسة الأمريكيّين والسيد بلير أيضاً قالها في مجلس العموم.

* علماً أنني لم أتعرض لدور البريطانيين فيما يجري في المنطقة، لأن السياسة البريطانية تقوم على خبرة طويلة في أمور المنطقة من أيام لورنس العرب، فهي تعتمد على الدهاء والخبث في مسك العصا من وسطها بتأجيج الخلاف بين الأوروبيين والأمريكان وتجيير ذلك لمصالحها، وهذا دور خطر، فعليهم أن يختاروا بين أن يكونوا وكيلاً عن الولايات المتحدة بمرتبة (سمسار) أو شريكاً مخلصاً للاتحاد الأوروبي بمرتبة أصيل وهنا يكون الامتحان.

23/ 4/ 2003م

صدام حسين يملك أو لا يملك أسلحة تدمير شامل

* شنت الولايات المتحدة حرباً لا هوادة فيها على العراق لأسباب عدة أبرزها أن العراق يملك أسلحة تدمير شامل، وأن هذا النظام غير ديمقراطي استبدادي محكوم لشخص غير متزن، قراره فردي ومزاجي، ويملك هذه الأسلحة بنية استعمالها وهذا يشكل تهديداً لجواره وللعالم بما فيها الولايات المتحدة.

* إن حيازة أسلحة التدمير الشامل للدول لا يعتبر جريمة بموجب قوانين الأمم المتحدة، وإن كل دول العالم بلا استثناء تملك ما يسمى بأسلحة التدمير الشامل، فالسلاح الكيماوي والبيولوجي تملكه كل دول العالم منذ الحرب العالمية الأولى، وهو معروف لطلاب المدارس في المختبرات من المرحلة الإعدادية فالثانوية. وكل الذي حدث أن هذا السلاح جرى تطوير إنتاجه بالنسبة للجودة والكميات والفاعلية.

* فالعبرة ليست في امتلاك هذا السلاح كمواد بل العبرة في إساءة استخدام هذه المواد من طور الاستخدام الطبي والبيئي المسموح به والمستحب دولياً إلى دور الاستعمال ضد البشر الآدميين وهذا هو الممنوع دولياً، بل المفترض أنه ممنوع إنسانياً وبدون حظر دولي.

* أما السلاح النووي فهو مملوك علناً من قبل الدول الخمس الكبار صاحبة حق النقض في مجلس الأمن، وقد أضيفت إليها حديثاً دولتان متخلفتان فقيرتان هما الهند والباكستان، وهناك معاهدات حظر استعمال الأسلحة النووية واختباراتها التي شرعتها الأمم المتحدة، واتفاقات ثنائية أخرى، إلاّ أن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تملك أسلحة نووية وترفض التوقيع على اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية، كما أنها ترفض أن تضع منشآتها النووية تحت الإشراف الدولي، وإن الولايات المتحدة لا ترى بأساً في امتلاك إسرائيل لأسلحة التدمير الشامل حتى تمكن إسرائيل من الدفاع عن نفسها أمام وحشية العرب والمسلمين الذين يحيطون بها إحاطة السوار بالمعصم، فإسرائيل لا يخشى منها استخدام أسلحة التدمير الشامل لأنها دولة ديمقراطية وحكامها مثقفون ومؤهلون وحضاريون فلا خوف منهم على جيرانهم، بل الخوف من جيرانهم العرب

الهمج الذين إذا ملكوا أسلحة تدمير شامل فسيقذفون بها إسرائيل ويهددون العالم، كون حكامها غير ديمقراطيين وليس عليهم أي رقابة شعبية أو برلمانية كما يقال.

* إذن فالمقياس عند الولايات المتحدة ليس كون بلداً ما يملك أسلحة تدمير شامل، بل المقياس هي قيادة هذه البلد الديكتاتورية التي تمكنها من استعمال أسلحة التدمير الشامل بدون إذن ولا رقابة محلية أو دولية.

* المحير في هذا الموضوع، أن نظام الحكم في العراق بقيادة صدام حسين قبل 20/ 3/ 2003م إما أنه يملك أسلحة تدمير شامل كما تدعي الولايات المتحدة وبريطانيا، أو أنه لا يملك ولا خيار ثالث، وقد هاجمته قوات التحالف على أساس أنه يملك بنية الاستعمال، وأن قيادته فردية ديكتاتورية مزاجية قادرة على استعمال هذه الأسلحة بأمر من صدام حسين. ولقد سقطت العراق مدينة عقب مدينة من شبه جزيرة الفاو وميناء أم قصر مروراً بالبصرة والزبير فالرمادي فالسماوي، بغداد وما جاورها، فالموصل وملحقاتها.

* أريد أن أعرف أي أعصاب يملكها صدام حسين وقيادة العراق، عندما ترى بلدها تسقط قطعة قطعة وفرقها تباد وفيالقَها تمحق، ومليشياتها تسحق والمدنيون يقتلون ويئنون على أرصفتها ولا يوجد من يحملهم للمستشفيات. ومع ذلك قيادتها لا تستعمل أسلحة التدمير الشامل التي تمتلكها كما يقولون علماً أنها قيادة ديكتاتورية مزاجية استبدادية.

* إن الولايات المتحدة استعملت القوة النووية ضد اليابان ولم تكن الولايات المتحدة معرضة للسقوط بل كانت تقوم بعملية احتلال لليابان، وترغب في إنهاء الحرب بأقل الخسائر، ولا يشفع للولايات المتحدة ما قام به اليابانيون في ضربة (بيرل هاربير) لأن اليابان لم تستعمل في تلك الضربة أسلحة تدمير شامل.

* أريد من القارئ أن يتصور ماذا سيكون موقف الولايات المتحدة عندما تجتاحها جيوش وتحيط العاصمة واشنطن، وتقتل هذه الجيوش الأبرياء من المدنيين وتسحق العسكريين، ماذا سيكون موقف قيادة الولايات المتحدة الديمقراطية هذه القيادة

الحضارية المهذبة، لا شك أنها ستستخدم مختلف صنوف الأسلحة، إذا هوجمت الولايات المتحدة، بدليل أن كل ما قامت به الولايات المتحدة حتى الآن من تعسف وقهر وإذلال وإبادة وإهانة واحتقار للشعب العربي والإسلامي، كان بسبب قيام واحد وعشرين شخصاً بتحويل خمس طائرات إلى صواريخ واستعمالها ضد مراكز إستراتيجية في الولايات المتحدة.

* اعتبرت الولايات المتحدة أن كيانها وحضارتها مهددتان بعد عمليتي واشنطن ونيويورك وأجازت لنفسها استخدام مختلف صنوف الأسلحة إن احتاجت وبدون تحديد سواءً أكانت أسلحة تقليدية أم أسلحةَ تدمير شامل. بل إن قائد أركان الجيوش الأمريكية في مؤتمر صحفي وبكل استهتار وسذاجة يقول بأنه لم يستخدم سوى / 1500/ قنبلة عنقودية في حربه ضد العراق، وهذا يعني أنه إذا لزم الأمر سيستخدم أي أسلحة محظورة دولياً فيما إذا كان أمن الولايات المتحدة مهدداً من قبل دولة أخرى. لله در رئيس الأركان هذا كم هو فهيم وعبقري.

* بعد هذه المقدمة التي ذكرتها وبمقارنة وضع نظام صدام حسين الديكتاتوري المستبد الهمجي مع نظام الولايات المتحدة مصدر الديمقراطية والحريات والإنسانية، كما يُقال من منظور استعمال أسلحة التدمير الشامل للمحافظة على الدولة والشعب والقيم والحضارة. فإني أطالب جمعيات حقوق الإنسان والرفق بالحيوان والمنظمات الدولية الإنسانية أن تمنح الرئيس المهزوم صدام حسين وسام الصبر بمرتبة حمار على سكوته، وشعبه يذبح من قبل التحالف وهو يملك أسلحة تدمير شامل ولم يستعملها مع ذلك، أو وسام التواطؤ بمرتبة طرطور، أو وسام السذاجة بمرتبة أبله، واعتباره القيادة الديمقراطية الوحيدة والمؤهلة حضارياً في العالم التي فضلت الانكسار والاندحار والإذلال على مخالفة قوانين الأمم المتحدة، ولا أدري كيف أمكن لصدام أن يكون عاقلاً ومجنوناً في آن واحد.

7/ 5/ 2003م

أزمة حكم في الولايات المتحدة: أسبابها ونتائجها

بينما الرئيس الأمريكي السيد دبليو بوش يقوم بزيارة مع عدد من كبار حاشيته إلى سبعِ دول أفريقية حدث حدثان هامان في واشنطن لابد من دراستهما بعناية لمعرفة ماذا يجري في العالم، الأول: تصويت مجلس الشيوخ الأمريكي بإجماع الحاضرين وعددهم 97 سناتوراً جمهوريين وديمقراطيين على توصية الرئيس الأمريكي بأن يطلب من الدول الأوروبية، وعلى رأسها فرنسا وألمانيا بأن تشارك عسكرياً مع الولايات المتحدة في استقرار العراق، والثاني: تصريح لرئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية CIA السيد تينيت، بأنه قد اطلّع على خطاب رئيسه بوش عن حالة الاتحاد في 28 يناير الأخير وأنه أقر المعلومات الواردة به، بأن العراق حاول شراء مواد نووية من النيجر، وعلى أثر هذين الخبرين قامت القيامة ولم تقعد حتى الآن ولن تقعد، لأن الموضوع يتعلق بشرعية الحرب على العراق، وإن مصالح دولية متعارضة ومتناقضة وراء ما يحدث في العراق، وهناك أطراف كثيرة يهمها الطعن في مصداقية الرئيس الأمريكي ومصداقية شرعية هذه الحرب وتحديد أهدافها الحقيقية التي لامسها ودار حولها الكثير من المعلقين السياسيين الدوليين، ولكن لم تحدد أبعادها حتى الآن.

بدأت قصة مشروعية الحرب على العراق كونها تملك أسلحة تدمير شامل (بيولوجية وجرثومية ونووية) وهذا يهدد أمن الولايات المتحدة، والأمن العالمي كما زعمت الولايات المتحدة، فلا بد كما قال السيد بوش من تجريدها من هذه الأسلحة سلماً أو حرباً.

إن ما يجري الآن بهذا الخصوص، هو تتمة لما جرى في مجلس العموم البريطاني قبل الحرب على العراق، حيث جرى انشقاق صوري في حزب العمال الحاكم لمصلحة عدم دخول بريطانيا الحرب مع الولايات المتحدة، وتزعّم هذا الاتجاه أحد أقطاب حزب العمال ووزير خارجية سابق وهو السيد (روبن كوك)، وإن دخول بريطانيا الحرب تم عندما أيد أغلب نواب حزب المحافظين الحكومة العمالية، فأصبح هناك تأييد للسيد توني بلير من قبل الحزب المعارض مما مكنه من دخول الحرب مع

الولايات المتحدة، وفاز المحافظون الحكام الحقيقيون لبريطانيا في لعبتهم بقيادة العمال إلى ما يريدون.

أكد السيد بلير في خطبه الكثيرة في مجلس العموم على تملّك العراق لأسلحة الدمار الشامل، وخاصة ما أورده من معلومات حول تملّك أو محاولة تملّك مواد نووية بموجب معلومات قطعية من النيجر.

إن السيد بوش وقع في فخ السيد بلير، وأخذ التقرير الذي أعده السيد (كامبل) المستشار الإعلامي للسيد بلير وجعله حقائق يشن الحرب بموجبها على العراق، علماً أن هذه المعلومات كما ذكر الكثير من المسؤولين والصحافيين مأخوذة عن رسالة دراسات عليا يعدّها طالب على (الأنترنت) منذ سنوات عديدة.

إن التقرير الذي أعده مراسل لهئية الإذاعة البريطانية BBC هو الذي فجر الموقف عندما أيد الرأي، بأن السيد توني بلير بالغ في موضوع قوة العراق وقوة تسليحه بأسلحة الدمار الشامل، ولقد رفضت هيئة الإذاعة البريطانية أن تعتذر للسيد بلير، مما أكد صرامة موقفها بهذا الخصوص.

التساؤل الآن هل من المعقول أن تنشر هيئة الإذاعة البريطانية موضوعاً بهذه الحساسية تتهم به رئيس الوزراء بأنه قد غش البرلمان والشعب عندما اعتمد على تقارير مزيفة وغير صحيحة لشن الحرب على العراق؟ علماً أن هيئة الإذاعة البريطانية يرأسها ممثل عن جهاز الاستخبارات البريطانية (إسكوتلانديارد).

إن التحليل القريب إلى المنطق السوي يدل على أنه ليس المقصود بتسريب هذا الخبر عن هيئة الإذاعة البريطانية، وفي هذا الوقت بالذات، ليس المقصود توني بلير، إنما المقصود هو النظام السياسي في الولايات المتحدة وعلى رأسه الرئيس المنتخب عنوة أو صدفة جورج دبليو بوش، من أجل إيجاد أزمة حكم في الولايات المتحدة تستفيد منها بريطانيا وأوروبا من خلال سياستها في إضعاف الولايات المتحدة داخلياً وخارجياً.

فلقد وضعت السياسة البريطانية السيد بوش في عنق الزجاجة لا هو قادر على التقدم أو التراجع بالشكل الذي يبقي احترامه كرئيس للولايات المتحدة عند المواطن

الأمريكي البسيط الذي تبرمجه أجهزة الإعلام حسب رغباتها، فكان حاله حال القول المأثور «إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم».

حيث ظهر في موقف الساذج الذي لا يستحق أن يكون رئيساً للولايات المتحدة، فكيف وهو رئيس الدولة العظمى الوحيدة في العالم، يأخذ بتقرير بريطاني سطت عليه الاستخبارات البريطانية من طالب دراسات عليا، ويعتمده بوش لشن حرب دولية بدون مبرر قانوني وضد رغبة العالم، ولن ينفعه المستر تينت رئيس CIA في تحمله خطأ رئيسه، حيث صرح بأنه يتحمل كامل المسؤولية عن عملية الموافقة على إدراج هذه المعلومة في خطاب بوش، لأن حكام أمريكا الحقيقيين اللذين ساعدوا بانتخاب بوش لن يرحموه عندما يضعف أداؤه فهم لم يرحموا قبله الرئيس نكسون عندما أصبح وجوده يتعارض مع مصالحهم.

لا يمكن أن نفسر ما جرى إلا أنه مقلب تواطأت به ابتداءً بريطانيا على الولايات المتحدة لتوريطها في حرب على العراق لتغرقها في مستنقع آخر بعد أن أغرقتها في مستنقع أفغانستان، والآن تحاول فرنسا مع بريطانيا أن تغرق الولايات المتحدة في مستنقعات أفريقيا.

السؤال المنطقي: هل الولايات المتحدة بهذه السذاجة حتى تتمكن بريطانيا بالتواطؤ مع أوروبا وروسيا والصين لتقودها إلى هذه المستنقعات على خلافِ مصالحها؟

الجواب: هو أن الولايات المتحدة قد فقدت صوابها ورشدها بعد انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي في عهد بوش الأول، بعد أن تواطأت عليها الدول الأوروبية جميعها بما فيها رأس الخبث والمكر بريطانيا في عهد الثالوث (تاتشر، ميتران، كول) وفرطوا الاتحاد السوفييتي كقوة عظمى رهيبة تقمع بها الولايات المتحدة الطموحات الأوروبية، وهذا ما جعل بوش الأول يسقط في الانتخابات وهو بعز انتصاره المزعوم في ما سمي بحرب تحرير الكويت.

لقد ورث السيد كلينتون من بوش الأول الولايات المتحدة كقوة عظمى من الناحية العسكرية، قوة لا تقهر وجهاً لوجه على الإطلاق، واستطاع كلينتون أن يحافظ

على هيبة الولايات المتحدة إلى حد ما كمختار (عمدة) للعالم ولو بالاسم والقيمة والوزن العالمي.

ورث بوش الثاني هذه القوة العالمية، وكان أمام خيارين، إما أن يشارك العالم وخاصة أوروبا وروسيا والصين واليابان بشكل رئيسي، أو أن يرفض هذه القيادة المشتركة، فيتم على أثر ذلك إدخال الولايات المتحدة بتواطؤ عالمي إلى حروب عديدة ـ ومنها حروب الإرهاب ـ تؤدي إلى إضعافها وإنهاكها وتجرؤ الجميع عليها، وإثبات فشلها وأنها غير قادرة على الانفراد بقيادةِ العالم.

إن وضع الولايات المتحدة السياسي والدولي الآن وضع بائس ومضطرب، فليس أمامها إلا أن تساعد في تنظيم دولي جديد للعالم تكون إحدى القوى المؤثرة به، أو ستكون نهايتها كنهاية (نابليون) الثالث عندما حاول قيادة أوروبا ومن ثم الانفراد بالقرار السياسي والعسكري فلم ينجح وباء بفشل كبير وانتهى به المقام إلى الفشل الذريع لأنه كان يلعب لعبة أكبر منه ومن مقدرات بلده، حيث لا يمكن لأي قوة عظمى أن تسيطر على العالم بقوة عسكرية بشكل منفرد، وإن الأعمال العسكرية هي من أجل تحقيق أهداف سياسية.

هذا هو بالضبط ما حصل مع الولايات المتحدة فقد بدأت بالتوسل إلى أوروبا لتساعدها في حلول المشاكل الدولية وقبلت بكل ما كانت ترفضه سابقاً، فبدأت تعود إلى الأمم المتحدة وإلى مجلس الأمن وإلى أوروبا لإنقاذها من ورطاتها العسكرية في العالم، حيث رفضت ألمانيا وفرنسا التدخل عسكرياً في العراق ما لم يكن ذلك بقرار من الأمم المتحدة يحدد أهداف وشكل هذا التدخل، ولن يمضيَ وقت طويل حتى تتوسل الولايات المتحدة إلى الصين وروسيا لإشراكهما في اللعبة الدولية، وكذلك اليابان، وحتى للعالم الثالث، وإن الدول المؤثرة في العالم ستستمر في سياستها من أجل إنهاك الولايات المتحدة في حروب إقليمية حتى تتوب الولايات المتحدة توبة نصوحاً وتقبل بالمشاركة الدولية لأصحاب المصالح الأخرى.

13/ 7/ 2003م

من بلفاست إلى لندن

بتاريخ 7/ 4/ 2003م من يوم الاثنين استدعى السيد بلير رئيس وزراء بريطانيا العظمى سابقاً رئيس الولايات المتحدة الأمريكية السيد دبليو بوش للاجتماع معه في بلفاست وعرض عليه خطة دخول بغداد وإقصاء صدام حسين عن الحكم بدون إراقة دماء وتحمل خسائر فادحة، زاعماً أن أجهزة استخباراته استطاعت شراء ذمم ضباط عراقيّين، ولقد وافق السيد بوش على خطة السيد بلير لدخول بغداد دخول الفاتحين وبدون خسائر تذكر طمعاً في إنهاء نظام صدام حسين، واعتقد بوش أنه يحقق بذلك ما لم يحققه أبوه من قبل وما لم تستطيع الإدارة الأمريكية في عهد كلينتون تحقيقه.

هنا وقع السيد بوش في الفخ الخبيث الذي نصبته الاستخبارات البريطانية وأدخلته إلى مستنقع العراق الذي لن يخرج منه سالماً لا هو ولا الإدارة الأمريكية المحافظة وهذا ما شرحته سابقاً في الموضوع الذي نشرته لي المحرر بتاريخ 24/ 4/ 2003م رقم العدد 392.

بعد دخول بغداد وخلال الأشهر الستة من الاحتلال أحست الإدارة الأمريكية بسذاجتها وكيف أن الإدارة البريطانية أوقعتها في مستنقع لحرب مؤجلة وطويلة، مكنت البريطانيين والأوربيّين من إيقاع الأمريكان في فخ لئيم لن يخرجوا منه حتى يوافقوا على إعادة اقتسام العالم بموجب وضع دولي جديد، يجعل كل القوى المؤثرة في العالم شريكة معهم، ليس الأوربيون فقط بل الروس والصين واليابان، وربما دول أخرى صاعدة يفرزها النظام الدولي المتوقع، حيث تمركزت القوات البريطانية في جنوب العراق في ظل عشائر وقبائل الشيعة المعروفة منذ أوائل القرن العشرين في تعاضدها مع الإنكليز وكرهها للأمريكان، حيث ترتبط هذه العشائر في حوزتها الدينية ارتباطاً وثيقاً في إعلان الحرب والسلم، وسلمت المثلث السني للأمريكان حيث جهنم وبئس المصير.

أعادت الإدارة الأمريكية دراسة الوضع بعد سقوط بغداد الكاذب وأحست بالفخ الإنجليزي الذي نصب لجيوشها، عندما استطاعت بريطانيا أن تقنعها بدخول الفاتحين المكذوب الذي أدخلها في رمال متحركة وحقول ألغام لا يعلم إلا الله مداها.

إن دخول الأمريكان بغداد بالأسلوب الخبيث الذي رسمه لهم الإنجليز، هو الذي مكن صدام حسين وأجهزته من البقاء أحياء وتحويل الحرب من حرب نهائية ونصر حاسم للأمريكان إلى حرب أشباح لن تستطيع الولايات المتحدة أن تخرج منها إلا أن تنجدها دول العالم الطامحة والطامعة بأسرها. حيث رفضت كل الدول المؤثرة في أوروبا والتي تحمل عداوة علنية وثارات قديمة أن تدخل الحرب مع العراق كما حصل معها في أفغانستان وبتواطؤ أوربي أيضاً ضدها.

أعتقد أن القوى الطامحة في العالم مثل الأوربيّين ورأس حربتهم بريطانيا والصين والروس واليابان توصلوا إلى أن الولايات المتحدة قوة لا تقهر بحروب وجهاً لوجه، فهي قوة عملاقة في كل شيء ولا جدال في ذلك. وإن الحرب التي أسموها حرب الإرهاب هي الحرب الوحيدة القادرة على إذلال الولايات المتحدة، ولا يزال الإنجليز يتذكرون كيف أذلتهم الولايات المتحدة في حربها مع الأرجنتين عام 1982م، بما سمي حرب الفوكلاند، عندما مكنت الولايات المتحدة رجلها وجنرالها ودكتاتورها ليحتل الجزر، ووضعت السياسة الأمريكية السيدة تاتشر أمام خيارين لا ثالث لهما، إما الانسحاب من كل أرخبيلات جزر المحيط الأطلسي أو تجهيز أسطولها الحربي ليحارب الأرجنتين، وقد اختارت بريطانيا المواجهة في الفوكلاند. وعندها ساومتها الولايات المتحدة إما إنهاء وجودها في جزر المحيط الأطلسي أو أن تغير سياساتها في كثير من مناطق العالم، ولقد فضلت وقتها تاتشر الحل الدبلوماسي مع الولايات المتحدة، حيث تمكنت الولايات المتحدة من الإبقاء على هيبة بريطانيا، وساعدتها ضد دكتاتور الأرجنتين وتحقيق نصر صحافي وإعلامي للإنجليز.

والآن وصل السيد بوش إلى بريطانيا بتاريخ 19/ 11/ 2003م طالباً النجدة من الإنجليز المستشارين العارفين بخفايا الأمور في بغداد للإبقاء على هيبة الولايات المتحدة ومساعدتها على إيجاد حل يحفظ كرامة الولايات المتحدة.

هل يستجيب الإنجليز لهم وكذلك الأوربيون، لا أعتقد ذلك وسوف لن يمكنوا الأمريكان من الخروج سالمين من بغداد حتى يوافق الأمريكان على قسمة

عادلة ونظام جديد يوزع المكاسب على كافة الدول الطامحة بما فيها أوربا والصين والروس واليابان.

إن الأمريكان في أزمة حقيقية والعالم كله يقف ضدهم، منهم علناً وبوقاحة وشماتة كالفرنسيين ومنهم بشماتة فقط كالروس ومنهم بانتظار المراقب كالصين ومنهم بثارات بعيدة المدى كاليابان.

أرى أن الأمريكان لن يخرجوا من نفق العراق إلا بعد اتفاقات مع دول العالم الطامحة بنظام دولي جديد يقوم على تعدد الأقطاب وتعديل نظام الأمم المتحدة بما في ذلك مجلس الأمن الذي ستدخله دولة أخرى حسب الموقف الدولي الذي ستفرزه حرب العراق والشرق الأوسط. وأثر ذلك على العالم بأسره.

24/ 11/ 2003م

الولايات المتحدة ـ العراق ـ هل انتفاء السببية يوجب التعويض؟

اتفق القانون والفقه والاجتهاد على تعريف الرابطة السببية عند البحث عن الأسباب والمسببات، فقالوا إن السبب هو الباعث أو الدافع على الفعل، وهو ما يكون من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فالعقوبة تكون بسبب الفعل الذي أحدثها، والتعويض ينتج عن الفعل الذي سببه.

ـ من خلال ما تقدم في السبب والمسبّب نبحث مدى مسؤولية الإدارة الأمريكية ممثلة برئيسها جورج دبليو بوش عن الأضرار والخسائر التي وقعت على الشعب العراقي من جرّاء احتلال الولايات المتحدة للعراق، وهل يوجب ذلك التعويض.

في الموضوع:

شنّت الولايات المتحدة حربها على العراق للأسباب العلنية التالية:

* العراق يملك أسلحة دمار شامل (بيولوجية ـ جرثومية ـ وربما نووية).
* العراق يحكمه حاكم مستبد منفرد الرأي وغير ديمقراطي، ويستطيع أن يتخذ قراره باستعمال أسلحة الدمار الشامل دون عودة إلى المؤسسات المنتخبة.
* العراق خطر على النظام الإقليمي والدولي.

في مناقشة الأسباب والمسبّبات:

* بعثة الأمم المتحدة برئاسة السيد (هانز بليكس)، بعد تفتيش طويل ودقيق ومحايد أكدت خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل بكافة أنواعها، وهذا الرأي يعتبر بمثابة رأي العالم أجمع باعتبار السيد بليكس يمثل الأمم المتحدة.
* محطة BBC البريطانية وهي الناطقة باسم هيئة الإذاعة البريطانية ومشرف عليها مندوب من جهاز الاستخبارات البريطانية، أثارت فضيحة كبرى، قتل بسببها في ظروف غامضة خبير أسلحة الدمار الشامل السيد كيلي.
* هذه الفضيحة كشفت زيف التقارير التي اعتمد عليها السيد بوش في شن حربه على العراق في خطبته السنوية عن حال الاتحاد، حيث ذكر بأن العراق حاول شراء 500

طن من اليورانيوم من النيجر، وأن العراق يستطيع استعمال أسلحة الدمار الشامل التي يملكها خلال / 48/ ساعة فقط، وهذا ما ذكره السيد بلير أمام مجلس العموم أيضاً.

* مؤسسات وهيئات أمريكية وبريطانية دحضت هذه الأسباب كما نشرت الصحف الدولية، كما أن أعضاء مهمين في مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة ومجلس العموم في بريطانيا استهجنوا هذه الأسباب التي شنت الولايات المتحدة وبريطانيا بموجبها الحرب، ولم يثبت شيء من هذا القبيل.

* دخلت جيوش الولايات المتحدة العراق منذ شهر أبريل 2003م وحتى هذا التاريخ لم تعثر على أي دليل على امتلاك العراق أسلحة دمار شامل، علماً أنهم سيطروا على البلاد بأسرها وأزاحوا النظام الاستبدادي عن العراق الذي كان يخيف العلماء والمختصين ويجعلهم غير آمنين عند الشهادة إذا أفشوا أسرار الدولة.

هذا يثبت خلو العراق من أسلحة الدمار الشامل بدليل تمكن الولايات المتحدة من البلاد وحكمها حكماً مباشراً ولكنها لم تعثر على دليل واحد يدل على أن العراق كان يملك أسلحة دمار شامل عند ابتداء الحرب، حيث شنت الولايات المتحدة الحرب على العراق واتهمت لجنة هانز بليكس بالتراخي في بحثها على أسلحة الدمار الشامل، ولم تمدد لها شهراً واحداً إضافياً، فكيف لم تستطع الولايات المتحدة وهي تحكم العراق أن تعثر على أثر لأسلحة الدمار الشامل وبذلك يسقط هذا السبب المزعوم أيضاً.

* لم تقتنع الولايات المتحدة أن العراق خالٍ من أسلحة الدمار الشامل وأنه خطر على النظام العالمي، فشنت الحرب لتنقذ العالم من جنون صدام حسين، وبذلك دخلت الولايات المتحدة العراق وأهلكت الحرث والنسل وأذلت العباد، وأزاحت نظام صدام حسين الديكتاتوري المستبد وأطاحت بأصنامه، ومع ذلك لم يستخدم صدام حسين المجنون كما يقولون والمتفرد والمتسلط أسلحة الدمار الشامل دفاعاً عن بلده ونظامه ونفسه.

* إن الولايات المتحدة تملك أسلحة دمار شامل وكذلك الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن ويضاف إليها الهند وباكستان وإسرائيل وغيرها من الدول التي لم تعلن عن

نفسها رسمياً حتى الآن مثل كوريا الشمالية. هذه الدول أبيح لها تملّك أسلحة دمار شامل أو سكت عنها علناً أو سراً لأسباب منها أنها محكومة من أنظمة ديمقراطية عاقلة ورصينة وتخضع لإرادة شعوبها، فلا يوجد خوف منها لاستعمال هذه الأسلحة خلاف المصالح الدولية، ولذلك يبقى العالم في أمان.

إن هذه النظرية ليست صحيحة، فلو حدث على الولايات المتحدة شيء بسيط مما حدث على العراق لاستخدمت أسلحة الدمار الشامل بكافة أنواعها، والدليل على ذلك أن شخص مثل بن لادن اتهم أنه استعمل أسلحة تقليدية بشكل غير تقليدي ضد مراكز هامة في الولايات المتحدة، لم يخلّص العالم حتى الآن من الجنون الأمريكي ضد أي متهم بالإرهاب، وخالفت أمريكا كافة الأعراف الدولية، وعادت إلى عهد الكاوبوي الذي يقود قطعان الأبقار وهددت باستخدام كافة أنواع الأسلحة إذا احتاجت إلى ذلك ولم تستثن أسلحة الدمار الشامل. فكيف إذا هوجمت واشنطن من قبل جيوش دولة معتدية أخرى وطوقت واشنطن كما طوّقت بغداد. لا شك أن أمريكا إذا وقعت بأقل من هذه الظروف فسوف تستخدم كافة صنوف الأسلحة وحتى النووي بشكل أكيد.

ـ والسؤال الآن، من المؤهل لامتلاك أسلحة دمار شامل، هل هي الولايات المتحدة أم العراق؟

لا شك أن ما حدث في العراق يدل بشكل قاطع وبربط الأسباب بالمسببات أن صدام حسين على جنونه أعقل بكثير من الإدارة الأمريكية، فهو لم يستعمل أي أسلحة دمار شامل إذا كان يملكها كما تدعي الولايات المتحدة.

ـ وبذلك تزول الأسباب التي شنت الولايات المتحدة الحرب بموجبها على العراق ويتأكد بأن صدام حسين ونظامه المجنون أعقل من نظام بوش لأنه لم يستخدم أسلحة الدمار الشامل وهو يملكها كما تصر الولايات المتحدة. وحتى إنه لم ينسف الكباري والجسور محافظةً على ممتلكات بلده، وهذا يؤكد بأن على الولايات المتحدة أن تتنازل عن قيادة العالم لأنها لا تستحق هذه القيادة، فالمجنون لا يحكم نفسه حتى يستطيع حكم غيره.

ـ وأن العراق ليس خطراً على النظام الدولي كونه جُرب بقيادة مجنونة مستبدة وكان عاقلاً فكيف في النتيجة إذا حكمته قيادة عاقلة، والولايات المتحدة هاجمت العراق بدون غطاء دولي من الأمم المتحدة، وخالفت الشريعة الدولية التي عاهدت على الالتزام بميثاقها.

ـ في النتيجة:

إن الأسباب التي هاجمت الولايات المتحدة من أجلها العراق بحجة امتلاكه أسلحة الدمار الشامل، هذه الأسباب نفتها الأمم المتحدة وواقع الحال، ولم تستطع الولايات المتحدة بعد دخول العراق أن تعثر على أي دليل يؤيد أسباب احتلالها للعراق.

ـ إذن هناك أسباب غير معلنة دفعت الولايات المتحدة لاجتياح العراق وأمعنت بشعبه تقتيلاً وبممتلكاته تدميراً، فكان حالها حال أي جهاز بوليسي يداهم منزلاً معتقداً أن هناك جماعة إرهابية تزمع القيام بعمل مخالف لأمن الدولة، فإذا بجهاز الأمن يخطئ في العنوان ويتسبب في قتل وتدمير أبرياء فعليه دفع التعويض.

ـ وإن كل من تضرر من الشعب العراقي يستطيع رفع دعوى تعويض على الولايات المتحدة ممثلة بإدارتها في أي مكان في العالم ومحاسبتها على أساس أهدافها المعلنة التي ثبت انعدام الأسباب التي شنت من أجلها الحرب، فهي مسؤولة عن التعويض على كافة المتضررين، وهذا ما يبيحه النظام الدولي للمتضرر أن يطالب به على أقل ما يمكن، حيث حيثيات بطلان الأسباب التي شنت من أجلها الولايات المتحدة الحرب على العراق، حيثيات باطلة وأسبابها معدومة، والولايات المتحدة مسؤولة عما أحدثته من أضرار.

1/ 12/ 2003م

من يستغل الآخر؟ الأصولية الإنجيلية أم اليهودية الصهيونية؟؟

راجت في السنوات الأخيرة في الولايات المتحدة صرعة لاهوتية ذات أبعاد سياسية، هناك من أسماها بالإنجيلية الأصولية، أو القدرية أو المعمدانية، والجميع ربط هذه الإنجيلية بالمحافظين الجدد والصهيونية، على أساس أن هذه الدعوة بقدها وقديدها وملايينها البشرية ومليارداتها المالية وإذاعاتها الصوتية والمتلفزة وصحفها ومجلاتها، كلها تخدم الصهيونية العالمية، وتدعم إسرائيل واليهود ضد المسلمين، وإن المسيحية الإنجيلية نفسها لا تعدو أن تكون ألعوبة في يد اليهود، وبالتالي الولايات المتحدة ألعوبة في يد الصهيونية.

هذه المقولة أكذوبة هادفة لأنها تذكر نصف الحقيقة، والقصد منها إصابة العرب والمسلمين بإحباط كامل لا يقومون منه أبداً، على اعتبار أن الولايات المتحدة والصهيونية قوة واحدة ومصلحة واحدة وحربنا على اليهود وإسرائيل تعني حربنا على الولايات المتحدة، وهذا لا طائل لنا به، فلنستسلم أحياءً صاغرين شبعانين، خير لنا من أن نموت أذلاء جائعين. هذا ليس بصحيح للحقائق التالية:

1 ـ إن الذي يحكم الولايات المتحدة هم أهل الفعاليات الاقتصادية، أبناء الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، الذين يفصلون الدين عن الحياة، فهم سواء كانوا مسيحيين أو يهود أو مسلمين، لا يعدون أن يكونوا علمانيين رأسماليين لا دين لهم سوى مقدار المنفعة الموجودة في الأشياء، أكان المسمى منهم روكفلر أ وسوروس أو عدنان، وإن مصالحه تتحقق من خلال قوة الولايات المتحدة وسيطرتها العالمية، وأمنها القومي المستقر. ولهذا لا تسيّر مصالح الرأسمالي الروحانيات لأن قلبه قطعة من (البلاستيك) وشرايينه (فابر جلاس) ودمه مصالح ونفط.

2 ـ الإسلام دين عالمي إنساني اعترف بأهل الكتاب سواء أكانوا مسيحيّين أو يهوداً، كما اعترف بالمشركين جميعاً، قوله عليه الصلاة والسلام عن المشركين (سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير آكلي ذبائحهم ولا ناكحي نسائهم)، وقوله (من آذى ذمياً فقد آذاني ومن آذاني كنت خصمه يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته).

3 ـ لم يحدث في التاريخ أبداً أن المسلمين نقضوا عهودهم مع اليهود أو النصارى على الإطلاق، فهم آمنون ومحترمون ومبجّلون ما حافظوا على عهودهم مع المسلمين، حيث لكل دولة من دول العالم دستورها وقوانينها المحترمة من قبل كل الرعايا الذين قبلوا العيش في ظل هذه الدولة بغض النظر عن أديانهم وعقائدهم. وفي القرن الحالي الذي يعتبرونه قمة عصر التنوير، لا تقبل الولايات المتحدة ولا أي دولة أوروبية الخروج على قوانينها، وحتى عن قيمها الغير مكتوبة طالما تعارف عليها الناس. بل يعملون جميعاً وبفخر واعتزاز على نشر قيمهم في العالم، حتى لو اضطروا لاستعمال القوات المسلحة كما تفعل الولايات المتحدة الأمريكية الآن في العالم.

4 ـ إن حالة العداء العقائدي والحقد البغيض متأصل في جذور المسيحية واليهودية. فالمسيحيون يتهمون اليهود بقتل المسيح عليه السلام (ابن الرب)، بينما يتهم اليهود المسيح عليه السلام بالزندقة والهرطقة بالتجديف على شريعة موسى عليه السلام. فالعداء بين الديانتين عقائدي تاريخي ومؤسس على الحقد والكراهية والضغينة ولم يستطع أي مجمّع مسكوني أن يزيل هذه الكراهية واقعياً حتى الآن.

ـ بينما اعترف الإسلام بكل الشرائع السابقة والأنبياء والرسل من آدم عليه السلام إلى محمد (صلى الله عليه وسلم). واعتبر الإسلام أن إنكار أي دين من الأديان السماوية هو كفر بالإسلام وخروج عن طاعة الله.

5 ـ الإنجيلية هي دعوى إصلاحية مفرزة عن المسيحية، أسسها القس الألماني (مارتن لوثر) وسميت بالحركة اللوثرية على اسم صاحبها القائل «يجب أن يطرد اليهود من الدولة (ألمانيا) وأن يمتنعوا عن عبادة الله، وأن تصادر التوراة وسائر كتب الصلاة لديهم، وإن كنسهم يجب أن تحرق وبيوتهم يجب أن تدمر». هذا رأي مؤسس الحركة الإنجيلية في اليهود[1].

ـ تقوم الأصولية المسيحية الإنجيلية (القدرية) في الولايات المتحدة، كما عبر عنها القسس الرئيسيّون في هذه الدعوة: فولويل ـ ليندسي ـ بات روبرتسون، جون هانجي،

---

(1) يد الله ـ جريس هالسل.

كين بوغ، على حتمية قيام دولة إسرائيل على الأرض المقدسة في فلسطين، ثم إعادة بناء هيكل سليمان القديم وإشادة المذبح في هذا الهيكل، ثم تجمع اليهود من أصقاع الأرض في هذه المنطقة، ثم قيام معركة (هر مجيدون) الذي يسحق فيها الخير بقيادة السيد المسيح (الشر)، وتكون المعركة الكبرى التي يفنى فيها كل اليهود ولا يبقى منهم إلا / 140/ ألف يخضعون للسيد المسيح عليه السلام ويجلس المسيح على عرش داود عليه السلام.

ـ يقول القس الإنجيلي الشهير (جيري فولويل): «إن عدو المسيح الذي صور لنا قبل ألفي عام على أنه متوج بالشر، يمكن أن يكون يهودياً يعيش بيننا اليوم، إنه بالتأكيد يهودي، فإذا كان عليه أن يكون خصماً للمسيح، فعليه أن يكون يهودياً» ويتابع فولويل (إن معظم الإنجيليين يعتقدون بأن عدو المسيح سوف يكون بالضرورة يهودياً).

ـ ويقول أبراهام فكسمان المدير العام لعصبة مناهضة الإفتراء اليهودية: إن عبارة جيري فولويل بأن عدو المسيح المتوج بالشر هو يهودي، تلامس اللاسامية في أحسن الأحوال وهي لا سامية في أسوئها[1] .

6 ـ إذن تبشر المسيحية الإنجيلية بأن المسيح عليه السلام لن تقوم قيامته الثانية ويعود ليقضي على الشر إلا إذا قامت دولة إسرائيل وأعاد اليهود بناء الهيكل واجتمعوا في مقتلة أو معركة (هر مجيدون) كما ورد في الفصل / 16/ الآية / 16/ في سفر الرؤيا من الكتاب المقدس.

يقول القس براد والقس سكوفيلد، إن عودة المسيح ضرورية جداً، ولذلك لابد من المساعدة لإعادة إسرائيل إلى الوجود، ولا بد من معركة (هر مجيدون) في فلسطين التي يفوز فيها المسيح والمسيحيون على الأشرار، ويجلس المسيح على عرش الملك داود.

السؤال: هل اليهودية قادت الأصولية الإنجيلية إلى مصالحها أم الإنجيلية قادت اليهودية إلى مصالحها، ومن يستغل الآخر؟

يجيب على ذلك اللورد البريطاني شافت سيري (1801 ـ 1885م) وهو من أوائل القدريين وكان يعرف بالإصلاحي الكبير، يرى أن الخطة الإلهية بشأن العودة الثانية

---

(1) يد الله ـ جريس هالسل.

للسيد المسيح تعطي اليهود دوراً أساسياً، لأن العودة الثانية لا تتحقق إلا إذا كان اليهود يعيشون في إسرائيل المسترجعة، ويشير أستاذ علوم الدين الكاهن دونالد واجنر إلى أن (شافت سري) شدد على (أن اليهود ضروريون لأمل الخلاص عند المسيحيين)، **إضافة إلى ذلك، وجد في انتقال اليهود إلى فلسطين مكاسب تجارية ورأى أن إقامة نقطة ارتكاز يهودية في فلسطين تحت سيطرة بريطانيا تمكنها من التفوق على فرنسا والهيمنة على الشرق الأدنى، كما توفر لبريطانيا ممراً مباشراً للهند، وتفتح أسواقاً كبيرة أمام مصالحها الاقتصادية**[1].

لم يكن يحدث ذلك مصادفة فقد قال: واجنر في كتابه (التوق إلى هر مجيدون) إن هذه الأهداف السياسية توافقت مع أهداف وزارة الخارجية البريطانية، واستنتج واجنر من ذلك أن **شافت سري كان قدرياً نموذجياً، لقد أراد أن يذهب كل اليهود إلى فلسطين ليصنعوا دولة إسرائيل**، ولكنه لم يحب اليهود كيهود، وكان يصفهم بأنهم ذوو قلوب سوداء ورقاب غليظة، إنهم غارقون في الإثم وفي الانحلال الأخلاقي وفي جهل المسيح ومملكة الرب، وهذا يؤيد الرأي القائل بأن السياسة البريطانية هي اللاعب الأساسي في إقامة دولة إسرائيل لأهدافها السياسية حيث تمزق الدولة العثمانية وتأخذ تركة الرجل المريض، وتحافظ على تجزئة هذه البلاد بإقامة كيان لإسرائيل من خلال المصالح البريطانية أولاً والفرنسية ثانياً، مانعة بذلك قيام أي وحدة من خلال العروبة أو الإسلام، حيث استطاع وزير خارجية بريطانيا (بلفور) (**البريطاني الرأسمالي**) أولاً واليهودي ثانياً دغدغة أحلام وآمال اليهود بمساعدتهم **على إقامة دولة دينية لهم تخدم الأهداف البريطانية الرأسمالية** العالمية، ريثما ينتهي مفعول هذه الدولة. وتزول المبررات التي أدت لقيامها.

مما تقدم يفهم أن الدعوة المسماة الإنجيلية الأصولية الصهيونية، هي دعوة سياسية وليست دينية كما هو ظاهر الحال، ووراء هذه الدعوة سياسيون ورجال أعمال في الغرب استطاعوا تسخير رجال دين مسيحيّين ويهود، من أجل استغلال اليهود السذج والبسطاء لخدمة المصالح الرأسمالية الكبرى في العالم، وإلى حين اجتماع مصالح الرأسمالية

---

(1) يد الله ـ جريس هالسل.

الأمريكية مع مصالح الكنيسة لإنهاء إسرائيل كدولة واليهود كشعب، ومن ثم إنهاؤهم ليس بقيامة المسيح الثانية كما يزعمون، وهم بالأساس علمانيون لا يؤمنون بهذه القيامة، بل المقصود إنهاء اليهود كشعب نظراً لعدم الحاجة إليهم أكثر من ذلك، ولانتهاء الغاية من تأسيس دولتهم، حيث كما يقولون لا عداوة دائمة ولا صداقة دائمة بل مصلحة متغيرة.

ـ إن القوتين المؤثرتين في السياسة الإسرائيلية هما حزب العمل وتجمع ليكود والجنرالات البارزون في الحياة العسكرية الإسرائيلية، جلّهم علمانيون أو ملحدون، يفصلون الدين عن الحياة أو لا يؤمنون بدين بالأساس. وكذلك القوى السياسية وأهل الفعاليات الاقتصادية المؤثرين في الحياة السياسية الغربية سواءً في الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي.

ـ إن يهود العالم البسطاء كانوا على درجة كبيرة من التعصب والسذاجة الذي دفع بهم إلى الهجرة لفلسطين وإقامة ما يسمى بدولة إسرائيل، خدمة لمصالح دولية لم يفهموها، وإنما كانت هذه الدولة المقامة ورطة لهم ولكافة يهود العالم.

ـ إن التآمر الكنسي العالمي وخاصة الكنيسة الإنجليكانية التي يرأسها ملك بريطاني حامي الكنيسة الإنجليكانية كما هو لقبه، هي كنيسة مسيّسة أكثر من الكنيسة الكاثوليكية، فهي التي خططت مع أصحاب المصالح الاقتصادية في أوروبا لإقامة ما سمي دولة إسرائيل. تحقيقاً للمطامع السياسية البريطانية كما ذكرنا آنفاً.

ـ إن استقرار العالم وأمنه يقتضي بشكل حتمي وجود وضع دولي جديد ليست فيه إسرائيل دولة على الإطلاق. حيث إنَّ تأسيس الدول وزوالها يحتمه وضع ينجم عن مصالح دولية تحتم التأسيس أو الزوال، وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن نقضها. وليس ببعيد عنا الظروف الدولية التي حتمت زوال الاتحاد السوفييتي وتفكيكه وسقوط جدار برلين. وقد تم تفكيك المنظومة الاشتراكية في العالم واندثار حلف وارسو. هذا الذي حدث كان أكبر من الخيال عند النائمين ولكنه كان حقيقة عند المستيقظين، حيث تناقض أو تعارض وائتلاف المصالح الدولية لا يرحم أحداً.

ـ إن المسلمين العرب عندما أنزلوا بني قريطة وبني النضير وبني قينقاع من حصونهم، كان ذلك بسبب نقضهم صحيفة المدينة المنورة، وهو العهد الذي أعطى اليهود وضعهم في الدولة الإسلامية كرعايا مثلهم مثل المسلمين، ولهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما عليهم من واجبات. وإن المسلمين حافظوا على اليهود في كل مكان حكم فيه الإسلام من أرض الله الواسعة. وإن الاضطهاد الذي عانى منه اليهود كان بسبب غياب الإسلام عن الحياة كنظام سياسي، وإن اضطهاد اليهود كان من قبل الشعوب الأوروبية في العهد الحديث، ولم يحصل إلا بعد غياب الدولة العثمانية التي حمتْ اليهود وغيرهم من أهل الذمة في بلاد الإسلام ما داموا معاهدين محافظين على عهودهم.

ـ إن النظام الدولي المقبل الذي هو قيد التحضير، والذي سيولد بعملية قيصرية أو عادية والذي لا يمكنه تحمل وجود إسرائيل كدولة، وقد مهدت له الكنيسة الإنجيلية منذ قرنين لاجتماع اليهود في فلسطين ثم لإنهائهم كشعب في المعركة الكبرى بينهم وبين المسيح عليه السلام كما يقولون.

لكن لا أعتقد أن هذا السيناريو هو الذي سيحصل،لأنه لا يمكن أن تكون حروب بين ناس لا يؤمنون بها وبأصولها وبعقائدها، حيث في الفاتيكان يسمون الصراع العربي ـ الإسرائيلي (أم كل الحروب) لأنه يحمل مخاطر الانزلاق إلى صراع كوني إسلامي ـ مسيحي. وهذا ما لا تريده الكنيسة، وتفضل عليه انتهاء أكذوبة إسرائيل فتريح وتستريح، وإن اليهود مخيرون بين أن يضحي بهم النظام الدولي الرأسمالي الكنيسي الإنجيلي مع عدم ممانعة جدية من روما، أو يقبلوا نتيجة الأوضاع الدولية بتفكيك دولتهم ويعودوا رعايا معاهدين في ظل نظام شرق أوسطي يحميهم من ظلم النظام الدولي واحتقار الغرب لهم.

4/ 7/ 2004م

أمريكا وبريطانيا وأسلحة الدمار الشامل

حاولت حكومة السيد طوني بلير إعاقة أو تأخير الهجوم الأمريكي على العراق قدر الإمكان، ولما أدركت بريطانيا أن الحرب على العراق واقعة لا محالة، فقد خالفت المجتمع الدولي ودخلت الحرب كشريك أساسي مع الولايات المتحدة، مستهدفة بذلك أمرين أساسيين: توريط الولايات المتحدة في مستنقع العراق إضافة إلى مستنقع أفغانستان، ومسك العصا من منتصفها في صراع الاتحاد الأوروبي مع الولايات المتحدة، والمساعدة من الباطن على تهيئة ظروف سياسية عالمية منافسة للولايات المتحدة، مع الأخذ بعين الاعتبار الوضع السياسي المستقبلي للصين الشعبية وروسيا واليابان، بغية الوصول إلى موقف دولي جديد تتكافأ فيه القوى الدولية بعد هدم سور برلين، الذي أدى إلى إظهار الولايات المتحدة كقوة دولية منفردة.

تندرج اعترافات السيد بلير الأخيرة أمام مجلس العموم البريطاني تحت الفهم المذكور أعلاه بما يخص عدم وجود أسلحة دمار شامل بالعراق، وأن عليه القبول بمسألة (أنه قد لا يتم العثور عليها أبداً)، حيث إنَّ المتابع لأسلحة الدمار الشامل يتوصل إلى أنها كانت ورطة بريطانية خبيثة وقعت بها سياسة بوش الرعناء، حيث المتتبع للأحداث التي ذكرتها الصحف يجد ما يلي:

* إنّ بريطانيا هي التي زودت العراق بأسلحة الدمار الشامل، سواء عن طريق الشحن من ميناء العقبة الأردني إلى العراق، أو عن طريق الخبراء البريطانيين الذين دربوا ودرسوا كثيراً من العلماء العراقيين.
* أن بريطانيا هي التي أفهمت الولايات المتحدة بأن أسلحة الدمار الشامل ما زالت موجودة في العراق وأن بريطانيا على دراية بذلك.
* إن بريطانيا هي التي هرّبت المعلومات إلى الولايات المتحدة بأن العراق يحاول شراء (500) طن من المواد المشعة من النيجر لاستعمالها في الحصول على قنبلة نووية في مدة قريبة، وهذا ما عرف بالصحافة مؤخراً بقضية المستر (كلي) الذي زعم أنه انتحر،

وخضع بلير للتحقيق بسببه هو وكبار المسؤولين البريطانيين في وزارة الداخلية والأمن، لمعرفة من سرب هذه المعلومات.

* إن سياسة بوش السطحية اعتمدت على هذه المعلومات لشن الحرب على العراق، وهنا كان المطب الكبير والشرخ العظيم الذي أوقعت فيه بريطانيا الولايات المتحدة في الداخل والخارج، فلقد أظهرت كذب بوش في الداخل، وإن الشعب الأمريكي حساس جداً بالنسبة إلى موضوع كذب الرئيس ولا يقبل في ذلك أنصاف حلول إلا الاعتذار أو الاستقالة، كما أن الاستخبارات الأمريكية لا تستطيع أن تقول بأنها كانت ضحية غبية لخبث السياسة البريطانية، حيث الشعب في أمريكا لا يقبل ذلك.

أرى أن إقرار السيد بلير الآن، قبل صدور تقرير اللورد (باتلر) في 14/ 7/ 2004م وبشكل واضح للمرة الأولى يعني أنه ربما كان مخطئاً، وتقرير اللورد باتلر ساعده على تجاوز هذا الخطأ لأنه غير مقصود وإنه اجتهاد للإدارة وإن الإدارة هدفها حماية البلاد.

ربما يقول قائل، إن إقرار بلير يسيء لنفسه وللسياسة البريطانية ولكنه لا يسيء إلى الولايات المتحدة بشكل مباشر. هذا ليس بصحيح لأن المقصود في اعترافات بلير بشكل مباشر سياسة بوش والولايات المتحدة في عهد بوش، والمقصود وضع الرئيس الأمريكي بين سياسي كاذب أو غبي وهذا لا يكون مقبولاً من أهل الفعاليات الاقتصادية ملاك القرار الحقيقي في الولايات المتحدة. حيث يستخدمون هذه الورقة أداة للضغط على السيد بوش وفي الانتخابات المقبلة وليخيّروه بين النجاح في فترة رئاسية ثانية مع وسام بطولة مصحوب بعبودية لهم تحقق أهدافهم في السياسة الدولية الخارجية، أو رئيساً ساقطاً فاشلاً فيما إذا وجدوا أن السيد كيري سينفذ مخططاتهم أفضل منه.

7/ 7/ 2004م

الولايات المتحدة أجهضت الديمقراطية في العالم

إن إدعاء الولايات المتحدة بأنها تعمل لتغيير ديمقراطي في العالم غير الديمقراطي، هو أكذوبة كبرى، وعلى هذا العالم أن يقف صفاً واحداً قائلاً بصوت مرتفع، إنك آخر من يحق له التكلم بالديمقراطية لأنك بلد مستبد ولم تعمل للديمقراطية قط في أي مكان من العالم، وكنت دائماً البلد المتسلط الذي يجهض أي نظام ديمقراطي مبتدئ، ويستبدله بنظام قمعي مستبد يحقّر الإنسان ويمحق آدميته ويحوله إلى حيوان لا يفكر إلا بأكله وشربه. فهي التي كانت وراء أكثر الانقلابات العسكرية في الشرق الأوسط، وأذكر انقلابين كان لهما حجر الأساس للأنظمة (التوتاليتارية) في المنطقة حتى الآن، وهو الانقلاب السوري عام 1949م الذي أتى بحسني الزعيم لحسم موضوعي الهلال الخصيب وأنابيب التابلاتين، والانقلاب المصري عام 1952م الذي مهد له السيد (كافري) السفير الأمريكي في مصر كما يقول السادات في كتابه «يا ولدي هذا عمك جمال» والمصادر في هذا الخصوص كثيرة، هذا على سبيل التخصيص في الشرق الأوسط، أما في أمريكا اللاتينية وأفريقيا، وجنوب شرق آسيا، فحدّث ولا حرج، فالولايات المتحدة كانت وراء الكثير من الانقلابات العسكرية التي دمرت شعوب هذه المناطق والقارات، وحولتها إلى بهائم، بل كتل لحم تطؤها الدبابات دون شفقة أو رحمة، فكانت ضحايا أرخص من الأنعام، أما لماذا أقدمت الولايات المتحدة على ذلك؟ فنفسره بالآتي:

1 ـ إن شرائح الناس الذين وصلوا إلى الولايات المتحدة منذ عام 1492م، كانوا مستخلص نفايات للنفايات الأوروبية من أبناء قطّاع الطرق واللصوص والمساجين، الذين لم تستطع أن تتحملهم السجون الأوروبية على رداءتها في تلك الحقبة، إضافة إلى أنهم كانوا جميعاً من حيث لا يعلمون مدفوعين من قبل الشركات الاستثمارية الملكية الإمبراطورية الإسبانية والبرتغالية ثم البريطانية والفرنسية والألمانية للوصول إلى العالم الجديد، أي قطعان وافدة بدون قيم، تبحث عن المال ولو اضطرها ذلك إلى حصد الشعوب واستئصالها، كما حدث عندما استقدمت هذه الشركات الأوروبية الزنوج من أفريقيا فشحنتهم كالبهائم، ونقلتهم إلى العالم الجديد ليكونوا عبيداً، يساهمون في الحلم الأمريكي.

2 ـ هذه النفايات المهاجرة قتلت الشعب الأصلي (الهنود) بدون شفقة أو رحمة، محتهم عن بكرة أبيهم بأساليب يندى لها الجبين، ولا يقرها مبدأ أو شرف أو مروءة، ولذلك فقد اعتاد الوافدون إلى أمريكا على سحق كل من يعتبرونه يحول دون قيمهم المادية الوضعية التي هاجروا من أجلها إلى العالم الجديد.

3 ـ استمر القتل والإبادة بين المهاجرين الأوروبيين فيما بينهم فكان البقاء للأقوى والأنذل، واستمرت هذه الحالة من عام (1492 ـ 1776م) أي منذ وصول كريستوفر كولومبس إلى استقلال هذه البلاد عسكرياً عن الآباء المؤسسين البريطانيين والفرنسيين.

4 ـ ابتدأت مرحلة جديدة بعد عام 1776م، فقد أصبح للوافدين الجدد دولة تعمل لمصالحها، هذه الدولة سيطرت عليها أسر حاكمة قوية تمتد أصولها إلى الجزر البريطانية، ثم أضيفت إليها (لوبيّات) البترول والصناعات الثقيلة والمافيات التجارية، بما فيها مافيات الرقيق الأبيض والمخدرات من الألمان والطليان واليونان وخلافه.

باختصار سيطرت الشركات العملاقة على الحياة في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى أصحاب النفوذ من ملاّك الأراضي الذين أبادوا الهنود أصحابها الأصليين، وتحكمت هذه الشركات في كل مجالات الحياة واستعبدت شعوب الولايات المتحدة، ولهذا يكذب من يقول بأن الرئيس الأمريكي (لنكولن) قد حرر العبيد، والحقيقة أن أصحاب القرار الرأسمالية في الولايات المتحدة عندما قرروا استعباد كل الشعب الأمريكي لصالح الشركات، طرحوا أكذوبة تحرير العبيد، ليسترقّوا الشعب بالكامل، ولذلك بدأت سيطرة الشركات الكبرى على القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهذه الشركات هي التي تحكم الولايات المتحدة، ولا يعدو أن يكون الرئيس الأمريكي (طرطوراً) يؤتى به على أثر مسرحية يقودها رأسماليون، منهم من قبل التسمية على نفسه بأن يمثل «الجمهوري» ومنهم من قبل أن يمثل دور «الديمقراطي».

على أنه لا يوجد دستور لكلا الحزبين، فكلاهما مصنّع لأصحاب الشركات الكبرى، وعندما دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية كانت قد دجنّت

وروضت شعوبها على ممارسة اللعبة الديمقراطية، من خلال أن تترك للشعوب الحرية لاختيار الحاكم الذي يريد، بعد أن يصنّع أصحاب القرار الحقيقيين في البلاد رأي المواطن ليذهب إلى الصندوق باختياره ليختار من يريده أصحاب القرار الحقيقي، أي حكومة المطبخ، من الرأسماليين الذي يصنّعون الرجل الذي يجلس في البيت الأبيض، وهذه هي الديكتاتورية المهذبة التي هي أعتى من ديكتاتورية البروليتارية التاريخية، فهي تقودك إلى ما تريد برغبتك، إنه الرق المهذّب، وإلا من يتصور أن يحكم أمريكا رئيساً غير منتخب وهو (فورد) بعد أن وصل للحكم بعد طرد (سبيرو أغنيو) نائب نيكسون وحل محله فورد، ثم طرد نيكسون وهو يبكي على أثر فضيحة (وترجيت) التي يستطيع أن يخترع أمثالها في أي وقت أصحاب القرار الحقيقي، فأصبح فورد رئيساً لأمريكا بدون انتخاب، وكان أوفر حظاً من (كينيدي) الذي غادر الحياة الدنيا للآخرة ومعه أسرار (مارلين مونرو) بعد أن سبقته بأسراره، لأنه لم يفهم اللعبة الديمقراطية على أصولها.

وليس السيد جورج دبليو عنا ببعيد، فقد فرضه الرأسماليون فرضاً بأكثرية / 507/ أصوات في الولاية التي يحكمها أخوه (جيب بوش) وبالفرز اليدوي وبقرار من المحكمة الدستورية العليا التي تمثل مصالح الرأسماليين حكّام البلد الحقيقيين، وخرج الرئيس الحقيقي آل غور، والذي لم يجرؤ أن ينبث بكلمة واحدة حتى لا يلحق كينيدي، فكان قد فهم اللعبة سابقاً.

5 ـ لجأت الولايات المتحدة للانقلابات العسكرية نظراً لكون أوروبا سبقتها بالاستحواذ على شعوب المنطقة وزعامتها على أثر اتفاقية (سايكس ـ بيكو)، فوجدت أمريكا نفسها قد خرجت صفر اليدين من الحرب العالمية الأولى، فكانت خارج اللعبة الدولية التي لعبها البريطانيون والفرنسيون بشكل استفز الولايات المتحدة عن طريق عصبة الأمم، حيث تم إقصاء الولايات المتحدة عن النفوذ العالمي. لكن الولايات المتحدة لعبت اللعبة بشكل صحيح في توقيت دخولها للحرب العالمية الثانية وبعدها، على أثر ضربة (بيرل هاربر) التي خططت لها بشكل مسبق لجر شعوب الولايات المتحدة المستعبدين للرأسماليين، لدخول الحرب بشكل ديمقراطي، حيث بدأت بفصل سياستها

عن الأوروبيين وانفصلت عن السياسة البريطانية، وذلك بالعمل لمصالحها منذ عهد (مارشال) وجون فوستر دالاس.

6 ـ إن سياسة الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية قامت على طرد النفوذ البريطاني والفرنسي من العالم وخاصة الشرق الأوسط، ونظراً لعراقة الفرنسيين وخاصة البريطانيين في المنطقة لعلاقتها المباشرة مع الأحزاب التي ساعدتها في حروب الاستقلال، وصلتها مع القبائل والعشائر والعوائل، حيال ذلك أصبح الطريق مسدوداً أمام الولايات المتحدة لإحداث أي تغيير إلا بالأدوات العسكرية، فابتدعت فكرة الانقلابات كأسلوب للسيطرة على القرارات السياسية في البلاد، ولهذا كان لا بد لأمريكا من انتهاج هذا الأسلوب لسحق النفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط وكثير من بلاد العالم كما حدث في أفريقيا، والدول البائسة التي سحقتها سياسة الولايات المتحدة من أجل مصالحها.

واختصاراً في هذه العجالة، أرى أن الولايات المتحدة هي التي أوقفت ما سمي بالديمقراطية في الشرق الأوسط والعالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية خدمةً لمصالحها، كجزء من صراعها على النفوذ في العالم، لتوقف المد الفكري الماركسي الذي هددها في ذلك الوقت من الصين والاتحاد السوفييتي، وساعد ذلك أيضاً في حلولها محل النفوذ الأوروبي في العالم، ليكون لها إرثٌ غير شرعيٍّ الآن في بقايا الجمهوريات الإسلامية المفرزة من الاتحاد السوفييتي السابق، ولتقبر الاتحاد الأوروبي كقوة اقتصادية وتمنعه من العودة كقوة عسكرية تصارعها على النفوذ في العالم، وتمنع حدوث موقف دولي جديد تطالب به دول دائمة العضوية في مجلس الأمن، هذا الموقف الذي يقوم على تعدد الأقطاب، وليس القطب الواحد.

ولهذا طرحت موضوع الشرق الأوسط الأوسع الديمقراطي على لسان مستشاره الرئيس لشؤون الأمن القومي السيدة (كونداليزا رايس). هذا الشرق الأوسع الذي تعمل الولايات المتحدة على أن تستولد منه ولداً غير شرعي، اسمه أنظمة ديمقراطية مدجّنة ومهجّنة تساعد في إيقاف مشروع الشرق الأوسط الجديد، الذي تحلم به المجموعة

الأوروبية، حيث يكون شرق أوسط جديد يعطي الأمان لأوروبا ويتعامل معها اقتصادياً ويلحق بها سياسياً، وهذا لن تسمح به الولايات المتحدة طالما فيها عرق ينبض، حيث إن نجاح الأوروبيين في هذا المشروع يعيد الولايات المتحدة إلى أمريكا اللاتينية وإلى مبدأ الرئيس الأمريكي (مونرو)، حيث جعلت من العراق المطبخ السياسي والعسكري الذي تحاول الولايات المتحدة من خلاله السيطرة على الشرق الأوسط الأوسع، ولا تبالي في دفع أي ثمن من أجل تحقيق هذا الهدف، سواءً كلفة بشرية أو مادية، لأن نجاحها في الشرق الأوسط الأوسع بديمقراطية صورية يمكّنها من تحجيم الدور الأوروبي بإفشال مشروع الشرق الأوسط الجديد، وإبقاء روسيا ضعيفة، ومنع الصين من الصعود إلى الدولة الأولى في العالم، وإبقاء اليابان قوة اقتصادية وليست عسكرية، وهذا هو الموقف الدولي المستقبلي الذي تعمل له الولايات المتحدة، من خلال جعل الشرق الأوسط أكياس رمل ومتاريس ومنطقة تفاعل وتجارب لاستيلادِ موقف دولي جديد يقوم على هيمنة القطب الواحد، وهذا يحتّم عليها أن تبقى في صف الاستبداد وضد الحريات الحقيقية، ومع ديمقراطية صورية تمنع الحريات الحقيقية وتبقي الشرق الأوسط والعالم شعوباً مستعبدة بالطريقة المهذبة التي استعبدت فيها الولايات المتحدة شعوبها.

11/ 10/ 2004م

السياسة الأمريكية بين الأيديولوجية والبراغماتية

تردد بعض الصحف الأمريكية والغربية المتتبعة للسياسة الأمريكية، في دراسة للمحلل السياسي الأمريكي (فلنت ليفريت) الباحث في معهد (بروكينغز) الذي يديره السيد مارتن أنديك ـ السفير السابق للولايات المتحدة في فلسطين المحتلة ـ حيث ركز المتحاورون في قمة الهرم السياسي لصناع القرار في الولايات المتحدة، على أن هناك صراعاً محتدماً يدور بين فئتين من صانعي القرار في السياسة الخارجية الأمريكية، فئة تؤمن أن المقاربة البراغماتية للسياسة الأمريكية هي المقاربة الوحيدة التي يمكن أن تخدم مصالح الولايات المتحدة القريبة والمتوسطة المدى، وفئة تؤمن بأن الأيديولوجيات يجب أن تحل محل السياسة البراغماتية في تعامل الولايات المتحدة مع دول الشرق الأوسط الاستبدادية والإرهابية.

إني لست مع هذا الرأي ولست مع كل هؤلاء المتابعين للسياسة الأمريكية وذلك للأسباب التالية:

ـ إن مصطلح إيديولوجيا أتى من الكلمة الإنجليزية (Ideology) وهي تعني وجهة النظر الأساسية عن الحياة وعما قبلها وعما بعدها، فهي تصور (ميتافيزيقي Metaphysic) هذا التصور من شأنه أن يؤثر على دوافع الإنسان النابعة عن غرائزه لتحديد سلوكه بموجب وجهة نظر معينة، سواء أكانت خيراً أم شراً في المقياس البشري.

ـ إن البراغماتية (Pragmatic) يقابلها لدينا الواقعية ومنها (الذرائعية)، هذا المصطلح يعني عند الأمريكيين بشكل خاص والغربيين بشكل عام، فلسفة تحدد دوافع وسلوك الإنسان تجاه الفعل أو السكون، وهو فعل في إطار المصلحة، حيث يكون مقياس الفعل هو النفعية، سواء أكان خيراً أم شراً ولا مقياس للأعمال سوى هذا المقياس، ومبدأ المنفعة منذ أن قننه المفكر الإنجليزي آدم سميث هو المسيطر على التفكير الغربي، وهو عقيدة الرأسمالية (فصل الدين عن الحياة وفصل المشاعر والعواطف والأخلاق عن الواقع المادي)، حيث تقدر قيمة الشيء أو الفعل بما فيه من منفعة، وهذا متعارض ومتناقض مع الأيديولوجيا كما يفهمها الجميع، لأن الأيديولوجيا هي المبدئية، والبراغماتية هي المصلحية وهما متناقضتان ولا لقاء بينهما كأسس تفكير.

ـ إن المؤسسات والهيئات التي تصنع القرار في السياسة الخارجية للولايات المتحدة، تقوم على أشخاص لا مكان للقيم لديهم طالما أنها تتعارض مع مصالح الولايات المتحدة وأمنها القومي، وإلا لما وصل هؤلاء الأشخاص إلى هذه المراكز الحساسة التي لا يصل إليها إلا من كان قلبه قدّ من البلاستيك وشرايينه من الفابر جلاس ودمه من النفط والكحول مجتمعين أو منفردين.

فهؤلاء الأشخاص أشرف على تربيتهم رأسماليون يملكون مؤسسات ومعاهد كما هو معهد (بروكينغز) وغيره من المؤسسات التي أقامتها شركات صناعية وتجارية ومصرفية كبرى، مثل شركات فورد، وموبيل، وتشس منهاتن بنك، هذه المؤسسات التي تصنّع الرئيس الأمريكي نفسه، وتحدد له جدولاً من الأعمال عليه الالتزام به، ولا يصح الخروج عنه تحت ضغط صنّاع قرار آخرين في الولايات المتحدة تتضارب مصالحهم مع صنّاع القرار الأقوى الذين أوصلوه للحكم، وإلا ضاع كما ضاع كينيدي ونيكسون وغيرهم كثير من خلال اللعبة الديمقراطية في الكونجرس الذي يسيطر عليه الرأسمالية الصنّاع الحقيقيون للسياسة الأمريكية.

ـ إن النظام الأمريكي نظام لا يرحم، وهو أعتى ديكتاتورية مهذّبة في العالم، ولقد أسس هذا النظام أسر هاجرت بشكل مبكر للولايات المتحدة، أفنت الهنود الحمر لأنهم (براغماتياً) لا يستحقون الحياة فهم عالة على مجتمع المستقبل، وسبب من أسباب تأخر الولايات المتحدة الواعد بالنهوض.

ـ إن الذي يدرس حروب الولايات المتحدة كمستوطنين مع بعضهم، حروب الشرق والغرب والشمال والجنوب، يجد أن الفظائع التي ارتكبت في هذه الحروب يندى لها الجبين البشري حيث لا قيمة (للأيديولوجيا) عند أبناء قطاع الطرق واللصوص الذين هاجروا من أوروبا الغربية إلى العالم الجديد، فبعد أن أبادوا السكان الأصليين ذبحوا بعضهم في مجازر لا حصر ولا عدد لها، حتى إنَّ مدناً وقرى بكاملها أزالوها دماراً وحرقاً.

ـ للقارئ الحق بأن يعترض ويقول: وهل تنكر التبرعات التي يقوم بها المحسنون الأمريكان كرجال أعمال وكهيئات حكومية من إقامة وتشييد كنائس وأعمال البر

والإحسان في الولايات المتحدة، وفي الدول المتخلفة كأفريقيا وأمريكا اللاتينية والمساعدة التي يقدّمونها عند الكوارث الإلهية والبشرية.

إن الولايات المتحدة ليست جمعية خيرية للإحسان والبر وهي لا تنفق قرشاً واحداً إلا من خلال دراساتها السابقة للسيطرة على الشعوب أو لإحداثِ الفتنة والبلبلة في هذا العالم المتخلف، من أجل خدمة مخططاتها السياسية (البراغماتية) الذرائعية فهي تسكت في بعض الأحيان عن مجازر في الصومال ونيجيريا والسودان وتتحرك حيناً آخر عندما يخدم ذلك مصالحها في مناطق أخرى، في أزمنة وأمكنة مختلفة.

ـ أما المحسنون من رجال الأعمال الأمريكان وما يقومون به من أعمال يتصور الإنسان أنها ذات بعد (أيديولوجي) في التبرع لدور العبادة والمؤسسات الدينية، ودعماً لانتخابات رئاسة الجمهورية أو الكونجرس، فهي تخدم نفسها للتهرب الضريبي وبمعرفة الحكومة وبالقانون، الذي أجاز التبرّعَ للهيئات الدينية من الشرائح الضريبية حيث تزداد وتنقص حسب الأرباح الحقيقية، فعندما تتبرع الشركات الكبرى للهيئات الدينية، تقصد بذلك خدمة ميزانيَّتِها العمومية بتنزيل شريحتها الضريبية، كما تستفيد من السيطرة على رجال السياسة والكنيسة خدمة لمصالح الرأسماليين المتبرعين الكبار، وطلباً لأصوات المتدينيين في الانتخابات المحلية والعامة، وتستفيد من تأثيرهم على انتخابات الكرسي البابوي في الفاتيكان، وعلى مفاتيح ورموز الكنيسة الإنجليكانية في العالم.

ـ وإنصافاً للحقيقة فإن الاتحاد السوفييتي حتى عصر نهاية بريجنيف مع فجوة ذرائعيَّة في عهد خروتشوف، كان هو الدولة الوحيدة في القرن العشرين التي سيطرت عليها (الأيديولوجيا) في تصرفاتها بتعاملها مع الدول الأخرى في السياسة الخارجية، حيث كانت تتعامل مع الدول النامية من خلال نشر الماركسية كعقيدة (أيديولوجيا) للحياة، إلى أن دمرت هذه الدولة (ذرائعية ـ براغماتية) جورباتشوف من حيث يدري أو لا يدري، علماً أن كثير من الأنظمة التي خدمتها (أيديولوجيا) الاتحاد السوفييتي المبدئية لم تتوان في التآمر عليه بطريقة (براغماتية) بالتسلح منه عسكرياً وبالنيل منه سياسياً.

ـ وتقريباً للقارئ لاستيعاب الفرق بين السياستين (الأيدلوجية والبراغماتية ـ الذرائعية) أسوق موقف العرب المسلمين عندما خرجوا من مدينة حمص بعد فتحها في عهد عمر بن الخطاب نظراً لأنهم لم يستطيعوا أن يحموا شعبها من الروم، فقد أعادوا لهم الجزية التي أخذت منهم بسبب اختلال شروط العقد المبرم معه، وكذلك طلب عمر بن عبد العزيز من قائد جيشه في بلاد ما وراء النهرين أقاصي آسيا، أن يخرج من البلد التي دخلها بدون أن ينذر أهلها بالحرب، لأن الإسلام (أيديولوجياً) لا يقر الغارة على العدو بدون إنذار، وذلك بناءً على شكوى من أهلها قدموها لعمر بن عبد العزيز.

ـ وتتجلى البراغماتية في أجلى صورها في حرب الولايات المتحدة على العراق عندما تذرعت بتملك العراق أسلحة دمار شامل وشنت حربها على هذا الأساس بغض النظر عن كل الكوارث التي حدثت جراء هذه الحرب، وكذلك موقف الولايات المتحدة من الدخول السوري العسكري إلى لبنان عام 1975م، وموقفها لإخراج القوات السورية من لبنان، حيث السياسة لا تحكمها العاطفة والمشاعر المنبثقة عن الأيديولوجيا بل تحكمها المصالح، فهي التي تفرق وتجمع، وليس ببعيد موقف من يسمونه الصديق الفرنسي ـ جاك شيراك ـ لإخراج القوات السورية من لبنان، حيث اجتمعت المصلحة الأمريكية مع المصلحة الفرنسية، باتحاد براغماتي فاضح، وهذا يذكرني بما نقل عن الرئيس الأسبق كميل شمعون عندما قال له صديق مقرب، لماذا لا تسير مع الأمريكان وتترك الإنجليز يا سيادة الرئيس، فرد عليه شمعون،بودي ذلك لكن أخاف من الأمريكان لأنهم (براغماتيون) زيادة عن اللزوم، فبإمكانك أن تصعد معهم إلى الطابق المائة في المصعد وفجأة يوقفون المصعد في الطابق الستين ويرمونك بحجة تغيير المخطط الناجم عن المصالح المتبدلة والمتغيرة.

ـ وهذه كونداليزا رايس تعلن سياسة الولايات المتحدة الجديدة في الشرق الأوسط، وهي سياسة الفوضى البناءة أو الخلاقة، حتى ولو أدى ذلك إلى وصول إسلاميّين للسلطة، من خلال ديمقراطية لا تتعارض مع مصالحها، وسقوط أنظمة تعاونت معها لسنوات طويلة، وهذا يؤكد أن (الأيديولوجيا) لا قيمة لها، فالسيطرة

للبراغماتية التي تقرر أن لا عداوة دائمة ولا صداقة دائمة، بل المصلحة هي التي تحدد سقف العلاقات.

ـ إن التفكير الغربي السياسي بشكل عام وتفكير الولايات المتحدة بشكل خاص، كان وما زال وسيبقى بعيداً كل البعد عن (الأيديولوجيا) فهو تفكير براغماتي ذرائعي، وإن التفكير (الأيديولوجي) غير موجود عند ساسة الولايات المتحدة ويعتبرونه من السذاجة والسطحية، ولكن هذا التفكير موجود عند بعض الأفراد البسطاء من الشعب الأمريكي وهؤلاء ليس لهم أي أثر في سياسة الولايات المتحدة على الإطلاق.

ـ أذكر القارئ بأن ما أشيع وأصبح مقولة ثابتة، بأن هناك فريقين متعارضين في قمة الهرم السياسي للولايات المتحدة (الأيديولوجيون) الأصوليون والبراغماتيون (الذرائعيون الواقعيون)، هذه المقولة أكذوبة كبرى غير موجودة تستغلها الولايات المتحدة لابتزاز شعوب وحكام العالم الثالث ليكونوا كالمستجير من الرمضاء بالنار كما يقول المثل العربي. فكلهم براغماتيون ذرائعيون، ولا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك، فهم براغماتيون حتى في حياتهم الشخصية وحتى مع زوجاتهم وصاحباتهم، فلقد تربوا في مدرسة النفعية المصلحية الذرائعية. وأنا لا ألومهم لأن مدرسة ميكيافلي ما زالت هي المسيطرة في الحياة السياسية الواقعية، وإنما ألوم أنفسنا إذا أفتتنا بمقولاتهم وأصبحت أساساً في سياساتنا.

ـ لقد أدرك القادة اليهود في الأرض المحتلة هذه البراغماتية الأمريكية الغربية، فعمدوا دائماً على أن يكونوا الأقوى، وأن يؤثروا في السياسة الأمريكية (البراغماتية) عندما يعرّضون مصالحها للأذى، فتستجيب لهم مرغمة وصاغرة، من خلال الوقائع وليس من خلال العواطف، إلا أن هذه العقلية نفسها ستكون مقتل اليهود في فلسطين عندما لا تستطيع أن تعرّض مصالح العالم الغربي للخطر عن طريق الابتزاز، فسوف تتغلب البراغماتية الأمريكية بفعل مصالحها على علاقاتها مع اليهود المحتلين، فيما إذا أصبحت دولتهم فائضاً جغرافياً تسبب المشاكل للعالم أجمع، وتمنع استقرار العالم وتعرض مصالح الولايات المتحدة للخطر. هذا الوقت الذي يخافه اليهود، كما ذكر نتنياهو في كتابه (مكان

تحت الشمس) بأن الموقف الدولي هو الذي أقام إسرائيل، والخطر الماحق إذا أصبح الموقف الدولي ضد إسرائيل.

ـ إن خلاف وتناقض مصالح القوى الدولية مع بعضها هو الذي يحدد الموقف الدولي، وإن البريطانيّين وبتأييد أوروبي هم الذين أقنعوا قيادات اليهود بالهجرة لفلسطين بدل الهجرة إلى كندا أو أوغندا، ووعدوهم بالدعم عن طريق (مصرف روتشيلد) ـ اليهودي المتواطئ مَعَ اليهود لصالح السياسة البريطانية الرأسمالية ـ بالهجرة إلى فلسطين، حيث يكون لهم دولة تساعد على تكريس التجزئة بين مخلفات الدولة العثمانية، ولمنع وحدتها تكريساً لاتفاق (سايكس ـ بيكو) بين البريطانيين والفرنسيين، ويخشى اليهود التغير في السياسة العالمية، والتغيُّر في الموقف الدولي يحتم الاستغناء عن خدماتهم بسبب تصور دولي لشرق أوسط آخر يكون عامل توازن في العالم، يساعد في تحجيم الصين الدولة الواعدة التي تنافس الولايات المتحدة على قيادة العالم، وتحجيم الدور الأوروبي كنفوذ سياسي وإبقائه اقتصادياً فقط. وإبقاء الروس على ما هم عليه بدون أنياب عسكرية جارحة وبأسنان اقتصادية استهلاكية.

ـ إن البراغماتية الأمريكية الرأسمالية المسيحية الأصولية تتجلى بشكل واضح عن طريق استخدامها للكنيسة الإنجيلية في أمريكا، عندما تتبنى مقولات العهد القديم، وذلك من أجل استيعاب اليهود للسيطرة عليهم، وليس العكس، كما تشيع الصحافة وأجهزة الإعلام الدولية، وإن القسس الذين يتزعمون التيار الإنجيلي ما هم إلا صنائع للرأسماليين حكام الولايات المتحدة الحقيقيون الذين يستغلون (الأيديولوجيا) لصالح (البراغماتية)، فهم يشيعون بأن العهد القديم ينص بأنه لابد من إعادة بناء الهيكل في القدس قبل عودة السيد المسيح عليه السلام، حيث لا يمكن أن تسيطر المسيحية كاملاً حتى ينزل المسيح ويقضي على الأشرار جميعاً، ومن الواضح أن الأشرار هم اليهود كما ورد في كتاب (يد الله) للكاتبة ـ غريس هالسل ـ حيث حقيقة الإنجيلية الأصولية التي يتزعمها المحافظون الجدد ترمي إلى استيعاب بقايا اليهود في المسيحية، وليس كما يتصور البعض سيطرة اليهودية على المسيحية، وهذه هي اللعبة البراغماتية التي يمارسها

المحافظون الجدد في أمريكا من خلال الكنيسة، ولـذلك سـاهم كـل كاردينـالات العـالم الغربي في انتخاب بابا جديد ألماني في الفاتيكان واختـار لنفـسه اسـم (بينـدكت الـسادس عشر) على اسم البابا بيندكت الثاني عشر المتهم بالنازية.

ـ إن اليهود يعلمون ذلك ولذلك فهـم لا يطمئنـون إلى الأيديولوجيـة الأمريكيـة ويعلمون بأن السياسة الأمريكية تقوم على البراغماتية الذرائعية، ولـذلك يتحـسبون لهـذا اليوم ويستعدون بكل قوتهم لوقت تقتضي مصلحة الولايات المتحـدة والعـالم الغـربي أن يكونوا في الصف الذي يرى أن إسرائيل أصبحت مسؤولة عن عدم الاسـتقرار العـالمي، وأن وجودها أصبح عبئاً على العالم، وتجارب اليهود السابقة في أوقات دمـارهم علمـتهم أن زوالهم يعتمد على وضع دولي أكثر ما هو وضع عسكري.

ـ بناءً على ما تقدم أرى بأنه لا يوجد في السياسة الخارجية للولايات المتحـدة اتجـاه (أيديولوجي) يناقض اتّـجَـاهاً (براغماتيّاً)، بل الكـل براغماتيـون، ومـن سـموا بالاتجـاه الأيديولوجي هم صنيعة براغماتية يجب أن لا تخفـى عـلى حكامنـا وشـعوبنا، وإلا ضـاع الحكام والشعوب في لعبة الأيديولوجيّين والبراغماتيّين.

17/ 5/ 2005م

سقوط فندق فلسطين آثاره ونتائجه

إن أي عمل عسكري تقوم به دولة ضد دولة أخرى هو عبث، إذا لم تقصد الدولة المهاجمة من جرائه تحقيق أهداف سياسية، سواءً أكانت هذه الأهداف معلنة أم مستترة. ولا أعتقد أن الولايات المتحدة كدولة عظمى تهدف من حربها على العراق إسقاط فندق فلسطين وشنق صنم صدام حسين على طريقة إعدام قاطع الطريق أيام الشريف والكاوبوي، كما اعتدنا على مشاهدة هذا المنظر في الأفلام الأمريكية.

الواقع الحسي يدل بأن حرص الرئيس الأمريكي بوش على تحقيق نصر دعائي وبأقل ما يمكن من خسائر جعله يقبل بنصيحة المستشار البريطاني السيد بلير، وهي إن سقوط فندق فلسطين يعني سقوط بغداد وسقوط بغداد يعني سقوط العراق وسقوط العراق يعني سقوط المنطقة. والذي يؤكد زعمي هو الاجتماع بين السيدين بوش وبلير في مدينة بلفاست الإيرلندية يوم الاثنين في 7/ 4/ 2003م، حيث تم تسجيل شريط بصوت الرئيس بوش وهو (في هذه اللحظة يتم خلع صدام حسين ونظامه من الحكم وتنتهي حقبة طويلة من الخوف والقسوة...) علماً أن هذا الشريط بثته إذاعة قوات التحالف (نحو الحرية) يوم الخميس في 10/ 4/ 2003م أي بعد سقوط فندق فلسطين يوم الأربعاء في (9/ 4/ 2003م). أي إنّ سقوط فندق فلسطين كان مبرمجاً من منظور بريطاني أمريكي قبل السقوط الحقيقي بيومين.

هنا يكمن التساؤل وهو، هل من المعقول أن يكون السيد بلير قد ورّط الرئيس بوش بسوء أو بحسن نية بإسقاط فندق فلسطين بدل سقوط العراق حكماً وأرضاً في يد الجيوش الغازية، وتأجيل المعركة الكبرى الغير متوقعة من قبل الرئيس الأمريكي لتكون بهذه الشراسة والبأس، فتغوص الولايات المتحدة في مستنقع كما غاص الاتحاد السوفييتي قبلها في أفغانستان، حيث تفقد التكنولوجيا سطوتها وفعاليتها أمام جيوش جرذانية من الخلايا العنقودية خبأت أسلحتها تحت الأرض في بلاد واسعة، بالإضافة إلى ملايين من قطع السلاح وزعها النظام السابق على جيوش مدربة وجيوش شعبية نصف مدربة مدعومة برصيد من المتطوعين المسلمين لا ينتهي، وحدد الجميع لهم هدفاً أساسياً هو

طرد العدو الغاصب، بعد أن فكّكها وأذلها وأضعفها نظام صدام الطاغي المستبد، فكان حالها حال عبدالله الأحمر آخر ملوك الطوائف في الأندلس عندما قبل بمبدأ مساعدة يوسف بن تاشفين وقال قوله المأثور (لأن أرعى الإبل عند ابن عمي خير لي من أن أرعى الخنازير عند ألفونسو).

إن موقف الشعوب في العالم العربي والإسلامي موقف محيّر، لم تستطع الكمبيوترات في الولايات المتحدة أن تفهمه، لأن عنجهية السياسة لأمريكية وقلة خبرتها في نفسيات الشعوب لم تمكنها أن تدرك الفرق بين الماديات والمعنويات. فالكمبيوتر يعمل بالماديات فقط، ولا يستطيع أن يفهم منطق الإحساس لدى الشعوب. فلا سياسة الجزرة أفادته ولا سياسة العصا أفادتها.

قد يقول قائل، وهل الولايات المتحدة الدولة العظمى المتفردة في العالم بهذا الغباء حتى تقع بهذا المطب وبهذه البساطة؟

أقول: إن العمل العسكري والسياسي نوع من أنواع الاجتهاد القيادي، والمجتهد يخطئ ويصيب بالقرار حسب المعطيات المحلية والإقليمية والدولية التي يدخلها الجهابذة الاستشاريون كمعلومات في الكمبيوتر لتكوّن أسس التحليل، ويكون الخط عندما يكون القرار السياسي في البلد بيد الاقتصاديين كما هو حال الولايات المتحدة، حيث رئيسها لا يعدو كونه منفذاً لسياسة رجال الأعمال الذين أهلوه وهيؤوه وأوصلوه لهذا المنصب، حيث تغلب رائحة النفط والمنافع على عقولهم فتحجمها وتفقدها الإحساس بفهم الروحيات والمعنويات.

وهذا ليس حدثاً لم تسبق قيادات الولايات المتحدة إليه، والتاريخ الحديث شاهد على أخطاء ارتكبها قادة عظام لا يشك أحد بمقدرتهم السياسية والعسكرية، فهذا نابليون عندما استعدى عليه أوروبا ساسة وكنيسة وشعوباً، فسقط سقوطاً مريعاً بعد ن أجلس أهله ملوكاً على عروش أوروبا، وخطأ هتلر عندما لم يكتف باستعداء أوروبا بل هاجم روسيا، تلك الأراضي الواسعة، فاستعدى عليه الجنرالين (الأرض والمناخ) كما يقولون، كما أن خبث السياسة البريطانية والحماس الفرنسي، لم يمنعا سقوطهم في حرب السويس باستدراج

أمريكي إلى فخ أنزلها عن قيادة العالم الفعلية وفقدان النفوذ، لتحل مكانها الولايات المتحدة من الهند الصينية إلى موريتانيا، وليس عنا ببعيد انقلاب الجنرال محمد داود صهر الملك ضامر شاه الذي فجر أفغانستان في وجه السوفييت وأدخلهم في مستنقع لم يخرجوا من نتائجه حتى هذه الساعة، علماً أن مبدأهم اندثر ودولتهم تفككت، والأمثلة على أخطاء القرارات السياسية في التاريخ كثيرة وما ذكرت على سبيل الأمثلة فقط.

إن أول من استشعر فداحة الفخ الذي نصب للولايات المتحدة في العراق هو السيد (بريمر)، بعد الدراسة والتقصي والتحليل، إذن له البيت الأبيض بحل الجيش العراقي، هذا القرار الخطير الذي أجبر الولايات المتحدة لتعديل سياستها، من إسقاط نظام صدام وتحويل العراق قاعدة للولايات المتحدة وفتح المنطقة سياسياً، إلى طرح نظرية (الفوضى الخلاقة أو البنّاءة) التي أعلنتها كونداليزا ريس مؤخراً، على أثر قرار (بريمر) بحل الجيش العراقي، لعل هذه السياسة الجديدة تستطيع أن تنقذ الولايات المتحدة من المستنقع الذي وقعت به، عن طريق توسيع المستنقع فيدخله الهواء والنور، وتحويل الفوضى التي حدثت رغماً عنها، لتكون فوضى منظمة برضاها تجيرها لصالحها، حيث لابد مما ليس منه بد. والولايات المتحدة لا تستطيع أن تفشل دولياً، وإلا عليها مغادرة القيادة العالمية، والعودة إلى مبدأ الرئيس (مونرو) بالاكتفاء بأمريكا اللاتينية.

إن الذي جعل نظرية الفوضى الخلاّقة (والشرق الأوسط الأوسع) الديمقراطي هي الحل الوحيد أمام الولايات المتحدة، هو التربص الدولي العالمي للصعود على ظهر الفشل الأمريكي بالشرق الأوسط أو مشاركة الولايات المتحدة الند للند مع المجتمع الدولي.

حيث دلت دراسات الولايات المتحدة على أن المنافسة الشديدة مع المجتمع الدولي لا مفر منها أبداً، فالصين ستصل خلال أقل من عشر سنوات إلى منافس مكافئ للولايات المتحدة، حيث لا تحتاج إلى جغرافيا أو تاريخ أو سكان أو عقيدة أو تكنولوجيا، وروسيا والشعب الروسي العظيم يتحرق للعودة لمصاف الدول الكبرى ودفع الذل عن نفسه، فروسيا تمتعت بمؤهلات الدولة العظمى في العهد القيصري أو البلشفي، والقيادة الروسية التقطت أنفاسها وقررت مع القيادة الصينية أن مستقبلها مستقبل واحد، وذلك

في اجتماع قمة شنغهاي الأخير بين الرئيسين الصيني والروسي، وقررا أن الفراغ السياسي والفكري في آسيا الوسطى الملتهبة لن يكون عاملاً تستغله الولايات المتحدة لإضعافهما.

واليابان تلك الدولة العملاقة اقتصادياً والقزم سياسياً تطالب بدور سياسي في العالم، وحقدها دفين كان وما زال على الأمريكان، وبانتظار الانفجار، أما الاتحاد الأوروبي فحدث ولا حرج عن الذل والهوان والعار الذي ألحقته الولايات المتحدة بهذه الدول المتقدمة على رأسها بريطانيا وألمانيا وفرنسا، ومهما طال الوقت أو قصر، وهذا ما لا ترغبه الولايات المتحدة وتعتبره خطّاً أحمر لا يمكن التساهل به.

حيال ذلك لابد من فوضى منظمة ومبرمجة في الشرق الأوسط (الأوسع) تعيد تنظيم خريطة (سايكس ـ بيكو) حيث فصلت الحدود والشعوب آنذاك على مقاس أوروبي (فرنسي ـ بريطاني) في غفلة من الولايات المتحدة، فتتولى الولايات المتحدة الإشراف على هذه الفوضى المنظمة من خلال ديمقراطية مكذوبة تطلق إمكانية الشرق الأوسط الأوسع في خدمة المصالح الأمريكية الدولية. ولكن الذي يجعل الولايات المتحدة حذرة جداً في إخراج هذا التنظيم الجديد، هو مستقبل دولة إسرائيل، التي لا مستقبل لها حيال شرق أوسط أوسع تتعامل فيه الولايات المتحدة من خلال اعترافها بالتيارات الدينية الإسلامية كقوة فاعلة ومؤثرة في المنطقة، فهل يتجرأ الرأسماليون الحكام الحقيقيون في الولايات المتحدة وأركان النظام الدولي المتوقع على اتخاذ قرار الاستغناء عن خدمات الصهيونية السياسية كون ذلك أصبح ضد استقرار العالم، ولا يخدم المصالح الأمريكية والدولية التي تنظر إلى استقرار عالمي لمئات السنين تتعايش فيه الحضارات الإسلامية والمسيحية والبوذية بشكل عام؟ حيث غدا السلاح النووي نمراً من ورق كما قال ذلك مسبقاً الزعيم الصيني (ماوتسي تونغ)، وذلك بفضل الصراعات الدولية العالمية التي جعلت الولايات المتحدة في وضع يلزمها بتبني سياسة الفوضى المنظمة (الخلاّقة) أو تنكفئ على نفسها منسحبة أمام تجمع دولي عالمي يلزمها بأحد الحلين إما أن تشارك وإما أن تفارق.

18/ 7/ 2005م

(هل انتهت صلاحية الرئيس بوش؟)

توجد حقائق تشكلت وأسست بموجبها وقامت عليها الولايات المتحدة الأمريكية منذ وصول أبناء قطاع الطرق واللصوص والمساجين العتاة من القارة الأوروبية إلى الأرض الجديدة، أرض الهنود الحمر المتخلِّفين، حيث تم القضاء عليهم من قبل المتحضّرين لإقامة عالم جديد وهذه الحقائق هي التالية:

* حكم الولاياتِ المتحدة منذ عام 1776م الذي سمي عام الاستقلال، أبناء الآباء المؤسسين من المهاجرين الذين كان لهم الفضل الأكبر في القضاء على السكان الأصليين وإبادتهم والاستيلاء على أراضيهم، وبعد ذلك استرق أبناء المهاجرين البيض، أبناء المهاجرين السود الذين استوردوهم من أفريقيا ليعملوا عبيداً مكان الهنود المبادين، واستقر الحكم القبلي العشائري الأسري (الإقطاعي) كدعامة أولى في حكم الولايات المتحدة.

* تطور حال هذه الأسر وانتقلت من ملكية الأرض باعتبارها كانت المصدر الوحيد للإنتاج إلى ملكية الصناعة والتجارة، حيث تملكت المصانع واسترقت العمال، في عهد الرق الديمقراطي المهذب.

* دخلت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية عهد الغلبة والقوة وسيطر أهل الفعاليات الاقتصادية (رجال الأعمال) على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال التروستات والكارتلات الكبرى العائلية المشتركة مع (مافيا) المخدرات والقمار والنساء في نيويورك ولوس أنجلس ولاس فيغاس.

* لا يوجد في الولايات المتحدة حريات سياسية حقيقية، ولا وجود لما يسمى بالديمقراطية السياسية، بل البلاد والعباد مملوكون لأهل الفعاليات الاقتصادية، وهم أصحاب الصناعات الثقيلة والعسكرية والبترولية والمصارف وشركات التأمين وشركات الإعلام وخلافه، والجميع تحت المراقبة من رئيس الجمهورية وأعضاء الكونجرس حتى خدم الشركات ولكل منهم (Security Number) الرقم السري على الكمبيوتر في أجهزة الأمن الداخلي والخارجي (F.B.I, CIA) والأجهزة الأمنية الأخرى.

* الحزب الجمهوري والحزب الديمقراطي صنيعة من صنائع الرأسماليين الأمريكان المؤسسين للولايات المتحدة أصحاب القرار السياسي الحقيقي، ولا خلاف بينهما في السياسة الخارجية حيث لا يجوز للسياسي خارج لولايات المتحدة أن يبني قراراته على خلافاتهما الصورية، ولهذا لا يوجد أفكار مبدئية خلافية بينهما على الإطلاق، فالحزب الجمهوري يوصف بأنه محافظ، والديمقراطي يوصف بأنه ليبرالي، الخلافات بينهما فقط داخلية على صعيد المستهلك الأمريكي ودافعي الضرائب والإجهاض، ولا علاقة لها بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة، بل حتى الكونجرس بمجلسيه (الشيوخ والنواب) هم إما أبناء العوائل والطوائف والقبائل الحاكمة و (زلم) رجالات صنعوها وسوقوها لتخدم مصالح الرأسماليين الكبار، ويستطيع أصحاب القرار بتر أي عضو بالكونجرس يريد أن يثبت موجوديته المنفردة، ويكون بذلك سلك الطريق الأسهل إلى انتحاره السياسي بكشف ملفه الضريبي أو الجنسي.

* إن أحد التيارات المسماة جمهورياً أو ديمقراطياً لوبي (lobe) يحمل شخصاً إلى الترشح لرئاسة الجمهورية، ويكون لهذا الشخص مواصفات معينة تناسب المرحلة المقدمة عليها سياسة الولايات المتحدة، ويدعم أصحاب النفوذ كلا المتنافسين، لكن أصحاب القرار من أهل النفوذ أخذوا قرارهم المسبق من سيكون الرئيس حتى ولو عين عن طريق المحكمة الدستورية العليا كما حصل مع الرئيس بوش الابن.

* إن مكتب الأمن القومي في الولايات المتحدة المشكل من الرئيس ونائبه ووزير الداخلية والخارجية والدفاع ومسؤول (FBI, CIA) ومستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، هذا المكتب هو الذي يحكم البلاد ويوزع الأدوار على الكونجرس بقيادة رئيس الأغلبية الجمهوري أو الديمقراطي، حيث يخرج الجميع القرار كما يريده أصحاب الفعاليات الاقتصادية الحكام الحقيقيون تسيطر عليهم المصلحة النفعية (البراغماتية) وليس لهم دين أو مبدأ يحكم تصرفاتهم، بل يستغلون الأديان بما في ذلك (الإنجيلية واليهودية ورؤساء المؤسسات الإسلامية) ويوجهونهم حسب رغباتهم، ويصنعون لهم عقلهم وتفكيرهم وطريقة حياتهم وإذا خالف أحدهم الأوامر التي من أجلها انتخب فتح

ملفه، وكلنا نذكر ملفات الضرائب والتهريب والمخدرات والحنث بالقسم، من اغتيال كنيدي إلى استقالة نيكسون ونائبه (سبيرو أغنيو)، وقصة مارلين مونرو وروبرت كنيدي والرئيس كلينتون ومونيكا، وليس عنا ببعيد قصة مدير مكتب نائب الرئيس (ريتشارد تشيني) وإحالته للقضاء لإفشائه اسم العملية زوجة السفير (جوزيف ويلسون) بسبب أكذوبة اليورانيوم الذي استوردته العراق من النيجر.

* لقد سقت هذه القواعد أعلاه لأبحث من خلالها الواقع الحالي والمستقبل السياسي للرئيس بوش الابن، من خلال ما سيكون بالمستقبل القريب فضيحة مدوية كامنة في قلب النظام السياسي الأمريكي، تكون على شكل لغم جاهزة للانفجار في وجه الرئيس بوش ونظامه عندما يثبت فشله في السياسة الدولية هذا اللغم قد أوصل تياره الكهربائي (هاري ريد) زعيم الديمقراطيين في مجلس الشيوخ في بداية هذا الشهر تشرين الثاني 2005م عندما طلب تحويل جلسة مجلس الشيوخ المفتوحة إلى جلسة مغلقة سرية لبحث مطلب الشعب الأمريكي، لمعرفة التلاعب الذي قامت به إدارة بوش فيما يخص مبررات شن الحرب على العراق واحتلاله، والتلاعب بالمعلومات الاستخباراتية قبل وأثناء وبعيد أحداث 11/ 9/ 2001م، ودور الإدارة الأمريكية في ذلك وغاياتها الحقيقية.

* أقول إن هذا الموضوع خط أحمر وأمر خطير لا يمكن أن يقدم عليه الديمقراطيون إلا إذا كانوا متفقين مع الغالبية الجمهورية في مجلس الشيوخ، ومع السادة صناع القرار السياسي في الولايات المتحدة سواءً كانوا محسوبين على ما يسمى بالحزب الجمهوري أو الحزب الديمقراطي كل حسب دوره السياسي.

* لقد أثار هذا الموضوع الديمقراطيين قبل انتخابات الرئاسة الثانية لبوش الابن عام / 2003م/ وأصروا على البحث العلني للاستخدام السياسي للمخابرات لكن هذه الخطوة لم يوافق عليها الجمهوريون في ذلك الوقت وهم الأغلبية في مجلس الشيوخ، فلماذا يثير الديمقراطيون هذا الموضوع الهام مرة أخرى الآن في الوقت الذي تفشت رائحة فشل مخططات الإدارة الأمريكية.

* يبدو أن الولايات المتحدة في عهد بوش الابن لن تستطيع أن تحقق الغاية التي من أجلها أوصل الرأسماليون جمهوريون وديمقراطيون بوش الابن إلى السلطة بانتخابات تمكن بوش بالفوز فيها على المرشح الديمقراطي (جون كيري) بأغلبية / 705/ أصوات، أقل من ألف صوت على أكثر الاحتمالات.

* إن بوش لم يتمكن من قيادة العالم منفرداً، ولم يستطع أن يشارك دولاً أخرى تقبل بأن يقودها إلى استقرار العالم، ولم يستطع أن يحجم النمو الاقتصادي للصين الذي سيتحول في أقل من / 10 ـ 15/ سنة إلى قوة سياسية عسكرية قادرة على المنافسة في قيادة العالم، ولم تتمكن إدارة بوش من تحجيم دور الاتحاد الأوروبي وإبقائه قوة اقتصادية فقط، ومنعه من التدخل والمشاركة في تنظيم العالم وفرض مصالح الأوروبيين، كما لم تستطع إدارة بوش أن تعيق النمو الياباني والإبقاء على آماله السياسية محطمة وقابعة في طوكيو حفاظاً منها على دور مستقبلي لليابان في تحجيم الصين، والاتحاد الروسي بدأ يقلق الولايات المتحدة في تنسيقه مع الصين لتحجيم النفوذ الأمريكي في أواسط آسيا.

* يضاف إلى ذلك أن الجمهوريين والديمقراطيين قد وجهوا إنذاراً مبطناً إلى إدارة بوش في 10/ 11/ 2005م، بأغلبية (82) صوتاً من (104) أصوات عدد أعضاء مجلس الشيوخ قدمه منافسه السابق على الرئاسة السناتور (جون كيري)، يطالب رئيس الاستخبارات الأمريكية بأن يقدم تقارير سرية تتضمن معلومات كاملة عن كل المعتقلات السرية في الخارج، والعبرة في هذا القرار أن الجمهوريين والديمقراطيين صوتوا معاً ضد إدارة بوش، وهذا تهديد بسحب الثقة.

* والأهم من ذلك الكراهية التي أوجدتها إدارة بوش في العالم ضد الولايات المتحدة، حيث نما الحقد وتركزت الضغينة وساد احتقار الشعوب للأمريكان من طنجة إلى جاكرتا إلى أمريكا اللاتينية وأفريقيا وسائر بقاع العالم.

* هل يا ترى فشلت إدارة بوش في تحقيق أغراضها، أم أن من أغراضها الفشل السياسي في العالم وإثارة الكراهية ضدها ليساهم ذلك في نظرية (هنتنجتون) صراع الحضارات التي هي ركن أساسي في سياسة الفوضى الخلاقة في الشرق الأوسط الواسع:

وهل آن الأوان لقيادة جديدة بزعامة الديمقراطيين الصورية وقيادة الجمهوريين الحقيقية، كما هي العادة في الولايات المتحدة الأمريكية عندما تكون في كرب عظيم، فإن الرأسماليين (جمهوريين وديمقراطيين) يأتون بقيادة ظاهرها ديمقراطي وحقيقتها جمهوري قبلي عائلي لقيادة العالم باسم الليبرالية، كما حصل في الحرب العالمية الثانية عندما تعاقب الرئيسان (روزفلت وترومان) لخمس فترات حكم حتى انتهى دور الديمقراطيين في خدمة أصحاب القرار السياسي وسلموا الحكم إلى الجنرال (إيزنهاور) بعد أن اختاره صانعوا القرار مرشحاً لرئاسة الجمهورية، وأخضعوه إلى تأهيل (Coors) مكثف في البروتوكول يؤهله لتمثيلهم في الداخل والخارج.

* السؤال الآن هو: هل آن الأوان لأصحاب الفعاليات الاقتصادية في الولايات المتحدة سواء كانوا تحت مسمى جمهوري أم ديمقراطي أن ينهوا العهد (البوشي) بعد أن أدى الدور الذي استحضر من أجله، وتأتي قيادة جديدة باسم ديمقراطي ربما يكون (جون كيري) تستفيد من الوقائع الجيوسياسية التي أوجدها العهد البوشي، وتظهر بمظهر القريب من الشعوب والعامل على تحريرها من خلال الفوضى الخلاقة (البناءة) التي أسسها العهد البوشي بمصالحة شعوب المنطقة وبالتالي السيطرة على قيادة العالم، من خلال قيادة عالمية ظاهرها متعدد الرؤوس وحقيقتها قيادة أحادية، وهنا يكمن الخطر الكبير الذي يتوجب على شعوب المنطقة والعالم أن تعيه وتحذر منه.

11/ 2005م

أمريكا لم تخسر حرب فيتنام فهل تخسر حرب العراق

أزعم أن الولايات المتحدة لم تخسر حرب فيتنام بل فازت في تلك الحرب فوزاً منقطع النظير، لأن مقياس الربح والخسارة في الحروب، هو تحقيق النتائج الحقيقية التي دخلت الدولة الحرب من أجلها، ولا يقاس ذلك بالخسائر المادية التي تتكبدها جيوش الدولة المغيرة، فالحروب هي وسيلة من وسائل تحقيق الأهداف السياسية. في الحالة الفيتنامية، كان هدف الولايات المتحدة الرئيس، هو حلول نفوذها مكان النفوذ الفرنسي في جنوب شرق آسيا وليس في فيتنام فقط، بعد أن خسرت فرنسا معركة (بيان بيان فو) أمام الفيتناميين، بمساعدة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بطريق مباشر أو غير مباشر. وأكد ذلك اتفاق خروتشوف وكندي في فينا عام 1961م، والذي أقر دعم السوفييت للولايات المتحدة في جنوب شرق آسيا لتحل محل النفوذ الفرنسي. مقابل تشديد قبضة السوفييت العسكرية على أوروبا الشرقية خلاف ما ترى أوروبا الغربية.

الهدف الرئيس الآخر، كان جر الصين العقائدية في عهد ماوتسي تونغ إلى التعايش السلمي، مقابل منحها مقعد الصين الوطنية الدائم العضوية في مجلس الأمن. أما الأهداف غير المباشرة أو الثانوية للولايات المتحدة من هذه الحرب فهي نتائج وليست دوافع لها، منها إنعاش الاقتصاد الأمريكي وتحريكه للقضاء على البطالة، وذلك بتطوير الاقتصاد الحربي الرأسمالي، الذي يدفع الصناعات الثقيلة باتجاه السوق الداخلية والخارجية، ثم تجريب الأسلحة الخطيرة والممنوعة دولياً على الشعب الفيتنامي ليكون مختبراً حياً لتطوير الأسلحة الجديدة.

لا أريد الإطالة في هذا الموضوع، لكن المتتبع للسياسة الدولية منذ إبتداءِ حرب فيتنام، ومع وصول الرئيس كندي للسلطة إلى عام 1973م أثناء ولاية نيكسون، يجد أن السياسة الأمريكية قد حققت أهدافها جميعها، ومن أجل ذلك قتل كندي واستلم نائبه جونسون، وأطيح بخروتشوف، واستلمت (التروكيا) السوفييتية ـ بودغورني، كوسيجين، بريجنيف ـ نظراً لعدم استيعاب الرئيس كندي للعبة الكبار، ولاستعجال خروتشوف التغيير قبل الأوان، فلقد استبق المرحلة الجورباتشوفية مبكراً، فكانَ من الهالكين.

بمقارنة الوضع العراقي مع الوضع الفيتنامي، يمكن للمراقب الآن وبعد مرور حوالي سنتين تقريباً على اجتياح العراق، أن يعطي الرأي الذي لم يعد سراً، بأنه لم يكن الهدف الرئيسي للولايات المتحدة من اجتياح العراق تجريده من أسلحة الدمار الشامل، والقضاء على الإرهاب، حيث لم يثبت وجود أسلحة دمار شامل، وهذا ما أكده أخيراً وبعظمة لسانه الرئيس بوش بعد إنكار وتلكؤ، كما أن أمريكا لم تقضِ على الإرهاب، بل تعمدت تطوير الإرهاب وتوسيع انتشاره في الدول المجاورة للعراق، عندما سرحت جيشاً قوامه أكثر من / 800/ ثمانمائة ألف ومدعوماً بميليشيا مسلحة بأسلحة فردية تزيد عن / 8/ مليون إنسان نصف أو ربع أو عشر مدرب، وغضت النظر عن أسلحة هذا الجيش لتكون في متناول من تسميهم الإرهابيين في الداخل ووصولها إلى الآخرين في الخارج. إذن لم يكن مقصود الولايات المتحدة أهدافها المعلنة عند دخول الحرب. فما هي أهدافها الحقيقية.

في الوقت المناسب وبعد مرور سنة ونصف على اجتياح العراق، هرَّبت كوندرليزا رايس الأهداف الحقيقة للولايات المتحدة، لتعرف رد الفعل العالمي والإقليمي والمحلي، في اجتماعها مع القادة الأوروبيين ببروكسل. وقالت إنها تريد إحلال الديمقراطية في الشرق الأوسط، واعتذرت عن خمسين سنة سابقة دعمت فيها الولايات المتحدة الحكومات العسكرية والاستبدادية في الشرق الأوسط، وأكد على ذلك الرئيس بوش وسكرتير الدفاع مانسفيلد ونائب الرئيس تشيني.

هل هي صحوة ضمير مفاجئة من الولايات المتحدة. الدولة الرأسمالية التي ليس عند حكامها أثر للروح، وإلا لما كانوا حكاماً، بل يصلحون لرئاسة جمعية خيرية إنسانية، وهذا الشعور معدوم عند الرأسمالي النفعي المصلحي، الذي أرسى دعائم فكرة آدم سميث أبي الاقتصاد الحر.

لو كان عند ساسة الولايات المتحدة والعالم الغربي أثر لما يسمى بالضمير، لما ارتكبوا مجازر فيتنام ورواندا والصومال وهايتي ولا ننسى دورها التحريضي والإطفائي لمذابح يوغوسلافيا. ودعمها لمجازر اليهود في فلسطين المحتلة.

السؤال هل يمكن للولايات المتحدة أن تنجح في هدفها الرئيس بالشرق الأوسط من حربها على العراق، وهو الفوضى (البناءة) التي تولد ديمقراطية مكذوبة مدجنة ومفصلة على

مقاس مصالح الولايات المتحدة، لتحجم الدور الأوربي في الشرق الأوسط. ولتساعد في تأسيس خريطة جديدة، تحل محل خريطة (سايكس بيكو) التي نشأت على أثر سقوط الدولة العثمانية أيام النفوذ البريطاني الفرنسي. وتحقيق خطط مستشار الأمن القومي بريجنسكي أيام الرئيس كارتر، هذه السياسة التي تقوم على أساس استيعاب هلال إسلامي أسمته الولايات المتحدة الآن (الشرق الأوسط الكبير)، بدءاً من تركيا إلى باكستان وربما يصل إلى جاكرتا، وربما يمتد غرباً إلى طنجة وموريتانيا متضمناً فراغ الجمهوريات الإسلامية السوفييتية، وذلك بدعم التيارات الإسلامية التي أسموها تيارات معتدلة تسد الفراغ السياسي والعسكري والفكري، المتولد عن سياسة (الفوضى البناءة)، فبذلك تقضي على ما يسمى بالأصولية الدينية والمتطرفة عن طريق استيعاب من يبقى منهم على قيد الحياة ضمن التيار الإسلامي المعتدل المهجن والمدجن والمؤهل سياسياً وفكرياً للتفاهم معها.

هذا ما يلمسه القارئ السياسي مما يجري في المغرب ومصر والبحرين والجمهوريات الإسلامية السوفييتية والعراق وفلسطين، حيث نلاحظ أن التيار الديني المعتدل هو الذي يكتسح الشارع تحت الرقابة الأمريكية الدقيقة. وبذلك تتحقق أيضاً نظرية كيسنجر (الدومينو) حيث يتوالى سقوط الأنظمة أمام الفوضى البناءة من خلال ديمقراطية مكذوبة. تمكن أمريكا من أخذ ليس الحكام فقط، بل الشعوب أيضاً، وهنا الطامة الكبرى التي تهيئ لشرق أوسط كبير ديمقراطي رخو تحت الإشراف الأمريكي يساعد الولايات المتحدة في سياستها المقبلة لتحجيم الصين وروسيا والاتحاد الأوربي ولتستمر في الهيمنة على القرار السياسي والعسكري والاقتصادي في العالم.

هذا هو الهدف الحقيقي من دخول الولايات المتحدة الحرب في العراق، وهو بالنسبة لها مصير سواء أكان في الحكم جمهوريين أم ديمقراطيين. لأن في الولايات المتحدة لا يختلف الجمهوري عن الديمقراطي إلا بالشعار، حيث شعار الجمهوري الفيل وشعار الديمقراطي الحمار ولا يهم من يمتطي الآخر، والاثنان مسيران لمصالح الكبار أصحاب المصالح الاقتصادية في الولايات المتحدة، وهم الحكام الحقيقيون.

2005/12/26م

هل غدا السلاح النووي نمراً من ورق؟

يؤثر عن الزعيم الصيني (ماوتسي تونغ) قوله: عندما احتدم السباق النووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في الستينات (إن القنبلة النووية لا تعدو أن تكون نمراً من ورق)، ولقد استغرب واستهجن كثير من المعلقين السياسيين هذا القول، على أساس أن القيادة الصينية غير قادرة على الدخول في حلبة هذا الصراع، كالمثل القائل: من لم يستطع الحصول على العنب يقول هذا حصرم، ولكن الصحيح أن ماوتسي تونغ كان يعي ما يقول، والأيام أثبتت أنه كان سابقاً لزمانه في تقييم هذا الموضوع.

ولقد حرضني على التأمل والتفكير في هذا الموضوع بشكل جدي، ما أثاره النادي الدولي الغربي النووي الآن من ردود فعل على تخصيب اليورانيوم في إيران، على اعتبار أن حصول إيران على السلاح النووي سيهدد استقرار العالم كما تصور ذلك القيادة الأوربية والأمريكية. وهذا القول غير سديد ومخالف للواقع للأسباب التالية:

ـ إن السلاح النووي سواءً أكان محمولاً بالطائرات كما هما قنبلتا، هيروشيما وناغازاكي، أو متطوراً محمولاً على صواريخ بعيدة المدى ذات رؤوس متعددة، لا يعدو أن يكون قائماً على تفجير للذرة التي تبعث طاقة نووية متناسبة مع حجم الشحنة المحمولة، وهذه الطاقة بالتأكيد تحدث أثراً محلياً تدميرياً في مكان انفجارها، كما تحدث آثاراً جانبية أخطر من الأثر المباشر، هذه الآثار منها ما يعطل إنبات الأرض، ومنها ما تحمله الريح لمناطق بعيدة فتهلك الحرث والنسل، ليس في مكان هبوطها فقط، بل فعاليتها تمتد إلى أراضٍ وكيانات مجاورة، وتمتد هذه الآثار المدمرة لسنين طويلة على الأرض والنبات والحيوان والإنسان الذي هو أغلى ما في الوجود.

ـ ربما يقول معترض بأن هناك أسلحة نووية (تكتيكية) لا تتعدى دائرة التدمير الناتجة عنها أكثر من دائرة قطرها (50) كم، أقول: إن هذا الكلام ليس بدقيق لأن التدمير غير المباشر والبعيد المدى على الأرض والإنسان أكثر بكثير من هذه الدائرة، حيث الأنواء الجوية تحمل الدمار إلى مئات بل آلاف الكيلومترات، فتؤدي إلى التشوهات والأمراض المستعصية المميتة مع الزمن، حيث يؤثر التفجير النووي على الجينات المورثة، والآثار غير

المباشرة أشد تدميراً من الآثار المباشرة المحدودة والبسيطة نسبياً في مكان الانفجار، حيث تنفيس بسيط من المفاعل (تشيرنوبل) في الاتحاد السوفييتي أدى إلى آثار مفجعة في أوربا الشرقية وتركيا، جعل استهلاك الخضار والفاكهة في تلك البلاد مدعاة للقلق ودخول الأمراض المستعصية على شعوب تلك المنطقة. وكلنا يعرف أن استخدام الولايات المتحدة لليورانيوم (المنضد) أي المستهلك والمسحوب خيره كما يقولون، في حرب إخراج العراق من الكويت، قد أثر على الجنود الأمريكان والأوربيين المشتركين في هذا النزاع، ولا تزال الولايات المتحدة تعاني من آثار استعمال اليورانيوم المنضد، وآثار ذلك على العراقيين ظهرت من حصول آلاف الحالات المشوهة حتى للأجنة في بطون أمهاتها.

ـ مع ابتداء الحرب العالمية الأولى ظهرتْ أهمية الأسلحة الكيماوية والأسلحة الجرثومية (البيولوجية)، وهي معتبرة في الشرائع الدولية والإنسانية أسلحة دمار شامل ممنوع استعمالها بين المتحاربين. هذه الأسلحة طورتها سراً وعلناً كافة الدول بحجة الاستعمال المخبري والدوائي للحصول على المضادات الجرثومية، و(الفيروسية) بعد ذلك، إضافة إلى الكيماوية السابقة، من أجل المحافظة على الحياة الإنسانية واستمراراً لوجودها.

ـ هذه المواد سواءً أكانت (كيماوية أو بيولوجية أو فيروسية) ليست جديدة حيث استخدمها المستوطنون الأوربيون بطريقة بدائية في أمريكا المكتشفة، ضد الهنود الحمر فنشروا بينهم الأوبئة لإفنائهم، ولقد ظهرت آثارها المدمرة حديثاً بعد تطويرها في مختبرات الرأسماليين الأمريكان مناصري حقوق الإنسان كما يدعون، وكلنا يعرف لما اشتد الذعر في الولايات المتحدة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م عندما أشاعوا أن الإرهاب الدولي سيستعمل هذه المواد المدمرة ضد التجمعات السكنية في الولايات المتحدة، وكيف أعلنت حالة الطوارئ في البيت الأبيض والبنتاغون إلى الدرجة الحمراء، عندما سربت الاستخبارات الأمريكية أن إرهابيّين أدخلوا جرثومة (ENTRAX) القاتلة إلى أجهزة التكييف في مجلس الشيوخ، وأن رسالة بريد تحمل حوالي أقل من غرام من هذه المادة قد وصلت إلى البريد الرسمي في مجلس الشيوخ وهي كافية لقتل كل من هو في داخل المبنى.

لقد دبجَّت الصحافة الأمريكية الكثير من المواد حول الأثر التدميري الوبائي للمواد البيولوجية والجرثومية وأنواع الفيروسات القاتلة على حياة الإنسان، وإمكانية تلويث منابع المياه والأنهار ومصارف المجاري على البيئة، وكيف أن قليلاً من هذه المواد يكفي لنشر الأوبئة التي تقتل ملايين الناس ولا يمكن السيطرة بعد ذلك على هذه الكوارث البيئية؟

ـ مما تقدم أريد أن أصل إلى أن الولايات المتحدة تملك أكبر ترسانة أسلحة نووية بأحدث أساليب ووسائل الاستعمال، بصواريخ موجهة وبرؤوس متعددة تطلق من الطائرات ومن مراكز إطلاق الصواريخ الأرضية ومن الغواصات مما يكفي لتدمير العالم مرات عديدة.

وإن الاتحاد السوفييتي أيام عزه وبعد تفكيكه قد وقع اتفاقيتين سالت 1 وسالت 2 بحيث يتمكن من الاحتفاظ بأكثر من ألفي صاروخ موجه كافية لتدمير العالم عدة مرات، علماً أن الولايات المتحدة استطاعت في عهد ريجان أن تبدأ برنامج حرب النجوم القادر على تدمير أكثر صواريخ الاتحاد السوفييتي، روسيا الآن، بعد إطلاقها، بحيث لا تستطيع أن تصل إلى أهدافها.

مما تقدم نصل إلى السبب الذي جعل كل الدول النووية دائمة العضوية في مجلس الأمن، تساعد على تهريب أسرار الأسلحة النووية والصواريخ الحاملة إلى بعض الدول الحساسة كالهند والباكستان وكوريا الشمالية والآن إيران وقريباً تركيا والبرازيل، لعلمها بأن القوة النووية أصبحت كما قال (ماوتسي تونغ) نمراً من ورق، ولا يمكن استعمالها عملياً لأن ذلك يؤدي إلى تدمير العالم بطريقة مباشرة سريعة أو غير مباشرة مدمرة، عن طريق تلويث الأرض والجينات البشرية. وإن استعمالها يدمر المتحاربين والمسالمين، من خلال القاعدة لن تستطيع أن تؤذي غيرك دون أن تؤذي نفسك. بحيث أصبحتْ تلك الأسلحة النووية نوعاً من (البريستيج) للدولة التي تملكها فتدخل كما يقولون صالون (الأكابر) الذي يحقق لها نفوذاً معنوياً في العالم، وتكون مؤهلة لدخول مجلس الأمن الموسع في المستقبل والمرشح لعضويته كل من ألمانيا والهند والباكستان والبرازيل وتركيا، وجنوب أفريقيا وربما إسرائيل...

نصل إلى أن الدول الكبرى أدركت أن الأسلحة النووية لم تعد عملية، ولابد من استعمال الأسلحة التقليدية (المتطورة) كالصواريخ الذكية بأنواعها، وأجهزة الاتصالات من خلال شبكات الكمبيوتر بتقنيتها العالمية، فهي التي تخدم مصالح الدول الكبرى، وأثبتت ذلك الولايات المتحدة عندما دخلت حربي أفغانستان والعراق.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو، هل الدول الكبرى تعمل بعد أن فقدت القوى النووية قيمتها وأهميتها على إيصالها إلى الدول الغنية الضعيفة في العالمين العربي والإسلامي من أجل بعثرة ثروتها وإضاعتها على (بريستيج) يدخلها نادي (الأكابر) النووي بعد أن فقدت قيمته ولكن برضا الدول الكبرى، لتساعد هذه الدول الصغرى لأن تكون مهابة على أمثالها فيما يخدم مخططات الدول الكبرى. فهذه الدول الكبرى هي التي تختار من الصغرى من تدخله هذا النادي الصوري أم لا تدخله.

إن ما حدث مع ليبيا عندما أنفقت المليارات على برنامجها النووي يؤكد على ذلك، حيث أضاعت ثروتها وسلمت أسلحتها صاغرة إلى الأمم المتحدة، لأن النادي النووي لا يريد أن يدخل هذه الدولة إلى عضويته لأنها غير مؤهلة سياسياً وبشرياً وجغرافياً، ولأنها استعجلت الشيء قبل أوانه فعوقبت بحرمانه، ولأنها أصغر من أن تدخل نادي الصغار النووي المستقبلي.

لذلك يجب على حكومات العالم العربي والإسلامي الحذر من مخططات الولايات المتحدة والعالم الغربي التي تجعل دول (الشرق الأوسط الكبير) كما تسميه الولايات المتحدة، تقع ضحية لهذه المخططات المشبوهة التي تشغل دول المنطقة بالحصول على الأسلحة النووية بعد أن أصبحت فاعليتها خارجة عن التاريخ بالمقارنة مع الأسلحة الجرثومية والبيولوجية والكيميائية، التي هي أسلحة دمار شامل حقيقي تقتل البشر والحياة وتبقى الأشكال المدنية ليعبث بها الهواء مكاناً للأوبئة والأمراض. وهي تشغل دول المنطقة عن الوصول إلى الأسلحة الذكية القادرة بحروب تقليدية متطورة السيطرة على الأرض والبحر والجو والحكومات.

لا أريد أن يفهم مما تقدم أن تملك دول إقليمية للتكنولوجيا النووية التي تمكن من صنع أسلحة نووية شيء ذميم، إنما ضروري هذا التملك لكل دولة إقليمية تحمل قيماً

إنسانية تسعى إلى إيصالها للعالم، وتعمل على أن تشارك في القرار الدولي، وأن تحافظ على شعوبها من خلال التوازن الدولي سواءً أكان بالأسلحة التقليدية المتطورة أم بأسلحة الدمار الشامل، وليس غايتها استعمال هذه الأسلحة بل منع غيرها من التفكير بإيذائها بدون أن يصيبه الإيذاء الذي يجعله يحجم عن هذا الفعل، ويعامل الآخر المعاملة المحترمة واللائقة، بالشكل الذي لا يمكن دول أخرى من استعباد الشعوب المستضعفة، ويبقى تطوير الأسلحة التقليدية والذكية والبيولوجية والاقتصاد هو الذي يجعل الدول الكبرى قادرة على فرض شروطها على الآخرين وليس الأسلحة النووية، بعد أن ثبت أن الأسلحة الكيماوية والبيولوجية هي الأقدر على الضرر والإيذاء.

25/ 1/ 2006م

هل تسوق الولايات المتحدة إسرائيل إلى جهنم؟

كتب جون بول الذي كان مساعداً لوزير الخارجية الأمريكي أيام حكم الرئيس كارتر، عندما كان مستشاره لشؤون الأمن القومي السيد بريجنسكي صاحب نظرية ـ الهلال الإسلامي الأحمر ـ كتب مقالاً: عنوانه (كيف تقود الولايات المتحدة إسرائيل إلى مصلحتها رغماً عنها بالسلاسل)، كان ذلك في ثمانينات القرن العشرين، عندما طرح الرئيس كارتر، للمرة الأولى في السياسة الأمريكية مشروعه لحل ما سمي بقضية فلسطين، وهو مشروع (الهوم لاند Home Land) واعتبر المجتمع الدولي أن هذه قفزة نوعية في السياسة الأمريكية، كونها تعترف بأن للفلسطينيين حقّاً في أرض يعيشون عليها، حيث تطور بعد ذلك إلى فكرة دولة فلسطينية لها مقومات الحياة ودولة يهودية على أرض فلسطين الأم. ثم تطور الفهم السياسي الأمريكي من خلال مؤتمر مدريد، ومؤتمر أوسلو، واجتماعات (رابين وبيريز) مع ياسر عرفات والجهات العربية المسؤولة إلى خريطة الطريق الأمريكية التي ما زالت في الملعب العربي الإسرائيلي.

السؤال الآن هو، هل تغيرت الظروف السياسية الدولية والإقليمية والمحلية، لتستبدل عنوان ـ جون بول ـ بالعنوان التالي: (كيف تقود الولايات المتحدة إسرائيل إلى حتفها رغماً عنها بالسلاسل)، للإجابة على هذا السؤال لابد من استعراض وباختصار الوجود الإسرائيلي أسبابه ومسبباته وظروف نشوئه واستمراره أو زواله حيث نصل إلى جواب من خلال الثوابت التاريخية التالية:

ـ في نهايات القرن التاسع عشر، ومع ابتداء العد التصاعدي للإجهاز على الخلافة العثمانية في استانبول، كان الفكر الصهيوني اليهودي بحالة تردد وبحث عن أرض لليهود يتواجدون فيها مجتمعين لأداء طقوسهم وعباداتهم، ولم تكن فلسطين هي الأرض الوحيدة المطروحة لتكون هذا المكان، بل طرح مفكرو اليهود أي مكان خارج أوروبا التي مارست عليهم التفرقة العنصرية والكره والبغض، ولو كان في أوغندا أو كندا أو أستراليا.

ـ مع ضعف وتردي الدولة العثمانية بعد سيطرة الاتحاديين الطورانيين عليها، ودخولها الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا، بعد أن أقصوا السلطان عبد الحميد عام 1908م:

والذي كان آخر سلاطين آل عثمان الذين أدركوا أطماع الإنجليز والفرنسيين والروس في أسلاب الرجل المريض، والذي وقف ضد هجرة اليهود إلى فلسطين، حتى أصبحت الكلمة العليا في السلطنة إلى يهود سالونيك الذين لا يطمعون بأكثر من بيع أراضي العرب والمسلمين إلى الغرب لقاء إبقاء أرض تركيا الأم لهم، ليؤسسوا عليها دولة تركية متعصبة ومتخلية عن كل طموحات المسلمين. عند ذلك بدأ اليهود يفكرون جدياً بأنه من الممكن بعد انهيار السلطنة وتوزيع أسلابها، أن يكون لهم نصيب في قطعة أرض يقيمون عليها دولتهم السياسية، بالإضافة إلى الطقوس الروحية التي كانوا لا يطمعون بأكثر منها.

ـ حفَّزت السياسة البريطانية في هذه الظروف اليهود وخاصة عائلة روتشيلد المصرفية، وخلفاء (قره صو) على المطالبة بالعودة إلى أرض الميعاد، أرض إسرائيل، في مؤتمر بازل اليهودي، وغيره من المؤتمرات الصهيونية. حيث وجدت الاستخبارات البريطانية المتواطئة والمنفذة لرغبات الكنيسة الإنجليكانية بغيتها في اليهود، لتمنحهم وعد بلفور في عام 1917م، عندما كانت ملحقات الدولة العثمانية على طاولة المفوضات بين البريطانيين والفرنسيين من جهة والروس من جهة أخرى، كون وجود الدولة اليهودية في فلسطين يخدم مصالح الإنجليز والفرنسيين في الشرق الأوسط، وذلك بوجود دولة تكون عائقاً أمام وحدة البلاد العربية وقاعدة للأوربيين، ونتج عن ذلك اتفاقية (سايكس ـ بيكو) بخريطتها المعروفة للشرق الأوسط، حيث وضع الإنجليز والفرنسيين خرائطهم حسب مصالحهم السياسية والاقتصادية، وإسرائيل جزء من هذه الخريطة، لأن أي تغيير لحدود هذه الخريطة يعني تغييراً لحدود ما سمي بدولة إسرائيل. ورضي الروس بعد الثورة البلشفية بالسيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية في جنوب وغرب روسيا. ووافق الإنجليز والفرنسيون على إطلاق يد الروس بهذه الممتلكات.

ـ الولايات المتحدة منذ معاهدة (سايكس ـ بيكو) وحتى صيف عام 1942م عندما دخلت الحرب العالمية الثانية لم تكن سياسياً كما يقولون، لا بالعير ولا بالنفير، وكان تواجدها بالشرق الأوسط لا يزيد على التواجد الثقافي والتبشيري من خلال المعاهد الأمريكية العلمية والتبشيرية والثقافية، ولقد قمعتها أوربا باحتقار ومنعتها من التدخل

السياسي في الشرق الأوسط، حيث استوردتها للمشاركة العسكرية الرمزية بالحرب العالمية الأولى، ثم عادت وصدرتها لتعود بقواتها إلى ما وراء الأطلسي صفر اليدين مكتفية بالالتزام بمبدأ مونرو، حيث سمح لها من خلاله بالعبث في أمريكا اللاتينية.

ـ تحقق الفوز الصوري (الخلّبي) للبريطانيين والفرنسيين في الحرب العالمية الثانية على ألمانيا ودول المحور، ولكن الحقيقة أن البريطانيين والفرنسيين خسروا هذه الحرب، .حيث أصبحتا دولتين من الدرجة الثانية ضعيفتين عسكرياً واقتصادياً وتحكمان بلاداً مهدمة، ولولا تدخل الولايات المتحدة لكانتا في عداد المستعمرات النازية، وأصبحت الولايات المتحدة البلاد الآمنة القوية مستقلة عن القرار الأوربي، وانتقل إليها خيرة العلماء من أوربا طالبين الأمن والأمان والاستقرار والإبداع، وبدأت الولايات المتحدة تمارس سياستها القوية الاحتقارية للأوربيين، من خلال مشاريع مارشال للإعمار ومن خلال حلف الأطلسي، ونسقت مع الاتحاد السوفييتي لقيادة ثنائية للعالم من خلال تهميش الدور البريطاني والفرنسي، ولسلبهم مستعمراتهم التقليدية ومناطق نفوذهم من الفلبين إلى أقصى غرب شمال أفريقيا.

ـ فشل الأوربيون خاصة البريطانيون والفرنسيون بالدفاع عن مناطق نفوذهم في الشرق الأوسط بشكل خاص وفي العالم بشكل عام، وسقط الاتحاد السوفييتي الشريك السابق اللدود للولايات المتحدة في قيادة العالم عام 1990م، وأخذت الولايات المتحدة تعمل لشرق أوسط مفصل على مقاس نفوذها، متجاهلة النفوذ الأوربي ـ بريطاني وفرنسي ـ الذي خطط حدود المنطقة بما فيها حدود إسرائيل.

ـ باختصار كان لابد من هذه المقدمة لنصل إلى النتائج التي يفرزها الواقع الحالي من خلال الواقع التاريخي والجغرافي والسياسي لمنطقة الشرق الأوسط، حيث يلاحظ المتابع السياسي أن هناك خَللاً في كتلة العلاقات الأمريكية الأوربية والعربية الإسلامية والإسرائيلية، نتج هذا الخلل عن خروج الاتحاد السوفييتي مؤقتاً من السياسة الدولية، ومن محاولات تحجيم للدور الأوربي. ومن ترقب بحذر وجدية للدور الصيني الواعد، الذي سيجعل دوراً أساسيّاً للصين في السياسة الدولية، بدون أن تحارب وبدون أن تخرج

عسكرياً من إطارها الحدودي، الذي دأبت عليه في كل حياتها الإمبراطورية والشيوعية والليبرالية.

ـ هذه المستجدات السياسية العالمية والدولية، وضعت إسرائيل في موقف، جعلها تتخلى عن شعاراتها السابقة بأن دولتها من الفرات إلى النيل، وتحلم بدولة يهودية صرفة ولو على قطعة أرض صغيرة، فأقامت الجدران الإسمنتية العالية، وعاشت خلف حصون وقلاع في بعض الأراضي التي احتلتها عام 1967م، لتكون عازلاً وخط أمان للأراضي التي احتلتها عام 1948م، وسفكت أنهاراً من دماء جيرانها، وجعلت منظر قتل النساء والأطفال وتدمير البيوت أمراً عادياً، مما يجعل عيشها مع أهل المنطقة مستحيلاً، ورفضت ما سمي بمبادرة الأمير عبدالله في مؤتمر قمة بيروت، والتي تتضمن علاقات دبلوماسية وتجارية مع اعتراف بحدودها، وطرقاً وموانئ ومطارات، وكل شيء يُمكِّن إسرائيل من الحياة العادية مع دول المنطقة، مقابل إعادتها للأراضي التي احتلها عام 1967م.

ـ السؤال لماذا ترفض إسرائيل مثل هذا العرض إذا كان الوضع الدولي حقيقة يؤيد استمرارها في الوجود كدولة يهودية.

ـ إن أول من طرح مصطلح (شرق أوسط جديد) للمرة الأولى كان رئيس وزراء إسرائيل الأسبق (بيريز) في كتابه (شرق أوسط جديد) في تسعينات القرن الماضي إثْرَ مؤتمر أوسلو السري، الذي انعقد بغفلة عن الولايات المتحدة معارضاً لسياسة مؤتمر مدريد، ولو أنه وقِّع في واشنطن من باب المجاملة السياسية. وهو شرق أوسط اتحادي اقتصادي يتطور إلى سياسي ويحل مكان الجامعة العربية، وتكون إسرائيل عضواً فيه، ولكن الذي يظهر أن الولايات المتحدة لم تكن موافقة على هذا المخطط للشرق الأوسط الجديد كونه لا يراعي إلا مصالح الأوربيين واليهود، ويجعل من العالم العربي خط أمان لأوربا، فتوقف هذا المخطط مع توقف قلب رابين ومع سقوط تلميذه (بيريز)، ونام هذا المخطط الإصلاحي (لسايكس ـ بيكو) حتى أقدمت الولايات المتحدة على احتلال العراق، بحجة تملك صدام لأسلحة دمار شامل، ولما ثبت أن صدام لا يملك أسلحة دمار شامل، وآن الآوان لكشف السبب الحقيقي للغزو، أعلنت السيدة كوندرليزاريس في

مؤتمر الاتحاد الأوربي في (بروكسل) عام 2004م، بأن الولايات المتحدة دخلت العراق لفرض نظام جديد على الشرق الأوسط ولتنظيمه، وليس لتنظيم العراق فقط، وطرحت مشروعها وهو (الشرق الأوسط الكبير أو الواسع) حسب دلالة المصطلح الإنجليزي الذي استخدمته في عدة مناسبات.

ـ إن الشرق الأوسط الواسع من منظور أمريكي كما أكد عليه بوش ومانسفليد وكل الناطقين الرسميين الأمريكان، يتضمن الشرق الأوسط التاريخي مضافاً إليه بعض دول العالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب متضمناً باكستان والأفغان وبعض الجمهوريات الإسلامية السوفييتية سابقاً إلى تركيا وأحياناً أضافوا إليه شمال أفريقيا حتى نواكشوط، فهو نطاق هلامي حتى الآن. أي هو تعديل لهلال بريجنسكي الإسلامي، الذي طرحه في الثمانينات من القرن السابق، وإن وسيلة السيدة رايس لتحقيق هذا الشرق الأوسط الواسع، هي الفوضى البناءة أو (الخلاقة)، أي الفوضى المنظمة التي ينجم عنها شرق أوسط واسع مجهولة هويته وفكره ووسائل تحقيقه، بل فهم جميع المراقبون السياسيون أن هذه الفوضى ستؤدي إلى ديمقراطيات مكذوبة تتعاون مع الولايات المتحدة.

ـ عادت السيدة رايس وبعد الهجوم الجديد على لبنان، بزعم رد حزب الله إلى ما وراء الليطاني وتجريده من سلاحه وتطبيق القرار 1559 بالقوة، عادت إلى استعمال مصطلح (الشرق الأوسط الجديد) وتخلت عن لفظ ـ الواسع أو الكبير ـ كمرحلة تأسيسية للشرق الأوسط الأوسع، موضحة بذلك للأوربيين (إنجليز ـ فرنسيين ـ ألمان) وحلفائهم وإسرائيل، بأنها تسعى إلى ما يسعون إليه من شرق أوسط جديد يحافظ على إسرائيل ضمن حدودها متعاونة ومعترفاً بها من جيرانها، ويؤمن الحدود الأوربية من أي خطر إسلامي يساعد في تحجيم الدور الأوربي.

ـ إن موقف القيادات الإسرائيلية والأوربية يدل على أنها مدركة لخطورة اللعبة الأمريكية في المنطقة والعالم، وإن الشرق الأوسط بما فيه إسرائيل أصبح مقراً ومستقراً للعبة دوليّة خطرة تحتم ولادة نظام دولي شرق أوسطي من خلال تفكيك إسرائيل ككيان

صهيوني يعبث بالوجود وليس بالحدود، ولو كان الأمر خلاف ذلك لانسحبت إسرائيل من مزارع شبعا وتحوّل وجود حزب الله إلى وجود سياسي بدل العسكري. كما عبر عن ذلك الرئيس الإيراني أحمدي نجاد في مؤتمر القمة الإسلامي في ماليزيا منذ أيام بقوله: «سيكون هناك شرق أوسط جديد لكن بدون الكيان الصهيوني». ولقد حددت صحيفة كيهان الإيرانية في عددها الصادر في 30/ 7/ 2006م مواصفات هذا الشرق الأوسط الجديد بقولها: «لم يبق أمام بوش سوى الاعتراف ببزوغ شمس الشرق الأوسط الجديد الإسلامي الثوري». فهل أصبح من منظور أمريكي، لابد من عملية جراحية قيصرية كبرى لولادة نظام دولي جديد للشرق الأوسط يلبي مصالحها كما قالت كوندرليزاريس، وهل على شعوب المنطقة أن تتحمل آلام الولادة لتنعم بخيرات المولود الجديد المكذوبة لشرق أوسط جديد، ولكنه في الحقيقة بذرة الشرق الأوسط الأوسع الأمريكي. وهل إسرائيل في موقف حرب انتحارية لابد أن تخوضها، كما تعرض اليهود في حياتهم السياسية إلى حرق أوراقهم من قبل القوى الكبرى التي دعمتهم وأوصلتهم، ثم يتم الاستغناء عن خدماتهم مع إنهاء فترة (سايكس ـ بيكو) وابتداء مرحلة تأسيس لنظام دولي جديد بقيادة الولايات المتحدة وبتعاون أو مشاركة مع الدول المساهمة في النظام الدولي الجديد ويكون عامل استقرار للعالم، ليصل العالم إلى مرحلة استقرار دولي لا يمكن التوصل إليه مع استمرار الدور السابق لإسرائيل كدولة تحول دون استقرار العالم، من خلال معاداة العالم الإسلامي بمتطرفيه وعلمانييهِ وليبراليهِ، وهل آن الأوان لتحقق التخوف الذي ذكره رئيس الوزراء الأسبق (نتنياهو) في كتابه ـ مقعد تحت الشمس ـ بما معناه أن إسرائيل قامت بناء على وضع دولي ساعد في تأسيسها، وإن الخطورة على كيان إسرائيل إذا تغير الوضع الدولي ليصب في اتجاه زوالها، إن القيادات الأمريكية هي التي تجيب على هذا السؤال من خلال سلوكه المستقبلي لتثبت فيما إذا كان القرار في البيت الأبيض أمريكي قومي كما هو يجب أن يكون، أم صهيوني يهودي كما يتصور آخرون.

إنها وجهة نظر تحتمل الخطأ والصواب ولكنها تستحق التأمل.

14/ 8/ 2006م

هل أنهى المحافظون عقد استئجار بلير العمالي؟

إذا أراد المراقب السياسي أن يتساءل لماذا في هذا الوقت بالذات ترتفع رايات العصيان على رئيس الوزراء البريطاني السيد بلير في صفوف نواب حزبه العمالي، إضافة إلى الهجوم الصحفي والإعلامي بشكل عام الذي يسخر ويقود التيار التحتي في البلاد.

لا يمكن إعطاء رأي قريب للصواب بهذا الوضع السياسي الداخلي في بريطانيا، إلاّ إذا عدت إلى الوراء ودرست كيف وصل السيد بلير إلى قيادة حزب العمال، وكيف حقق هذا الحزب النصر الكاسح على المحافظين في انتخابات عام 1997م.

إن المحافظين هم من أسس حزب العمال نهايات القرن التاسع عشر عندما استشرى خطر الطبقة العاملة، من أجل استيعابها عن طريق النقابات لاستكمال اللعبة الديمقراطية، كما هو الحال في أمريكا عندما دعَّم الجمهوريون تأسيس الحزب الديمقراطي استكمالاً للعبة الديمقراطية في الولايات المتحدة، لأن أهل الفعاليات الاقتصادية في بريطانيا سواءً أكانوا محسوبين على المحافظين أم العمال هم صنيعة المحافظين، يهمهم مصالح بريطانيا كما يتصورونها والتي هي رجع لمصالحهم، وهؤلاء هم الذين يسيطرون على لقرار السياسي في بريطانيا، سواءً الذي يحكم في (10 دانينغ ستريت) محافظ أم عمالي. حيث هيأ المحافظون الظروف السياسية لحزب العمال الجديد، ليحكم البلاد ويحل بعض المشاكل التي لا يستطيع المحافظون حلها لأنهم بنوا سياستهم على خلافها، وعندما قرر المحافظون ذلك أعادوا تثقيف حزب لعمال وغيروا منهاجه وأعطوه وجه حزب العمال الجديد، كما أسماه السيد طوني بلير، وهو لا يمت بصلة إلى الليبرالية المزعومة التي قام عليها حزب العمال عند تأسيسه.

أهم هذه المشكلات على الصعيد الخارجي كانت إعطاء بريطانيا دوراً أكبر في الاتحاد الأوروبي وفي العالم، وحل مشكلات النظام الأساسي لبرلمانات أسكتلندا وويلز وإيرلندا، لتكون بريطانيا بأرضية داخلية قوية استعداداً لتكريس موقفها الدولي الخارجي. حيث تتطلع بريطانيا لتكون أحد الشركاء الأساسيين في النظام العالمي الجديد بعد خسارتها للحرب العالمية الثانية عن طريق نفوذها في الاتحاد الأوروبي من

جهة وعلاقاتها المتميزة مع الولايات المتحدة من جهة أخرى ونفوذها القديم في دول الكومنولث.

من أجل ذلك وقفت كافة المؤسسات البريطانية المحسوبة على المحافظين مع السيد طوني بلير (وحزب العمال الجديد) الذي وافق على أن يمثل مصالح الشركات الاستثمارية الكبرى في المملكة المتحدة، لهذا وقفت المؤسسات النقابية المحسوبة على المحافظين مع حزب العمال، وكذلك الصحف المؤيدة للمحافظين سوقت لحزب العمال الجديد علناً مثل (الجارديان، صن، الأوبزرفر، نيوز أوف ذي وورلد، الأنديبندت، فايننشال تايمز، الصاندي تايمز) كما وقف سوق المال والاستثمارات والبورصة والمصارف مع العمال أيضاً، وبذلك انضم لها شارع المال الذي يملك القرار الحقيقي عن طريق غرف التجارة والصناعة في بريطانيا التي يقودها نائب السيد جون ميجر المحافظ آنذاك في رئاسة الوزارة السيد مايكل هالزتاين.

إن موقف حزب المحافظين تجاهَ الوحدة الأوربية هو العامل الأساسي الذي جعل أمثال مايكل هالزتاين يؤيدون سراً وصول حزب العمال الجديد (المحافظ) إلى السلطة، بعد أن وافق على ارتداء (قبعة) محافظة بدل القبعة العمالية، ولهذا قام السيد طوني بلير مع معاونيه الرئيسين بارتداء ربطة عنق زرقاء أثناء الحملة الانتخابية علماً أنها عرفاً كانت شعاراً للمحافظين، وفوق كل ذلك أيَّدتْ الكنيسة الإنجليكانية البريطانية العمال وحملت على الرأسماليين الأشرار وطالبت بالخلاص منهم، وتصويت الكاثوليك مضمون لصالح العمال الجديد، وكذلك الاسكتلنديون باعتبارهم يمسكون بوزارات ظل هامة، وزاد على ذلك أن اختراع المحافظين حزباً جديداً بقيادة السيد (جيمس غولد سميث) أسموه حزب الاستفتاء لينافس القيادات المحافظة مثلما صنع الجمهوريون بالسيد (روس بيرو) ليترشح ضد الجمهوري بوش الأول لإلغاء أي إمكانية لنجاحه وتعزيز نجاح مرشح الديمقراطيين السيد كلينتون. وكما أرغم الديمقراطيين مرشحهم لمنصب الرئيس آل غور على تعيين اليهودي ليبرمان نائباً له لإسقاطه وإنجاح بوش الثاني مرشح الحزب الجمهوري لأن الكاثوليك لا يصوتون ليهودي، يخلف الرئيس فوراً عند غيابه لأي

سبب، إذن كيف للمحافظين أن يفوزوا في هذه الانتخابات وقياداتهم الأساسية المالكة للقرار هي التي عملت على نجاح العمال الجدد من أجل حل مشاكل بريطانيا المستعصية، ومن أجل الحصول على مقعد للمملكة المتحدة في سياسة العالم، فلا يهم أن يكون في الحكم محافظ أو عمالي طالما أنه يتقيد برغبات الأسواق المالية المسيطرة على كل مصادر الحياة في الديمقراطيات الغربية.

إن ما حصل ليس بالأمر الخارق للعادة، فلقد حصل ما هو أهم منه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في بريطانيا، فقد فاز (كلينت أتلي) العمالي عام 1945م على تشرشل المحافظ الذي قاد بريطانيا في الحرب العالمية الثانية، لأن المحافظين وجدوا أن التخلي للعمال في تلك الفترة ضرورة سياسية من أجل علاقات أفضل مع الولايات المتحدة التي كانت العامل الأساسي في كسب الحرب العالمية الثانية، بينما تشرشل في عناده وعنجهيته غير قادر على مسايرة الأمريكان الذين يعتبرهم أطفالاً في السياسة والقيادة فلا يستطيع تحمل سيطرتهم.

والآن من يصدق ما تشيعه الصحافة البريطانية بأن نواب حزب العمال انشقوا على السيد بلير لوقوفه مع السياسة الأمريكية في دعم إسرائيل لهجومها الأخير على لبنان وللمجازر الشنيعة التي ارتكبتها بحق المدنيين. وهل صحا الضمير البريطاني في لبنان ولم يصح على مجازر أفغانستان والعراق وفلسطين، والخراب والدمار الذي حلّ في أي بلد دخلته الجيوش البريطانية، حتى ولو غادرت وأبقت نفوذها الخبيث.

أزعم أن السبب الحقيقي الكائن وراء الرأسماليين المحافظين صناع القرار الحقيقي في بريطانيا عندما تخلوا الآن عن بلير وحزب عماله الصوري المصنع من قبلهم، هو انتهاء الأهداف التي اختيرَ وصنّع من أجلها بلير رئيس حزب العمال الجديد، وخاصة الدور الذي مارسته قيادة بلير في توريط الويات المتحدة في حروبها ضد الإرهاب وخاصة في أفغانستان والعراق، لأن الدور الجديد لبريطانيا سيكون، دوراً واضحاً وهو مشاركة الولايات المتحدة على القرار السياسي في العالم مباشرة، أو بركوبها على الحصان الأوربي، أي لا مجال للمجاملة المتملقة والمنافقة بعد الآن، بعد الضعف الأمريكي السياسي

الواضح الذي ساهمت فيه بريطانيا، لأن الدور البريطاني الآن سيكون صريحاً، حيث على بريطانيا أن تكون حصاناً رئيسياً في العربة التي ستقود العالم، فقد انتهى دور حصان طروادة البريطاني، ولن تحظى الولايات المتحدة حتى بمنصب قيادة الأوركسترا، بل ستكون على أبعد حد قوة دولية متمثلة في إحدى قواعد المثلث، بعد أن أجلستها بريطانيا مدعمة بالاتحاد الأوربي وخاصة ألمانيا وفرنسا إضافة إلى روسيا والصين واليابان على رأس الهرم السياسي الدولي الحاد والمدبب، والذي جعل الولايات المتحدة في وضع تتمنى فيه النزول من هذا الرأس ولكن نزول الكبار بكبرياء، وليس نزول الصغار المهزومين.

هذا ما جعل الولايات المتحدة تستعمل طلقتها الأخيرة، عندما أعلنت أن شرق أوسط (كبير) على وشك الولادة، يدمر شرق أوسط (سايكس ـ بيكو) من خلال سياسة الفوضى البناءة، مغرية شعوب هذه المنطقة بديمقراطية مكذوبة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وحقيقتها تفجير الشرق الأوسط الكبير في وجه الاتحاد الأوربي وروسيا والصين وجميعهم بلاد مجاورة بريّاً لهذا الشرق الأوسط، الذي سيولد تفجيره شظايا نارية ملتهبة لا يسلم منها كل مجاور، والولايات المتحدة تبعد آلاف الأميال عن هذا الانفجار المدمر، حيث يعيدها هذا الوضع إلى البلد المنقذ للعالم كما حدث في صيف 1942م أثناء الحرب العالمية الثانية، على أثر تدمير أسطولها البحري وبمعرفتها وعلمها في (بيرل هاربر) والذي مكنها من دخول الحرب العالمية الثانية بصورة المنقذ للعالم. لا تستغربوا قد تقوم الولايات المتحدة بأي عمل من أجل السيطرة على الموقف الدولي... إن مكيافيللي ما زال يعشش في تلافيف أدمغة وقيم العالم الغربي، الذي يقود العالم من خلال حضارة منحطة لم تعطِ العالم إلا الدمار والشقاء والانحلال.

17/ 9/ 2006م

من ورط من بالعراق الولايات المتحدة أم المملكة المتحدة؟

سبق وأن نشرت لي صحيفتكم الغراء في عددها رقم 9677 بتاريخ 27/ 9/ 2006م مقالاً بعنوان، (هل أنهى المحافظون عقد استئجار بلير العمالي)، أوضحت به (الدور الذي مارسته قيادة بلير في توريط الولايات المتحدة في حروبها ضد الإرهاب، وخاصة في أفغانستان والعراق، لأن الدور الجديد لبريطانيا سيكون دوراً واضحاً، وهو مشاركة الولايات المتحدة في القرار السياسي في العالم مباشرة، أو بركوبها على الحصان الأوربي، أي لا مجال للمجاملة المتملقة والمنافقة بعد الآن، بعد الضعف الأمريكي السياسي الواضح الذي ساهمت فيه بريطانيا... النص).

إن الذي دعاني للتعقيب على المقال السابق المذكور، هو تسارع وتيرة الأخبار الدولية التي تؤكد على أن بريطانيا ستلعب دوراً واضحاً في الاستفادة من توريط الولايات المتحدة في حروب الإرهاب بشكل عام، وفي العراق بشكل خاص. وخاصة أخبار ليلة الخميس الموافق 12/ 10/ 2006م، حيث ركزت مراكز الأخبار السمعية والبصرية على الأخبار التالية:

1 ـ تصريح رئيس أركان الجيوش البريطانية الجنرال (ريتشارد دانات) إلى صحيفة الديلي ميل البريطانية، بضرورة انسحاب القوات البريطانية من العراق بأسرع وقت ممكن، حيث وجود هذه القوات يزيد الأمور تعقيداً، ويضع بريطانيا في موقف صعب، لأن العالم الإسلامي لا يمكن السيطرة عليه بالقوة.. الخ).

2 ـ تصريح وزيرة الخارجية البريطانية، بوجوب إغلاق معتقل غوانتينامو، بسبب الإحراج الذي سببه ذلك للسياسة البريطانية، باعتبار ما يجري في هذا المعتقل منافياً لحقوق الإنسان الطبيعية التي درجت عليها السياسة البريطانية.

3 ـ تصريح وزير الداخلية البريطاني الأسبق السيد ديفيد بلانكيت لصحيفتي الجاردين والديلي ميلر، أثناء الهجوم على العراق، بأنه اقترح في مجلس الوزراء البريطاني المصغَّر ضرورة قصف قناة الجزيرة لأنها تحرض على تسعير الحرب المواجهة للتدخل

الأمريكي والبريطاني، ومن ثم قصفت المحطة في ذلك الوقت، وقتل الصحافي طارق أيوب رحمه الله.

4 ـ ما تداولته وكالات الأنباء والصحافة البريطانية، بأن السيد طوني بلير قد ضغط على نائبه السيد براون، حتى يصوت في مجلس الوزراء لصالح دخول بريطانيا الحرب مع العراق، ولقد هدده بالطرد في حال عدم الموافقة.

* السؤال الذي يبرز الآن هو، لماذا في هذا الوقت بالذات تسرب قيادات بريطانية من الدرجة الأولى سياسية وعسكرية، هذه الأخبار التي تضع القيادة السياسية في الولايات المتحدة وبريطانيا في وضع حرج، لأن الولايات المتحدة على أبواب الانتخابات الأولية للكونجرس بمجلسيه (الشيوخ والنواب)، وبريطانيا على أبواب تغيير لقيادة السيد بلير والاستعاضة عنه بمنافسه وزير الخزانة، وهو المرشح الأول عن حزب العمال الجديد، وهذا يضع الحزب أمام انشقاق داخلي وضعف يؤدي إلى نجاح حزب المحافظين في الانتخابات المقبلة، أو استمرار حزب العمال الجديد بقيادة يرضى عنها المحافظون، حيث قررت بريطانيا إبراز وجهها الحقيقي في مشاركة قيادة الولايات المتحدة المقبلة على العالم في حال فوز الديمقراطيين في الولايات المتحدة بقيادة السيد (كيري).أو غيره من قيادات الحزب الديمقراطي لتأدية دور جديد في قيادة العالم. الذي يدفع في هذا الاتجاه، هو إدراك أن منصب رئيس أركان القوات البريطانية ليس منصباً عسكرياً فقط، بل هو منصب سياسيٌّ أيضاً، ولا يمكن له على الإطلاق الإدلاء بمثل هذه التصريحات الخطيرة في غياب (لوبي عسكري وسياسي) يقف خلفه في إحراج قيادة الرئيس بوش وقيادة السيد بلير ومسؤوليتهما عن الحالة المتردية التي وصلت فيها القيادة المشتركة في حرب العراق، فإنه لابد من إزاحة القيادتين في الولايات المتحدة وبريطانيا المسؤولتين عن مستنقع حروب الإرهاب في العراق وأفغانستان، ولإفهام المواطن العادي والسياسي في بلديهما، أن هذه الحروب لم تقضِ على الإرهاب بل زادته سعيراً، حيث لم تساعد على تفاهم الحضارات، بل زادت في تثوير صراع الحضارات الذي سيوصل العالم إلى كوارث لا يمكن استبعادها إلا بتغيير المسؤولين الفاشلين مع حاشيتهم، سواء من سموهم

المحافظين الجدد في الولايات المتحدة، أم قيادة بلير وحزب عماله الجديد. الذي صورته إحدى الصحف البريطانية بأنه سحاب بنطال السيد بوش، وهذا لا شك رأي خاطئ لأن بلير يؤدي دوره في ذلك.

* ولمَّا قامت قيامة السيد بوش وإدارته على تصريحات الجنرال البريطاني ريتشارد، وطلب تفسير لهذه التصريحات، لم تكن التفسيرات التي حاول فيها الجنرال رتشارد ترقيع ما قال ذات وزن، لأن ما رغبته السياسة البريطانية قد حصل، ولا يفيد أي ترقيع لأن الرسالة البريطانية لشعوب وسياسيي الولايات المتحدة وبريطانيا قد وصلت، وهي أن الدخول في العراق كان مستنقعاً آسناً لا بد من الخروج منه.

* إن عطف تصريحات الجنرال ريتشارد على ما قالته وزير خارجية بريطانية بضرورة إغلاق معسكرات غوانتينامو، وما قاله السيد بلانكيت من ضرورة قصف قناة الجزيرة، وما قاله السيد براون نائب السيد بلير أثناء الحرب على العراق، من الضغط عليه للتصويت لصالح التدخل، كل ذلك يجعل المراقب السياسي والمواطن العادي في الولايات المتحدة وبريطانيا يحاسب حكومته، ويؤكد على أن بلير هو الذي دخل الحرب ولم يدخل الشعب البريطاني برضاه هذه الحرب، وأن لا مصلحة للشعب البريطاني في تثوير الشرق الأوسط ضد السياسة البريطانية بدون سبب يبرر مصالح المملكة المتحدة.

* إن الذي أريد أن أقوله: أن أصحاب القرار الحقيقيين في بريطانيا يريدون من هذه التصريحات أن يفهموا قيادة الولايات المتحدة، بأن الشعب البريطاني لا يرضى عن حكامه إذا لم يحققوا مصالح شعوبهم، وأن لا مصالح للشعب البريطاني في دخول حروب خاسرة، تضع بريطانيا في موقف المساعد على هدر حقوق الإنسان بشكل يثير كراهية وبغض شعوب الشرق الأوسط الكبير أو الجديد، وأن السياسة البريطانية بخبثها المعهود ترسل رسالة إلى الحكام الجدد والمتوقعين في الولايات المتحدة، وهم الديمقراطيون الذين سيمثلون واجهة أهل الفعاليات الاقتصادية كما مثلها السيد بوش لمرحلة من الزمن، تريد أن يفهم هؤلاء بأن الولايات المتحدة في حالة ضعف سياسي في الشرق الأوسط بشكل خاص وحالة ضعف عالمي أيضاً، وأن دور السياسة البريطانية الجديد هو الشريك وليس

الأجير، وخلاف ذلك على الولايات المتحدة أن تختار بين الفوضى البناءة التي ابتدعتها السيدة كوندرليزاريس، والتي لا يعلم إلا الله مداها، إذا تفجر الشرق الأوسط، أو تختار الشريك البريطاني في قيادة العالم كعامل مهدئ بماله من شبكة علاقات قديمة وموروثة، ولما له من تأثير في الاتحاد الأوروبي، بحيث ترضى ألمانيا وفرنسا بفتات نفوذ إقليمي ومحلي، وتدخل ألمانيا مجلس الأمن الجديد كعضو أساسي وثابت. وخلاف ذلك، سوف لن ترتاح الولايات المتحدة، وسوف تستمر حروب الإرهاب التي ورطتها بها السياسة البريطانية ودعمتها في هذا التوريط ألمانيا وفرنسا، ومن ورائهم الاتحاد الأوروبي والسوق الأوروبية المشتركة، والصين وزائدتها الدودية كوريا الشمالية، وروسيا لها بالمرصاد منتظرة عودتها للقيادة التي تستحقها، واليابان تنتظر دورها العسكري، بقوتها الاقتصادية العملاقة لا ينقصها سوى الظرف الدولي، لتكون قوة عسكرية في شرق آسيا على الأقل، وهذا لا يرضي الصين، وبذلك تضيع الولايات المتحدة في شرق أوسط جديد (كبير) ربما تخرج به الفوضى البناءة عن (الكومبيوتر)، وربما أدى ذلك إلى نظام دولي جديد خلاف ما تريد الولايات المتحدة، وخلاف الولادة المتوقعة، فربما يعقب آلام المخاض الذي تحدثت عنها رايس عمليات ولادات قيصرية لا يعرف إلا الله مداها، هذا ما يجعل بريطانيا وأوربا والصين وروسيا واليابان يراقبون المستنقع الذي يكاد يخنق الولايات المتحدة، من أجل إما مشاركتها في قيادة العالم من خلال القوة الحقيقية والفعلية الحالية لكل القوى الدولية الفاعلة أو المرشحة لتصبح قيادة العالم الدستورية بما في ذلك الأمم المتحدة ومجلس الأمن والمنظمات الدولية جميعها، فإن وقتاً طويلاً مضى على نهاية الحرب العالمية الثانية، ولابد من توزيع جديد للأدوار الدولية، من أجل عالم مستقر وآمن.

23/ 10/ 2006م

دور الولايات المتحدة
في دخول الصين لإفريقيا

علَّقت وزيرة التنمية الألمانية هايدي ماري، على اتفاقية الشراكة الإستراتيجية الصينية الإفريقية التي أبرمتها الصين في 4/ 11/ 2006م مع / 48/ دولة إفريقية، (بأن هذه الاتفاقية تصب في مصلحة الصين بالمقام الأول، وهي بمثابة ناقوس خطر يوجب إيقاظ أوربا من سباتها) والسؤال الذي يبرز، لماذا هذا الخوف الذي يبلغ حد الخطر على المصالح الأوربية في إفريقيا من جراء خروج التنين الصيني، وخاصة إذا علمنا أن ألمانيا سوف تتسلم الرئاسة الدورية للاتحاد الأوربي الشهر المقبل.

والجواب هو، أن وسط وجنوب أفريقيا، كان وما زال حكراً على الأوربيين سواء أكانوا (ألمان، بريطانيين، فرنسيين، بلجيكيين، هولنديين، إيطاليين، الخ..)، بينما الشمال الأفريقي كان منطقة نزاع بين الأوربيين والأمريكان منذ نهايات الحرب العالمية الثانية، فكان الشمال الإفريقي خاضعاً للمؤثرات السياسية والاقتصادية التبادلية بينهما.

ولقد حاولت الولايات المتحدة دخول وسط وجنوب وسواحل إفريقيا في الصومال وجيبوتي والكونغو وما إلى ذلك من الدول الأخرى التي حازت على استقلالاتها الشكلية من الأوربيين، ولكن الجهود الأمريكية لم تحقق نجاحاً يُذكر في السيطرة على القارة الإفريقية من أيام (موبوتو، عيدي أمين، أبو بكر تفاوه بليوه...).

وأخيراً خرجت من الصومال ذليلة بعد أن سحل الصوماليون جثث المارينز في الطرقات العامة، وذلك نظراً لسيطرة الأوربيين وتأثيرهم على رؤساء القبائل الإفريقية، حيث دخلت أوربا إفريقيا بشكل مبكر منذ القرن الخامس عشر الميلادي، واسترقت

شعوبها وشحنتهم كالحيوانات إلى أسواق النخاسين لتبيعهم إلى العالم الجديد في الولايات المتحدة.

قامت الشركات الأوربية الكبرى في الاستيلاء على ثروات البلاد بقدر معلوم حسب حاجاتها، وخاصة النحاس والأحجار الكريمة والألمنيوم واليورانيوم، ولكنها لم تجرؤ على إخراج كنوز إفريقيا وثرواتها الطبيعية بأقصى ما تستطيع، وذلك مراعاة للولايات المتحدة الأمريكية، وكأن هناك (جنتلمان اجريمنت) بين الطرفين بإبقاء كنوز إفريقيا في باطن الأرض مؤقتاً، علماً أن الدراسات الأوربية الجيولوجية تعلم مناطق وحجم هذه الثروات. إذن ماذا تغير الآن حتى تفسح الولايات المتحدة المجال للصين للدخول بهذا الشكل الاستثماري الهائل إلى إفريقيا، لتستثمر الصين ما قيمته أكثر من / 5/ مليارات دولار للسنة القادمة، علماً أن / 12/ شركة من كبريات الشركات الصينية، قد وقعت اتفاقات مع حكومات ومؤسسات إفريقية / 1.9/ مليار دولار حتى الآن.

إن الرئيس الصيني (هوجينتاو) قد أعلن هذه الشراكة الإستراتيجية بحضور الرئيس المصري حسني مبارك ورئيس الوزراء الأثيوبي ملس زيناوي، وكلاهما محسوبان من المؤيدين لسياسة الولايات المتحدة في إفريقيا، وهذا يدل على أن الولايات المتحدة موافقة على الدور الصيني الجديد في إفريقيا.

أزعم أن الولايات المتحدة قد تجاوزت الخطوط الحمراء التي كانت قبلت بها سابقاً للتفاهمات الأمريكية الأوربية حول إفريقيا، وإنها تقبل بالدور الصيني الجديد في هذه القارة، نظراً لوجود مصالح مشتركة بين الصين والولايات المتحدة. فتستخدم أمريكا الصين كقوة اقتصادية وليست عسكرية لكنس النفوذ الأوربي العسكري والاقتصادي من القارة السمراء.

ولقد حدث مثل ذلك بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عندما حفَّزت الولايات المتحدة الاتحاد السوفييتي للدخول إلى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وشمال إفريقيا

لكنس النفوذ البريطاني والفرنسي من هذه المناطق، فكانت معركة (بيان بيان فو) في فيتنام منهية للنفوذ الفرنسي في جنوب شرق آسيا بالكامل، ومعركة السويس عام 1956 محجمة للنفوذ البريطاني والفرنسي في الشرق الأوسط، ولقد صدق محمد حسنين هيكل عندما قال: لم ننتصر في حرب السويس بفضل إنذار (بولغانين) بل لأن أمريكا وقفت مع إنذار (بولغانين).

إن الولايات المتحدة لا تخشى النفوذ الصيني الاقتصادي في إفريقيا، لأنه طارد للنفوذ الأوربي الاقتصادي والسياسي والعسكري في المستقبل، ولأن سياسة الصين منذ آلاف السنين هي عدم الخروج العسكري خارج أراضيها ولا تسمح لقوة أخرى بالدخول إليها، حتى أن قتيبة بن مسلم الباهلي عندما أصبح على حدود الصين ورغب في دخولها، قابله وفد من حكماء الصين وأبلغه بأن الدخول ليس في مصلحة جيوشه، وسوف تضيع في أراضي الصين، وعندما أجابهم بأنه أقسم أن يطأ ترابها، قال الحكماء لا بأس سوف تبر بقسمك ونأتي لك بطبق من تراب الصين لتدوسه بقدميك، وهذا خير لك ولجيشك، وخير لنا، فكان حكيماً وقبل هذا الاقتراح.

بناءً على ما تقدم أزعم أن الولايات المتحدة تستطيع تحجيم الدور الأوربي في إفريقيا مؤقتاً، وقادرة على كنسه مستقبلاً بواسطة الصين، حيث لا تشكل الصين خطراً عسكرياً وسياسياً على الولايات المتحدة، لا حاضراً ولا مستقبلاً، ولكنها ستشكل خطراً اقتصادياً في المستقبل المتوسط على الولايات المتحدة بفضل قوة انتعاش الاقتصادي الصيني الذي لا مثيل له في العالم. وإن الصين قد فرضت وجودها الاقتصادي على العالم، فالطريق الأمثل للولايات المتحدة، إن استطاعت أن تحتوي هذا الوجود من خلال العلاقات والمصالح السياسية والاقتصادية المشتركة لأنها غير قادرة على أكثر من ذلك، وإنه ليس بالإمكان أبدع مما كان، ولا يوجد عند السياسيين عداوات دائمة ولا مصالح دائمة. فالأوربيون خطرهم في إفريقيا له جذور قوية، والصينيون خطرهم بلا جذور وبلا قوة عسكرية، ومن الممكن إزاحة نفوذهم إذا

اقتضت الظروف، ولذلك استطاع السادات في يوم واحد تسفير الخبراء السوفييت من مصر ولم يجدوا داخلياً من يدعمهم مع كل المساعدات العسكرية والاقتصادية التي قدموها لمصر، من السد العالي إلى منصات الصواريخ من فئة سام. وهذا رأي قابل للصواب أو للخطأ ولكنه يستحق التأمل.

9/ 11/ 2006م

هل نجحت بريطانيا بفرض نفسها شريكاً للولايات المتحدة

سبق أن نشرت لي صحيفتكم الغراء تشرين في عددها رقم 9699 بتاريخ 23/ 10/ 2006م، موضوعاً بعنوان (من ورط من بالعراق، الولايات المتحدة أم المملكة المتحدة)

ـ أوضحت به أن الدور الجديد لبريطانيا، (هو مشاركة الولايات المتحدة في القرار السياسي في العالم مباشرة، أو بركوبها على الحصان الأوروبي، أي لا مجال للمجاملة المتملقة والمنافقة بعد الآن، بعد الضعف الأميركي السياسي الواضح الذي ساهمت فيه بريطانيا.. «النص»)، وإن الولايات المتحدة (في حالة ضعف سياسي في الشرق الأوسط بشكل خاص، وحالة ضعف عالمي أيضاً، وإنَّ دور السياسة البريطانية الجديد هو الشريك وليس الأجير، وخلاف ذلك على الولايات المتحدة أن تختار بين الفوضى البناءة التي ابتدعتها السيدة كوندوليزارايس، والتي لا يعلم إلا الله مداها إذا انفجر الشرق الأوسط، أو تختار الشريك البريطاني في قيادة العالم، كعامل مهدئ بما له من شبكة علاقات قديمة وموروثة... «النص») وإن وقتاً طويلاً قد مضى على نهاية الحرب العالمية الثانية، ولا بد من توزيع جديد للأدوار الدولية.

ـ إن الذي حفزني على متابعة الكتابة في هذا الموضوع هو، نشر تقرير لجنة (بيكر ـ هاملتون) بخصوص إعادة دراسة الوضع السياسي والعسكري للولايات المتحدة، وكيف تخرج من المستنقعات التي ورطتها بها السياسة البريطانية فيما سمي بحروب الإرهاب، الناتجة عن مستنقعي أفغانستان والعراق. وكذلك زيارة رئيس الوزراء البريطاني السيد بلير إلى الولايات المتحدة وعقده مؤتمراً صحفياً مع الرئيس بوش للتعليق على نتائج لجنة (بيكر ـ هاملتون).

ـ صحيح أن هناك / 79/ نقطة في تقرير (بيكر ـ هاملتون) لكن الأمور الهامة التي ركز عليها التقرير ثلاث نقاط هي:

1 ـ ضرورة انسحاب القوات الأمريكية من العراق خلال جدول زمني، يبدأ بتخفيض عدد القوات حتى عام 2008م متزامن مع تأهل الجيش العراقي مع نسبة القوات المنسحبة.

2 ـ طلب مساعدة سوريا وإيران، عن طريق حوار مباشر معهما، ليكون لهما دور إيجابي وبناء ـ في عدم تقديم أي دعم أو مساندة لما أسماه التقرير أعمال الإرهاب في العراق.

3 ـ إزالة الاحتقان الدموي المتأصل بين الفلسطينيين واليهود، وذلك بقطع شرايين المؤازرة والمساندة من العالم العربي الإسلامي وخاصة سوريا وإيران للعمل المسلح الفلسطيني، لقاء تعهدهم والتزامهم بإقامة دولة للفلسطينيين لها حق الحياة بجانب إسرائيل، وتفويض السيد بلير لزيارة إسرائيل ودول المنطقة لإيجاد أفضل السبل في حل النزاع العربي الإسرائيلي.

ـ بدراسة ما توصلت إليه لجنة (بيكر ـ هاملتون) نجد أنه لا جديد في هذه التوصيات، حيث سبق وأنْ طرحت الصحافة العالمية والمحلية هذه الموضوعات. وإذا كانت هذه الموضوعات هي الهدف الحقيقي للجنة (بيكر ـ هاملتون) فلا تكون الولايات المتحدة بحاجة إلى تكليف قيادات كبيرة من الحزب الجمهوري والديمقراطي للتوصل إلى توصيات يعرفها ابن الشارع العادي في الشرق الأوسط. لكن أعتقد أن لهذه التوصيات أهميتها كونها اضطرت الولايات المتحدة لاتخاذها سياسة معلنة، أمام العالم كسياسة رسمية للتدليل على ضعفها، والمطلوب اعترافها أمام الرأي العام العالمي بأنها عاجزة عن قيادة العالم بمفردها، وأنها بحاجة إلى غطاء دولي وإقليمي لانتشالها من المستنقع الغبي الذي أوقعها فيه استكبارها وعنجهيتها، وجهلها السياسي والقيادي، وأن بريطانيا هي التي تستطيع أن تنقذها، علماً أنها هي التي كانت عاملاً أساسيّاً في توريطها فيما سمي حروب الإرهاب من أفغانستان إلى العراق، ولقد آن الأوان للولايات المتحدة أن تدفع الثمن، وهو قبولها بالمملكة المتحدة شريكاً وليس أجيراً وعلناً، وأن بريطانيا في الواقع قادت الولايات المتحدة إلى ما تريده، وهي التي أدخلتها المستنقع وهي التي تستطيع أن تعمل على إنقاذها، والدليل على ذلك:

تهديد بريطانيا بسحب جيوشها من العراق على لسان رئيس هيئة أركان جيوشها الجنرال ريتشارد دانات، وما أثارته وزيرة الخارجية البريطانية بوجوب إغلاق معسكرات التعذيب وخاصة (غوانتينامو وأبو غريب) وما تداولته الصحف على لسان وزير

الخارجية الأسبق السيد (بلانكيت) وعلى لسان المرشح لرئاسة الوزارة البريطانية السيد براون، بأن السيد بلير مارس ضغوطاً قسرية معنوية على وزارته للوقوف إلى جانب الولايات المتحدة في العراق. وتصريحات كثيرة بهذه الخصوص رسمية أو صحفية، وكلها تسريبات حكومية للضغط على الولايات المتحدة من خلال كون السيد بلير لا يستطيع الاستمرار بتأييد السياسة الأمريكية في العراق، وأنه يخضع لضغوط رسمية وشعبية للانسحاب من العراق. وأن الولايات المتحدة ستبقى وحيدة في المستنقع.

ولذلك استطاعت بريطانيا أن تجر الولايات المتحدة إلى ما تريد، بخصوص الانسحاب من العراق، وفتح ملف حل القضية الفلسطينية الذي لم تكن الولايات المتحدة جادة به ولا في يوم من الأيام، لأسباب ليس في هذا المقال ذكرها، لأنها ليست هي الموضوع المقصود.

ـ يستطيع المتابع للمؤتمر الصحفي الذي عقده الرئيسان بوش وبلير، أن يلمس بدون أدنى صعوبة، أن الرئيس بوش يقف كتلميذ غير نجيب أمام السيد بلير، وكأنه يلتمس منه العون والصفح عندما ورطت السياسة الأمريكية في عهد تاتشر البريطانيين في جزر الفولكولند، واضطرت بريطانيا إلى تجييش أسطول ضخم ضد الأرجنتين، وأوقعتها الولايات المتحدة في مستنقع بقصد إذلالها وتهديدها بالطرد من أرخبيل جزرها في المحيط الأطلسي، ثم تقدمت لإخراجها من هذا المستنقع بعد أن دمَّر الأرجنتينيون بصاروخ بارجة عملاقة للبريطانيين. ولذلك كان الرئيس بوش لأكثر من مرة يكرر بذله (بريطانيا العظمى) وليس بريطانيا فقط كما كان يقول سابقاً، وكأنه يقول لبلير إننا نوافق على أن تعودوا قوة عظمى في العالم، ولكن نرجوكم أن تكون بإرادتِنا وليس رغماً عنا ولو في الظاهر فقط، حفاظاً على مركز الولايات المتحدة وسمعتها الدولية.

ـ لكن لماذا اضطر بوش إلى الاعتراف علناً ببريطانيا كقوة عظمى ولتعود من جديد إلى ممارسة دورها الاستعماري المبتَذْ الخبيث؟

لم يكن أمام الولايات المتحدة بعد المهالك التي أوردتها إياها السياسة البريطانية عن طريق الاستعانة أحياناً بالاتحاد الأوربي (فرنسا ـ ألمانيا)، وكذلك الدس الذي

مارسته مع القيادات الروسية، وإذكاء الآمال الصينية في أن تكون القوة الأولى في العالم. وبالحرائق الصغيرة والكبيرة التي كانت بريطانيا وراء إشعالها في الشرق الأوسط وأفريقيا مشاغبة على الوجود الأمريكي، كل ذلك جعل الولايات المتحدة أمام خيارات كلها صعبة، فهي فشلت في قيادة العالم منفردة: وأمامها إما مشاركة الاتحاد الأوربي ليساعدها في قيادة العالم، أو الاستعانة بالصين وروسيا لتحجيم الدور الأوربي، أو فوضى في الشرق الأوسط الواسع، تشتعل نيرانها قريبة من حدود الصين وروسيا والاتحاد الأوربي، وكلها خيارات صعبة غير مضمونة النتائج، والفشل في أي منها يعيد الولايات المتحدة إلى مستوى كندا والمكسيك والأرجنتين. ولذلك وجدت الولايات المتحدة أن الخيار الذي اختارته في المشاركة مع الإنجليز (أنجلو ساكسون) ربما هو الخيار الذي لابد منه والأقل ضرراً، والذي يساعدها في مركز القوة الأولى في العالم، ولو مع شريك، لأنه ربما لا يمكن السيطرة على نتائج ما أسمته الفوضى البناءة في الشرق الأوسط الأوسع بسبب هيمنة الأصولية الدينية، وقوة تأثيرها على الشارع العربي والإسلامي، والموقف الإيراني الذي لا عودة عنه باتجاه تخصيب اليورانيوم لتكون دولة إقليمية نووية تؤثر على سياسة المنطقة، حيث صرح وزير خارجيتها بعدم حاجة إيران للحوار مع الولايات المتحدة وأنها تستطيع الانسحاب من العراق بدون حوار ولا أحد يمنعها من ذلك، كما أن الناطق بلسان وزارة خارجيتها قال: لا حوار مع الولايات المتحدة قبل الإفراج عن ودائعها المصرفية ورفع المقاطعة الاقتصادية، يضاف إلى ذلك الوضع السياسي والجغرافي السوري الذي يجعل سوريا رئة يتنفس منها أهل العراق ولبنان وفلسطين، وليس عندها إمكانية حوار قبل تعهد إسرائيل بالانسحاب الكامل من الجولان كما هي وديعة رابين ومؤتمر مدريد، بحيث تكون الولايات المتحدة بحاجة لسوريا أكثر مما سوريا بحاجة لها ضمن هذه الظروف المعقدة في العراق وبلاد الشام، كما أنه من الخطورة بمكان قبول الصين كقوة عظمى مشاركة في صنع القرار بالعالم، لأن الصين لا تخرج خارج بلادها بجيوشها وهي تكتفي بالسيطرة الاقتصادية البناءة مع أي قوة مشاركة ومؤثرة.

فهل اختارت الولايات المتحدة الحل الأقل ضرراً أم أخطأت في الاجتهاد، لأن الإنكليز لن ينسوا تحجيم الولايات المتحدة لهم وإسقاطهم من قيادة العالم وإذلالهم بعد الحرب العالمية الثانية، وربما سياستهم الآن مرحلة للانتقال إلى عالمهم الطبيعي وهو الاتحاد الأوربي، بحيث تساعد بريطانيا على إنهاء الدور الأمريكي السياسي العالمي المنفرد، ليعود العالم إلى سياسة الأقطاب فتكون الولايات المتحدة قطباً منها بوضعه الطبيعي، بدون تكبر ولا غطرسة ولا إذلال لأوربا القديمة ولروسيا وريثة الاتحاد السوفييتي، وتأخذ اليابان حقها الطبيعي بدون ظلم ولا تكبر، والذي يقرر رجحان أحد هذه الاحتمالات، هو وضع الشرق الأوسط السياسي المتوقع، هل هو شرق أوسط أوسع كما تريده الولايات المتحدة أم جديد كما تريده أوربا وإسرائيل، أم شرق أوسط عربي إسلامي تملك قراره المستقل شعوب المنطقة، ليكون قوة دولية يحسب لها حساب الند المشارك في المحافل الدولية والنظام الدولي الجديد.

11/ 12/ 2006م

الجزء الثاني

هل السنة النبوية وحي من الله؟ أم اجتهاد؟

إن المتابع للإصدارات الجديدة عن بعض دور النشر في العالمين العربي والإسلامي، فيما سمي بالقراءات المعاصرة للدين الإسلامي، يجد أنها ركزت في السنوات الأخيرة على السنة النبوية بمخطط طويل الأمد، ابتدأ بالتركيز على عظمة القرآن وعظمة آياته وإعجاز قوانينه وسننه في الآفاق والأنفس، وأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل ولا يتطرق إليه الخلل، فهو الثابت وحياً ومن الله سبحانه وتعالى، وهو الكتاب المبين الذي يحل مشكلات الحياة، فهو كتاب القوانين والعلوم (التكنولوجيا) من فيزياء وكيمياء وطبيعة، ولقد نص الله فيه نصاً أو معنى على احتياجات الأولين والآخرين، وبعد أن ثبتوا هذا المفهوم الخاطئ عن القرآن بالتلبيس والتدليس، بكلمة حق أريد بها باطل، أخذوا يضعفون مركز السنة النبوية من حيث المتن والسند ومن حيث اضطرابها وتناقضها وتعارضها مع آيات القرآن الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم انتقلوا إلى وصف الرسول بأنه مجتهد في كتاب الله سبحانه وتعالى، والمعلوم أن المجتهد إنسان يخطئ ويصيب فالرسول إذن معرض للخطأ والصواب في فهمه لآيات الله سبحانه وتعالى، وإن سننه ما هي إلا تفاعل تاريخي بينه وبين مجتمعه في القرن السابع الميلادي، هذا المجتمع المتخلف الذي أوجد تفاعلاً متخلفاً هي سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، الصالحة لذلك الزمان وذلك المكان، وإن من يتقيد بسنة الرسول عليه الصلاة والسلام هو إنسان متخلف يريد أن ينقل تفاعلاً مر عليه أربعة عشر قرناً. ولذلك لجؤوا إلى تخصيص فاعلية سنة الرسول عليه الصلاة والسلام على العبادات التي لا تتغير ولا تتبدل، أما المجتمع فهو بحالة تطور مستمر، حيث لا يمكن قصر حالة المجتمع الإسلامي على مرحلة حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإلا عشنا في غير عصرنا، وكنا كمن يحنط الفكر الإسلامي ويحنط المجتمع، ثم جاء أخيراً من يعلن عن نفسه جهاراً نهاراً وعن

تفكير هؤلاء الكتاب السابقين ويتابع مشوارهم ويتمم مراحلهم، ويعلن بأن الموضوع ليس هو موضوع المتن والسند في سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، بل سبب تخلف المجتمع هو الإيمان بأن السنة هو وحي من الله سبحانه وتعالى، فهو يرفض قبول السنة وحياً بالصوت والصورة ولو أن شريط (فيديو) نقل إلينا الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يلقي أحاديثه، لأن الإيمان بأن السنة وحي هي شرك بالله سبحانه وتعالى، وكل من يؤمن بذلك هو مشرك، لأنه آمن بكتاب آخر مع القرآن الكريم أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، ويقرر نهائياً بأن الله سبحانه وتعالى لم يوح للرسول إلا القرآن الكريم بعد هذه المقدمة المختصرة ندخل في الموضوع وهو:

هل السنة النبوية وحي من الله سبحانه وتعالى إلى محمد بن عبدالله أم لا؟

تعريف السنة:

لابد من تحديد معنى السنة والمقصود بها وما هو وعاؤها عند علماء المسلمين، السنة في اللغة الطريقة، والطريقة هي الكيفية التي يجري على أساسها عقل الأشياء والحوادث. فالطريقة ثابتة لا تتغير، بخلاف الأسلوب ولذلك قالوا: الطريقة العلمية والطريقة العقلية، فالطريقة العلمية تقتضي الملاحظة والتجربة والاستنتاج، وهي تجري بشكل ثابت لا يتغير لفهم كل حركة المادة، والطريقة العقلية تقتضي نقل الواقع عن طريق الإحساس إلى الدماغ وربطه بالمعلومات السابقة، وهذه الطريقة أيضاً ثابتة لا تتغير مع الزمان والمكان. وأي بحث خلاف هاتين الطريقتين هو من التصور والتخيل ولا يوصل إلى حقائق.

أما في الشرع فقد تطلق على ما كان من العبادات نافلة منقولة عن الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد تطلق على ما صدر عن الرسول عليه الصلاة والسلام من قول أو فعل أو تقرير، وعند الإشارة إلى الأدلة الشرعية الأصلية تطلق السنة على فعل الرسول وعلى قوله وعلى إقراره، فقط المعنى المقصود في موضوعنا، فهل قول الرسول وفعله وتقريره متلقى من الوحي أو لا، وعند الإيجاب ما الدليل القطعي على ذلك؟

القول بأن السنة (قول وفعل وتقرير) بالمفهوم وبالوعاء المذكورة أعلاه وحياً من الله إلى محمد بن عبدالله يحتاج إلى أدلة قطعية، لأن ذلك أصل من أصول الدين ولا يجوز فيه الدليل الظني، لأن الإيمان هو تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل. والدليل إما أن يكون عقلياً أو نقلياً ثبت أصله بطريق العقل. ولا خلاف بين الكتاب الذين ينكرون سنة الرسول بالمعنى الذي ذكرناه ـ على أن القرآن الكريم وحي قطعي من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله فهم يعظمون آيات هذا القرآن ويبجلونها. ولذلك من الجائز لنا أن نستدل بهذه الآيات القطعية الثبوت، القطعية الدلالة على أن السنة وحي من الله إلى رسوله، ولو ادعوا خلاف ذلك لحاججناهم بأن القرآن وحي من الله إلى رسوله، ولقد كفونا مؤونة ذلك.

علماً أنه لا خلاف بين علماء المسلمين على أن أصول الأحكام كما هي السنة يجب أن يكون دليلها قطعياً قال أبو إسحاق المعروف بالشاطبي في كتاب الموافقات (إن أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية، والدليل على ذلك أنها راجعة إلى كليات الشريعة ما كان ذلك فهو قطعي) وقال كذلك (لو جاز تعلق الظن بكليات الشريعة لجاز تعلقه بأصل الشريعة لأنه الكلي الأول وهو غير جائز) وقال كذلك (لو جازم الظن أصلاً في أصول الفقه لجاز جعله أصلاً في أصول الدين وليس كذلك باتفاق، لأن نسبة أصول الفقه من أصل الشريعة كنسبة أصول الدين)، كذلك رأي الإمام جمال الدين عبد الرحيم المعروف بالأسنوي في كتاب نهاية السؤال، عند الكلام على دلالة (افعل) من حيث إن الدليل الظني لا يعد فيما هو من أصول الشريعة وعقائدها.

قال: وأما بالآحاد فهو باطل لأن رواية الآحاد إن أفادت فإنها تفيد الظن، والشارع إنما أجاز الظن في المسائل العلمية وهي الفروع دون الأصلية كقواعد أصول الدين وكذلك قواعد أصول الفقه، كما نقله (الأنباري شارح البرهان عن العلماء قاطبة). بل إن آيات القرآن صريحة في النهي عن الظن في الأصول، وذم من يتبع الظن، وهي نص في أن أصول الشريعة مطلقاً سواءً أكانت أصول الدين أم أصول أحكام يجب أن تكون قطعية، ولا يصح أن تكون ظنية، ولا بد للدليل على العقائد والأصول من أن يكون سلطاناً وبرهاناً.

والدليل على ذلك قوله تعالى:

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ (النجم 23).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (النجم 27، 28).

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ (يونس 36).

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ﴾ (النساء 157).

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام 166).

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (الأنعام 148).

﴿ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ (الأعراف 71).

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ (يوسف 40).

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ (غافر 35).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (غافر 56).

﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ (آل عمران 151).

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ﴾ (الأنعام 81).

فهذه الآيات صريحة في ذم من يتبع الظن في العقائد وأصول الدين، وفي ذم من يتبع بغير سلطان أو برهان، أي بغير دليل قاطع، وهذا دليل على النهي الجازم عن اتّباعِ الظن وعن

النهي الجازم وعن اتّباعِ ما لم يقم عليه الدليل القطعي، فالدليل الشرعي يدل على أن الاستدلال بالدليل الظني فيما هو من العقائد وأصول الدين غير جائز، وأن الأصل يجب أن يكون قطعياً والسنة بمعنى (قول الرسول وفعله وتقريره) أنها وحي ومصدر تشريع هو من أصول الدين. وعلى هذا يجب أن يكون دليل منزلتها وحياً أم لا دليلاً قطعياً.

الدليل الشرعي:

منزلة السنة في القرآن:

قلنا إن الكتاب سموا أنفسهم معاصرين، عن طريق طعنهم بالسنة، وإنكارهم لها بطريق مباشر أو غير مباشر، هؤلاء جميعاً أقروا بأن القرآن الكريم هو كلام الله القطعي الثبوت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إذن يجوز لنا أن نحتج حيالهم بالقرآن، ونستدل به على السنة وكونها وحياً من الله على رسوله محمد (ص)، وهذا ما نسميه بالطريق النقلي (النص) لأن من آمن بأن القرآن وحي، فالمفروض أنه توصل إلى ذلك عن طريق العقل والتفكر والتدبر في ما يسمى بآيات الآفاق والأنفس والسنن والقوانين ونبدأ بتحديد معنى الطاعة لغة ودلالتها الشرعية وكما تفهم صيغة الأمر.

معنى الطاعة في اللغة:

يقال في اللغة طاع وأطاع، بمعنى سمع ورضخ ونفذ وأذعن واتّبع، فالمطيع هو الذي ينفذ الأمر على وجهه بانضباط ودقة كما هي رغبة الأمر، وكل هذه المدلولات توحيها كلمة أطاع، فالطاعة ضد العصيان ومنها المعصية، وكل هذه المعاني مستوحاة من قوله:

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ ﴾ (المائدة 30).

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران 168).

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف 54).

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (المؤمنون 34).

﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام 121).

﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة 285).

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (النساء 46).

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾ (النور 47).

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب 67).

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (الأنعام 116).

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب 48).

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (القلم 8-9).

معنى طاعة الرسول:

إن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ومدلول هذه الطاعة أيضاً، يفهم من واقع اللغة العربية التي حددها لنا القرآن في معنى الطاعة لغة ولنستعرض الآيات المتعلقة بهذا الخصوص.

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء 80).

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور 51).

﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ (الحجرات 14).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (النساء 13).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور 52).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب 71).

﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة 71).

﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ (الأحزاب 33).

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ (الأنفال 1).

﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال 20).

﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ ﴾ (الأنفال 46).

﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (المجادلة 13).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ (النساء 69).

﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران 32).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ (النساء 59).

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ (النور 54).

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور 56).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد 33).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (التغابن 12).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الشعراء 150-151).

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (النور 54).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴾ (طه 90).

﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (آل عمران 50).

﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء 109-110).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ (الشعراء 131-132).

﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء 162-163).

﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الزخرف 63).

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء 64).

إن هذه الآيات السالفة دليل قطعي الثبوت قطعي الدلالة على أن طاعتنا للرسول هي طاعة لله سبحانه وتعالى لأن هذه الطاعة متلقاة بالوحي. وهي طاعة للرسول في حياته وبعد مماته، فهي طاعة لا تتوقف على حياة النذير والمبلغ. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران 144).

فالسنة وحي من الله سبحانه وتعالى. غير أن الوحي هو مضمون السنة ومعانيها وليس ألفاظها، فالله تعالى. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾. قد أوحي له بها وهو قد عبر عن هذا الوحي بأسلوبه لفظاً، أو بفعل منه أو بتقرير أي سكوت منه.

والسنة دليل كالكتاب سواءً دون أي فرق بينهما لقيام الدليل الشرعي كقيامه على القرآن، لقوله تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر 7).

﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (الأنعام 50).

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ (الأعراف 203).

﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ ﴾ (الأعراف 158).

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور 63).

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب 36).

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء 65).

﴿ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء 59).

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران 31).

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب 21).

فالله سبحانه وتعالى يأمرنا بطاعة الرسول وعدم عصيانه واتّباعِهِ والتأسي به، ويحذرنا من مخالفة أمره، بل أكثر من ذلك ينفي الإيمان عن الذي يرفض تحكيم الرسول (ص) وبعد كل هذا يخرج علينا من يدعي بأن طاعة الرسول في حياته وليس بعد مماته، ويقسمها إلى منفصلة ومتصلة ويخصصها في العبادات فقط، ثم أخيراً ينكر أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى الرسول غير القرآن الكريم، وأن من يؤمن بأن السنة وحي قد أشرك بالله سبحانه وتعالى. علماً أن الآيات المذكورة آنفاً قطعية الثبوت والدلالة على وجوب طاعة الرسول في كل ما أمر به سواءً أكان بالقول أم بالفعل أم بالتقرير.

الدليل العقلي:

لا يحاجج أي منكر للسنة سواءً أكان من المحسوبين على الإسلام أم من غير المسلمين، سارترياً وفريدوياً أو هيجيلياً أو ماركسياً بأن للإنسان طاقات كامنة به. ولقد اصطلح على تسمية هذه الطاقات بالغرائز كغريزة النوع: ومن مظاهرها الجنس والأمومة والأبوة والخؤولة والعمومة...، وغريزة حب البقاء ومن مظاهرها التملك والسيادة والسيطرة وحب الذات...، والتقديس: ومن مظاهرها التدين والعبادة والطاعة والاحترام...

وهذه الغرائز تحتاج إلى إشباع، وإذا لم يشبعها الإنسان عاش قلقاً ومضطرباً، ولكنه يستمر بالحياة على غير الطبيعة التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

إن منكري السنة أنها وحي، ولا يحاجّون بأن الله سبحانه وتعالى نظم هذه الغرائز الفطرية فيما ورد بآيات القرآن كما نظم الكون والحياة، ولكنهم يرفضون أن الرسول (ص) أوحى إليه غير القرآن لتنظيم العلاقات التي هي مظاهر الغرائز بحجة أن سنة الرسول مرحلية تناسب زمان البعثة ومكانها، وعلينا أن نثبت أن محمداً عليه الصلاة والسلام قد نظم العلاقات والحوادث والأشياء بوصفه رسولاً يوحى إليه وليس بوصفه بشراً يحكم على واقع من خلال الإحساس والمعلومات السابقة.

هل حكم الرسول على الأفعال والأشياء؟

بما أن منكري السنة يقرون بأن هذه الغرائز فطرية ولابد من إشباعها فمن الذي يحدد طريقة إشباعها؟ هل يستطيع الإنسان أن يحددها ولو كان الرسول محمداً (ص) بوصفه بشراً لا يوحى إليه أي بوصفه مجتهداً أو مشرعاً؟ وهل جنس الإنسان، هذا المخلوق العاقل المفكر ـ والرسول إنسان يستطيع أن يكون حاكماً على أفعال العباد؟ أي هل يملك إصدار الحكم على الأفعال والأشياء؟ إن كل ما في الوجود من المحسوسات لا يخرج عن كونه أفعالاً للإنسان، أو أشياء تقع عليها أفعال الإنسان، والإنسان بوصفه يحيا في هذا الكون هو موضوع البحث، وإن إصدار الحكم هو من أجله ومتعلق به، فإنه لابد من إصدار الحكم على أفعال الإنسان وعلى الأشياء المتعلقة به، ولكن من الذي يقدر

وحده على أن يصدر الحكم على ذلك، هل هو الله أو الإنسان من نفسه؟ أو الوحي أو العقل؟ لأن الذي يعرفنا أن هذا هو حكم الله هو الوحي، والذي يجعل الإنسان يفهم هو العقل، فمن إذن الذي يحكم، هل هو الوحي أو العقل؟

إن المقصود من هذا الحكم هو تحديد موقف الإنسان تجاه الفعل، أيفعله أم يتركه، أم يخير بين الفعل والترك، وتعيين موقفه تجاه الأشياء المتعلقة بها أفعاله أيأخذها، أم يخير بين الأخذ والترك هذا متوقف على نظرته إلى الشيء أهو حسن أم قبيح، أم ليس بالحسن ولا بالقبيح ولهذا كان موضوع الحكم المطلوب هو الحسن والقبح. فهل الحكم بالحسن والقبح هو للعقل أو للوحي، إذ لا ثالث لهما في إصدار هذا الحكم والجواب على ذلك هو أن الحكم على الأفعال والأشياء يكون من ناحية واقعها ما هو، أو من ناحية ملاءمتها لطبع الإنسان وميوله الفطرية ومنافرتها له أو من ناحية المدح على فعلها والذم على تركها، أو عدم المدح وعدم الذم ـ أي من ناحية الثواب والعقاب عليها أو عدم الثواب، وعدم العقاب. فهذه ثلاثة أسس للحكم على الأفعال والأشياء أحدها من حيث واقعها ما هو، والثاني من حيث ملاءمتها لطبع الإنسان أو منافرتها له، والثالث من حيث الثواب والعقاب أو المدح أو الذم.

فأما الحكم على الأشياء من القاعدة الأولى وهي من ناحية واقعها ومن القاعدة الثانية ملاءمتها للطبع ومنافرتها له فلا شك في أن ذلك كله إنما هو للإنسان نفسه، أي هو للعقل فالعقل هو الذي يحكم على الأفعال والأشياء في هاتين الناحيتين، ولا يحكم الشرع أي الوحي منهما، إذ لا دخل للوحي فيهما، وذلك مثل أن العلم حسن والجهل قبيح فإن واقعهما ظاهرة الكمال والنقص، ومثل إنقاذ الغرقى حسن وأخذ الأموال ظلم قبيح، فإن الطبع ينفر من الظلم، ويحب إسعاف المشرف على الهلاك. فهذا كله يرجع إلى واقع الشيء الذي يحسه الإنسان ويدركه يرجع إلى طبع الإنسان ونظرته وهو يشعر به ويدركه عقله. ولذلك كان العقل هو الذي يحكم بالحسن والقبح، وليس الوحي. أي إن إصدار الحكم على الأفعال والأشياء من هاتين الجهتين هو للإنسان فالحاكم فيهما هو الإنسان.

أما الحكم على الأفعال والأشياء من ناحية المدح والذم عليها في الدنيا والثواب والعقاب عليها في الآخرة، وفلا شك أن ذلك لله وحده وليس للإنسان، أي هو للشرع وليس للعقل. ومثال ذلك حسن الإيمان وقبح الكفر، وحسن الطاعة وقبح المعصية، وحسن الكذب في الحرب وقبحه مع الناس في غير الحرب، واستحلال الفرج في الزواج وقبحه في الزنا، وذلك لأن واقع العقل أنه إحساس وواقع ومعلومات سابقة ودماغ. فالإحساس جزء جوهري من مقومات العقل، فإذا لم يحس الإنسان بالشيء فلا يمكن لعقله أن يصدر حكماً عليه، لأن العقل يعتمد حكماً على الأشياء بكونها محسوسة ويستحيل عليها إصدار حكم على غير المحسوسات. فمثلاً الإنسان يكره ما يراه أنه ظلم وينفر منه بطبيعته وفطرته فيحمل شعوراً وميلاً حيال ما يراه أنه ظلم، ولكن هل تكفي الدوافع الفطرية عند الإنسان الذي مصدرها الشعور ليحدد الإنسان واقع الظلم وفكرة الظلم؟ طبعاً ذلك لا يكفي لأن المشاعر والعواطف والميول ليست أساساً للحكم على الأفكار، ولذلك نجد الغربيين لكونهم بشراً ينفرون مما يعتقدون أنه أعمال ظلم تقع في مجتمعاتهم ولكنهم يبيحونها لأنفسهم في مستعمراتهم ومناطق نفوذهم. فالصحافة عندهم تحرك مشاعر المجتمع من أجل سجين أوقف أكثر من أربع وعشرين ساعة بدون تحقيق، ولا تفكر بآلاف القتلى والمشردين في العالم الثالث عندما سحقتهم مخططات الدول الغربية من أجل استمرار عجلة الصناعات الثقيلة في بلادهم واستيعاب العاطلين عن العمل في مجتمعاتهم لأنهم لا يربطون ذلك بموضوعِ الثواب والعقاب في الآخرة. ولذلك لا يمكن أن يعطي للعقل مسؤولية تحديد معنى الظلم وفكرة الظلم، وأن يصدر العقل حكماً على الشيء وهو لا يحسه فكرة موضوعية إلا من خلال شعور الإنسان الذي هو عرضة للتغير والتبدل حسب الحاجات الآنية والمصالح الوقتية. فالعقل وحده لا يمكن أن يصدر على الفعل أو على الشيء حكماً بالحسن والقبح، ومن هنا لا يجوز له أن يصدر حكمه على الأفعال أو الأشياء بالمدح. والذم لأنه لا يتأتى له إصدار هذا الحكم بالمدح ويستحيل عليه ذلك.

كما أنه لا يجوز أن يكون إصدار هذا الحكم والذم خاضعاً لميول الإنسان الفطرية، لأن هذه الميول تصدر الحكم بالمدح على ما يوافقها وبالذم على ما يخالفها، وقد يكون واقعها مما يذم كالزنا واللواط واستعباد الشعوب، وقد يكون ما يخالفها مما يمدح كقتال الأعداء، والصبر على المكاره، وقول الحق في حالات تحقق الأذى البليغ، والصدق في البيع ولو كان ذلك يؤدي إلى فقدان الزبائن. فجعل الحكم للميول والأهواء يعني جعلها مقياساً للمدح والذم وهذا مقياس خاطئ قطعاً، ولذلك فإن جعل الحكم لها خطأٌ محضٌ، لأنه يجعل الحكم خاطئاً مخالفاً للواقع، علاوة على أنه يكون الحكم بالمدح والذم حسب الهوى والشهوات لا حسب ما يجب أن يكون عليه. ولهذا لا يجوز للميول الفطرية أن تصدر حكمها بالمدح أو الذم. ما دام لا يجوز للعقل أن يصدر الحكم بالمدح والذم، ولا يجوز أن يترك للإنسان إصدار الحكم بالمدح والذم عليها في الدنيا والثواب في الآخرة.

ويبقى فقط أن القادر على أن يصدر حكماً بالمدح والذم في مثل هذه الأمور هو الله سبحانه وتعالى خالق الإنسان. وهذا أساس الحكم للوحي وليس للعقل.

وأيضاً فإنه لو ترك للإنسان أن يحكم على الأفعال والأشياء بالمدح والذم لاختلف باختلاف الأشخاص والزمان والمكان، وليس في مقدور الإنسان أن يحكم عليها حكماً ثابتاً. لأجل ذلك يحكم فيها الله وليس الإنسان، أي يحكم فيها الوحي وليس العقل، إذ لا دخل للعقل بهذا الحكم من هذه الجهة. فالمشاهد المحسوس أن الإنسان يحكم على أشياء أنها حسنة اليوم ثم يحكم عليها بالقبح بعد زمن.

ولهذا يختلف الحكم على الشيء الواحد ولا يكون حكماً ثابتاً، فيحصل الخطأ في الحكم، ولهذا فإن إباحة اللواط في بريطانيا وموافقة مجلس العموم أي مجلسُ التشريع، وما هو عليه الحال في الولايات المتحدة والعالم الغربي من السكوت على ذلك الفعل، هذا تدخل فيما هو من صلاحية الله سبحانه وتعالى وعندما جعل ذلك للبشر حتى يحسنوا أو يقبحوا فنالوا وبال أمرهم فداهمتهم الأمراض المستعصية (كالايدز) وهددتهم بالفناء.

وليس ببعيد منا اليوم ما جرى في بريطانيا من إطعام لحوم ميتة للأبقار من أجل زيادة وزنها فأصيبت وأصيب من تناولها بمرض (جنون البقر) الذي يهدد الثروة الحيوانية في بريطانيا ويهدد الإنسان، علماً أن الوحي حرم أكل الميتة بشكل عام على الإنسان والحيوان الذي يؤكل لحمه، وحرم الاستفادة من الميتة باستثناء جلدها.

فالشرع هو الوحي المطلق، فلا يمكن القبول بالحكم على الأشياء أو الأفعال من حيث المدح والذم في الدنيا، والثواب والعقاب في الآخرة إلا ما كان من الوحي. وحيث إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام بشر فإن ما ينطبق على الإنسان ينطبق على الرسول عليه الصلاة والسلام، فجنس الإنسان بما فيه الرسول عليه الصلاة والسلام يكون غير قادر على الحكم على الأفعال وعلى الأشياء من حيث المدح والذم في الدنيا أو الثواب والعقاب في الآخرة.

والثابت أن الرسول عليه الصلاة والسلام حكم على الأفعال والأشياء من حيث المدح والذم في الدنيا ومن حيث الثواب والعقاب في الآخرة، قوله عليه الصلاة والسلام في الملكيات العامة التي هي من مرافق الجماعة ولا يجوز للفرد أن يتملكها. (الناس شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار) (من أحاط أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجز بعد ثلاث). ـ منى مناخ من سبق في ملكية الدولة ـ.

قوله: من كان له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وليس لمحتجر بعد ثلاث. وأمثال هذه الأحاديث تغص بها كتب السنة الصحيحة، وجميعها يعطي معاني خالدة وثابتة وقوانين ليس لها علاقة بزمان أو مكان، بل كل من خالفها من البشر وقع في صراعات طبقية وثورات وفتن، فهي من الوحي الخالد الذي أوحاه الله تعالى بالمعنى إلى رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا أدري لماذا يصر هؤلاء المعاصرون على حرمان الناس من هذه التشريعات الخالدة، وذلك بسبب خلطهم بين الحضارة والمدنية، وضياعهم بين الحق والباطل.

استغراب!

بعد أن ثبت مَعَنا شرعاً وعقلاً أن السنة النبوية وحي من الله سبحانه وتعالى إلى محمد رسوله (ص) وأنها يستحيل أن تكون غير ذلك، فإنه يحق لي أن استغرب إيمان

بعضهم بأن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى محمد القرآن لفظاً معجزاً بكلامه ومعانيه، ويرفضون مقدرة الله سبحانه وتعالى أن يوحي إلى محمد معاني يعبر عنها بألفاظه وأسلوبه البشري، هذه السنة الموحاة من الله سبحانه وتعالى هي التي حافظت على إعجاز القرآن، فشرحت معانيه وخصصت عامَّه وقيدت مطلقَهُ، وفصلت مجمله، وألحقت فروعاً بأصلها في القرآن. كما سيأتي معنا في بحث (كيف نفهم السنة ونطبقها).

ويذكرني هؤلاء بموقف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عندما قال له مشركو مكة باستغراب! هل سمعت ماذا يقول من آمنت به وصبأت عن دين آبائك وأجدادك لأجله، فقال رضي الله عنه وما يقول: قالوا: يقول إنه أسري به البارحة من مكة إلى بيت المقدس وعاد في ليلة واحدة، فكان جواب أبي بكر جواب المؤمن الذي آمن عقلاً بنبوة محمد: أو يقول ذلك؟ إن كان قالها فقد صدق، فإنه يأتيني بخبر السماء وأصدق وأومن به، فهل صعب على من يعطيه خبر السماء بأن يسري فيه من أرض إلى أرض. وأنا أقول بأن من آمن حقيقة بأن محمداً أوحي إليه ألفاظ القرآن ومعانيه، فلماذا يستغرب أن يوحى إلى محمد معاني يعبر عنها بألفاظه وأسلوبه، فيحافظ على معجزة القرآن الخالدة، فالرسول عليه الصلاة والسلام تحدى العالمين بمعجزة القرآن وعلى استمرار هذا الإعجاز، ولذلك منع الرسول الصحابة رضوان الله عليهم من تدوين السنة في حياته حتى لا يكون هناك أي مبرر لاختلاط ألفاظ القرآن بالسنة، التي هي معان أوحى الله سبحانه وتعالى بها إلى رسوله، فكانت السبب في استمرار إعجاز القرآن بالسنة، التي هي معان أوحى الله سبحانه وتعالى بها إلى رسوله، فكانت السبب في استمرار إعجاز القرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وإلا لكان عندنا الآن مثل أهل الكتاب أناجيل ومزامير متعددة، وصدق لله القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر 9).

أما الدسيسة والفرية التي ذكرها بعض منكري السنة، بأن الله سبحانه وتعالى فوض رسوله بتحديد بعض الأمور في العبادات كما هو في عدد ركعات الصلاة وأحكام

الزكاة والصيام. إن هي إلا تشويه مقصود منه، إن الرسول بوصفه بشراً قد وضع أحكاماً للعبادات، واجتهد في ذلك، وليست وحياً، وهي مناسبة حسب الزمان والمكان، هذه الفكرة الخبيثة من أخطر الأفكار، لأنها تؤدي بالمستقبل إلى تغيير أحكام العبادات أيضاً مع تغير الزمان والمكان والعصر. وهذه الفكرة يقصد منها اختصار العبادات مع الزمن والتطور بحجة عصر السرعة والتكنولوجيا التي تجعلنا نكتفي بالعودة مثلاً إلى المعنى اللغوي للصلاة وهي الدعاء كما يقولون، فنكتفي بذلك ونتابع اجتماعات مجلس الإدارة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

تشرين أول 1996

كيفَ نفهَمُ السُّنَّةَ ونُطبّقُها

كيفَ نفهَمُ السُّنَّةَ ونُطَبِقُها:

إن محمداً عليه الصلاة والسلام نبيّ ورسول، أي أتته نبوءات من السماء فأخبر عن مغيبات، فكان بذلك نبياً وبلغ أفكاراً ليحل مشكلات الناس فكان بذلك رسولاً. هذه هي شخصية الرسول المعصومة التي تنحصر في الوحي بما يبلغه عن ربه، وخلاف ذلك فالرسول بشر يخطئ ويصيب، فالرسول معصوم بالتبليغ عن ربه فقط، سواءً أكان من القرآن أو من السنة. فالرسول ليس مهندساً ولا طبيباً ولا عالم فيزياء أو كيمياء. من هنا مفتاح فهم سنة الرسول عليه الصلاة والسلام. أما تحديد وعاء السنة بأنه قول الرسول وفعله وتقريره، فإنه شيء بمنتهى البساطة عند من آمن بأن السنة وحي، لأن وسائل التبليغ عند البشر ثلاثة لا غير.

1 ـ القول (أي الكلام والحديث).

2 ـ الفعل (سلوك).

3 ـ السكوت (إقرار).

فالآمر إما أن يتكلم وإما أن يفعل وإما أن يسكت، وهذه الثلاثة هي وحدها وسائل التعبير عند اللغويين وعند الدستوريين والقانونيين وعند الواقعيين ونفهمها على النحو التالي:

الأمر هو طلب مجرد، والقرينة هي التي تحدد هل الطلب للفعل أو للترك، وإن كان الطلب للفعل هل هو جازم أي واجب (فرض) أم غير جازم أي مندوب، أم أنه طلب للفعل فقط بدون قرينه وهو المباح، أي ما يستوي فيه الفعل والترك، أي إنَّ الإنسان بالخيار. فالواجب هو ما يمدح فاعله ويذم تاركه، والمندوب هو ما يمدح فاعله ولا يذم تاركه، أما المباح فهو لا يمدح فاعله ولا يذم تاركه، فالواجب إذن يثاب فاعله ويعاقب تاركه، والمندوب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه والمباح لا يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

أما إن كان الطلب للترك، فإن القرينة التي تحدده، هل هو طلب ترك جازم وهو المحظور (الحرام) وهو ما يذم أي يعاقب فاعله ويمدح أي يثاب تاركه، وطلب الترك غير

الجازم وهو المكروه الذي يمدح (يثاب) تاركه ولا يذم (يعاقب) فاعله، وهذه القواعد تنطبق على كافة الأوامر سواءً أكانت بالقرآن أم بالسنة لأنها قواعد لغوية وشرعية. وفيها تفصيل ليس هو مجال موضوعنا.

التطبيق الفعلي:

إن محمداً عليه الصلاة والسلام بشر أُوحيَ إليه من الله سبحانه وتعالى، فهو يتمتع من خلال ذلك بالشخصية البشرية في السلوك، يأكل ويشرب وينام ويخطىء ويصيب ويعاشر النساء ويفرح ويغضب، وهذه صفات جِبليّة على الإباحة للرسول ولأمته. والمسلم ليس مكلفاً بها شرعاً إلا إذا وجدت قرينة من الرسول عليه الصلاة والسلام تصرفها من الإباحة إلى طلب الفعل أو طلب الترك.

حتى إنه عليه الصلاة والسلام ممكن أن يخطىء في القضاء مثله مثل أي إنسان آخر، قوله عليه الصلاة والسلام (إنما أنا بشر فأقضي بينكم، وعسى أن يكون أحدكم ألحن بحجته من الآخر، فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقضي له بقطعة من جنهم... الحديث) ولهذا لا يجوز إعطاء الرسول عليه الصلاة والسلام صفات لم يعطه إياها الله سبحانه وتعالى، ويجب التقيُّدُ بالأوامر والنواهي حسب قراءتها كما سيأتي معنا لاحقاً في هذا البحث.

كما أن هناك أفعالاً للرسول عليه الصلاة والسلام تعدّ من خصوصياته ويحرم على المسلم متابعته عليها والتأسي به فيها، كما هو حاله عليه الصلاة والسلام في وجوب صلاة قيام الليل والضحى والوصال في الصيام والزواج بأكثر من أربعة. أما الصفة الأساسية لمحمد بن عبدالله التي تميزه عن البشر فهي كونه نبياً ورسولاً يوحى إليه، وهذا يلزمنا بمتابعته والتأسي به وبسنته قولاً وفعلاً وتقريراً كما أثبتنا آنفاً، وأن يكون تأسينا به دقيقاً حتى لا ندخل ما هو من خارج الوحي إلى الوحي، ونترك ما هو من الوحي بإهماله وعدم اتّباعِهِ. ولذلك كان اتّباع الرسول في جميع أفعاله التي صدرت عنه مما ليس مختصاً به، ومما ليس من الأفعال الجبلية واجباً على كل مسلم لأن الرسول لا يفعل إلا ما يوحى إليه، بل إن وجوب إتباع الرسول عليه السلام لا يعني وجوب القيام بالفعل الذي فعله بل يعني

وجوب الاتّباع حسب الفعل، فإن كان الفعل مما يجب القيام به واجباً حسب قرينة الوجوب، وإن كان مما يندب كان القيام به مندوباً حسب قرينة الندب. وفي ذلك تفصيل لمن أراد أن يتوسع بهذا الخطاب[1]. والسنة بالنسبة للقرآن مبينة له، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل 44). والسبب في ذلك أن إتيان القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي، وحيث جاء جزئياً فمأخذه على الكلية. والقرآن جامع، ولا يكون جامعاً إلا والمجموع فيه أمور كليات، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله كليات وأصولاً. والسنة على كثرتها وكثرة مسائلها بيان للكتاب، وجميع ما في السنة له أصل في الكتاب يبينه على إجمال أو تفصيل أو على الوجهين معاً. وجاءت السنة بأحكام كثيرة لم ينص عليها في القرآن الكريم، ولكن هذه الأحكام جاءت ملحقة بأصول لها مذكورة في القرآن، ويتلخص بيان السنة للكتاب فيما يلي:

1 ـ تفصيل مجمله:

ومن ذلك أن الله تعالى أمر بالصلاة في الكتاب من غير بيان لمواقيتها وأركانها وعدد ركعاتها فبينت السنة ذلك. قال (ص): (صلوا كما رأيتموني أصلي) رواه النسائي، وورد فيه وجوب الزكاة من غير بيان لا تجب فيه ولا المقدار الواجب فيه، فبينت السنة ذلك وهكذا، ورد فيه وجوب الوفاء بالعقود، من غير تحديد لهذه العقود بأركانها وشروطها وبطلانها وفسخها، فأتت السنة وبينت كل هذه الأمور، بقوله (ص): (المسلمون عند شروطهم) وأبطل عليه الصلاة والسلام التدليس والغرر والغش وبيع الحاضر للبادي في البيوع، والأمثال على ذلك كثيرة من واقع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام وفي كل العلاقات، وأبواب الفقه الإسلامي تزخر بهذه الكنوز التي يضيق البحث عن ذكرها.

2 ـ تخصيص عامِّهِ:

لقد وردت في عموميات ولكن جاءت السنة وخصصت كل ما هو عام. ومن ذلك أن الله تعالى أمر أن يرث الأبناء الآباء على نحو ما جاء في كتابه العزيز: ﴿ يُوصِيكُمُ

---

(1) كتاب تهافت القراءة المعاصرة.

ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ (النساء 11). فالحكم هنا عام في أن كل أب يورث وأن كل ولد وارث ولكن حددت السنة الأب المورث بغير الأنبياء بقوله (ص): (ونحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة...) رواه مسلم. وخصصت السنة الوارث بغير القاتل بقوله (ص): (لا يرث القاتل) رواه أبو داود. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗا ﴾ (البقرة 234). فهذه الآية دلت على عدة الوفاة لكل الزوجات اللاتي يموت أزواجهن، ولكن خصصت السنة في حديث سبيعة الأسلمية أنها بعد أن ولدت بعد وفاة زوجها بنصف شهر أخبرها عليه السلام أنها قد حلت، فبين ذلك الحديث أن الآية مخصوصة في غير الحامل.

تقييد مطلقه:

كما وردت في القرآن آيات مطلقة وجاءت السنة وقيدت هذا الإطلاق بقيد معين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا ﴾ (المائدة 38). فهذا أمر مطلق في كل سرقة وكل سارق ولكن جاءت السنة وقيدت السرقة التي يجري فيها القطع بقيود بأن تكون بنصاب معين ومن حرز مثلها وسراً ومن غير شبهة، فأخرجت المغتصب والطرار والنباش والمختلس والسارق بشبهة من حكم قطع اليد إلى أحكام أخرى، قوله عليه الصلاة والسلام: (ادرؤوا الحدود بالشبهات).

إلحاق الفرع بأصله:

لقد قامت السنة بإلحاق الكثير من فروع الأحكام بأصلها الذي ورد في القرآن فيظهر هذا الفرع بأنه تشريع جديد، ولكن عند التدقيق يتبين أنه ملحق بأصله الذي ورد في القرآن. ومن ذلك أن الله حرم الجمع بين الأختين بقوله: (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنه أختها فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم) رواه البخاري. وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد ألحق ذلك كله في تحريم الجمع بين الأختين. ومن ذلك أيضاً أن الله تعالى يقول: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ (الأعراف 157). ولم يذكر تفصيلات. فجاءت السنة

على ما يستعين به المجتهد على معرفة الأحكام فيما يشتبه أنه من الخبائث والطيبات وألحقته بهما، فنصت السنة عن أكل لحم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع وكل مخلب من الطير، وألحقتها بالخبائث كما قال ابن عباس رضي الله عنه: (نهى رسول الله (ص) عن كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير...) رواه البخاري، وكما قال جابر رضي الله عنه: (حرم رسول الله (ص) يوم خيبر لحوم الحمر الأنسية رواه أبو داود. ونصت السنة على إباحة أكل الضب والأرنب وما شابهها وألحقتها بالطيبات، فعن ابن عمر رضي لله عنه أنه قال: (إن رسول الله (ص) سئل عن الضب فقال: (لا آكله ولا أحرمه..) رواه مسلم. ومن ذلك أن الله تعالى ذكر عن تحريم الرضاعة قوله: ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ (النساء 23)، فألحق عليه السلام بهاتين سائر القرابات من الرضاعة اللاتي يحرمن من النسب كالعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت وأشباه ذلك فقال عليه السلام: (إن الله حرم من الرضاع ما حرم من النسب). ومن ذلك أيضاً أن الله تعالى قال: ﴿ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ ﴾ (البقرة 282). أي حكم في إثبات التداين بشهادة النساء منضمة إلى شهادة رجل، فألحقت السنة بذلك اليمين مع الشاهد. روي عن علي رضي الله عنه أن النبي (ص) قضى بالشاهد واليمين فجرى الشاهد واليمين مجرى الشاهدين أو الشاهد والامرأتين، وعلى هذا المنوال جاءت السنة بأحكام لم تأت في الكتاب وهي تشريع فرعي جديد. ولكنها ملحقة بأصل لها. غير أنه ليس معنى ذلك أن الرسول (ص) لا يأتي بتشريع جديد إلا كان ملحقاً بأصله في القرآن، بل ذلك هو الأغلب الأعم فقد يأتي الرسول (ص) بتشريع جديد ليس ملحقاً بأصله في القرآن، بل ذلك قد يكون لا أصل له في القرآن، فمثلاً الملكية العامة الثابتة في الأشياء التي هي من مرافق الجماعة تشريع جديد جاءَ به الرسول (ص) حين قال: (المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار) رواه أبو داود. وهذا غير ملحق بأصله في القرآن. ولكن تجب الإشارة إلى أن مثل هذه التشريعات قليلة حيث إنَّ الأعم والأغلب أن التشريع الجديد الذي جاء به الرسول (ص) له أصل في القرآن الكريم.

وهكذا نجد السنة تستند إلى الكتاب، وهي بمنزلة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب من تفصيل مجمله وتقييد عامِّهِ وإلحاق الفرع بأصله. ولكن مع ذلك فإن السنة أيضاً تشتمل على تشريعات جديدة لم يرد لها أصل في القرآن، فكانت السنة بياناً للقرآن وتشريعاً جديداً للأحكام. أما البيان فيدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل 44)، وأما التشريع الجديد فيدل عليه قوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (النساء 59). والرد إلى الله بالرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول نفسه عليه الصلاة والسلام عندما كان حياً فلما قبضه الله صار الرد إلى سنته التي تركها من بعده، والتنازع مطلق في فهم القرآن وفي استنباط الأحكام، والرد إلى السنة مطلق فيما هو موجود في القرآن وفيما كان تشريعاً جديداً ولذلك قال الله تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء 80)، وقال: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ (النور 63). والأمر هنا عام لأنه اسم جنس مضاف وعلى ذلك كانت السنة دليلاً شرعياً مثل الكتاب، وأكد ذلك رسول الله (ص) بقوله: «تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتي».

وبشكل عام فإن السنة هي التي تحدد الكيفيات التي يجري بموجبها تنفيذ نصوص القرآن، سواء فيما يتعلق بعلاقات الإنسان مع خالقه وتشمل العقائد والعبادات، وعلاقات الإنسان بنفسه وتشمل المطعومات والملبوسات والأخلاق، وعلاقات الإنسان بمجتمعه، وتشمل المعاملات والعقوبات وغيرها من الأحكام، وإنه لابد الكل فكرة من بيان كيفية تنفيذها وإلا كانت فلسفة خيالية، وحاشى لله أن يترك عبادَه من غير طريقة تبين كيفية تنفيذ أحكامه التي أنزلها، وهذا ظلم حاشا لله أن يفعله بتركه عباده يتخبطون في استنباط حلول مشكلاتهم من الوهم والخيال والتصور، وهذا ما يحدث معنا إذا تركنا سنة الرسول، فيكون واقعنا كمن يريد أن يفهم جهازاً فنياً بدون دراسة المخططات (الكتلوجات)، فيضيع بين الحقائق والأوهام، ويعطي العقل البشري أكثر من القدرة التي أعطاه إياها الله سبحانه وتعالى، فيترك العقل البحث بالواقع الذي هو مناطُهُ وقدرته، ويتدخل في قدرة الله سبحانه وتعالى التي خلقت الواقع.

لا يجوز في حق الرسول أن يكون مجتهداً:

القول بأن نبينا محمد (ص) اجتهد في بعض الأحكام، وأنه أخطأ في بعض اجتهاده ثم صحح الله له هذا الخطأ يعني أنه عليه الصلاة والسلام قد أبلغ الناس شريعته من اجتهاده الشخصي لا من وحي الله إليه. فهذا كله باطل عقلاً لأن محمداً (ص) كباقي الأنبياء والرسل معصوم عن الخطأ فيما يبلغه عن الله تعالى عصمة قطعية دل عليها الدليل العقلي. وفوق ذلك فإنه ورد الدليل الشرعي القطعي الثبوت الدلالة على أن تبليغه عليه الصلاة والسلام الرسالة في كلياتها وجزئياتها إنما كان عن الوحي. وما كان يبلغ الأحكام إلا عن الوحي. قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ (الأنبياء 45)، أي قل لهم يا محمد إنما أنذركم بالوحي الذي أنزل علي، مما يعني أن مصدره محصور بالوحي. قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل 44). أي البيان يأخذ حكم المبين وكله محصور بالوحي. وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم 3-4)، فكلمة (ما ينطق) من صيغ العموم ويشمل ذلك القرآن والسنة ولا يوجد ما يخصصها بالقرآن لا من الكتاب ولا من السنة، فتبقى على عمومها أي إن جميع ما ينطقه من التشريع هو من الله، بل يجب أن تبقى عامة شاملة للقرآن والحديث كما أثبتنا آنفاً.

وقد اختص الوحي فيما يبلغه عن الله من تشريع وغيره من الأحكام والعقائد والأفكار والقصص، ولم يشمل الأساليب والوسائل وأمور الدنيا من أعمال الزراعة والصناعة والعلوم وما شاكلها، فقد حصل هذا التخصيص بأمرين: الأول بوجود نصوص أخرى جاءت مخصصة في غير التشريع كما في قوله عليه الصلاة والسلام في موضوع تأبير النخل «أنتم أدرى بأمور دنياكم...» رواه مسلم، وقوله للمسلمين في معركة بدر عن مكان النزول حين سألوه أهو وحي من الله أم هو وحي الرأي والحرب والمكيدة، فقال: «هو الرأي والحرب والمكيدة...» رواه أبو داود. فهذه النصوص خصصت الوحي في غير أمور الدنيا وفي غير ما هو من قبل الحرب والرأي والمكيدة. وأما الأمر الثاني الذي خصص الوحي في غير أمور الدنيا وفي غير ما هو من قبل الحرب

والرأي والمكيدة. وأما الأمر الثاني الذي خصص الوحي بالتشريع والعقائد والأحكام وغير ذلك فإنه واضح من موضوع البحث، ذلك أن محمداً رسول، والبحث هو فيما أرسل به لا في غير ذلك، فكان موضوع الكلام هو المخصص، وصيغة العموم عامة بما تبقى في الموضوع الذي جاءت به ولا تضم جميع المواضيع. العبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والمراد بالسبب هو الحادثة التي نزل بسببها القرآن. فالموضوع ليس خاصاً بل هو عام لجميع الحوادث ولكنه يبقى في موضوع الكلام لا في جميع المواضيع. وموضوع بحث الوحي هو الإنذار، أي إبلاغ الناس التشريع والأحكام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ (الأنبياء 45) وقوله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (ص 70) يبين أن المراد هو ما أتى به من العقائد والأحكام وما أمر بتبليغه والإنذار به، وذلك لا يشمل استعمال الأساليب أو أفعاله الجبلية التي كونت من جبلة الإنسان، ومن طبيعة خلقته كالمشي والنطق والأكل.. الخ، ولذا يختص الإنذار بما يتعلق بالعقائد والأحكام وما أمر بتبليغه من كل ما يتعلق بأفعال العباد والأفكار هو وحي من الله.

ويشمل الوحي أقوال الرسول وأفعاله وسكوته فنحن مأمورون باتّباعه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر 7)، وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب 21)، فكلام الرسول وفعله وسكوته دليل شرعي لكونه وحياً من الله تعالى.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحي ويبلغ ما يأتيه من الله تعالى، ويعالج الأمور بحسب الوحي ولا يخرج عن الوحي مطلقاً. قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (الأحقاف 9)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى﴾ (الأعراف 203)، أي لا أتبع إلا ما يوحي إليّ من ربي ولذلك كان لزاماً على من يؤمن بالقرآن اتّباع الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا كله صريح وواضح وظاهر في العموم، فكل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام مما هو مأمور بتبليغه هو وحي ليس إلا.

وكانت حياة الرسول التشريعية في بيان الأحكام للناس سائرة على ذلك، فكان عليه الصلاة والسلام ينتظر الوحي في كثير من الأحكام كالظهار واللعان وغيرهما. وما

كان يقول حكماً في مسألة أو يفعل فعلاً تشريعياً أو يسكت سكوتاً تشريعياً إلا عن وحي من الله تعالى. وقد كان يختلط على الصحابة في بعض الأحيان الحكم في فعل من أفعال العباد بالرأي والمشورة، فإن قال لهم: إنه وحي سكتوا لأنهم عرفوا أنه ليس من عنده وإن قال لهم: بل هو الرأي والمشورة تناقشوا معه، وربما اتبع رأيهم كما في غزوات بدر وأحد والخندق. وكان يقول لهم في غير ما يبلغه عن الله «أنتم أدرى بأمور دنياكم» كما ورد في حديث تأبير النخل. ولو كان الرسول ينطق في التشريع عن غير وحي لما كان ينتظر الوحي حتى يقول الحكم، إذ لو لم يكن كذلك لناقشوه من غير سؤال. وعلى ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يصدر في قوله أو فعله أو سكوته إلا عن وحي من الله تعالى، لا عن رأي من عنده. ولم يكن عليه الصلاة والسلام مجتهداً قط، إذ لا يجوز الاجتهاد عليه شرعاً وعقلاً. فالدليل الشرعي على ذلك هو الآيات الصريحة التي تدل على حصر جميع ما يتعلق به بالوحي: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ﴾ (الأنبياء 45)، ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الأحقاف 9)، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم 3). والدليل العقلي هو أنه (ص) كان ينتظر الوحي في كثير من الأحكام مع الحاجة العاجلة لبيان حكم الله في المسألة. فلو جاز له الاجتهاد لما أخر الحكم حتى نزول الوحي فذلك دل على أنه لم يجتهد، ودل على أنه لا يجوز له الاجتهاد وعلاوة على ذلك فإن الاجتهاد معناه احتمال وقوع الخطأ، وبما أنه (ص) واجب الاتّباع، فيعني أنه لو اجتهد وأخطأ لوجب علينا اتّباعُ الخطأ، وهذا أمر باطل لأن الله لا يمكن أن يأمر باتّباع الخطأ. وفوق كل ذلك أنه معصوم عن الخطأ في التبليغ، ولا يجوز في حقه احتمال الخطأ في التبليغ مطلقاً، لأن جواز الخطأ على الرسول في التبليغ وعصمته عن ذلك. وعليه فلا مجال مطلقاً للاجتهاد فيما يبلغه من الأحكام بقوله، كما لا يقال: إن الله لا يقره على الخطأ، وإنَّهُ يبينه له سريعاً لأن الخطأ في الاجتهاد حين يحصل من الرسول يصبح فرضاً على المسلمين أن يتبعوه حتى يحصل البيان، فيكون هذا البيان مجدداً لحكم آخر غير الحكم الأول يُؤمَر المسلمون باتّباعه وبترك الأول وهو الخطأ. لا يقال ذلك لأن هذا قول باطل ولا يجوز في حق الرسول أن يبلغ حكماً ثم يقول للناس إن ذلك الحكم خطأ لأنه من عندي والصواب هو ما جاءني من الله ثم يأمرهم بترك الحكم الأول

واتّباع الثاني، ولا يجوز اعتبار أي دليل عقلي على أمر شرعي لأن الأمر الشرعي يجب ن يكون دليله شرعياً، لأن الأمر الذي دليله شرعي هو الحكم الشرعي. أما العقائد فإن دليلها يكون عقلياً ويكون شرعياً. فمسألة أن الرسول مجتهد أو غير مجتهد هو من العقائد وليس من الأحكام الشرعية فدليله يكون عقلياً ويكون شرعياً. وحيث إنَّه ثبت بالدليل العقلي والدليل الشرعي أنه لا يجوز في حق الرسول أن يكون مجتهداً فهو عقيدة من العقائد يجب التصديق والإيمان الجازم بها.

وأما الآيات التي أوردها من يقولون بأن الرسول اجتهد بالفعل والتي توهموا حصول الاجتهاد فيها، فإنه لا يوجد آية تؤيد ذلك مطلقاً. فمثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (الأنفال 67)، ومثل قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ (التوبة 43)، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓ ﴾ (التوبة 84)، وكقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ (عبس 1-2). وغير ذلك من قبيل هذه الآيات فإنها كلها لا تدخل أبداً ضمن باب الاجتهاد في أحكام الشرع وإنما أتت من قبيل تحديد الأولويات أي تحديد ما هو الأولى بالرسول أن يقوم به، فلم يحدث أن بلغ الرسول حكماً معيناً للناس ثم تبين خطأ الحكم الذي بلغه وخطأ اجتهاده فيه، وتطلب منه تبليغ الصواب في هذا الحكم، ولكن ما حدث هو أن الرسول قام بعمل من الأعمال تطبيقاً لحكم شرعي من أحكام الله التي سبق أن نزل بها الوحي وبلغها الرسول للناس، ثم خالف الرسول ما هو الأولى به أن يقوم به حسب هذا الحكم. ولا يعد تحديد الأولى تشريعاً لحكم جديد. فالحكم كان مشروعاً وكان الرسول مأموراً به وبتبليغه. ففي الحوادث التي جاءت بها هذه الآيات قام عليه الصلاة والسلام بالعمل حسب ما أمر الله، إلا أن قيامه كان خلاف الأولى بين الخيارين، والأنبياء والرسل يجوز عليهم شرعاً وعقلاً أن يفعلوا خلاف الأولى، لأن معنى خلاف الأولى أن يكون هناك أمر مباح ولكن بعض أعماله أولى من بعضه، أو أن يكون هناك أمر مندوب ولكن بعض أعماله أولى من بعضه، فمباح للمرء مثلاً أن يسكن القرى ولكن سكنى المدن أولى من سكنى القرى لتاجر الجملة أو لصاحب المصنع أو لمن يرغب بتحصيل التعليم

العالي، فإذا سكن القرى فعل خلاف الأولى. وإعطاء الصدقة سراً وجهراً أمر مندوب، ولكن إعطاءها سراً أولى من إعطائها جهراً، فإذا أعطاها علناً فعل خلاف الأولى. فالرسول (ص) يجوز عليه كسائر البشر أن يقوم بما هو خلاف الأولى، بل يجوز عليه أن يقوم بكل ما لا يعد من المعاصي. وقد قام في بعض الحالات بما هو خلاف الأولى بين الخيارين والمتمعن في الآيات التي وردت بهذا الصدد يجد أن منطوق الآيات ومفهومها ودلالتها يدل على ذلك.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الأنفال 67). يدل على أن الأسر كان مشروعاً بشرط سبق الإثخان، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾ (محمد 4) التي جاءت في سورة محمد النبي نزلت قبل سورة الأنفال فقد سبق أن نزل حكم في سورة محمد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (محمد 4) فحكم الأسرى كان نازلاً ومعروفاً قبل نزول الآية ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ في سورة الأنفال. ولذا لم يكن ينبغي له أن يأخذ الأسرى حتى يثخن، والمراد بالإثخان هو القتل والتخويف الشديد وليس من شرط الإثخان في الأرض قتل جميع الناس إذ إنَّ المسلمين يوم بدر قتلوا كثيراً من أعدائهم وأسروا الكثير. وهذا جائز من آية سورة محمد التي هي سورة القتال ومن هذه الآية نفسها، التي تدل على أنه بعد الإثخان يجوز الأسر، فصارت هذه الآية دالة دلالة بينة على أن ذلك الأسر كان جائزاً بحكم هذه الآية. ولا تدل الآية على أن الرسول قد اجتهد في حكم الأسرى حين أسر وجاءت الآية تصحح اجتهاده، ولا أن الأسر الذي فعله الرسول في بدر كان تشريعاً فجاءت الآية تبين خطأه. وكذلك لا تدل على أن الأسر كان ذنباً مخالفاً للحكم الذي نزل، ولكن تدل على أن الرسول في تطبيق حكم الأسرى الوارد في آية محمد: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ في معركة بدر ـ كان الأولى أن يشد أكثر في القتل والقتال حتى يكون الإثخان أبرز، وبالتالي يتم أخذ الأسرى. فنزلت الآية موضحة أنَّ الإثخان قد حدث على وجه هو خلاف الأولى، لأن الأولى أن يكون أكثر من ذلك وليست تشريعاً لحكم جديد،

ولا تصحيحاً لاجتهاد شخصي فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يأسر يوم بدر إلا بعد أن اعتقد بوصفه قائداً للمعركة أنه قد أثخن قبل أن يأسر تطبيقاً لحكم الإثخان المنزل سابقاً، ولكن لفظ الإثخان (والالتزام بحدوده) تختلف في قدر الإثخان من حيث التكتيك وليس من حيث وقوع الإثخان. فالخلاف إذن من حيث التكتيك ـ كما يقولون الآن ـ وليس من حيث الإستراتيجية. فكأن الله سبحانه وتعالى كان يريد من رسوله أن يثخن أكثر في معركة بدر قبل أن يأسر، وهذا موضوع من قبيل الرأي والحرب والمكيدة وليس له علاقة بتشريع جديد أو باجتهاد من الرسول عليه الصلاة والسلام. فالإثخان المشرع مسبقاً قد حصل من النبي ولكن من باب أولى أن يكون أكثر من ذلك. وأما قوله تعالى في تمام الآية: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال الآية 67) فهو وصف لرغبة بعض الصحابة رضوان الله عليهم وهم بشر وليسوا ملائكة في أخذ الأسرى قبل الإكثار في الإثخان طمعاً في فداء هؤلاء الأسرى وطمعاً بأخذ حطام الدنيا من ذلك الفداء، مع أن الله يريد إعزاز دينه بقتلهم في المعركة لا بأخذهم أسرى. والعتاب ليس في أخذ الفداء وإنما في أخذ الأسرى. وأما قوله تعالى في الآية التالية لتلك الآية ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال الآية 68)، فإنه ليس فيه وعيد من الله بالعذاب على أخذ الفداء كما يتوهم البعض، بل هو بيان للنتائج التي كان يمكن أن تترتب على أخذ الأسرى قبل المبالغة بالإثخان، وهي خسران المعركة وإصابة المسلمين بالقتل من الكفار وذلك هو المراد بالعذاب العظيم وليس عذاب الله. فالآية تعني أنه لولا علم الله بأنكم ستنتصرون لأصابكم بسبب أخذكم الأسرى قبل المبالغة بالإثخان انكسار وهزيمة من أعدائكم. وإطلاق كلمة (العذاب) بمعنى القتل في الحرب جاءت كذلك في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ (التوبة الآية 14). ولذلك فلا يتأتى أن يكون معناها عذاب الله. إن الخطاب عام للرسول والمؤمنين، فعذاب الله للرسول غير وارد، وإن عدت الآية تصحيح اجتهاد ـ على حد تعبير البعض ـ فهو خطأ معفو عنه ولا يستحق عليه عذاباً من الله وإن عدت عتاباً على خلاف الأولى كما هو الواقع فلا يستحق

عليها عذاباً من الله. ولذا فلا يتأتى مطلقاً أن يفهم من كلمة (العذاب) عذاب من الله، بل المراد بها أنه لأصابكم قتل وإذلال من أعدائكم.

وأما الأحاديث الواردة في سبب نزول هذه الآية وفي قصصها فإنها أخبار آحاد ولا تصلح دليلاً على العقيدة بل تصلح دليلاً على الأحكام الشرعية كما ذكرنا آنفاً. وجواز الاجتهاد في حق الرسول وعدم جوازه من أمور العقيدة التي لا يقبل فيها إلا الدليل القطعي الثبوت القطعي الدلالة. وفوق ذلك فإنها تعارض الدليل القطعي وهو النص الصريح الواردة في سورة محمد في حكم الأسرى وكونه كان نازلاً مسبقاً، فحكم الأسرى من الأحكام الشرعية التي ينتظر فيها الرسول الوحي ولا يشاور أصحابه بشأنها. ولا يعمل الرسوُل بما يشير به أصحابه في أمر شرعي ثم ينزل الوحي فيصححه لأن ذلك يجعل تشريع الأحكام بالمشورة وبالرأي لا بالوحي وهذا كلام مردود، وقد أثبتنا بطلانه آنفاً.

وأما قوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة الآية 43) فإنها لا تدل على اجتهاد، لأنه سبق أن نزل حكم بأنه يجوز للرسول أن يأذن لمن شاء. وقد جاء ذلك في سورة النور التي نزلت قبل سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ (النور الآية 62) وقد نزلت هذه السورة بعد سورة الحشر في معركة الخندق، وآية ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ جاءت في سورة التوبة ونزلت في شأن غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. فالحكم كان معروفاً وآية النور صريحة تدل على أنه يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يأذن لمن يشاء ولكن في تلك الحادثة التي نزلت فيها آية التوبة، وهي غزوة تبوك وتجهيز جيش العسرة كان الأولى به عليه السلام أن لا يأذن للمنافقين في التخلف، وإنه لا يفهم من كلمة عفا كما يفهم البعض بأن الرسول قد أذنب وغفر الله سبحانه وتعالى خطأه، وهذا خلاف ما أثبتناه شرعاً وعقلاً بل عفا هنا بمعنى الترك وعدم الاكتراث لغة، لأن هذه الآية جواب على ما روجه المنافقون بعد أن أذن الرسول للبعض. فكأن الله سبحانه وتعالى يقول: لا تكترث يا محمد بما يقولون، فهي كاستعمالنا، لبيان العبارة ـ عفا عليه

الزمن ـ أي أهمله وانتهى. إذن هذه الآية ليست تصحيحاً لاجتهاد ولا تشريعاً لحكم يخالف حكماً كان الرسول قد اجتهد في الحادثة نفسها، وإنما هو فعل على ما هو خلاف الأولى. وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة الآية 84)، فإنها جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ (التوبة الآية 83) وقد أمر الله الرسول في آية: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ بأن لا يصحبهم الرسول وذلك لتخذيلهم وإهانتهم حتى لا ينالوا شرف الجهاد والخروج مع الرسول. وأمره في الآية التي بعدها مباشرة وهي ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ أن يمعن في إذلالهم بعدم الصلاة عليهم أو أن يقوم على قبره، فهذه الآية والآية التي قبلها والتي بعدها تبين أحكام المنافقين والكيفية التي يجب أن يعاملوا بها من الاحتقار والإذلال والإنزال عن رتبة المؤمنين. وليس في هذه الآية ما يدل على أن الرسول قد اجتهد في حكم، وهذه الآيات منسجمة مع آيات المنافقين المكررة في السورة نفسها، ولا يظهر في أي منها لا صراحة ولا دلالة ولا منطوقاً ولا مفهوماً حتى ما يثير أدنى شبهة أن فيها تصحيحاً أو تنبيهاً على خطأ.

وأما ما ورد في شأن نزول الآية ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ من أخبار فهي آحاد ولا تصلح دليلاً على العقائد وتعارض الدليل القطعي الذي يحصر تبليغ الرسول للأحكام بما جاء به الوحي ليس غير، وأنه لا يتبع إلا الوحي.

وأما قوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ...﴾ (عبس، الآية 1-3) فليس فيها أي وجه دلالة وعتاب للرسول، على انشغاله بشخصيات مهمة عن شخص عادي، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام مكلف بتبليغ الفقير والغني والقوي والضعيف، وأن انتباه الرسول إلى القوي في مرحلة ضعف المسلمين في مكة كان من واجباته عليه الصلاة والسلام بوصفه مبلغاً، وعليه أن يركز على ما فيه قوة للمسلمين.

وهكذا يثبت عقلاً وشرعاً بأن من كمال العقيدة الإسلامية الإيمان الجازم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجوز في حقه مطلقاً أن يكون مجتهداً، وبذلك تسقط

استدلالات الكتّاب الذين رأوا أن الرسول مجتهد وأن السنة النبوية هي اجتهاد للرسول عليه الصلاة والسلام وتفاعل مرحلي بين الرسول وبين واقع الحياة في الجزيرة العربية وقت الرسالة ونزول الوحي. وهذه فكرة من أخبث الفكر المدمرة للعقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي وهي وليدة النظرية التاريخية (الماركسية) التي عششت في ذهن هؤلاء أو سيطرت على أدمغتهم من حيث يعلمون وحيث لا يعلمون.

أما لماذا يصر الذين يسمون أنفسهم معاصرين على إنكار السنة من خلال التركيز على إعجازات القرآن العلمية وسننه الموضوعية كما يدعون من خلال آيات الآفاق والأنفس، وأن الله أعطانا في القرآن قواعد لحل مشكلات الأولين والآخرين، فالجواب هو أنهم يريدون أن يفصلوا بين الدين والحياة، وبين العقائد والتشريعات، وبذلك يفصلون بين النبوة والرسالة، ويقصروا الإسلام على الكهنوت والإلهيات فتبقى نبوة محمد وتندثر رسالته.

كانون ثاني 1997

الأصالة والمعاصرة

يتداول المفكرون والعلماء والكتاب في العالم الإسلامي لفظين عربيين هما المعاصرة والأصالة وما يتبعهما من ألفاظ أخرى كالتراث والعلوم والحضارة والمدنية، وما إلى ذلك من مصطلحات أعطوها مدلولات لا تمت إلى الواقع والحقيقة بأية صلة، فضاعوا وضيعوا القارئ حتى بات هذا القارئ يكرر ألفاظاً رنانة ويعتقد نفسه أنه عالم وموضوعي وهو لا يدرك معاني هذه الألفاظ ومدلولاتها اللغوية والشرعية، فصار الفهم عند الناس وكأن المعاصر هو الإنسان الموضوعي التقدمي الذي يربط الأسباب بالمسببات بعد أن يفهم واقعه زماناً ومكاناً ويعطي الحلول للفرد أو للدولة بالمنظور الذي يعالج مشاكل البشر، وذلك بالحلول المناسبة لاستمرار الحياة من أجل إنهاض الشعوب والأمم. أما الأصيل التراثي فهو الإنسان الجامد المتقوقع على نفسه وعلى ماضيه والذي يعيش في غير عصره فهو إنسان ناقل (قِرديّ) مقلد تحجر دماغه واستوت تلافيفه بحيث لا يعلم بعد علمٍ شيئاً، فأوقف الحياة عن التطور وعطل التفكير ونام في سبات عميق لا يرى من خلاله غير الأحلام، فكان سبباً رئيساً في تخلف الشعوب والأمم وعاملاً أساسيّاً في انحطاطها.

إن الإنسان وحتى هذه اللحظة لم يتغير فيه شيء من حيث الغرائز والدوافع والبواعث والحاجات العضوية التي تحتاج إلى إشباع. هذا الإنسان عنده غريزة حب البقاء بمظاهرها المتعددة كحب السيادة والريادة والجاه والظهور والسيطرة والتملك. وعنده غريزة النوع، فهو يرغب بإشباع غريزته الجنسية بأي شكل من الأشكال ومن مظاهر غريزة النوع الأخرى، الحنان والعطف والأخوة والأبوة والخؤولة والعمومة وغيرها. وعنده غريزة التدين ـ التقديس ـ فما مر عصر من العصور إلا ويريد هذا الإنسان أن يقدس شيئاً، ومن مظاهر التقديس الاحترام والتوقير، ولهذا قدس الإنسان البشر والحجر والبقر، عندما أشبع غريزة التقديس هذه بالطريق الشاذ أو الخاطئ لذي صرفه عن الوصول إلى خالق هذه المخلوقات.

إذن لم يتغير شيء في الإنسان منذ الخليقة وحتى الآن لأن الغرائز كامنة في هذا الإنسان وهي تحتاج إلى إشباع سواءً أكان إشباعاً صحيحاً أم خاطئاً. إنما الإشباع حاصل،

ولقد ثبت تاريخياً أنه لا يمكن محو هذه الغرائز، لكن يمكن كبتها لفترة من الزمن ثم تعود إلى الأصل وهو وجوب الإشباع. والقوانين سواءً أكانت سماوية (وحي) أو وضعية (من البشر) إنما وجدت لمعالجة مشاكل هذا الإنسان المتولدة عن الغرائز، وتختلف القوانين فقط في طرق الإشباعات، وهذا هو الذي اختلفت فيه كافة الفلسفات سواءً أكانت مادية (ماركسية) أو إسلامية ـ وحي ـ أو رأسمالية ـ فصل الدين عن الحياة ـ ولذلك أرى بأن المعاصرة ليس لها علاقة بالتشريع لأن التشريعات إنما وجدت لحل مشاكل الإنسان، ومشاكل الإنسان على الصعيد الغريزي لم تتغير ولم تتبدل، فلا قيمة إذن لتغير الزمان والمكان والعصور في إعطاء حلول لغرائز لا تتغير. فالإنسان الأمريكي كالإنسان الروسي وكالإنسان العربي أو الأوروبي، أو كإنسان العصر الحجري، كل منهم تكمن فيه غرائز وهذه الغرائز تشبع الجنس بالزواج الشرعي، أم بالزنا أم باللواط، أم بالحيوان أم بوسائل أخرى، إنما لا بد أن يتم الإشباع ـ وكل فكر سواءً أكان إسلامياً أم مادياً أم رأسمالياً أعطى حلولاً لكيفيات الإشباع فيما يخص التملك والاقتصاد والاجتماع وأنظمة الحكم.

إذن ما علاقة العصر والعصرنة والمعاصرة في حل مشاكل الحياة، فإن كنت مسلماً فإن حل هذه المشاكل يكمن في الاجتهاد بمصادر الوحي ولا قدسية لغير هذه المصادر. وإن كنت مادياً فالحلول في التناقض المادي والجدلي بالفكر والمجتمع، وإن كنت رأسمالياً فالحلول فيما شرعه أهل الفعاليات الاقتصادية من قوانين أخرجوها للمجتمع عن طريق ما أسموه الديمقراطية. كل هذه الحلول التي ذكرتها لحل مشاكل الغرائز هي مفاهيم حضارية أي هي الحضارة بعينها وهي التي تختلف فيها الأمم. ولا علاقة للمعاصرة بها لأنها حلول لغرائز ثابتة لا يخرج عنها إلا شاذ أو مريض ولذلك فهي مفاهيم حضارية.

أما المفاهيم المدنية التي تتعلق بوسائل الحياة التي تسهل وتساعد وتخدم كيفيات إشباع الغرائز، ليس لها علاقة بعقائد أو أفكار أو مفاهيم، بل هي التي تخدم العقائد والأفكار والمفاهيم، بحيث تجعل الحياة أسهل فتساعد على تحقيق الغايات والأهداف.

فإشباع الغرائز بطريقة حضارية ومن وجهة نظر خاصة ليس له علاقة بالوسائل التي يستعملها الإنسان ليجعل هذا الإشباع أسهل وأرقى. فكل إنسان لابد له من أن

يشبع غريزة النوع ـ الجنس ـ ولا علاقة إن كان إشباعها يتم على فراش بسيط أم على سرير وثير وكل إنسان يجب أن يشبع غريزة حب البقاء بمظاهرها ولكن لا علاقة للوسائل التي يستعملها من أجل هذا الإشباع. فقد استعمل الإنسان بالحروب الفأس والسيف والقوس والرمح، وقد استعمل الغواصة والطائرة والصاروخ، وكل هذه الوسائل مادية تساعد على تحقيق المفاهيم التي على أساسها يجري إشباع غرائز الإنسان ومظاهر هذه الغرائز. وهذا ينطبق على غريزة التقديس أو التدين أيضاً بمظاهرها وإشباعاتها المختلفة. سواء قدس الإنسان إلهاً يعبد، أم بشراً أم حجراً أم بقراً.

إذن العصر، بما فيه الزمان والمكان ووسائل الإنتاج والمعيشة هو موضوع للتفكير وليس مصدر للتفكير، فبالطريقة العلمية التجريبية يدرس الإنسان فيها الواقع المادي، أي يخضع المادة للبحث والاستقراء والاستنتاج ليصل من هذه الأبحاث إلى أفضل ما يمكن من رقي مادي يخدم الإنسان ويجعل حياته أسهل وأفضل، وهذا ما يسمى بالمدنية، أي تسخير الواقع المادي من أجل المفاهيم الحضارية، التي هي مفاهيم الحياة الأساسية التي تجري على أساسها الإشباعات، فمثلاً الأرض أو المصنع ملكية عامة أم ملكية خاصة هو مفهوم حضاري لا علاقة بالعصرنة في كل زمان أو مكان فهل تحرث بالدابة أم بالمحراث اليدوي أو الإلكتروني فإن هذا مفهوم مدني ـ عصري ـ يتولد من جراء إخضاع المادة للتجربة والدراسة. والمفاهيم الحضارية هي التي تحث الإنسان على الإبداع بالوسائل المادية من أجل خدمة المفاهيم الحضارية.

ولما ذكرت باختصار استغرب استعمال العلماء والمفكرين للفظي المعاصرة والأصالة في غير معناهما اللغوي أو الشرعي، وهذا الاستعمال الخاطئ قد أضاع القارئ وجعله يخلط بين المفاهيم الحضارية التي ليس لها علاقة بالواقع وبين الوسائل المدنية التي لا وجود لها بدون دراسة الواقع، فالواقع ليس مصدراً للتفكير بل هو موضعٌ للتفكير. وإلا لو كان مصدراً للتفكير لانعدم وجود المفكرين ولأصبحت مفاهيم الحياة انعكاساً للواقع على الدماغ ولأصبح الفكر انعكاساً للواقع على الواقع ولكان الفكر والتفكير نوعاً من الخيال والتصور والوهم. وهذا ما يدحضه العقل الذي بحث بواقع المادة ووصل إلى

أن هناك من نظم الكون والإنسان والحياة فمن يقبل أن يؤمن بأن هناك قوة منظمة للكون لا يستطيع إلا أن يؤمن بأن هناك قوة قد نظمت الإنسان والحياة وإلا وقع في تناقض ليس له حل إلا بأن يؤمن بقوة منظمة مطلقة نظمت الكون والإنسان والحياة. وعندها يكون قد وصل إلى إيمان يملأ العقل قناعة والقلب ـ الشعور ـ طمأنينة، وإن أنظمة الله للكون والإنسان والحياة ليس لها علاقة بالعصر والعصرنة والمعاصرة. وإن دور الإنسان ينحصر في فهم الواقع ودراسته، تجربة واستقراءاً واستنتاجاً من أجل الإبداع في مجالات الحياة ووسائلها التي تجعل مظاهر إشباع الغرائز تتم بوسائل أسهل وأفضل.

25/ 7/ 1994م

الكتاب والقرآن أخطر كتاب عرفته الساحة الإسلامية

صحيفة الشرق الأوسط الدولية

صدر قبل ست سنوات كتاب للدكتور المهندس محمد شحرور اسمه «الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة» فتوالت على هذا الكتاب ردود كثيرة لتفنيد ما جاء فيه، فالكتاب كان يتعرض لمدركات مستقرة في الذهن الإسلامي، وأتى بفهم جديد وغريب عن القرآن الكريم. هذه الردود لم تصدر من مواقع إسلامية فحسب، بل صدرت عن مواقع علمانية في التفكير أيضاً. فهذا الكتاب لم يرق على سبيل المثال للدكتور نصر حامد أبو زيد! لكن ما يلفت النظر أن الدكتور منير الشواف لم يكتف برده الأول الذي هو عبارة عن كتاب ضخم عنوانه «تهافت القراءة المعاصرة» بل واصل رده السابق برد لاحق هو الآخر رد أيضاً على كتاب شحرور الثاني «دراسات إسلامية معاصرة في الدولة والمجتمع» وقد أجرينا هذا اللقاء مع المحامي الدكتور منير الشواف لنعرف منه لماذا هو منشغل بالدكتور شحرور وبما يصدره من كتب إلى هذا الحد وكأنه متخصص فيه، فسألناه في البداية عن طبيعة المؤاخذات التي تؤخذ على شحرور من وجهة النظر الإسلامية، خاصة أن شحرور يقدم نفسه بوصفه مجدداً من داخل دائرة التفكير الإسلامي فأجاب:

ـ يزعم الدكتور شحرور أن القرآن الكريم، أي المصحف، ينقسم إلى كتاب القرآن والسبع المثاني وتفصيل الكتاب، واعتبر أن ما أسماه القرآن والسبع المثاني وهي حسب تعريفه سبع فواتح للسور، وتفصيل الكتاب في قصص الأنبياء والرسل، وهي الآيات التي وقع فيها الإعجاز القرآني فقط ووصف آيات القرآن والسبع المثاني بالمتشابهات وآيات تفصيل الكتاب بالآيات التي ليست محكمة ولا متشابهة ولكنها من النبوة حيث تحتوي على معلومات، إلاّ أنها معجزة، وحصر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الآيات فقط، وجعل النبوة علوماً، وحصرها بنظرية الوجود الكوني والإنساني وتفسير التاريخ، وعرف التشابه بأنه ثبات النص وحركة المحتوى. وأنا هنا أعيد نص ما ذكرته في تمهيدي لكتابي الأول، ولا بأس من الإعادة بالنسبة للقارئ الذي لم يطلع على أطروحة شحرور ولا على ردي عليها.

ويعتبر أن آيات التشريع من «أم الكتاب» حسب تسميته، ليست مطلقة وتخضع للتبديل والاجتهاد، وقابلة للتزوير والتقليد ولا يوجد فيها إعجاز كما يزعم.

فالكاتب له رأي في مصادر الإسلام، القرآن والسنة والتي يعتبرها غير موحى بها وله رأي في القياس والإجماع.

* في كتابيك الأول والثاني تحاول أن تميط اللثام عن محتوى منهج شحرور، وذلك بنسبته إلى المنهج الماركسي، فهل هو ـ بالفعل ـ ماركسي؟

ـ لا أقول إنه ماركسي وإنما هو يستخدم المنهج الماركسي، فهو معجب بهذا الفكر، وتصنيفي له تحديداً بأنه مفكر مسلم لكنه ليس مفكراً إسلامياً على الإطلاق، فالرجل نظر إلى حالة المسلمين فوجدها حالة متردية ومزرية واعتبرها من الإسلام، فنقض هذه الحالة التي يسميها الحالة التراثية علماً بأنها ليست من الإسلام. وكان لزاماً عليه أن يرجع إلى أصول الإسلام فحاول أن يدخل عليها بعض التعديلات الجوهرية، هذا من جانب، ومن جانب آخر بعضاً من التعديلات الجوهرية على الفكر الماركسي. لماذا؟

لأنه توصل إلى أن الماركسية سلكت الطريق العقلي والموضوعي الموصل إلى الله ولكنها لم تصل إليه، والمسلمون آمنوا بالله دون أن يعرفوا الطريقة العلمية للوصول فأراد أن يلبس الإسلام طاقية الماركسية، فهو يختلف مع الماركسية في نزعتها الإلحادية ونفيها لمعنى الحرية الذي قدمه الفكر الرأسمالي. أما الدكتور جعفر دك الباب وهو عالم لغة والذي يعتبره مرجعيته اللغوية فهو من المدرسة الماركسية يقيناً.

* إصرارك على استخدام كلمة «تهافت» في عنواني كتابيك الأول والثاني هل هذا معناه أننا أمام غزالي جديد في مواجهة شحرور ومدرسة العصريين في تأويلها العقلي للإسلام؟

ـ القضية ليست بهذا المعنى فأنا لست غزالياً جديداً، ولكنني اتخذت هذا العنوان قاصداً لأنني أجده معبراً على الرغم من اعتراض الناشر على العنوان في بداية الأمر، فهو كان يريد لكتابي عنواناً تجارياً يتعلق بالكاتب الأساسي وبكتابه.

فـ «تهافت» كلمة مناسبة لتوضح ما هو ليس من الإسلام، لأنها تعني السقوط والانتهاء. أما «القراءة المعاصرة» فتعني المدرسة التي ينتمي إليها شحرور وقد أخذته كحالة لهذه المدرسة المنتشرة في أوساط العرب والمسلمين.

إذا كان يوجد هناك من هو شحروري (نسبة إلى شحرور) فأنت بتعقبك له شحروري على نحو مقلوب، فالقارئ لم يعرفك إلاّ من خلال أطروحة شحرور، فهناك آخرون من هم على شاكلة شحرور، لماذا هذا التركيز عليه وهل لهذا أسباب قطرية أم أن هناك أسباباً أخرى؟

ـ عنايتي بالرد على شحرور لها قصة، فأنا بالأساس لست كاتباً ولم أفكر في يوم ما أن أكون كاتباً أو مؤلفاً على الرغم من أن لي تجربة في كتابة بعض المقالات التي تأخذ طابع الرد وروح السجال، كل ما في الأمر أن صديقاً مشتركاً بيني وبين الدكتور شحرور أهداني كتابه الأول، وقال إن هذا كتاب جيد ولكنه لا يخلو من بعض الأخطاء. قرأت الكتاب ووجدت أن ما فيه لا يمت للإسلام بصلة، فهو يهدم أصول الفقه. فوجئت برأي صديقي مع أنه شخص متدين وذو تعليم عال.

بدأت اقرأ الردود التي صدرت في الرد عليه وتألمت من مستوى ضعف كتاب سليم الجابي فالرد ضعيف بينما كتاب شحرور كتاب عقلاني ينم عن قدرة فكرية ذات مستوى عال.

قرأت كتاباً للشيخ خالد عبد الرحمن العك لكنه مع ما فيه من جهد إلاّ أنه كان رداً تراثياً تقليدياً.

كذلك صدر رد لمحامٍ من آل عمران ورأيت أنه لا يبحث في الأساسيات فاستغرق في البحث عن الفرعيات والتفصيلات. كما أن هناك رداً للأستاذ صيداوي وهو رد جيد ومفحم لكنه اقتصر على الناحية اللغوية، فهو ـ كما قال ـ أستاذ لغة ويرد من خلال تخصصه تاركاً الأمور الأخرى لمن هم أهل لها.

وكانت معظم الردود عاطفية وحماسية وشخصية وظهروا أمامه وكأنهم في مستوى الدرجة السياحية، فشحرور ـ حقيقة ـ مفكر وقد بذل جهوداً ضخمة لإنجاز مشروعه الفكري الذي مثله ويمثله كتابه الأول. بعد ذلك انقطعت سنة كاملة لإعداد رد عليه،

وكان ذلك كتابي الأول. هذه هي الأسباب وهذه هي البواعث. فكتابه ـ في تقديري ـ أخطر كتاب منذ زمن البعثة النبوية.

* هناك كتاب عنوانه «النزعات المادية في العالم الإسلامي ـ نقد كتاب جودت سعيد، محمد إقبال، محمد شحرور على ضوء الكتاب والسنة» لعادل التل يذكر فيه أن سبب تصديه لشحرور أنه لم يقرأ رداً عليه على ضوء الكتاب والسنة، هل معنى هذا أن ردك لم يكن على ضوء الكتاب والسنة؟ وهل يحسب شحرور على جودت سعيد من ناحية الفكر الديني؟

ـ ربما أنه لم يقرأ كتابي أو أنه قرأه فلم يعجبه!

* بما أنك قيمت بعض الردود على أفكار شحرور، كيف تنظر إلى هذا الكتاب؟

ـ مع أنني لا أقر طريقة جودت سعيد في التفكير من حيث جعله التاريخ أساساً لفهم مشاكل الحياة، ولا أقر غموض مفهوم السنة عنده، إلاّ أنه كان مغرضاً في حقه، وحماسياً جداً. وقد أجاد في نقده لإقبال لكنه لم يتمكن من فكر شحرور. لكنه لم يبعد عن الصواب كثيراً عندما اعتبره محسوباً على أفكار جودت سعيد، فهذا الأخير فتن بالفهم المادي للحياة وأخطأ لأنه لم يميز بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كوحي وسنن الحياة كتاريخ.

* صدر كتاب ثالث لشحرور وهل في نيتك إصدار كتاب ـ أيضاً للرد عليه؟

ـ لقد قرأت كتابه الثالث وعزمت أن لا أرد عليه لأنه سبق لي أن رددت على المرتكزات والأسس التي ينطلق منها، فكتابه الأخير ثمار للبذور التي وضعها في كتابه الأول.

* يبدو لي أنك واقع في أسره في مجال التأليف، فهو الفعل وأنت رد الفعل، لماذا لم تكتف بنقد الأطروحة الرئيسية كما فعلت في كتابك الأول، ولا تكرر نفسك كما في كتابك الثاني؟

ـ بالفعل كان من المفروض أن لا أرد على كتابه الثاني لأن كتابي الأول كان كافياً لمن يدرك ويفقه أصول الإسلام، لكن ما حدث أنه في كتابه الثاني بحث في فروع أساسية

تتعلق بأنظمة الحياة والمجتمع، وهذا أمر أشرت إليه في المقدمة. لكن، لما رأيت أناساً معجبين بهذا الكتاب وجدت أن من واجبي الشرعي أن أرد بأقل ما يمكن من عدد الصفحات.

عن مجتمعاتنا الإسلامية تنقسم إلى شرائح ثلاث هي:

1) شريحة المتحمسين للإسلام تحمساً تقليدياً وفردياً دون فهم للإسلام، وهم للأسف الشريحة الكبرى. هؤلاء لا خوف عليهم لا من شحرور ولا من نصر أبو زيد ولا الجابري، لأنهم لم يفهموا الإسلام بمعناه العميق حتى يفهموا ما يقوله أمثال هؤلاء.

2) شريحة الواعين وهذه شريحة قليلة ونادرة في مجتمعاتنا الإسلامية وهؤلاء ـ أيضاً ـ لا خوف عليهم لأنهم يعرفون مصادر الإسلام جيداً.

3) شريحة المتعلمين من حملة الشهادات وهؤلاء يظنون أنهم مثقفون وهم ليسوا كذلك بل هم متعلمون وحسب، وهم يشغلون مراكز مهمة ولهم وجاهة في مجتمعاتهم ويحترمهم الناس وينصتون لكلامهم أحياناً بلا دليل، فلعلك تعرف أنه بعدما ذهبت الحقبة الماركسية أدراج الرياح أصبحت هناك عودة ومحبة من قبلهم تجاه الإسلام لأن كثيراً منهم أساساً ليس معادياً للإسلام. فجاءت كتب باسم المعاصرة فتلقفت هؤلاء، لأنهم لا يستطيعون الفهم عن طريق المشايخ، ولا المشايخ ـ أيضاً ـ قادرون على إفهامهم، فالمشايخ ليس بوسعهم إثبات فساد النظرية الديالكتيكية ويخلطون بين الحضارة والمدنية وبين وسائل الإنتاج والنص الشرعي. أنا أكتبُ من أجل هذه الفئة الأخيرة.

* لعل الدافع لكتابك الثاني أن شحرور في كتابه الثاني ذكر أنك خلطت بين القصاص والعقوبة على الرغم من تثمينه لجديتك وجهدك وتزكيته لك على صعيد الذكاء والتقوى وحسن النوايا؟

ـ صدقني أن هذا لم يكن هو الدافع. وفي بحثي عن القصاص والعقوبة أشرت إلى أنه هو الذي لم يفهم الفرق بين القصاص والعقوبة.

* ولماذا ـ من باب الأمانة العلمية ـ لم تذكر للقارئ أنه أخذ عليك هذه الملاحظة؟

ـ لا أريد أن أجعل منها قضية شخصية فبيني وبينه معرفة قديمة منذ عام 1981م. لقد كتبت كتابي الثاني كما كتبت كتابي الأول ليهتدي، فشحرور احتسبته من الذين اتقوا، ولكن مسهم طائف من الشيطان.

* كيف ترى الفرق بين شحرور ونصر أبو زيد؟

ـ شحرور يختلف كثيراً عن أبو زيد، أبو زيد مجرد كاتب أكاديمي طرح أفكاره للهواة فهو يستطيع أن يقدم أفكاراً لكن لا يستطيع أن يقدمها بصورة منهجية، وما يجمعه مع شحرور أن عقله أكبر من علمه.

* هل لشحرور مريدون وتلاميذ ما دام أنه بهذا الحجم من الخطورة؟

ـ حسب علمي له مريدون وتلاميذ في عدد من الدول العربية، لكن ليس على مستوى صعيد الكتب، باستثناء تلميذ جديد اسمه نيازي عز الدين (سوري) أصدر كتاباً عنوانه «إنذار من السماء» وأعتقد أن الذي ألفه شحرور وليس نيازي، لأن الأفكار أفكار شحرور والأسلوب أسلوبه. وقد رددت على هذا الكتاب بمقالة ستنشر في مجلة «نهج الإسلام» لأن الكتاب لا يستحق أكثر من مقالة.

4/ 3/ 1997م

المستقلة

تحاور الدكتور والمهندس السوري محمد شحرور عن أهم آرائه وأطروحاته
أجدد القول أن السنة ليست وحياً ويكفي تحديد تناقض واحد
من التناقضات الموجودة في الأحاديث للتدليل على ذلك

* لتكن البداية من سؤال التخصص، من المعروف أنك دكتور في الهندسة ولك مكتب هندسة هنا في دمشق أريد سؤالك عن تخصصك هذا وعلاقته باجتهاداتك في تأويل القرآن. ما هي أسباب توجهك إلى قراءة القرآن؟

ـ الحقيقة أن السبب الرئيسي لاعتزامي فتح هذا الملف هو نتائج حرب 1967م، لقد حضرت نقاشات مختلف الاتجاهات العربية بيمينها ويسارها حينئذ وكان العرب وقتها قد خرجوا من الحرب أذلة. وأذكر أن إمام مسجد هنا في دمشق فسر أسباب الهزيمة بعراء نسائنا، بينما أحد اليساريّين أعادها إلى أننا نصوم رمضان. لهذا وجدت أن هناك مشكلة حقيقة في آلية التفكير العربية الإسلامية واحدة عند الملحد والمسلم. وأنا أفرق بين ملحد إنكليزي مثلاً ومثيله العربي. من هذه الناحية بدأت البحث في أساسيات صنع هذا التراث ورأيت أن الأساس هو البعثة المحمدية وتأسيس الدولة بالإضافة إلى أن هناك تراثاً سابقاً أعيدت صياغته في إطار الإسلام وبعد أن أخذت الأساس في ذلك وهو كتاب الله افترضت مجرد فرضية بأن النبي قد توفي منذ خمس سنوات وخلّف لنا هذا الكتاب، ألا يمكن لنا أن نفهمه نحن؟ من هنا دخلت في مفهوم المنهج وأدواته، ذلك أنني وباعتباري أحد أبناء القرن العشرين أمتلك أدوات كثيرة وإذا كان هذا الكتاب فعلاً صادقاً لكل زمان ومكان فعلينا أن نقرأه بمنظار القرن العشرين، طبعاً هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن المجتمع دوماً له دور في صنع الدلالات. من هنا نظرت إلى اللغة بأنها كائن حي يخضع للتطور وعليها رفضت المنهج البنيوي الذي ينظر إلى اللغة من الزاوية النحوية فقط وبهكذا طريقة تدرس اللغة العربية عندنا.

* لنؤجل سؤال المنهج الآن، ماذا تعني لك القراءة المعاصرة للقرآن؟

ـ القراءة المعاصرة عندي هي باختزال إيجاد مدلولات لدالات القرآن دون الخروج عن المعنى الأساس والمعنى التطوري للغة العربية. يعني أن نبقي خيطاً بين اللفظ والمعنى،

لأن انقطاع هذا الخيط يدخلنا في التصوف. أعطيك مثلاً: إنّني أرفض تفسير الآية الكريمة ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ (الرحمن، الآية 19) بأنها تعني آدم وحواء، لأن البحر عندي هو البحر. مع الأخذ بعين الاعتبار تطور هذه المدلولات.

وإذا أخذنا ملك اليمين مثلاً، فإن هذا المفهوم الآن قد تغير، وأعطيك مثالاً من سورة النور ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور، الآية 33). هذا الكتاب إذا أخذنا ملك اليمين على أساس أنه رق، فهذه الآية نسخت تاريخياً. فالوقوف على مدلولات القرن السابع الميلادي يخلق لدينا نسخاً في كتاب الله هو النسخ التاريخي. والفرق بيننا وبين جيل الصحابة أن هذا الأخير كان منسجماً مع نفسه أي إنه وجد ما يقابل هذه الدالات في الواقع، ولهذا يجب الآن إعادة المطابقة بين الدالات والمدلولات.

* كثير من الباحثين يتهمك بنقل المنهج الماركسي للقرآن، ماذا تقول في هذا؟ وثانياً فمن المعروف أن المنهج وأي منهج هو أيديولوجيا بامتياز. ما خلفية منهجك الأيديولوجية؟

ـ أولاً هناك فرق بين الماركسية والمنهج الجدلي. أنا مؤمن بأن قوانين الجدل اكتشفها هيغل ولم يكتشفها عبد السميع أو عبد الباسط، وهذا ليس ذنبي. ثم هناك فرق بين الجدل والمنطق. والمنطق الصوري أو الرياضي منطق عقلي يقوم على عدم التناقض. هذه نقول عنها قوانين فكر أو قوانين منطق، ولكن الجدل ليس منطقاً الجدل أداة لها وجود موضوعي خارج الوعي الإنساني. وهذا وجدته في كتاب الله ففعل جدل في كتاب الله يعني أن هناك تضاد وإلا فحوار. وإذا كان كلام من طرف إلى آخر دون رد هذا الآخر فهو خطاب، وكتاب الله ميز بين الحوار والخطاب والجدل. فهذه الثنائيات الثلاث ليست ماركسية فالعالم كله يعترف بها. عندنا الثنائية التناقضية والثنائية التقابلية. فهذا ليس منهجاً ماركسياً وإنما حقيقة. وإذا لم نعترف بها فإننا لن نصل إلى شيء لأنه ليس ذنبنا أنه قالها جورج أو ميشيل أو هيغل، فهذه ملك للإنسان كله. وهنا يجب أن نميز بين الفكر الماركسي وقوانين الجدل. فالفكر الماركسي طبق قوانين الجدل ووصل إلى مجتمع طوباوي والفكر الماركسي فكر طوباوي بحت بينما الطوباوية غير موجودة في القرآن نهائياً.

* طيب لقد أجبتني عن الشق الأول من السؤال، ولكنك لم تعرج على شقه الثاني المتعلق بعلاقة المنهج بالإيديولوجية؟

ـ خلفيتي الإيديولوجية هي أولاً أنني ابن القرن العشرين، وفيه ميزت بين المنطق والجدل فالمنطق قانون الفكر بينما الجدل قانون الوجود. والفرق بينهما كبير هو أن المنطق يقوم على عدم التناقض بينما الجدل يقوم على التناقض. ومهمة الفكر الإنساني الأولي هي إزالة التناقض. وهذا ليس له علاقة بالإيديولوجية وإنما له علاقة بالآلية. ولهذا أقول: إنَّ القانون الرباني الأول الذي أعطاه الله هو عدم التناقض، وما عدا ذلك فكله مكتسب (قانون العلية والسببية) لأن قانون عدم التناقض هو القانون الذي حصل به الإنسان أول معلومة، فهذا قانون فكر. وأنا ميزت بين قانون الفكر الذي هو الفؤاد وبين الجدل وبين الوحدة. أما أن هذه منهجية ماركسية فأكثر الناس تطوراً في العلم هم الذين يطبقون قوانين الجدل وأقل الناس هم الماركسيون لأنهم لم يطبقوا قوانين الجدل.

* الآن إلى الموقف من التراث، لقد رفضت الأخذ بالتراث الديني جملة وتفصيلاً لكن منهجية البحث العلمي تستوجب الوقوف عند الأسباب. هل لك أن تشرح هذه الأسباب؟

ـ أولاً التراث هو كل شيء من خلق الإنسان منذ وجد إلى الآن، فهو نتاج إنساني. أما التنزيل الحكيم فليس تراثاً. هذا واضح عندي تماماً فهو كتاب إلهي أما التفاعل معه فهو تراث. لذا فالذي أرفضه من التراث هو الأداة وليس التراث بحد ذاته. وأقول لك بأن التراث لحظة كتابته كانت له شروطه الأدائية والمعرفية ضمن عصره، هذه الأدوات المعرفية تغيرت الآن. أعطيك مثالاً فلما أرفض أنا الآن البخاري ومسلم، يقولون إنني رفضت الحديث النبوي، وهذا غير صحيح لأنني أرفض البخاري ومسلم ولا أرفض الحديث النبوي. أنا أعيد النظر في أدوات جديدة على هذه الأحاديث. وأنا أرى بأن الدفاع عن الأحاديث النبوية هو دفاع عن بخاري ومسلم وعن أدواتها المعرفية أكثر مما هو دفاع عن رسول الله. فمن عاب على البخاري أخذه بـ 6000 حديث نبوي من مجموع 600.00 حديث، لا أحد. لماذا ذلك رغم أن البخاري إنسان اتبع منهجاً معيناً. الآن

يمكن أن تتبع منهجاً جديداً في الرفض والقبول ويمكن أن تكون هناك أحاديث جديدة ترفض. لكن المشكلة أن جزءاً من الأحاديث التي يمكن أن ترفَض يعتبرها الناس من أساسيات الدين. فالرفض ليس رفضاً شخصياً ولا تشكيكاً بحسن النوايا ولا تشكيكاً بالعبقرية هو عبارة عن رفض الأداة.

ويمكن لك تطبيق منهج جديد على أحاديث البخاري عن أهوال يوم القيامة كمثال على ما أريد. أنا رفضت المنهج المعرفي المتبع في ذلك الوقت بأدواته ورفضت المنهج البياني.

* معذرة دكتور، لكن عدداً من المتابعين لكتاباتك يقول بتأثُّرك بكتابات ابن عربي التي هي تراث طبعاً كما جاء في تعريفك، وفكره عن وحدة الوجود. ويرى هؤلاء بأنك خلطت بين خيالات ابن عربي وواقعيات ماركس ماذا تقول؟

ـ هذا غير صحيح أبداً، فبالنسبة لماركس وقفت وقلت: إن يوم القيامة عبارة عن حادثة مادية وليس طوباوية أو وهمية. وقوانين الجدل التي تقول بتغيير الصيرورة هذا التغيير سيؤدي إلى تغيير الكون بشكل كامل، قوانين الجدل أوصلتني إلى هذا وليس ماركس. لذا قلت بأنه من قوانين الجدل يمكن الوصول إلى اليوم الآخر بينما ابن عربي أقول عنه بأنه أحد مؤسسي الفكر العربي الخيالي بالمشاركة مع أبي حامد الغزالي الذي يفكر معظم العرب الآن كما يريد ابن عربي والغزالي.

* طيب، مثالك عن المرأة المعكوسة الذي طرحته في كتابك الأول هو أساس طرحك بأكمله، قال ابن عربي: في كتب (الفتوحات)، (الفصوص)، (إنشاء الدوائر)، الذي ذكر فيها أن القرآن = كلمات الله المرقومة = الوجود وعلى ما يبدو أنك أخذت هذه المصطلحات وأوصلتها على أساس فهم ماركسي منحول للإسلام. كما أنك أخذت مفهوم الظاهر والباطن من ابن عربي؟

ـ الظاهر والباطن مرفوض بالنسبة لي. لأن هذا المفهوم هو الذي جعل من (البحرين) في قوله تعالى: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ (الرحمن، الآية 19) ظاهرياً تعني البحر، بينما في الباطن قد يكون آدم وحواء، وهذا مرفوض عندي تماماً. أما بالنسبة لمفهوم

المرأة المعكوسة فهذا من عندي، ولأول مرة أسمع أن ابن عربي قاله، وقد فاجأتني به حقاً، لأن هذا المثال واضح بالنسبة لي أنا كمهندس فقد أخذته من الطبوغرافيا.

وهذا المثال لا يعرفه ابن عربي، يبقى أن أقول لك بأن امتلاكنا لعلوم مساعدة لم تكن في متناول من هو قبلنا جعل من فهم القصص القرآني أكثر يسراً، ولكن بشرط أن نستعمل هذه العلوم المساعدة. هذا الاستعمال سيوصلنا بلا شك إلى نتائج يستحيل أن يصل لها المفسرون السابقون، ولا علاقة لهذا بالعبقرية والنزاهة وحسن النوايا. لأن التاريخ يسير دوماً إلى الأمام لا إلى الوراء. لهذا أنا أرفض المقولة التي نسبت في الحديث النبوي خير القرون قرني والذي يليه ثم الأمم ترجع إلى الوراء. أنا أرفض ذلك لأن التاريخ يتقدم إلى الأمام لا إلى الوراء.

* وما قولك في من يقول بأنك حولت مقولة ابن عربي بأن القرآن يتجدد على قلوب العارفين ونسبته لعلماء الطبيعة؟

ـ فلسفة ابن عربي تقوم على ثنائية هي الله والإنسان فقط. أما أنا فتقوم رؤيتي على ثلاثية هي الله، الإنسان، الوجود، فعندما تريد أن تتعرف على الله تعرف على خلقه. أما منهج ابن عربي فهو علاقة بين الله والإنسان مباشرة والتي هي الإشراق أو الفيوضات الرحمانية وهذه ليست لها أي منهج بينما أنا أقول بأنك إذا أردت معرفة الله متعرفاً عليه من موجوداته، فهذا أمر آخر تماماً. فلسفة ابن عربي تقوم على أساس الشطحة الصوفية أو مفهوم الخوارق، أنا أقول كلا إذا أردت أن تفهم الخوارق فافهم قوانين الطبيعة. وإذا كانت خوارق ابن عربي أن تذهب إلى مكة في ثانية واحدة، فإن الخوارق بالنسبة لي أن تذهب إلى مكة في الطائرة، وأنا أعتقد أن ابن عربي والفلسفة الصوفية تكمن وراء هذا التخلف. أنا لا أنكر النظام العرفاني ولكن النظام العرفاني استعمل في غير محله، النظام العرفاني هو نظام معرفي له وجود أعترِفُ به ولكن علينا أن نعترف بأن النظام المعرفي وأي نظام عرفي يجب أن نحدد فيه: مصداقية النظام، وحق توظيفه وأداته. فإن أردنا تطبيق النظام العرفاني على الكون فإن الكون لا يفهم بالنظام العرفاني، لأن النظام العرفاني نظام ذوقي خالص، ونظام فردي غير قابل للتعميم.

* السؤال الأخير فيما يتعلق بابن عربي، ابن عربي يقول بفكرة الوجود، والعدم عبارة عن إثبات الشيء ونفيه وأن الاستغناء والافتقار هي علاقة الإله بالمألوه (كتاب إنشاء الدوائر) وهو نفس الفهم الماركسي للتناقض ونفس فهمك. هل لك أن تشرح ذلك؟

ـ هذا الطرح هو عبارة عن النفي ونفي النفي أي الإثبات والوجود. طبعاً مفهوم النفي ونفي النفي استفاد فيه ابن عربي من فكرة التطور. والذي أختلف فيه مع ابن عربي هو كيفية تسبيح الأشياء لله. لأن التسبيح هنا هو تسبيح وجود وجوهره أن الأشياء في وجودها تنزه الله أن يكون مثلها، فينطبق عليه قانون صراع التناقضات الداخلية الذي هو النفي ونفي النفي فيفسد ويهلك. هذا هو تسبيح الوجود المتعلق بالله والآخرين، أما قانون النفي ونفي النفي هذه ليست ماركسية هي عبارة عن قانون موجود ولكن كل يصيغه بطريقته، هذه هي الثنائية التناقضية. وأنا أفهم التناقض غير الضد لأن قانون التناقضات يعبر عن التطور وهو وارد في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ (الحج، الآية 5) المضغة مخلقة وغير مخلقة، يعني أنت ولست بأنت. النظام البياني قال بمضغة مخلقة وأخرى غير مخلقة لأنه غير قادر على استيعابها. والتناقض في الفكر غير الإنساني موجود، وبالطبيعة موجود وقانون التناقض برهن على وجود الساعة. لهذا السبب قلت بأن الفلاسفة والعلماء هم الذين يقولون لا الأولياء. وأقول لك بأن المشكل بيني وبين ابن عربي ليس حيادياً وقد أعلنت هذا في كتابي الأول والثاني.

ننتقل الآن إلى محور آخر، لماذا تنكر أن السنة وحي من الله وترى أن السنة إن هي إلا تفاعل تاريخي بين الرسول (ص) ومجتمعِهِ في القرن السابع الميلادي. وما قولك بالآيات الكثيرة التي أكدت على اعتبار الرسول (ص) أسوة حسنة في الترك والفعل؟

ـ هنا سأكون دقيقاً، أولاً مصطلح السنة بحد ذاته هو مصطلح غير مأخوذ من كتاب الله. هذا المصطلح يعني في كتاب الله السنة التاريخية أو الكونية والسنن هي قوانين الله في خلقه. أما إسقاط السنة على رسول الله بمعنى أن هناك قوانين وضعها رسول الله

(ص) لا تتغير. أما الذي عرف السنة وأطلق عليها هذا المصطلح هم الناس، عندما قالوا إن السنة هي كل قول أو فعل أو تقرير أو نهي قام به الرسول هذا تعريف الناس.

* لديك اعتراض على هذا التعريف؟

ـ نعم، لأن تعريف الناس قابل لإعادة النظر.

* ما هو تعريفك لأحاديث الرسول (ص) وسيرته؟

ـ أجيب على هذا فقرة، فقرة، أولاً لنأخذ قولهم بأن السنة وحي، فهذا يعني أن هناكَ وحيين الأول لكتاب الله والثاني للسنة ولكن الوحي له صفة أساسية أن الوحي خال من التناقض. أما إذا أخذنا الأحاديث بعد أن نقحها البخاري فيكفي أن يظهر فيها تناقضٌ واحدٌ حتى نقول عن هذه ليست وحياً. لأن الوحي قال فيه تعالى: (لو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً). والسنة كما وردت في كتب الحديث مليئة بالتناقضات. ثم هناك تضاد بينها وبين كتاب الله وأحياناً يكون واضحاً.

أعود الآن لإتمام الإجابة عن السؤال الرئيس المتعلق بالسنة ذكرت الخطوة الأولى. أما الثانية فاستشهادهم بالآية الكريمة: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ هذه هي السنة نقول ما يلي: النطق هو النص وجاءت هذه في سورة النجم التي هي من أوائل التنزيل وليست من أواخره وهي سورة مكية فهل هناك وقتها سنة، وهل كان تحت التساؤل موضوع السنة أم الوحي نفسه، لقد كان موضوع التساؤل هو هل محمد (ص) نبي أم غير نبي؟ ثانياً: النطق في اللسان العربي تعني إخراج الأصوات من الحنجرة لإسماع النص إلى الآخرين، وعندما قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم، الآية 3) هذه لا تعني القول ولا تعني اللفظ ولا تعني النطق. والآن وصلنا كتاب الله كما نطقه رسول الله (ص) فنحن في كتاب الله لا نقول: قال الله فيما معناه، فإذا كانت الآية تعني الأحاديث النبوية فإنني أطلب الإجابة عن هذا السؤال: هل كانت هذه الأحاديث كما نطقها رسول الله (ص)؟ إذا قالوا نعم قد نقبل وإذا قالوا كلا وهم سيقولونها فإن الأمر مختلف. من هنا جاء الخلاف من أجل الترادف، الذي لا يملك الفقه الإسلامي التقليدي أن يتخلى عنه لأنه إذا تخلى عنه سيسقط الحديث كله.

* لماذا؟

ـ لأنه لا يوجد ترادف، يعني إما أن تأتي بالحديث كما نطقه الرسول (ص) وإلا فهو غير مقبول.

* مسألة عدم الترادف تعتبر في علم اللغة العربية من الشواذ والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه ولكنك انطلقت منه؟

ـ لقد أجبتك قبل قليل وقلت لك بأن انتصار مدرسة الترادف كان لإثبات الحديث. لأنه في حال عدم وجود الترادف فإن الحديث يسقط. فهناك ضرورة إذن. هذا لا يعني أنه لا يوجد هناك عمالقة في اللغة العربية أنكروا الترادف لكن هؤلاء العمالقة انتقلوا إلى الصف الثاني لانتصار الصف الأول، الذي كان انتصاره ضرورة فقهية وسياسية.

* ما هي الضرورة الفقهية والسياسية؟

ـ الضرورات الفقهية والسياسية لأن تبرير السياسة والأحكام السلطانية استندت كلها على الحديث، والحديث قال رسول الله (ص) بما معناه.

* ولكنك في كتبك تستشهد بأحاديث الرسول (ص) في أحيان كثيرة؟

ـ إن صح، ولكن أستشهِدُ بها بعد أن أبحث في الكتاب كاملاً.

* هل لديك مقياس لذلك؟

ـ هي للاستئناس وليست للانطلاق، وأنا أرفض تماماً أن يكون الحديث شارحاً للقرآن. فالحديث ليس شارحاً للقرآن، ودليل ذلك أن لدينا في كتاب الله 6234 آية، وهو ما يتطلب إلى جانب كل آية حديثاً نبوياً وهو غير موجود. ثانياً فإنه إذا كان القرآن وحياً والحديث وحياً لماذا وصلنا الأول سالماً والثاني شابه كثير من النحل والخلط والاختلاف والضعيف والحسن والمتواتر.

* هل يعني هذا أنك تشكك في علوم الحديث كلها؟

ـ أشكك في المنهج. وأعطيك مثالاً: إنَّ هناك أحاديث يقولون عنها بأنها صحيحة وهي تلغي علم الحديث كله، مثلاً (أطيعوني ما دمت فيكم، فإذا ذُهب بي، عليكم بكتاب

الله حللوا حلاله وحرموا حرامه)، فقد ذُهب بالرسول (ص)، وذُهب أيضاً بالبخاري ومسلم.

* كيف؟

ـ لأن الرسول (ص) ذهب. ثم لنأخذ قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر، الآية 7) يجب هنا وفي كتاب الله أن يميز بين الحرام والممنوع، أو التحريم والنهي، فالتحريم لم يعط الله الحق لأحد بأن يحرم ابتداءً من نوح وانتهاء بخاتم المرسلين محمد (ص)، فالتحريم لله فقط، لأن التحريم يحمل صفة أساسية هي صفة الأبدية، وهذا ما لم يعطه الله لأحد، لذا أقول بأن الشرك حرام في القرن السابع وهو حرام في القرن العشرين مثل ذلك قتل النفس، فهذا حرام مطلق في الزمان والمكان، وهو تحريم جاء من الله لذا قال تعالى: (ما حرم الله ورسوله) ولم يقل (ما حرم الله وحرم رسوله)ولو قال هذا لكان هناك تحريمان والرسول لا يحرم إلا ما حرم الله. وكون هذه المحرمات لها صفة الأبدية فهي عبارة عن مثل عليا قليلة. ثم هنالك مسألة أخرى أشير إليها في الآية ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ وهي في الفعل (أتى) وهو يعني أن الأمر لا يأتي إلا من الذات لأنه لو كانت السنة وحياً لقال (ما جاءكم به) لأنه قال في موضع آخر ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ (الإسراء، الآية 88) هل يأتون به وحياً أو من عندهم. ولأنه من عندهم قال (أتى) ولم يقل (جاء) وذلك قياساً على قوله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الفرقان الآية 33) ففعل (أتى) يكون من دائرة الله، ولو كان ما قاله الرسول (ص) وحياً لقال (ما جاءكم به الرسول) أما (ما أتاكم به الرسول) يدل على أنه يعطي للرسول (ص) حق التشريع في الأمر والنهي. لهذا قال الرسول (ص): (كنت قد أمرتكم فإنني أنهاكم) أو كنت (نهيتكم فإني قد أمرتكم). هذا صحيح وله الحق كمؤسس دولة. فالآن الأسوة الحسنة للرسول (ص) هي البرلمانات.

19/ 5/ 1997م

المستقلة

د. محمد شحرور: من الممكن أن تكون نصرانياً مسلماً لا تؤمن بمحمد (ص)
الإسلام ليس عقداً بين الله والناس بل هو ميثاق وكذلك الإيمان
التعصب للحجاب هو تعصب لتقاليد عربية تعود إلى القرن السابع الميلادي

في الجزء الثاني من هذا الحوار معه يخوض الدكتور محمد شحرور في تفاصيل أعمق عن علاقة الإسلام بالإيمان، ويشرح بإسهاب نظرياته في هذا الموضوع والتي حملتها بعض كتبه.

ويخوض شحرور هنا أيضاً في قضية الحجاب والإصرار عليه، وكذلك علاقة الإسلام بالدولة المعاصرة و«الدولة الإسلامية» وفي الحوار أفكار جزئية وآراء تفتح الشهية للحوار والجدل العلمي والفكري الرفيع.

وهنا الجزء الأخير من الحديث:

في الجزائر رشوة وفساد غير عادل فلماذا لا يطرح الإسلاميون هذه الأشياء ويتمسكون بقضية الحجاب مثلاً ـ معظم الآيات القرآنية التي نزلت في مكة آمن الناس بها تسليماً أكثر مما آمنوا بها تصديقاً ـ لا وجود لشيء اسمه «الدولة الإسلامية» لأن الإيمان بالله واليوم الآخر أكبر من الدولة ـ الأسوة الحسنة للرسول (ص) هي البرلمانات لأنها لا يمكن أن تصوّت على ما حرم الله.

* ما هو الشرك لديك؟

ـ الشرك الظاهر واضح بالنسبة لي هو شرك التجسيد، هذا الشرك هو الذي قال عنه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء، الآية 48). ولكن هناك شركاً غير واضح قابل للمغفرة. أما الشرك الواضح تماماً فهو عند بعض المسيحيين عندما قال: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ﴾ (المائدة، الآية 17). هذا هو الشرك الواضح شرك التجسيد. أما الشرك الذي يقع فيه أي إنسان هو تثبيت ظاهرة ما، فالفقهاء أربعة وليس هناك غيرهم، فإن هذا تثبيت، وكأنهم مثل الإله وتريد إسقاطه على كل العالم هذا يعتبر شركاً واضحاً. من هنا فالشرك الواضح أن نقول: إنّ الله قد أعطى الرسول الحق في التشريع إلى يوم الساعة، بمعنى أنا أشركناه مع الله.

* هل تعتبر اتّباع الأئمة الأربعة شركاً غير واضح؟

ـ على أساس أنهم ثبتوا، أي أن هؤلاء البشر اجتهدوا وأنت تثبتها إلى أن تقوم الساعة. ونحن نعرف أن الذي لا يتغير هو الله فقط وكل من يدعي أنه يملك الحقيقة المطلقة فإنه يقع في الشرك.

* ذكرت في كتبك أن من لم يؤمن بالإسلام بالإثباتات المادية هو مشرك، واعتبرت إسحق نيوتن وأمثاله من الأئمة المتقين، بينما الفقهاء المسلمون من المتقين فقط أي ليسو بمنزلة علماء الغرب. هل يعني أن فقهاء وأئمة المسلمين الذين لم يؤمنوا بالإثباتات المادية هم مشركون كما يفهم من كلامك عن الشرك؟

ـ أنا لم أقل هذا. أنا قلت: إنَّ هناك مثلاً عليا التي هي الإسلام وهناك الشعائر التي هي الإيمان. فهذه المثل والشعائر وحدَها بدون مدلول في المجتمع تصبح في فراغ. ففقه المعاملات يستوجب مجتمعاً فالاجتهاد لابد أن يرافق الاكتشافات المادية للمجتمع، فلا يكفي أن يعيش المجتمع بالشعائر دون صناعة وتجارة وخدمات. فأنا قلت: إنَّ علماء المادية هم أيضاً من الأئمة وليس فقط الفقهاء. إذا جمعوا الاثنين فيكونون فعلاً هم الأئمة.

* في تمييزك بين الإسلام والإيمان اعتبرت أن الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح، وهي التي اعتبرتها أركان الإسلام وعملاً يدخل الجنة. وهي التي اعتبرتها أركان الإسلام وعملاً يدخل الجنة ويكون صاحبه من المسلمين... أين هو الإيمان بالرسول محمد (ص)؟

ـ لابد هنا من إزالة تناقض كبير عندما نقع فيه في شعاراتنا، حيث نقول: (الإسلام دين الفطرة). فإذا أخذنا الصوم مثلاً فهو ليس فطرة، والصلوات الخمس ليست فطرة، كذلك الحج وأيضاً الزكاة. فالإنسان عندما يتبع فطرته فهو مسلم بشكل طبيعي، ولهذا قلت بأن تذكرة الإسلام هي الإيمان بالله واليوم الآخر. فكل من آمن بالله واليوم الآخر فقد دخل الإسلام. ولهذا كان الصف المقابل للمسلمين هم المجرمون. إن الإسلام جاء بقيمٍ أخلاقية اعتبرها قيماً فطرية إنسانية وليست بشرية، لذا فإنني أقول بأن الإسلام بدأ بنوح والقاسم المشترك لكل الناس هو التوحيد. بدأ بنوح وتطور وتراكم حتى ختم

بمحمد (ص). وختم الرسالة جاءت بمثل عليا لم تكن موجودة في الرسالات السابقة ومثال ذلك قوله (ص): «مثلي مثل الذين من قبلي كبناء أتم بناؤه ونَقَصَ لبنة واحدة»، فنظر أحدهم فقال أين هذه اللبنة فقال: «أنا هذه اللبنة». لكن هذا لا ينسجم تماماً مع كتاب الله عز وجل، فهل جاء رسول الله (ص) ليستغفل هذه الرسل المذكورة في كتاب الله؟ طبعاً لا. لذا عندما قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾. فهذا الدين الذي أتمه لم يبدأ ببعثته، بل بدأ بنوح وختم بمحمد (ص). لذا فأنا أقول بأنه يوجد دين واحد هو الإسلام بفروعه. أما المؤمنون برسول الله فهم المسلمون المؤمنون.

* أيمكن أن تكون مسلماً ولا تؤمن بمحمد (ص)؟

ـ نعم، يمكن أن يكون مسلم نصراني، وأنا واضح تماماً. ففي سور (التوبة، الأنفال، محمد) حيثيات الدعوة المحمدية، لا توجد فيها كلمة «المسلمون» فقط «المؤمنون» وعرّف المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات، الآية 15). أما عندما يذكر الله وحده فلا يقول إلا مسلمون ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الأنبياء، الآية 108) فالتفريق بين المسلمين والمؤمنين في القرآن واضح جداً. وفي سورة الحجر وضع الحد الأدنى المطلوب من الناس وهو الإسلام.

* لكن المتأمل في هذا التحليل يلحظ غموضاً، ذلك أن الإيمان بالله يتطلب الإيمان برسالاته التي جاءت عن طريق الأنبياء والرسل وهذا قول القرآن أيضاً، وقال القرآن ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة، الآية 215)، فأنت لا تفرق بين أحد من رسله وتؤمن برسالته، ومن جهة أخرى تقول بأن الإيمان بمحمد غير ملزم للمسلم فهل هذا مقبول منطقياً؟

ـ «طول بالك»، أولاً هناك مسألة مهمة وهي أنه يجب علينا أن نفرق بين مقام الله ومقام الرسول (ص) فعندما تقول بأن الإسلام هو الإيمان بالله وبمحمد، فهناك كثير من الناس لم يسمعوا حتى بمحمد، ولكن لم يوجد أحد لم يسمع بالله فكل ذرة في الكون

متعلقة بالله وتبحث عنه. والآن هناك أناس كثيرون لم يسمعوا بمحمد. فكيف تجعل من الإيمان بمحمد شرط الإسلام، والحقيقة أن الإسلام أكبر، ومن الخطأ ربط الديانة الإسلامية كلها بشخص، أما أن الديانة الإسلامية مرتبطة بالله تعالى فهذا صحيح. وأنت في سؤالك تضع مقام رسول الله كمقام الله وأنا أقول كلا، لا يوضع أحد في مقام الله أبداً. فالإسلام له علاقة بالله وحده، والإيمان له علاقة بالله ورسوله. وأعود إلى الواقع لترى معي أن أتباع محمد الآن يمثلون 20٪ من العالم والله يقول في كتابه: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾. ونقول «صدق الله العظيم». فهل يعني أن البقية (80٪) من العالم ليسوا بمسلمين وأنهم إلى النار مباشرة ذاهبون.

* هل يعني أنهم مسلمون؟

ـ نعم، مسلمون غير مؤمنين، إذا تقيدوا بقيم الإسلام.

* بماذا تفسر إذن الغزوات التي قامت من أجل الدعوة في عهد الرسول (ص)؟

ـ هذا سؤال كبير فعلاً. هنا لابد أن آخذَ الخصائص الإيمانية التي تحمل بعداً سياسياً، والإسلام لا يسيّس.

* سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً أريد سؤالك عن الغزوات التي كانت في عهد الرسول (ص) لأجل الشهادتين؟

ـ لا.. كان يقاتل من أجل الشهادة الأولى فقط وقد قال (ص) في أحاديثه «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله». كان يقاتل على أول ركن من أركان الإسلام. أما القتال على الثانية فهذا ما لم يقع. يبقى أن الفقهاء بعدها قد فرقوا العرب إلى دار كفر ودار إسلام بينما هي دار كفر ودار إيمان.

* هل يمكن اعتبار فهمك هذا محاولة لإيجاد اتحاد فيدرالي بين الأديان الثلاثة والعقائد الأخرى؟

ـ أنا لا أفكر نهائياً في هذا. أنا أفكر في كيفية تعاملنا نحن المسلمون والمؤمنين مع العالم. هذا ما أريده. علينا أن نتعامل مع العالم على مستوى الإسلام. فقد أصبح العالم اليوم قرية صغيرة، فهل نغلق على أنفسنا الباب كما قال اليهود ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا

أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ (البقرة، الآية 111). أقول كلا ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين». كل ما أريده أن لا نكون نحن المسلمين المؤمنين أتباع محمد منغلقين. بمعنى أن نتعامل مع العالم على مستويين: المستوى الأول هو مستوى الإسلام وهو مستوى عالمي والمستوى الثاني وهو مستوى الإيمان نتعامل معه بين أتباع محمد.

* ألاحظ في تحليلك غموضاً كبيراً، فأنت تعتبر أن الإسلام هذا لم يأت من فراغ، بل جاء به أشخاص هم أنبياء ورسل، هل واجب الإيمان بهؤلاء ليتحقق الإسلام؟

ـ نؤمن بهم طبعاً، لأنهم حلقات في تطور الإسلام، والإسلام كما قلت لك هو الإيمان بالله واليوم الآخر، وتراكم في المثل العليا مع تطور الإسلام حتى اكتملت المثل العليا، فاكتملت حلقة التطور مع محمد عليه الصلاة والسلام.

* ولكن ألا ترى نوعاً من عدم الانسجام حين تؤمن بالمثل التي جاء بها الرسل ومحمد أحدهم، ولا تؤمن بهؤلاء؟

ـ «طول بالك» تطرح هذه المثل العليا وتتعامل بها مع الناس وتعرف بالمثل التي أتي بها محمد فهو إن شاء فليؤمن وإذا شاء فليكفر.

* طيب إذا آمن بهذه المثل العليا وقال لك بأنني لا أومن بمحمد ماذا تسميه؟

ـ أسميه مسلماً.

* ألا يتقاطع هذا الطرح مع أفكار الحركة الماسونية التي وضعت الأديان تحت فهم الإنسانية والإخاء والمساواة. وأين تضع الآية الكريمة ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران، الآية 19)؟

ـ رأس الإسلام أن تشهد ن لا إله إلا الله ورأس الإيمان أن تشهد بأن محمداً رسول الله، هذا أولاً. أما أن يتقاطع طرحي مع الحركة الماسونية أو غيرها هذا لا يهمني. أنا أقول لأتباع محمد عليكم أن تتعاملوا مع العالم على مستويين، فإذا قلت: إن أركان الإسلام في الشهادتين فمعنى ذلك أنني أرسلت 4000 مليون إنسان إلى النار مهما فعلوا، وأنا أتوجه بالسؤال لك، ألا يوجد في 4000 مليون شخص حسن. هنا أصبح إلهنا مثل «يهودا» أنا أقول بأن الله رب السماوات والأرض جميعاً فليؤمنوا به وليؤمنوا باليوم الآخر وليؤمنوا بالمثل العليا. أما الإضافات هذه فهي خاصة بأتباعِ محمد لها أبعاد خاصة.

* لما كنت تؤمن بأن آيات العلوم والنبوءات وأوائل أحرف السور وقصص الأنبياء هي القرآن، فماذا تعتبر الآيات الأخرى الخاصة بالتشريع: أليست هي قوانين اجتماعية من مصدر إلهي سماها الإسلام (تشريعاً)، وهل تستثنيها من القرآن لتقول إنها متغيرة ويمكن تعديلها وإلغاؤها.. أليس ذلك مقدمة لإلغاء التشريع الإسلامي الذي هو بالأصل هدف الرسالة؟

ـ أنا قلت: إن القرآن من أول الفاتحة إلى سورة الناس موحى من الله ويحتوي على جانبين، الجانب الأول هو الجانب الذاتي أما الثاني فهو موضوعي. القرآن حوى قوانين الوجود الموضوعي والكوني والتاريخي، والأحكام حوت قوانين السلوك العادي. لذا فإن هذه الأحكام ميزت بين الحرام والحلال في السلوك، والقرآن ميّز بين الحق والباطل في الوجود وشتان ما بينهما. والقرآن هو نبوءته والأحكام هي رسالته فكتاب الله جمع النبوءة والرسالة معاً. أما أن أقول: إن الرسالة قابلة للتحوير والتزوير فهذا نعم، يعني يمكن للإنسان أن يتلاعب بها أو يقول: إنَّها من الإنسان. لهذا جاءت الأحكام وجاء القرآن مصدقاً لهذه الأحكام على أنها من عند الله.

* ولكنك قلت في حديثك السابق بأن القرآن خالد وصادق، وأنّنا نحتاج لتفسيره إلى علوم مساعدة. طبعاً هذه الأحكام هي من القرآن وتحتاج حسب تحليلك إلى تأويل بالعلوم المساعدة حتى تتناسب مع تغيير الأحوال.. كيف تفسر ذلك؟

ـ أقول: إنه يتوجب علينا أولاً أن نميز بين أمرين: كلام الله وكلمات الله. الوجود هو كلمات الله وهو لا يتحول، لذلك قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ (الكهف، الآية 27). ولكن اليهود حرفوا كلام الله ولم يحرفوا كلمات الله لأنها لا تحرّف لأنه الوجود نفسه. لهذا قلت: إن الأحكام قابلة للتحريف لأن الخبر يكون كاذباً في حالة التحريف.

* هذا قد يؤكد كلام المتابعين لكتاباتك، وهو أن القرآن هو الشاهد على الناس لا العكس؟

ـ هنا توجد مسألة: إن معظم آيات القرآن التي نزلت بمكة آمن الناس بها تسليماً أكثر مما آمنوا بها تصديقاً، لذا سماهم الصديقين أي صدقوا رسول الله وسلموا به. أما ما

هي مهمة الناس بعد رسول الله، هنا أقول: إنّ أي كتاب ديني لا يعتبر دليلاً علمياً بل هو دليل إيماني. والمطلوب من أتباعِ محمد بالذات تقديم البينات العلمية على مصداقية كتاب الله. هذا هو المطلوب منا نحن.

* لك تفسير مغاير عن علاقة الإسلام بالسياسة حيث قلت بأن الإسلام غير قابل للتسييس كما أن السياسة غير قابلة للأسلمة. ما موقفك بوضوح من علاقة الإسلام بالسياسة وما هو ردك على مفهوم الدولة الإسلامية؟

ـ أولاً تعريف السياسة بالنسبة لي هي: «فن إدارة المصالح المتنازعة». وتتضح المسألة أكثر إذا أخذنا بعين الاعتبار هذا المفهوم وطرحنا السؤال التالي: لماذا سمي عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وسمي بيتُ المال ببيت مال المسلمين؟ هنا نضع أيدينا على نقطة جوهرية وهي أن أمير المؤمنين له بعد سياسي أما بيت المال فله بعد إنساني، فالإسلام كميثاق ومثل عليا لا يسيس لأنه ميثاق إنساني. فإذا كان النرويجي مثلاً يؤمن بالمثل الإسلامية والسوري هنا يؤمن بها فهل يعني هذا أن يكون النرويجي والسوري في دولة واحدة؟ أقول لك باختصار الإسلام إنساني أما الدولة فقيامها سياسي. والإسلام مثل إنسانية عليا لا يمكن لأي مجتمع أن يستغني عنها في دولة كبيرة أو صغيرة، ولهذا لا وجود لشيء اسمه «دولة إسلامية» لأن الإيمان بالله واليوم الآخر أكبر من الدولة. أما مصطلح الأمة الإسلامية فهو مصطلح تاريخي. أما الدولة العربية التي سميت تاريخياً باسم الإسلامية فقد كان ذلك لأسباب سياسية بحتة.

* لكن مجتمع المدينة يعتبر لدى كثير من المتابعين نموذجاً للدولة الإسلامية التي تستند إلى مرجعية إسلامية؟

ـ هي دولة إيمانية قامت بين المؤمنين الذين يحملون بعداً سياسياً. أما لماذا سميت دولة إسلامية لدى الباحثين فهذا يعود إلى مؤرخينا. لكن النبي (ص) عندما سيس المجتمع كان أتباعه مؤمنين. فمن هذه الناحية يكون محمد قد أسس حزباً في المدينة هو رئيسه وأتباعه من المؤمنين به. فالذين أسسوا الدولة العربية هم المؤمنون، يعني أن السلطة السياسية لهم. ومن الناحية الاقتصادية يدفع المؤمنون في هذه الدولة صدقات. أما المسيحيون فيدفعون الجزئة، ولهذا سمي بيت المال ببيت مال المسلمين.

* وكيف تفسر الآية الكريمة ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء، الآية 59)؟

ـ هنا يتحدث الرسول كمؤسس دولة لأنه لو كانت الطاعة لله والرسول مع بعض لا يقول وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول، كان يقول وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم. هنا طاعة الله شيء. طاعة الرسول شيء. طاعة الرسول كطاعة أولي الأمر وهنا يأتي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر، الآية 7). ولهذا قلت بأن الأسوة الحسنة للرسول هي البرلمانات، لأن البرلمانات لا يمكن لها أن تخضع للتصويت ما حرم الله حيث لا يوجد برلمان يصوت على شهادة الزور أو قتل النفس. وهنا أيضاً دمج أولي الأمر بطاعة منفصلة ولكن خلال تاريخنا أصبحت طاعة أولي الأمر مثل طاعة الله، فقد دمجوهم مع بعض، بينما هي طاعة منفصلة تماماً، أما فيما يتعلق بأمور ثانية فيقول وأطيعوا الله والرسول في شعائر الإيمان.

* إذا اعتبرنا أن الإسلام ميثاق وأردنا انتخاب رئيس دولة، فهل يصح أخذ هذا الميثاق كخلفية لهذا الانتخاب، وهل يصح أيضاً أخذه كخلفية لاستنباط دستور يمكن تسميته بالدستور، ولهذا كانت الخلافة العثمانية تسمى خلافة إسلامية؟

ـ هذا سياق تاريخي. أما الذي أفعله فإنني اعتبر أن الإسلام ميثاق إنساني صالح للنرويج والأردن.

* هل هو صالح لاستنباط دستور أم لا؟

ـ لا.. الدستور عقد.

* هل هو صالح لأن يكون مصدراً لهذا العقد؟

ـ العقد لا يخالف الميثاق، ولهذا تلاحظ معي مثلاً هنا في سوريا ميثاق الجبهة الوطنية التقدمية الذي هو غير الدستور. الميثاق هو مرجعية للكل. ولهذا فالإسلام ليس عقداً بين الله والناس، بل هو ميثاق والإيمان كذلك ميثاق بين الله والناس. لكن لنأخذ المثل العليا الإسلامية التي هي لكل الناس وليس للعرب فقط، ولنأخذ شعائر الإيمان التي هي الصلاة والزكاة والصوم والحج، هذه لا يمكن أن تنبني عليها دولة لأن الصوم

لا يبحث في مجالس التشريع والزكاة لا تبحث في مجالس التشريع والحج أيضاً، والسياسة لا تدخل فيها وهي لم تدخل إلى هذه الشعائر أصلاً. يعني كل الخلافات التي كانت في الدولة العربية الإسلامية كانت خلافات سياسية لا علاقة لها بميثاق الإسلام ولا على شعائر الإيمان. وسآخذ لك مثالاً معاصراً لمثل هذه الأعمال: في الجزائر توجد رشوة، ويوجد قضاء غير عادل، فلماذا لا يطرح الإسلاميون مسألة القضاء العادل ومكافحة الفساد بدلاً من حجاب المرأة مثلاً.

* على ذكرك لحجاب المرأة، هل لك وجهة نظر مختلفة في هذا الموضوع؟

ـ أنا هنا واقعي جداً. حيث أعتقد أن الرسول (ص) كان يعيش في مجتمع عربي له كل أبعاده السياسية والاقتصادية والبيئية. تعامل مع هذا المجتمع كما هو عليه. وإنَّني أتساءل عن لباس خديجة بنت خويلد عندما تزوجها الرسول (ص) قبل أن يبعث. هل كانت عارية؟ هل هناك من الشعراء العرب من وصف المرأة تسبح رغم أنهم قريبون من البحر الأحمر؟ هنا ولمعرفة لباس المرأة في الجاهلية لابد من معرفة البيئة ومستوى صناعة الأقمشة كيف كانت والمستوى البيئي الحار. وهذا يعني أن المرأة كانت تلبس لباساً طويلاً دون ألبسة داخلية، وتجد صدر لباسها مفتوحاً، وهذا لا يزال موجوداً في البوادي السورية إلى الآن. وكانت تغطي رأسها من الشمس، فلما قال القرآن لهم ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور، الآية 31) صدرها. وهذا يعني الجيوب حسب رأي المحللين وقتها. لكن الإسلام الذي هو لكل الناس لا يفرض اللباس البدوي. فأنا أعتبر بأن التعصب للحجاب هو تعصب للعروبة في القرن السابع الميلادي.

* طيب ما هو الحجاب الإسلامي عندك؟

ـ طرحي أنا يتمثل في أن للمرأة زينتين: واحدة مخفية وأخرى ظاهرة. الزينة المخفية هي التي يمكن أن تريها إلى زوجها ووالدها وابنها وأخوها ووالد زوجها وابن أخيها وابن أختها فقط. أما ما عدا ذلك فهو زينة ظاهرة وقد أخذت بنظرية الحدود، أي لديّ حد أدنى من اللباس لا يمكن للمرأة أن تنزل عنه والذي هو إخفاء الجيوب. وقال: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ (النور، الآية 31). واستثنى المحارم. ولذلك

عندما يرى الأب ابنته عارية عَرَضاً يقول لها عيب ولا يقول لها حرام. ليس معنى هذا أن تجلس البنت عارية أمام والدها، ولكن إذا رآها عارية عرضاً فهذا من باب التحرج وليس من باب الحرام. ولهذا فإن هذا الذي يقال عنه حجاب هو لباس المرأة العربية في القرن السابع، وإذا قيل: إنه من باب العادات فأنا أحيي هذه العادة. أما من باب الحرام أو الحلال فأقول كلا.

* هل اطلعت على الردود التي كتبت على طروحاتك هذه التي قدمتها في كتبك، وما هو تقييمك لها؟

ـ نعم، كل هذه الردود انطلقت من منطلق مشترك وأقول إنها عاجزة لأنها انطلقت من إقرارها بالترادف حيث لا يوجد رد واحد يقر بعدم الترادف وعارضني في رأي معين. ولكنهم جميعاً، وأقصد هنا علماء المسلمين، يقولون بأن لا وجود للترادف في القرآن ومع ذلك لا يلتزمون به. أما أنا فأقبل الترادف في الشعر لكن لا أقبله في كتاب الله.

* هل أطلعت على كتاباتك المفكر المغربيّ محمد عابد الجابري، وماذا تقول فيها؟

ـ الحقيقة أنه جهد مهم يشكر عليه. وفعلاً إنه ميز بين العقل البياني والعقل العرفاني والعقل البرهاني، أبدع حقّاً ويعتبر من الكتّاب العرب المعاصرين الذين كشفوا بنية العقل العربي وخاصة منه السياسي في الغنيمة والقبيلة والعقيدة، تحليله جيد ورائد ويعتبر من رواد الفكر العربي المعاصر.

19/ 5/ 1997م

الرد/د. منير الشواف (للمستقلة)

إن أدبيات الدكتور شحرور التي طرحها في حواره مع المستقلة يمكن حصرها من خلال الأسس التي أقام عليها تصوراته وهي الماركسية وابن عربي، والعلاقة بين منطلقات هذين الفكرين والدكتور شحرور، وما نتج من تفاعلات من جراء المزاوجة غير الشرعية بين هذين الفكرين، التي أدت إلى أفكار فرعية، أسماها صاحبها قراءة معاصرة، سواءً في العقائد أو الأحكام الشرعية، وأحب أن أبدأ بمفهوم المعاصرة.

أولاً: المعاصرة:

إن العصر بما فيه الإنسان والزمان والمكان ووسائل الإنتاج لا قيمة لها ولا وزن في مسائل التشريع أي لا قيمة للواقع المادي عندما يبحث المفكر بإيجاد حلول لمشاكل الناس أفراداً أو مجتمعات. فإنسان العصر الحجري الذي عاش في الكهوف والأدغال واستخدام النار والفأس كإنسان القرن العشرين الذي يعيش في ناطحات السحاب في نيويورك أو في مجاهل سيبيريا أو بلاد الأسكيمو، أو في مكة المكرمة، لا يختلفون في شيء من حيث الغرائز أو الفطرة، فكل إنسان عنده غريزة حب البقاء بمظاهرها المتعددة، حب التملك والقيادة والريادة والسيطرة.. وغريزة النوع بمظاهرها المتعددة، الجنس والحنان والعطف والخؤولة والعمومة.... وغريزة التقديس بمظاهرها العبادة والاحترام والتوقير والطاعة... ولا يستطيع مفكر أو عالم اجتماع أو عالم نفس أن ينكر وجود هذه الغرائز بمظاهرها عند الإنسان.

إن جميع مشاكل الإنسان والمجتمعات راجعٌ إلى هذه الغرائز الثابتة، فإما أن نترك الإنسان يشبع غرائزه على الطريقة الحيوانية وذلك بأن يستمد نظام الإشباعات من الواقع المادي والحاجات كما هو حال الحيوان، أو يحترم عقل الإنسان باعتباره الطاقة المخلوقة الوحيدة العاقلة على هذه الأرض، لأن نعمة العقل هي التي فضل الله بها الإنسان على كافة مخلوقاته، فينضبط الإنسان بنظام لإشباعات غرائزه سواء من حيث الحكم والاقتصاد والاجتماع. وعلى اعتبار أن من يؤمن بوجود خالق للإنسان قدر له غرائزه

وحاجاته كما هو حال المحاور، لابد أن يؤمن بأنه لن يتركه يشبع غرائزه بطريقة الحيوان الذي لم يعطِهِ نعمة العقل والتفكير. وإلا كان ذلك ظلماً من الله سبحانه وتعالى لهذا المخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كثيراً. إن أدعياء المعاصرة خلطوا بين مفاهيم الحضارة ومفاهيم المدنيّة. إن مفاهيم الحضارة تعني وجهة نظر عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها، أما المدنيّة فهي الوسائل التي تساعد على جعل الحياة أرقى وأسهل.

إن معالجات مشاكل الحياة للإنسان والمجتمعات هي مفاهيم حضارية، فكل إنسان يحب السيادة والتملك ويرغب بإشباع الميل الجنسي، فما علاقة العصر والعصرنة في إشباع الغرائز. فالميل الجنسي ممكن إشباعه بالزنا أو اللواط أو الحيوان، أو وسائل أخرى، أي يمكن إشباعه بطرق صحيحة أو شاذة أو خاطئة. فما علاقة كيفية الإشباع وهي مفهوم حضاري، بالوسائل التي تساعد على الإشباع، وهي من مفرزات العصر بما فيها العلوم والتكنولوجيا، التي من المفروض أن العقل الإنساني أوجدها لتساعد على سعادة البشر وليس على شقائهم. بناء على ذلك أقول أن لا علاقة للعصر ولا للزمان والمكان ووسائل الإنتاج بالمفاهيم الحضارية التي تنظم علاقة الناس والشعوب. فمثلاً الأرض تمنحها الدولة لمن يعمل بها ويستمر على ذلك سواءً أكان ذلك في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام أو في القرن العشرين وهذا مفهوم حضاري مأخوذ من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام (من كان له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وليس لمحتجر بعد ثلاث). وإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استرد أرض بلال المزني رضي الله عنه لأنه لم يقو على زراعتها ويستمر في ذلك، علماً أن الرسول بوصفه قائداً وليس بوصفه نبياً ورسولاً أقطعه تلك الأرض. فمثلاً الإسلام يفتت الثروة ويوزعها توزيعاً عادلاً ويضرب على الاحتكار والغش والرشوة. وذلك بأدلة شرعية من كتاب الله أو سنة رسوله، ولا قيمة لتطور وسائل الإنتاج أو للتسلط الرأسمالي أو البروليتاري، فتطبق هذه الأنظمة لأنها من الوحي وليس لأنها مستمدة من الواقع، أو إن الحاجة والعلم أو الضرورة دعت إليها، سواءً أكان ذلك زمن البعثة أو في أي عصر، فهي مفاهيم حضارية يقوم عليها المجتمع في كل زمان ومكان. إن الوسائل المدنية من عمران وأبحاث وعلوم وتكنولوجيا هي التي ينطبق عليها

مصطلح العصر والمعاصرة. فعلى المسلم أن يكون سباقاً لكل المجتمعات التي تعيش على وجه الكرة الأرضية في هذه الأمور بالطريقة العلمية التجريبية التي تقتضي الملاحظة والتجربة والاستنتاج من خلال علماء الطبيعيات والفيزياء والكيمياء حتى تتحقق للأمة السيادة والريادة على العالم، وهذا ليس له علاقة بالحضارة التي تنظم مشاكل الإنسان الغريزية.

إن من سموا أنفسهم مفكرين معاصرين قد خلطوا هذا الخلط الرهيب بين الحضارة والمدنيَّة فضاعوا وضيعوا الناس، بحسن أو بسوء نية، افهموا الناس أن سبب تخلفهم هي المفاهيم الحضارية التي انبثقت عن كتاب الله وسنة رسوله (الوحي)، علماً أن شعوبنا العربية والإسلامية أخذت المفاهيم الحضارية الغربية منذ أكثر من مائة سنة ولكنها لم تفلح حتى الآن في مجال المدنية التي تقوم على العلوم (التكنولوجيا) وما زلنا مصنفين مع العالم الثالث. واليهود الغارقون بالرجعية والمفاهيم التوراتية المتحجرة (كمفاهيم حضارية) قد تقدموا علمياً وأصبحوا من المجتمعات القوية والمؤثرة. فلماذا المفكرون المعاصرون لا يميِّزون بين الحضارة والمدنية بالنسبة إلى نهضة شعوبهم. ومن يمنعنا من النهوض منذ مائة سنة إلى الآن وقد أصبحنا علمانيين متنورين، والمعاصرة تكون في الأساليب والوسائل، وتسخير طاقات الأمة المادية من أجل النهوض، كما فعلت اليابان وأوربا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي قبل أن يصبح معاصراً في المرحلة (الجورباتشوفية) التي أودت به إلى الانحلال والدمار.

إن المعاصرة ليس لها علاقة بالزمان أو المكان أو الوسائل، وفي كل وقت يتم فيه الخروج عن الفكر الأساسي والدستور التي ارتضته الأمة لنفسها من أجل الواقع، أسمي هذا الخروج معاصرة، لأن المفكر والقائد جعل العصر والواقع يملي عليه أفكاره وسلوكه من الوجهة الحضارية. فكان فكرة انعكاس للمادة على الدماغ أو انعكاس الواقع على الواقع، مثلاً إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما ارتأى أن لا يلزم أبو بكر رضي الله عنه الناس في قتال المرتدين، كان معاصراً في هذا الرأي لأنه استمده من الواقع وليس من الوحي، فالوحي يفرض على رئيس الدولة تأديب من يخرج على أحكام الدستور إلا أن

عمر رضي الله عنه وجد الواقع صعباً فالجزيرة العربية بكاملها ارتدت ما عدا المدينة ومكة، ولو أن أبا بكر أخذ برأي عمر لانتهى الإسلام منذ ذلك الوقت. والبشر بن سعد كان معاصراً في تفكيره عندما قال في سقيفة بني ساعدة (منا أمير ومنكم أمير) ولو أخذ المسلمون برأيه لتفككت الدولة وتشرذم حال المسلمين من قبل الدولة العباسية والدول المتتابعة، لكن المسلمين تمسكوا بالوحي ورفضوا تعدد الأمراء وتعدد الدول. ورفضوا أن يصل الحاكم إلى السلطات إلا عن طريق الانتخاب برضى واختيار، فخرج أبو بكر من السقيفة وسار معه أكثرية الناس. ولم يطل الحال حتى وجدت مفاهيم المعاصرة مرة أخرى، ورضي الناس بخلافة يزيد من أجل الواقع، وانساق أكثرهم مع العصر ولم تتمسك الأمة بالنص (الوحي) الذي يعطيها حق أن تبايع من تريد برضى واختيار ودخل المسلمون مرحلة السلطان المتغلب بمفهوم العصر. ولو أن تشرشل كان معاصراً لرضخ لطلبات هتلر ولتغير وجه العالم منذ ذلك الوقت. ولو أن لينين كان معاصراً وساير الآراء الخارجة عن الفكر الماركسي الأساسي لانتهت الدولة البلشفية منذ تأسيسها.

إذن الواقع ليس مصدراً للتفكير بل هم موضع للتفكير عند القادة المبدئيِّين، وكافة الدول الكبرى انقرضت عندما وصل المتأولون المعاصرون اللذين يخلطون بين الحق والباطل والطهارة والنجاسة. ولكن هذه حال الدنيا فهي دول فلا بد من وجود معاصرين في كل زمان ومكان حتى يكونوا مسؤولين عن تدمير دولهم وشعوبهم.

ثانياً: المحاور وابن عربي:

يزعم المحاور أن لا علاقة بينه وبين من يسميه (الكبريت الأحمر) ابن عربي، وأن ابن عربي غارق في الظلام والظلامية، فهو رجل الشطحات والخيالات، أما المحاور فهو رجل البينات والوقائع والعلم والقوانين، فهل هذا صحيح.

إن إنكار المحاور أنه استلهم نظرته لحال المسلمين منذ البعثة وحتى الآن من ابن عربي في مثاله عن المرآة المعكوسة التي ترى الناظر أن اليمين يسار أو اليسار يمين ليس بصحيح، فالمحاور مريد لابن عربي منذ الستينات وهو القائل في جلسة خاصة في الرياض وبوجودي مع أربعة أشخاص آخرين ما زالوا أحياء (لو اتَّبعَ المسلمون أفكار ابن عربي

لاخترعوا الصاروخ ووصلوا إلى الفضاء قبل الغربيين والشرقيين). أما مثال المحاور عن المرآة المعكوسة فقد أخذه من كتاب الفتوحات لابن عربي 3/ 456، ولقد ساقه ابن عربي في نفس السياق الذي أتي به المحاور. (فلسفة التأويل د. نصر حامد أبو زيد).

أما قول المحاور بعد أن أنكر معرفته بفكر ابن عربي، بأنه يختلف عن ابن عربي بأن فكر ابن عربي يقوم على ثنائية هي الله والإنسان فقط، أما هو فتقوم رؤيته على ثلاثية (الله والإنسان والوجود) فهذا يدل على أن المحاور دارس لأفكار ابن عربي وحافظٌ لها، ولكنه ليس دقيقاً، لأني سأسوق للقارئ ما يقوله ابن عربي بهذا الخصوص ليتأكد أن المحاور ناقل لأفكار ابن عربي ولكن بأسلوب يجعله يظهر بأنه علمي وعلماني وواقعي، وليس مغرقاً في الظلام والظلامية والخيال كابن عربي. ولنشهد بعض ما يقوله ابن عربي بهذا الخصوص.

الوجود والعدم عبارتان عن إثبات الشيء أو نفيه (إنشاء الدوائر 6 ـ 7) إن الاستغناء والافتقار هي علاقة الإله بالمألوه. إن التقابل والتضاد بين صفتي الاستغناء والافتقار هو القطب الجاذب لمجموعة العلاقات التي تستهدف التوسط بين هذين النقيضين

ـ القرآن هو الوجود، وهو كلمات الله المرقومة، وهو الإنسان (الفتوحات).

ـ والقرآن كذلك، قديم من حيث إنّه العلم الإلهي القديم، محدث من حيث نزوله على قلوب العارفين وعلى ألسنتهم فكلام الله له الحدوث والقدم فله عموم الصفة.

ـ إن القرآن بالنسبة للصوفي والنبي خال من الألغاز والرمزية، ولكن بالنسبة للإنسان العادي مجموعة من الرموز التي قد تفهم بمستويات عديدة من الفهم، النبي وحده وكذلك العارف قادر على إدراك تعدد المستويات وترابطها بحكم تجربته المعرفية التي حلت له شفرة الوجود ومكنته من حل شفرة النص، فصار قادراً على فهمه بتعدد مستوياته واختلافها. والصوفي يبدأ بالنص متحققاً بظاهره فيكشف له عن حقيقة الوجود، فيعود للنص مرة أخرى، وكلما تعمق الصوفي في معراجه تكشَّفتْ له أعماق النص ومستوياته، حتى يسمع القرآن من الوجود، ويرى الوجود من النص.

ـ إن العلاقة بين العبارة والإشارة ، هي العلاقة بين الظاهر والباطن فظاهر العبارة هو ما تدل عليه من حيث وضعية اللغة، والإشارة هي باطنها من حيث لغة إلهية (الفتوحات).

ـ الفقهاء لم يفقهوا من القرآن الكريم إلا النص، ولم يفقهوا إشارة النصوص ولأنهم لم يصلوا إلى مستوى المتصوفة في الفهم، فكان المتصوفة يخشون غضبة الفقهاء، واتهامهم بالزندقة والإلحاد والكفر، ولذلك كانوا يسترون معارفهم، حتى لا يفهموا بذلك.

ـ إني أتستر على علوم القرآن وكنوزه خوفاً على عقول الناس التي لا تتحمل هذه العلوم.

وينقل ابن عربي أقوالاً بهذا الخصوص منسوبة لأبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

أبو هريرة (لو بثثته لقطع مني هذا البلعوم).

ابن عباس (لو نشرته لكنت فيكم الكافر المرجوم).

ـ الصوفي يصل إلى العلم بفهم القرآن ـ انطباق الوجود مع الفهم = العلم

ـ الفقيه يصل إلى الفهم

ـ الصوفي يرقى من الظاهر إلى الباطن، حتى تتحد شخصية الصوفي بشخصية الرسول عليه الصلاة والسلام.

ـ إن الصوفي يستغل كل الإمكانيات المرتبطة بالبعد الصوفي لحروف اللغة في نظامه التأويلي وذلك لتأكيد تصوره الوجودي والمعرفي على السواء.

ـ إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله وقد اختص نفسه به، وقد يمكن أن يعلمه الله من يشاء من خلقه بأي وجه شاء أن يعلمه.

يتضح مما ذكرنا أعلاه منقولاً عن ابن عربي، أنه لا صحة لما ذكره المحاور، بأن فكر ابن عربي يقوم على الثنائية (الله والإنسان) بينما فكر المحاور يقوم على الثلاثية (الله والإنسان والوجود) لأن الوجود عند ابن عربي صور الله سبحانه وتعالى سواءً أكانت هذه الصور في الكون أو الإنسان أو الحياة، فابن عربي يعترف بالوجود ويعتبره مصدراً لإلهامه الرباني، بما في هذا الوجود من قوانين وإعجاز، فهذا الوجود هو الملهم للإنسان ليصل إلى

الله الذي حل في هذا الوجود كصور معبرة عن ذاته. أي إنَّ الخلاف في هذه النقطة بين ابن عربي والمحاور هو خلاف في التلحين والتوزيع والإخراج كما يقولون، وليس خلافاً في الأصل.

وبدراسة نصوص ابن عربي المذكورة آنفاً نرى أن كل الذي قام به المحاور هو تقمصه شخصية العالم العلماني المتنور الذي لا يقبل إلا بالبينات المادية والإثباتات الجدلية، فحول شخصية (الصوفي، الولي، العارف) الغارق في الظلام والظلامية إلى شخصية العالم عندما بحث له عن إثباتات لنظرياته في القواعد الماركسية التي تقوم على (العقل والواقع)، وترجم المحاور كلام ابن عربي في الفتوحات (الصوفي العارف هو الذي يفك أسرار القرآن ويحل رموزه ويدرك وجه دلالته بين الحق والخلق، وذلك من خلال تجربة الصوفي التي تبدأ على مستوى الوجود والنص معاً)، وهذا ما قام به محاورنا العتيد، عندما حاول أن يسبغ على شطحات ابن عربي الصورة العلمانية والعقلانية فزاوجَ بين الماركسية الواقعية وخيالات ابن عربي فأخذ فكرة الإثبات والنقض والتضاد من ابن عربي وبحث على اسس لها في واقعيات الماركسية.

أما قول المحاور بأن هيجل هو الذي اكتشف قوانين الجدل وليس عبد السميع أو عبد الباسط، فهذا ليس بصحيح أيضاً. لأن هيجل لم يكتشف قوانين الجدل، وأول من تكلم بها واكتشفها اليونانيون، وهم الذين حددوا معنى الجدل ومعنى التناقض في الأشياء والحوادث، وإن كلمة (ديالغو) ــ ديالكتيك) ــ هي كلمة يونانية استعملها الفيلسوف اليوناني (هيراقليط) وقال بأن (الكون شعلة أزلية لا ينطفئ أوراها)، وإن فلسفة ابن عربي تقوم على ترجمات كتب فلاسفة اليونان، وإن ابن عربي وهجيل وماركس وجميع الفلاسفة الذين بحثوا بالوجود وعلاقته بالطبيعة والقوانين، جميعاً عالة على فلاسفة اليونان، وما قام به هيجل وماركس وغيرهم، بأنهم حولوا خيالات اليونان إلى وقائع، كما يحاول المحاور تحويل خيالات ابن عربي إلى وقائع.

أما أفكار الكاتب الأساسية في الإنزال والتنزيل والتأويل والقدر، والمشيئة والإرادة واللوح المحفوظ والكتاب المكنون والإمام المبين والألوهية والربوبية على سبيل

المثال لا الحصر، فقد خلط فيها المحاور بين فهم ابن عربي لقوانين الوجود الصارمة وطروحات المعتزلة العقلانية التي اشتقوها بدورهم من الفلسفة اليونانية في مواضيع الجبر والاختيار عندما قاموا بترجمة الفلسفة (الأبيقورية والرواقية) للرد على القدريين والجبريين وفي صراعهم الطويل مع الأشاعرة عندما أصبحت عقيدتهم عقيدة أهل السنة.

وهذه مواضيع طويلة بحثتها بالتفصيل في ردي على المحاور والمعاصرين في كتاباتي تهافت القراءة المعاصرة وتهافت الدراسات المعاصرة. وبشكل عام فإن الكاتب فتن بفكر ابن عربي بشكل مبكر من حياته، ودرس الماركسية بعد ذلك وجهد لاقتباس ما راق له من أفكار ابن عربي ليحولها إلى علوم وقوانين، وقلد ابن عربي في معراجه ليحل ما أسماه رموز القرآن لكن بالطريقة العلمية كما يتصور، ومن منطلق ابن عربي بأن الديانات والطقوس والعبادات تؤدي إلى الله، فتلبسه شيطان العارف الصوفي بلباس يوناني علماني هيجلي ماركسي، عن طريق تصنيفه للفرقان إلى عام وخاص فخلط بين الديانات جميعاً على طريقة (السلَطَة)، متمثلاً قول ابن عربي:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني

توصَّلَ ابن عربي من جراء ذلك إلى أن رحمة الله وسعت كل شيء، وأن كل المخلوقات الإنسانية ستدخل الجنة، أو يحول لها الله النار إلى عذاب خفيف كحكة الأجرب. أما كاتبنا العتيد فقد وصل إلى الفكر الماسوني الحديث في توحيد كافة الأديان والمعتقدات، تحت ظل الرأسمالية الغربية التي تستخدم المسجد والكنيسة والكنيس من أجل مصالحها في السيطرة على الشعوب.

ثالثاً: السنة والشرك والمحاور:

المحاور يؤمن بأن السنة النبوية هي تفاعل تاريخي بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين عصره في القرن السابع الميلادي، أي إنّها بصريح العبارة ليست وحياً من

الله سبحانه وتعالى إلى رسوله ونبيه. وأن من يؤمن بأن الرسول أوحي إليه غير القرآن قد أشرك بالله سبحانه وتعالى.

بموجب فهم المحاور مسلمو اليوم جميعاً مشركون لأنهم أشركوا مع وحي الله وهو (القرآن) وحياً آخر وهو سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، كما أن الذي لا يؤمن عن طريق ما أسماه البينات المادية لن يكون في عداد أئمة المتقين وربما يكون من المتقين لأنهم من أئمة العلم المادي، أمثال (أديسون وإسحاق ونيوتن) وغيرهم.

بناءً على ذلك يكون المحاور قد أخرج أهل الأرض جميعاً من دائرة الإيمان والإسلام كما يفهمها إلى دائرة الشرك باستثناء من آمن بالبينات المادية، فالمسلمون منذ البعثة النبوية وحتى الآن يؤمنون بأن الرسول أوحي إليه القرآن ومثله معه وهي (السنة النبوية) فهم إذن مشركون لهذا السبب، وهم مشركون بسبب آخر لأنهم ليسوا من أهل العلم المادي، والنصارى (المسيحيون) مشركون لأنهم آمنوا بأن المسيح هو الله أو ابنه أو روحه، أي مزجوا بين اللاهوت والناسوت على الأقل فهم جميعاً مشركون. والبوذيون والبرهميون مشركون أيضاً لأنهم جسدوا الآلهة وأشركوها مع الله سبحانه وتعالى، والماركسيون مشركون لأنهم آمنوا بأن المادة (الطبيعة) هي ذاتية فأشركوها مع الله سبحانه وتعالى. واليهود مشركون لأنهم آمنوا بالعزير شريكاً مع الله، وهم رجعيون ليس عندهم أي إثباتات مادية أيضاً، والمحاور ومريدوه لن يدخلوا الجنة لأنهم أشركوا مع الله عندما اعتقدوا بأن الرسول أوحي إليه غير القرآن في العبادات عندما صلوا كما صلى الرسول عليه الصلاة والسلام (صلوا كما رأيتموني أصلي) وممكن أن يدخلوا الجنة إذا غيروا الصلاة ولم يثبتوها، واعتبروا الرسول مجتهداً فيها، أو حجوا بالطريقة المعاصرة التي يرونها ولم يأخذوا بحديث الرسول (خذوا عني مناسككم..) فثبتوا ذلك إلى يوم القيامة ودخلوا بالشرك. وعليهم أن يجدوا طريقاً للخلاص لهم من هذه الورطة حتى يكونوا متقين أو من أئمة المتقين ويأخذوا جنة الله على حسابهم الخاص، فكل أهل الأرض لا يستحقونها.

المحاور حاول ابتداء أن يدخل الناس جميعاً في دائرة الإيمان ليستقطبهم حول فكرة عامة تجمعهم في الدنيا بسعادة وفي الآخرة بالجنة سواءً أكانوا من المتقين أو أئمة للمتقين،

ثم عاد إلى خيالات ابن عربي ومعراجه الصوفي فأدخلهم جميعاً إلى جهنم لأنهم مشركون على اعتبار أن جهنم ابن عربي ربما تتحول إلى جنة ويحول العذاب إلى سرور باعتبار أن الله رحيم بعباده.

وهذا يذكرني بما نسب إلى ابن عربي من أنه كان مريضاً بالحرارة بشكل مستمر وكتب كتاباته وهو في حالة الهذيان والوجد، وأنا لا أستغرب في هذا القرن من يحول هذيان ابن عربي إلى وقائع في الحياة، هذا إن دل إنما يدل على انحطاط المستوى الفكري لهذه الأمة، وإنها كما قالوا عنها لا تقرأ.

إن المحاور يؤمن بأن القرآن (المصحف) من الفاتحة إلى سورة الناس هو وحي من الله سبحانه وتعالى، ولذلك يحق لنا أن نحتج عليه بالقرآن. وأريد من القارئ أن يتمعن هذه الآيات التي لا ينكرها المحاور، وهي في معنى الطاعة والأسوة الحسنة والاتّباع.

معنى الطاعة في اللغة:

يقال في اللغة طاع وأطاع، بمعنى سمع ورضخ ونفذ وأذعن وتابع واتبع، فالمطيع هو الذي ينفذ الأمر على وجهه بانضباط ودقة كما هي رغبة الآمر، وكل هذه المدلولات توحيها كلمة أطاع. فالطاعة ضد العصيان ومنها المعصية، وكل هذه المعاني مستوحاة من قوله:

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ (المائدة 30).

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ (آل عمران 168).

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف 54).

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾ (المؤمنون 34).

﴿ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (البقرة 285).

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (النساء 46).

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ (الأحزاب 67).

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب 48).

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ (القلم 8-9).

معنى طاعة الرسول:

إن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام ومدلول هذه الطاعة أيضاً يفهم من واقع اللغة العربية التي حددها لنا القرآن في معنى الطاعة لغة ولنستعرض الآيات المتعلقة بهذا الخصوص.

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (النساء 80).

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور 51).

﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ﴾ (الحجرات 14).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (النساء 13).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (النور 52).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب 71).

﴿ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (التوبة 71).

﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ (الأحزاب 33).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ (الأنفال 1).

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (الأنفال 20).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ (الأنفال 46).

﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ (المجادلة 13).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ (النساء 69).

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران 32).

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ (النور 54).

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النور 56).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ (محمد 33).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (التغابن 12).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ (الشعراء 150-151).

﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ (النور 54).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ﴾ (طه 90).

﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴾ (الشعراء 106-107).

﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء 109-110).

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (الشعراء 131-132).

﴿ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء 162-163).

﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الزخرف 63).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ (النساء 64).

إن هذه الآيات السالفة دليل قطعي الثبوت والدلالة على أن طاعتنا للرسول هي طاعة لله سبحانه وتعالى لأن هذه الطاعة متلقاة بالوحي. وهي طاعة للرسول في حياته وبعد مماته، فهي طاعة لا تتوقف على حياة النذير والمبلغ. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞۖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران 144).

فالسنة وحي من الله سبحانه وتعالى. غير أن الوحي إنما هو مضمون السنة ومعانيها وليس ألفاظها، مصداقاً لقوله تعالى:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾.

قد وحي له بها وهو عبر عن هذا الوحي بأسلوبه لفظاً، أو بفعل منه أو بتقرير أي سكوت منه.

السنة دليل كالكتاب سواء بسواء دون أي فرق بينهما لقيام الدليل الشرعي عليها كقيامه على القرآن لقوله تعالى:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ (الحشر 7).

﴿ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الأنعام 50).

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ﴾ (الأعراف 203).

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ﴾ (الأعراف 158).

﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور 63).

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ (الأحزاب 36).

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ (النساء 65).

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء 59).

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ (آل عمران 31).

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ (الأحزاب 21).

فالله سبحانه وتعالى يأمرنا بطاعة الرسول وعدم عصيانه واتّباعه والتأسي به، ويحذرنا من مخالفة أمره، بل أكثر من ذلك ينفي الإيمان عن الذي يرفض تحكيم الرسول عليه الصلاة والسلام، وبعد كل هذا يخرج علينا من يدعي بأن طاعة الرسول في حياته وليس بعد مماته، ويقسمها إلى منفصلة ومتصلة ويخصها في العبادات فقط، ثم أخيراً ينكر أن الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى الرسول غير القرآن الكريم، وأن من يؤمن بأن السنة وحي قد أشرك بالله سبحانه وتعالى. علماً أن الآيات المذكورة آنفاً قطعية الثبوت والدلالة على وجوب طاعة الرسول في كل ما أمر به سواءً أكان بالقول أم بالفعل أم بالتقرير.

وإني استغرب المحاور وأمثاله كيف يستطيعون الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى قد أوحي إلى رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم كتاب الله في الوجود والعدم والخلق والفناء، وأنظمة الطبيعة، ويرفض أن يوحى له أنظمة للحياة وكيفيات لإشباع غرائز هذا الإنسان، فوضعهم كمن يأخذ جهاز الكمبيوتر الذي صنعه الياباني ويرفض (الكتالوج) المرافق له لفهم هذا الجهاز، أو المهندس الإنشائي الذي يستلم عمارة بدون مخططات الكهرباء والصحية ومخططات إنشاء الأساسات ليفهم كيف يقف هذا البناء، ورحم الله

أبا بكر الصديق عندما سخر به مشركو قريش وقالوا له بأن من آمنت به يقول أسري به إلى الأقصى وعرج إلى السماء. فما زاد على ن قال: أو قال ذلك قالوا نعم، فقال إن كان قالها فقد صدق.

إن محمداً عليه الصلاة والسلام نبي ورسول، أي أتته نبوءات من السماء وأخبر عن مغيبات، فكان بذلك نبياً، وبلغ أفكاراً ليحل مشكلات الحياة (الناس) فكان بذلك رسولاً. هذه هي شخصية الرسول المعصومة التي تنحصر في الوحي. بما يبلغه عن ربه، وخلاف ذلك فالرسول بشر يخطئ ويصيب، فالرسول معصوم بالتبليغ عن ربه فقط، سواءً أكان بالقرآن أو بالسنة. فالرسول ليس مهندساً ولا طبيباً ولا عالم فيزياء أو كيمياء. من هنا مفتاح فهم سنة رسول الله عليه الصلاة والسلام. أما تحديد وعاء السنة بأنه قول الرسول وفعله وتقريره فهو بمنتهى البساطة عند من آمن بأن (القرآن) وحي. لأن وسائل التبليغ عند البشر ثلاثة لا غير:

1 ـ القول (الحديث)

2 ـ الفعل (السلوك)

3 ـ السكوت (الإقرار)

لأن الآمر إما أن يتكلم وإما أن يفعل وإما أن يسكت، وهذه الثلاثة هي وحدها وسائل التعبير عند اللغويين والدستوريين والقانونيين وعند الواقعيين.

إن من كمال العقيدة الإسلامية، الإيمان الجازم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجوز في حقه مطلقاً أن يكون مجتهداً في التبليغ عن ربه، فهو يبلغ ما أوحي إليه فقط، وبذلك تسقط استدلالات المحاور وغيره من الكتاب الذين أسموا أنفسهم معاصرين واعتبروا أن السنة النبوية اجتهاد للرسول وتفاعل تاريخي تصلح للقرن السابع الميلادي، ولواقع الجزيرة العربية في تلك المرحلة. وهذه فكرة من أخبث الأفكار المهدمة للعقيدة الإسلامية وللتشريع الإسلامي وهي وليدة تطرف المادية الماركسية (التاريخية) التي عششت في ذهن هؤلاء وسيطرت على أدمغتهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

أما لماذا يصر المحاور وأمثاله من الكتاب على إنكار السنة من خلال التركيز على إعجازات القرآن العلمية وسننه الموضوعية كما يقولون، وأن الله أعطانا في القرآن قواعد لحل مشكلات الأولين والآخرين، فالجواب هو أنهم يريدون أن يفصلوا بين الدين والحياة، وبين العقائد والتشريعات وبذلك يفصلون بين النبوة والرسالة، ويقصرون الإسلام على الكهنوت والإلهيات فتبقى نبوة محمد وتندثر رسالته.

الاجتهاد والتراث:

الاجتهاد في اللغة هو استفراغ الوسع في تحقيق أمر من الأمور مستلزم للكلف والمشقة. وأما في اصطلاح علم أصول الفقه، فهو مخصوص باستفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد فيه، إذن الاجتهاد يكون بنصوص الوحي منطوقاً أو مفهوماً. فهو فهم بشري من خلال نصوص الوحي لينزل على الواقع بعد إدراك الواقع إدراكاً سليماً. ولا يجوز الخروج عن النص من أجل الواقع، فالمجتهد يفهم الواقع ويطبق عليه النص بالأدوات المعرفية المناسبة، فلا يغير النص من أجل الواقع، بل النص هو الذي يحكم الواقع.

ولقد اصطلح على تسمية أفهام علماء المسلمين منذ البعثة حتى الآن بأنها هي التراث. وتسمية أحكام المجتهدين بأنها تراث تسمية خاطئة ومصطلح خاطئ، لأن التراث يعني الانقراض، وإن أي أمة من الأمم لا تقبل لتراثها أن ينقرض، بل يبقى ما أسموه بالتراث عند الأمم عوناً لها في كل وقت على الفهم والإدراك، ولذلك أرى أن يستعاض عن التراث (بفهم السابقين). وفهم السابقين عند كل أمة من الأمم هو عمق ثقافي وتجارب تكون عوناً لكل من يأتي من بعدهم. أما عند المسلمين فإن إفهام السابقين قوتها بقوة دليلها الشرعي، وكل الفقهاء نقل عنهم بما معناه (إذا لم تجدوا لقولي دليلاً من الشرع فاضربوا به عرض الحائط) ولا يجوز أن يخلو عصر من العصور من وجود مجتهدين يعودون إلى النص الشرعي لفهم حلول مشاكل الناس وإذا أقفل باب الاجتهاد تندثر الأمة. فكتاب الله وسنة رسوله هي مصادر التشريع في الفهم والإدراك للمشاكل

المستجدة. ولا دخل للقرآن والسنة في قضايا المدنية والعمران والعلوم والتكنولوجيا فهي مجال علماء الطبيعة والفيزياء والكيمياء كما ذكرنا سابقاً.

إن الآراء الفقهية جميعها حتى ولو كانت لكبار الصحابة أو الأئمة ليست إلا نتاجاً وفهماً بشرياً تحتمل الصواب والخطأ، والذي يحدد صوابها هو قوة دليلها الشرعي وانطباقه على الواقع المادي، وليس العصر أو الضرورة أو المصلحة. وإن المحاور وأمثاله ممن أسموا أنفسهم معاصرين اتخذوا من جمود المسلمين وتحجرهم ذريعة للهجوم على نصوص الوحي بحجة هجومهم على التراثية والآبائية، ولقد ساعدهم على ذلك تعصب المسلمين وتقوقعهم على أي رأي شرعي ولو كان دليله ضعيفاً، فإن باب الاجتهاد لا يجوز أن يقفل والمسلمون جميعاً آثمون إذا لم يوجد فيهم مجتهد على الأقل بعصر من العصور.

وإن الصحابة رضوان الله عليهم وأئمة المذاهب الكبرى قد اختلفوا فيما بينهم في فهم نصوص الوحي، وهذه رحمة للعباد حتى تتوسع الآفاق في أي وقت من الأوقات وينقدح ذهن الأمة في كل الظروف والعصور لإيجاد حلول لمشاكل الحياة، ولا قدسية عند المسلمين إلا للوحي فقط، والمسلمون لا يقدسون بشراً كائناً من كان، والعبرة بدليلِ الوحي الذي يستعين به المجتهد ولا قدسية للمجتهد لأنه بشر. وبذلك تسقط استدلالات المحاور حول التراث ونصوص الحديث وادعائه بتناقضها، فإن إفهام النصوص تختلف ولكنه يظهر للجهلة أنها متناقضة وذلك بسبب قلة العلم والفهم والإدراك.

الإسلام والإيمان:

خلط المحاور وكعادته بين المعاني اللغوية والمعاني الاصطلاحية، لأنَّه لا يقر بالترادف والمجاز والاشتراك في اللغة، وهذا موضوع أسهبت به في كتابي تهافت القراءة المعاصرة. باختصار أقول بأن الإسلام لغة يعني التسليم والانقياد، سواءً أكان هذا بقناعة أو بدونها، أو ببينات مادية أو تقليداً، فهو وضع ظاهري لا يقتضي البحث والتمحيص في القناعات، إنما يقتضي ظواهر الأمور السلوكية والطاعة والانقياد في الحياة الدنيا، والحالة سيان أكان هذا التسليم والاستسلام لله أو للبشر أو للحجر أو للبقر. فكله استسلام وانقياد وتبعية.

الأنبياء والرسل وأتباعهم جميعاً أسلموا أمرهم إلى الله وانقادوا إليه فكانوا من المسلمين بالمعنى اللغوي. ثم جاء الإسلام وأعطى مفهوماً اصطلاحياً لعقيدة هي (لا إله إلا الله)، بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ (آل عمران 19)، فتحدد الإسلام بالمعنى الاصطلاحي بأنه دين بابه (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، كما ثبت في القرآن والحديث. ولا يشترط بأن تشق على قلب من نطق الشهادتين بل تكتفي بالظاهر والله يتولى السرائر، ومعرفة قصة خالد رضي الله عنه عندما أمره الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكتفي بظاهر القول وبأنه لم يؤمر بالشق عن القلب. فمثلاً الصلاة لغة بمعنى الدعاء، والإسلام أعطى للصلاة مفهوماً جديداً اصطلاحياً، يبدأ بالتكبير وينتهي بالتسليم، قول عليه الصلاة والسلام (صلوا كما رأيتموني أصلي) هذه هي الصلاة بالمعنى الاصطلاحي، وإن من يمارس الصلاة بالمعنى اللغوي وهو الدعاء لا يجزئه عن الصلاة بالمعنى الاصطلاحي (الشرعي). ولو كان كلام المحاور صحيحاً لأجزأه أن يصلي بالدعاء فقط. ولكن إنكار المحاور للترادف والحقائق الشرعية والعرفية والاشتراك والمجاز في اللغة أوقعه في مأزق كبير وموقف ضعيف مضطرب. وإلا فكيف يقر كمسلم بصلاة المسلمين الشرعية (اصطلاحي) وهي ليست الصلاة بالمعنى (اللغوي) ولا يقر بأن الإسلام معنى لغوي ومعنى اصطلاحي شرعي عند المسلمين.

الإيمان لغة وشرعاً بمعنى واحد وهو تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل، ولا يوجد إيمان بدون جزم ومطابقة للواقع وعن دليل عقلي أو نقلي ثبت أصله بطريق العقل. ومفهوم الإسلام ومفهوم الإيمان واضح من قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحجرات 14). فالآية تصف واقع الأعراب، وهم أقوام يسكنون حول المدن في العادة، هؤلاء الأقوام الذين أسماهم القرآن بالأعراب، دخلوا الإسلام بعد أن قويت شوكة الإسلام في المدينة المنورة، فلقد أعلنوا

إسلامهم طمعاً في مغنم وخاصة بعد أن انتصر المسلمون في غزوة بدر الكبرى، فالله سبحانه وتعالى يصفهم بأنهم مسلمون ولكنهم ليسوا بمؤمنين، لأنهم أعلنوا إسلامهم بنطقهم للشهادتين، وهذا كافٍ لأن يتعامل معهم ولي الأمر والمسلمون على أساس أنهم أسلموا، أما الإيمان، وهو الذي عرفه عليه الصلاة والصلاة (بأنه ما وقر بالصدر وصدقه العمل وظهر على الجوارح) هذا الإيمان لم يتمكن من هؤلاء الأعراب عندما نزلت هذه الآية. والرسول لا يعلمه لو لم يخبره الله سبحانه وتعالى، ولذلك نحن كبشر ليس لنا علاقة في الباطن فهو شأن الله سبحانه وتعالى، هو الذي يثيب وهو الذي يعاقب يوم تسود وجوه وتبيض وجوه. فالإيمان إذن عقيدة وإيمان بمغيبات قد استقرت عند المؤمن بموجب إثباتات وبيّنات، ونحن في الإسلام لنا الظاهر، والله في الإيمان يتولى السرائر.

ولذلك فإن ما طرحه المحاور من أفكار حول الإسلام والإيمان، إن هو إلا اضطراب بالتفكير ناتج عن أدوات تفكير (ابن عربية) وماركسية وجمود في فهم الترادف وسوء فهم للحقائق اللغوية، وعدم إدراك للحقائق الشرعية والعرفية.

هذا ما حضرني في هذه العجالة رداً على المحاور وإيجاز ما يناسب في صحيفة محلية، مكتفياً بالأمور الجوهرية التي تحدد أصول التفكير ومنطلقاته والله ولي التوفيق.

20/ 5/ 1997م

كيف تنهض الأمم

كلمة نهضة في أساس اللغة العربية، من فعل نهض وبابه (قطع)، وتعني حال الانتقال من جلوس أو قعود أو تمدد أو استرخاء وما هو نحوه إلى حالة القيام، وكثيراً ما استعمل العرب مشتقات الفعل نهض في الأمور المعنوية والحسية أكثر من الأمور المادية، كما هي حالة استنهاض الهمم والعزائم والنخوة وما إلى ذلك من الاستعمالات.

ولقد درج استعمال كلمة (نهضة) في العالم العربي منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، عندما بدأ العالم الغربي (أوروبا) يتفوق على العالمين العربي والإسلامي في كافة مجالات العلوم والتكنولوجيا، ولقد لاحظ المهتمون بالنهضة في تلك الحقبة أن أوروبا لم تنهض إلا بعد أن أقصت الدين عن مجالات الحياة التشريعية والحياتية، وذلك على أثر الثورة اللوثرية وفي القرن السادس عشر. هذه الثورة هي التي حركت كوامن العقل والتفكير ابتداءً عند الأوربيين، وهمشت دور الكنيسة فكرياً كأداة تسلطية تمنع التفكير الحر واستعمال العقل في الأمور التجريبية الحسية، فكانت كالصاعق الذي هز كيان العقل الأوربي الكنسي التقليدي المتخلف، وفتحت المجال لظهور طبقة المفكرين والعلماء سواء في مجال التشريع أو العلوم (مونتسكيو، فولتير، دور كهايم، كانت، غاليله، نيوتن،...) حيث نجحت الحركة اللوثرية من داخل الكنيسة في صدم المجتمع الأوروبي ليبدأ دوره في التفكير بالمادة وقوانينها ونتائج هذه القوانين على سير حياة المجتمع، هذه الصدمة كان من المفروض أن تحدث في العقل الأوروبي منذ معركة بلاط الشهداء في بواتيه بفرنسا في القرن الأول الهجري، عندما دعمت الكنيسة ملوك أوروبا وحشدتهم بالكامل ضد الفتح الإسلامي، فبقيت أوروبا في حالة سبات عميق تقف ضد العقل والتفكير قروناً عديدة.

بعد أن أطلقت الحركة اللوثرية المجال للعقل بالتفكير بالمادة انطلاقاً من مبدأ ناسوتية المسيح عليه السلام وليس لاهوتيته وبعد حروب دينية دامية بين الكاثوليك المتعصبين والبروتستانت المحتجّين، صار المجال مفتوحاً أمام المفكرين للتعبير عن آرائهم العقائدية والفكرية من خلال مبدأ الحريات الدينية، وأصبح مفهوم الدين سواءً

أكان كاثوليكياً أو بروتستانتياً عقبة أمام التقدم المادي، ومن هنا استقر الرأي على أن سبب التخلف هو الدين بشكل عام لأن الدين علاقة أخروية بين الخالق والمخلوق، وهذا الاعتقاد ليس له علاقة بمشاكل الحياة بل هو محصور بالكنيسة لمن أراد أن يشبع غريزة التدين فاستقر الأمر العقدي على أساس فصل الدين عن الحياة كما هي المقولة (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله).

ظهرت انعكاسات جديدة للفكر اللوثري في بدايات القرن التاسع عشر باتجاه تحجيم الله ليكون فكرة مثالية خارج الحياة تصلح للمعتوهين وللمتخلفين عقلياً والمتواكلين، وذلك على يد الثنائي (هيغل فويرباخ)، ولقد فتحا الطريق أمام ماركس لينكر وجود إلهٍ سواءً أكان لاهوتاً أو ناسوتاً أو في مساحة بينهما. وأعلن أن فكرة الدين بالأساس باطلة والإله من صنع البرجوازية والدين أفيون الشعوب. وهو المسؤول عن انحدار وتخلف المجتمعات والأمم.

إن جميع علماء ومفكري الغرب في ما سمي بعصر النهضة منذ بدايات القرن السادس عشر لم يدرسوا الإسلام من مصادره الحقيقية ولم يفكروا به أساساً، إنما كان تفكيرهم منصبّاً على الديانة المسيحية وأثرها على تخلف العالم الغربي وإن التسلط الكنسي من خلال طبقة الإكليروس هو السبب المباشر في تخلف هذه الشعوب. حتى إنَّ ماركس عندما قال مقولته (الدين أفيون الشعوب) لم يكن يقصد الدين الإسلامي لأنه لا يدرك أصول هذا الدين، إنما مقولته كانت حصراً تصف الواقع الأوروبي وأثر التسلط الكنسي على الشعوب، فهو لم يكن مخطئاً في هذه المقولة، لأن الكنيسة حقيقة كانت هي المسؤولة عن انحطاط الشعوب الأوروبية، وهي التي حاربت العقل والتفكير لقرون طويلة في تواطؤ واضح بين الحكام والكنيسة.

سنحاول الآن تحديد معنى النهضة، وكيف تحدث هذه النهضة عند الشعوب والأمم، بغض النظر عن عقائدها وأفكارها، وكيف حصلت النهضة في العالم الغربي بقيادة أوروبا وفي المعسكر الاشتراكي بقيادة الاتحاد السوفييتي. وعند الشعب العربي بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام.

النهضة هي الارتفاع الفكري، وليست هي الارتفاع الاقتصادي، ولا الارتفاع الروحي، ولا الارتفاع الخلقي، وإنما هي الارتفاع الفكري ليس غير. فإذا كان هذا الارتفاع الفكري مبنياً على أساس روحي كانت النهضة نهضة صحيحة، لأن الفكر يستند فيها إلى أساس يستحيل عليه النقص، فلا يتسرب الخطأ إلى الفكر من ناحية الفروع، ولذلك يكون مأمونَ الأساس، ثابت الاتجاه، مقطوعاً بنتائجه. أما إذا كان الارتفاع الفكري غير مبني على أساس روحي فإنه ينشئ نهضة ولكنها غير صحيحة، لأن الفكر فيها لا يستند إلى ما يستحيل عليه النقص فيكون عرضة للخطأ والخلل والاضطراب والضلال وجميع أنواع النقص، فيتسرب ذلك إلى الأساس وبالتالي إلى الاتجاه والنتائج، ولكنه على أي حال يحدث نهضة كما هو الحال في الفكر الرأسمالي والماركسي.

إلا أن الفكر الذي تحصل بارتفاعه النهضة هو الفكر المتعلق بوجهة النظر في الحياة وما يتعلق بها، لأن معنى ارتفاعه هو الانتقال من الناحية الحيوانية البحتة إلى الناحية الإنسانية. فالفكر المتعلق بالحصول على الطعام فكر ولكنه غريزي منخفض، والفكر المتعلق بتنظيم الحصول على الطعام أعلى منه، والفكر المتعلق بتنظيم شؤون الأسرة فكر، ولكن الفكر المتعلق بتنظيم شؤون القوم أعلى منه، وأما الفكر المتعلق بتنظيم شؤون الإنسان باعتباره إنساناً لا فرداً فهو أعلى الأفكار.

ومن هنا كان مثل هذا الفكر هو الذي يحدث النهضة، فعلى دعاة النهضة إذن أن ينشروا هذا الفكر ويجعلوه أساساً لغيره من الأفكار وأن يجعلوا العلوم والمعارف مبنية على هذا الفكر وآخذة الدرجة التالية من الاهتمام حتى يستطيعوا أن يحدثوا نهضة.

والذي يتبادر إلى الذهن من نشر الفكر هو تأليف الكتب وإعداد الصحف والمجلات ولذلك أقبل عليها الناس كطريق لنشر الفكر وبالتالي كطريقة للنهضة، بيد أن الواقع ليس كذلك فالكتب والصحف والمجلات إن هي إلا أدوات ووسائل وليس غير وهي لا تحدث نهضة وإنما توجد معلومات عند من يقرؤونها. فإذا اقتصر على ذلك وجدت من قراءة الأفكار لذة ووجد علماء ولكن لا توجد نهضة. فحتى تكون النهضة لابد أن تصدر هذه الأفكار بقصد التأثير حتى تحدث القناعة بها من جراء مناقشة هذه

الأفكار وبحثها بحرية واختيار ولتمكين من قرأها من لمس واقعها ووضع إصبعه على هذا الواقع فيعمل لإيجادها رأياً عاماً بين الناس وفي العلاقات وفي الدولة فينتج عن ذلك القاعدة الفكرية التي توجد النهضة. فإذا تحقق ذلك فقد بدأ السير في طريق النهضة وإذا لم يوجد لا يمكن أن تبدأ النهضة، وإنما قد يبدأ علم ومعرفة وهذا لا ينتج نهضة ولو أصبح أكثر أهل البلاد متعلمين ولو كانت الكتب التي تؤلف بالآلاف، بل لابد من الاتصال الحي إلى جانب الكتب وإلى جانب المتعلمين فهذا يؤدي إلى أن تتحول هذه الأفكار إلى تشريع وإلى دولة فتنتقل الأفكار إلى التطبيق العملي بالاختيار لا بالقسر وحينئذ تسير النهضة في طريقها العملي بعد طريقها الفكري عندما تصبح الأمة كتلة متواصلة تعتنق فكراً واحداً وتشريعاً واحداً مستعدة للتضحية من أجله ولنشر رسالتها للإنسان بغض النظر عن دينه ومذهبه ولونه لأنها تحمل فكراً إنسانياً يعالج مشاكل البشر لأنهم بشر فقط فتحدث النهضة من جراء تعارض الرأي مع الرأي الآخر بحرية واختيار فتنضج آراء الناس وتتبلور أفكارهم وقناعاتهم بدون ضغط و إكراه وبدافع المصلحة العامة وليس بإتباع المصالح الشخصية.

الديمقراطيات الرأسمالية الغربية نهضت على طريقة الحل الوسط بعد صراع طويل ودام بين الكنيسة والمتنورين من العلماء والمفكرين واستقرت على عقيدة (فصل الدين عن الحياة) وأطلقت الحريات الأربع: حرية الاعتقاد والرأي والتملك والحرية الشخصية. ونهضت أمم الغرب فيما فيها الولايات المتحدة على أساس هذه العقيدة التي انبثق منها المبدأ الرأسمالي والآن نشاهد ثمار هذه الحضارة التي أنتجت ديمقراطية مكذوبة حل بها رأس المال مكان الله سبحانه وتعالى في السيطرة على كل شيء عن طريق الشركات الاحتكارية التي تسيطر على كل شيء في العالم الغربي بما فيه القرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي، فانتكست بالشعوب إلى عهد الرق المهذب فكانت ديكتاتوريتها أعتى من ديكتاتورية البروليتاريا التاريخية، فالجميع مربوطون بحبل طويل يظنون أنفسهم أحراراً لكن نهاية الحبل في يد الشركات الاحتكارية المملوكة لأشخاص وهيئات قادرة على أن تشد الحبل فتخنق به من تريد. إنه النظام الاستبدادي الذي سحق نفسيات الشعوب

وطمس معالم شخصيتها وإرادتها بحيث جعل المواطن يختار بإرادته ما اختار له أصحاب الفعاليات الاقتصادية، إنه نظام دقيق ورهيب. الاشتراكية العلمية (الماركسية) نهضت بنظريتيها المادية الديالكتيكية والتاريخية فأنكرت وجود قوة ما وراء الطبيعة أو وراء الكون والإنسان والحياة، واعتبرت أن استمرار الوجود راجع إلى التناقض المادي في الأشياء والحوادث وأن التناقض التصادمي هو الأساس في الوجود، واعتبرت أن الحالة العقلية للمجتمع هي انعكاس للحالة والأحوال المادية في كل عصر. فقتلت الإبداع عند معتنقيها دولاً وشعوباً عن طريق قهر الغرائز وكبتها، وبذلك خالفت الطبيعة البشرية ورغباتها عندما كبتت مظاهر الغرائز الفطرية في التفكير والتملك والتقديس. وتجربة سبعين عاماً في الاتحاد السوفييتي وتوابعه كانت كفيلة بإظهار سوأة هذه العقيدة، عندما أنزل «جورتاتشوف» عصاه سقطت الماركسية في أوروبا الشرقية وفي الاتحاد السوفييتي، فانفرط الاتحاد وعاد كل لما يعتقد، عاد الأرثوذكسي إلى أرثوذكسيته، والكاثوليكي إلى كاثوليكيته، والمسلم إلى إسلامه.

الإسلام أنهض العرب والشعوب الأخرى التي اعتنقته بعقيدة تملأ العقل قناعة والقلب طمأنينة، وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) أي إنَّ للكون والإنسان والحياة خالقاً خلقها هو الله سبحانه وتعالى، وهذا الخالق خلق ونظم أي لم يخلق ويترك كما هو حال العقيدة الرأسمالية، فهو خلق وأرسل رسولاً اسمه محمد صلى الله عليه وسلم بالتشريع الذي ينظم غرائز البشر وحاجاتهم العضوية وإن البشر مكلفون بالاجتهاد في فهم هذه النصوص واستنباط الأحكام لمعالجة مشاكلهم التي لا تنتهي باجتهاد مستمر ولا يتوقف حتى يرث الله الأرض وما عليها.

ميز الإسلام بين الأحكام الشرعية التي تعطي حل مشاكل غرائز العباد وبين وسائل العصر وأدواته، فالاجتهاد الشرعي مجاله السلوك الإنساني تجاه الإقدام أو الإحجام على الفعل أمَّا وسائل الحياة فمجالها العلوم والتكنولوجيا وهي عامة لكل الناس مسلمين وغير مسلمين ولا تختص فيها عقيدة من العقائد. وبذلك يكون الإسلام ميز بين الحضارة والمدنية. فالحضارة هي مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها،

وهي خاصة في كل أمة من الأمم، بينما المدينة هي الوسائل والأدوات التي تساعد على حل مشاكل الحياة وجعلها أسهل وأفضل، وهي عامة ولا تختص بها أمة من الأمم وليس لها علاقة بالعقائد، وعلى المسلمين أن يكونوا سباقين لكل الأمم في هذه الأمور وكل تقصير حيال ذلك في أي عصر من العصور يأثم الجميع إذا لم يكن فيهم القادرون على جعل أمة الإسلام متقدمة على شعوب العالم.

8/ 10/ 1997م

قاعدة العين بالعين والسن بالسن

إشارة إلى الموضوع المنشور بجريدتكم الغراء (الشرق الأوسط) في زاوية قهوة الصباح، يوم الأربعاء 17 محرم 1419هـ الموافق 135/ 1998م، عدد 7106، ورغبتكم في الاستماع إلى آراء حول الموضوع المذكور وهو قاعدة العين بالعين والسن بالسن، فالجواب ما يلي:

أولاً: إن قاعدة (العين بالعين والسن بالسن) ليست هي حكم الإسلام في كيفيات تطبيق القصاص، بل هي رأي من الآراء الإسلامية المتعددة والمختلفة التي عالجت هذا الموضوع بناءً على فهم نصوص الوحي سواء أكان هذا النص من كتاب الله سبحانه وتعالى أو من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثانياً: إن مدرسة أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه، هي المدرسة الفقهية الأساسية التي سبقت المدارس المذهبية الأخرى في وضع مبادئ لأصول الفقه، وقسمتها إلى مصادر أصلية ومصادر تبعية، واعتبرت أحد المصادر التبعية لأصول الفقه، مصدر (شرع من قلبنا شرعٌ لنا) ولحقتها بإتباع هذا النهج أكثر المدارس الفقهية الأخرى باستثناء مدرسة الشافعي رضي الله عنه، الذي حدد مصادر التشريع وحصرها في كتاب الله وسنة رسوله والقياس وإجماع الصحابة رضي الله عنهم. رافضاً بذلك الاستحسان والاستصلاح وشرع من قبلنا... وما إلى ذلك من المصادر التبعية التي اختلف في حصرها علماء الأصول رضي الله عنهم.

ثالثاً: إن الرأي المطروح في زاوية مع قهوة الصباح حول قاعدة (العين بالعين والسن بالسن) هو أحد الآراء المنبثقة عن مدرسة الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، أي هو رأي في المذهب الجعفري، ومعروف أن أبي حنيفة درس إبتداءاً في مدرسة جعفر الصادق رضي الله عنهما.

رابعاً: إن قوة الدليل هي التي تحدد قوة الحكم الشرعي ومدى استناده إلى كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن الحق يعرف بالدليل ولا يعرف بالرجل.

وإن الأئمة الخمسة قد أجمعوا على ما يفيد أن لا نأخذ برأيهم إلا إذا كان معززاً بدليل من كتاب الله وسنة رسوله.

خامساً: إن القصاص هو نوع خاص من العقوبات يقتضي المماثلة في الجزاء، وهو من أنواع الجنايات التي تقع على البدن مما يوجب قصاصاً أو مالاً، فيشمل الاعتداء على النفس أو على أعضاء الجسم... والمراد منها العقوبات الخاصة التي توقع على المعتدي، وهذه العقوبات فيها حق العبد ،وما دامت متعلقة بحق العبد فإنه يجوز لصاحب الحق أن يعفو وأن يسقط حقه، قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ ﴾ (البقرة 178). بعد قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ (البقرة 178)، مما يدل على جواز أن يعفو صاحب الحق في الجنايات عن حقه، وقد وردت أحاديث كثيرة تحض على أن يعفو صاحب الحق ويتنازل عن حقه، فعن أبي شريح الخزاعي قال: (ما قضى الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً فيه قصاص إلا أمر بالعفو) وإن عفو صاحب الحق يستوجب عفو الحاكم عن المعتدي.

سادساً: إذن هناك من سار في فهمه للأحكام الشرعية على مذهب مدرسة أبي حنيفة رضي الله عنه، ومن سار على نهجه من المذاهب الأخرى في اعتبار أن قاعدة (شرع من قبلنا شرعٌ لنا) واختلف مع مدرسة الإمام الشافعي ومن سار على نهجه من المدارس الأخرى في اعتبارها أن (شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا).

سابعاً: عن أسس الاختلاف المذكور في الفقرة السابقة بين المذاهب الإسلامية، له أصول في كتاب الله وسنة رسوله بموجب فهم الفقهاء والمفسرين ومدارسهم الأصولية والفقهية على النحو التالي:

إن الجناية فيما دون النفس هي الجناية على عضو من أعضاء جسم الإنسان أو على عظم من عظامه، أو على رأسه بالشج، أو على أي جزء من جسمه بالجرح، ويرى بعض الفقهاء أن قصاص ما دون النفس من الأعضاء هو ما ورد في آية: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة 45)، فيجعل قصاص ما دون النفس من الأعضاء قاعدة (والسن بالسن)

فمن قلع عين أحد قلعت عينه وهكذا، مع أن هذه الآية نزلت في حق بني إسرائيل وهي حكاية عنهم وليست خطاباً لنا، وهذا من شريعة بني إسرائيل وليس شرعاً للمسلمين.

ولو كان شرع من قبلنا شرعاً لنا من شرائع اليهود والنصارى لكنا مكلفين بمعاقبة الحيوان، كما هو في شريعة اليهود عندما أنذر سليمان عليه السلام بتعذيب الطير إن لم يأته بخبر يقين، ولكنا مأمورين باسترقاق السارق، كما هو في شريعة يوسف عليه السلام، عندما أنذر أخاه بالاسترقاق بسبب اتهامه بسرقة الكيل قوله تعالى: ﴿ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ (يوسف، الآية 75). وكما هو حال شعيب عليه السلام عندما طلب من موسى عليه السلام أن يعمل عنده ثمانية حجج (سنة) أو عشرة، صداق (مهر) ابنته، علماً أن شريعة الإسلام حددت أن (جناية العجماء جبار). وعقوبة السارق قطع اليد وليس الاسترقاق، وإن الصداق من حق المخطوبة وليس من حق والدها والأمثلة على ذلك كثيرة من واقع القرآن الكريم التي رواها لنا الله سبحانه وتعالى على سبيل العبرة والمعلومات التشريعية السابقة عند بني إسرائيل، حيث كانت شرائع بني إسرائيل شديدة وعينية ومرحلية لأنهم كانوا يسألون عن كل شيء بتعنت وقسوة، فقلوبهم كانت كالحجارة أو أشد قسوة، كما وصفها الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة. ثم أتت شريعة عيسى عليه السلام لتخفف عنهم بعض الذي شدد عليهم. ثم جاءت شريعة الإسلام الخاتمة لتنهي كل الشرائع المرحلية الآنية والوقتية، لتكون شريعة الإسلام هي الخالدة. فكيف ينسجم فهم آيات الله سبحانه وتعالى مع قاعدة (شرع من قبلنا شرعٌ لنا)، والله سبحانه وتعالى جعل الإسلام هو الدين النهائي من حيث العقائد ومن حيث الشرائع.

وبناء على ذلك إنَّ بعض كبار المفسرين لكتاب الله من علماء المسلمين كابن كثير والطبري قد تساهلوا بالأخذ بالأحاديث الإسرائيلية واعتبروها من شرائع بني إسرائيل التي يفسرون بها كتاب الله سبحانه وتعالى فأدخلوا على الإسلام الكثير من الروايات التي لا أساس لها في شرائعنا لأنهم ليسوا علماء حديث متمكنين في الإسناد والجرح والتعديل وهذا بحث طويل، ولكن ذكرت في هذا المقام أقل ما يمكن للتأكيد على قاعدة (إن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا).

والحقيقة أن الجناية فيما دون النفس لا يستدل عليها بالآية / 45/ من سورة المائدة، وإنما يستدل عليها بما ورد في ذلك من أحاديث. لأن هذه الآية حكاية بني إسرائيل وهي شريعة اليهود، ونحن غير مخاطبين بها فلا تصلح دليلاً، ما دمنا لسنا مخاطبين بها، وفوق هذا فإنه لم يرد في القرآن دليل ينص على الجناية فيما دون النفس. وأما قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة 194). فإنها نزلت في معاملة المسلمين للكفار لا في عقوبات ما دون النفس، فإن نص الآية هو: ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة 194)، ذلك بأنه لم يكن هنالك قتال في الشهر الحرام، فبين الله في هذه الآية بأنه إذا قاتلكم المشركون في الشهر الحرام فقاتلوهم في الشهر الحرام، ومن اعتدى عليكم فقابلوه بمثل ما اعتدى عليكم، والمراد به أن يقاتل الكفار بمثل ما حصل منهم، فالله تعالى يقول إن القاعدة مع المشركين هي (الشهر الحرام بالشهر الحرام)، ثم قال: (والحرمات قصاص) أي تجري المماثلة في الحرمات، ثم فرع على هذه القاعدة بأن أي عدوان عليكم قابلوه بالعدوان مثله، فالموضوع موضوع القتال بين المسلمين والكفار وليس الموضوع موضوع عقوبة فيما دون النفس. والدليل على ذلك الآيات التي قبلها والمتصلة بها فإنها نص في القتال، فالله تعالى يقول: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة 190 ـ 194). فهذا صريح بأن الموضوع هو موضوع الحرب بين المسلمين والكفار فتكون الآية خاصة في هذا الموضوع. وعليه لا تصلح دليلاً على عقوبة ما دون النفس. وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ (النحل 126). فإنه مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾

(الشورى 40) المراد منه دفع الأذى عن النفس ومقابلة الاعتداء بمثله فليس هو بيان عقوبة ما دون النفس بل هو متعلق بدفع الأذى أي أذى بأنه لا يصح أن يكون إلا بمثل ما أوذي به ولا يصح أن يزيد على ذلك، بدليل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل 126). وعليه لا تصلح هذه الآية دليلاً على عقوبة ما دون النفس من قبل الدولة. ومن ذلك يتبين أنه لا يوجد في القرآن ما يدل على عقوبة ما دون النفس ولذلك كان الدليل هو السنة ليس غير.

أما ما ورُد في السنة في عقوبات ما دون النفس، فإن المدقق لا يرى أن هناك قصاصاً في عضو من أعضاء الجسم مطلقاً، ولأي عظم من عظامه سوى السن. وأما ما ورد عن الحسن عن سمرة عند النسائي أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: (من جدع عبده جدعناه)، وما أخرج أبو داوود بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال: (من خصى عبده خصيناه) فإنه خاص في عقوبة السيد لعبده وليس عاماً، فإنه في موضوع معاملة السيد لعبده تأديباً وليس في موضوع بيان العقوبات، فيختص بعقوبة السيد إذا فعل بعبده ذلك ولا يعم على كل الناس، فلا يكون عاماً لعقوبة جميع الناس، حتى لو جدع أنف عبد غير عبده أو أي إنسان آخر لا يجدع به، ولو خصى عبداً غير عبده، لا يخصى به، لأن الحديث لا يدل على ذلك، إذ يقول (عبده) فقال (جدع عبده) وقال (خصى عبده) ولم يقل عبداً، ولا قال أحداً، فالإسناد هو اللفظ (عبده) فيختص به ولا يتجاوز إلى غيره ولا بوجه من الوجوه، فلا يدل على القصاص في أعضاء الجسم ولا بدلالة من الدلالات.

وقد يقالُ: إذا كان السيد يقتل بعبده بدلالة المفهوم من حديث (من قتل عبده قتلناه)، وهو مالكه يتصرف به فإن قتله لغير عبده من العبيد أو لأي إنسان آخر من باب أولى أن يقتل به، فهو يدل على ذلك دلالة مفهوم لا دلالة منطوق، والرد على ذلك هو إن الدلالة غير موجودة في حديث (من جدع عبده جدعناه)، ولا في حديث (من خصى عبده خصيناه)، فهو لا يدل بفحوى الخطاب على أنه لو جدع غير عبده، يجدع به، ولو خصى عبداً غير عبده يخصى به، لأن للسيد أن يؤدب عبده كما هو ثابت في أحاديث أخرى، فنهى

عن التأديب الذي يصل إلى حد إتلاف عضو من أعضائه، فكونه ينهى عن أن يجدعه، أو ينهي عن أن يخصيه، لا يفهم منه أنه من باب أولى أن يفعل به ذلك لو فعله في عبد غيرِهِ، ذلك أن مفهوم الموافقة قد يكون من قبيل التنبيه بالأدنى على الأعلى، وقد يكون من قبيل التنبيه بالأعلى على الأدنى، وقد يكون من قبيل المساوي، وليس في (من خصى عبده) شيء من هذا، فليس فيه تنبيه بشيء على شيء، أما حديث (من قتل عبده قتلناه) فيه تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإذا كان عبده يقتل به فيقتل بعبد غير عبده من باب أولى، ولذلك صح أن يكون قوله تعالى: (من قتل عبده قتلناه) دليلاً على قتل الحر بالعبد من باب فحوى الخطاب، ولم يصح قوله: (من جدع عبده)، (من خصى عبده) أن يكون دليلاً على أن من جدع غيره يجدع به، ومن خصى غيره يخصى به، وإذا لم يصح دليلاً على القصاص فيما جاء نصاً به وهو الجدع والخصاء، فلا يصح أن يكون دليلاً على القصاص في غيرهما، وعليه لا يصح أن يكون هذان الحديثان دليلاً على القصاص في الأعضاء. ثم إنَّهُ من تتبع الأحاديث نجد أنه لم يصح ولا حديث واحد في القصاص في أي عضو من أعضاء الجسم. وعليه فإنه لا قصاص في أعضاء الجسم مطلقاً، فلا تقلع عين من قلع عين غيره، ولا تقطع أذن من قطع أذن غيره، ولا تقطع شفة من قطع شفة غيره، لأن آية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة 45) في حق اليهود وليست في حقنا ولسنا مخاطبين بها وشرع من قبلنا ليس شرعاً لنا، ولأنه لم يأت في ذلك نص لا من كتاب الله ولا من سنة رسول الله. وبما أنه قد وردت أحاديث صحيحة في دية كل عضو من أعضاء الجسم، فتكون عقوبة أي عضو من أعضاء الجسم هي الدية الواردة في نص الحديث بشأن ذلك العضو.

هذا بالنسبة لأعضاء الجسم، أما بالنسبة لعظام الجسم فهناك دليل من السنة على أن عظم السن يجري فيه القصاص. فقد أخرج البخاري عن أنس (أن الربيع ـ عمة أنس ـ كسرت ثنية جارية فطلبوا إليهم العفو فأبوا فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله عليه الصلاة والسلام فأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الربيع؟! لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (كتاب الله القصاص، فرضي القوم فعفوا)

فسقط القصاص لأنه حق شخصي. فهذا الحديث فيه دلالة على أن عظم السن إذا كسر ففيه القصاص، أي يكسر سن من كسره.

إلا أن الحديث فيه أمور يقتضي أن تلاحظ حين الاستدلال به، فمنها: إن قول الرسول: (كتاب الله القصاص)، ليس إشارة إلى آية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ (المائدة 45)، وإنما هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ (البقرة 178)، أما آية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ إنما تكون الإشارة إليها بقاعدة السن بالسن، لأنها مشهورةٌ بها، بل أشهر ما فيها هو قاعدة (السن بالسن)، فكونه قال: (كتاب الله القصاص) يدل على أن المقصود آية القصاص، وهي قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ (البقرة 178) وليس آية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ (المائدة 45)، وأيضاً فإن آية ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ لم تعبر عن عقوبة الأعضاء بالقصاص، وإنما عددت الأعضاء التي يجري فيها حكم قاعدة السن بالسن عند بني إسرائيل، وأما القصاص فقد عبرت به عن عقوبة الجراح، فبعد أن عددت الأعضاء انتقلت إلى الجراح فقالت: ﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ (المائدة 45) والحادثة حادثة عظم وليست حادثة جراح، لذلك لا تكون إشارة إلى آية ﴿ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِ ﴾ بل إلى آية القصاص وهي قوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ ، ومنها أن الحديث نص على السن وحده فهو دليل على وجوب القصاص في السن ليس غير، فلا يصح أن يستدل به على القصاص في عظم آخر لأن النص خاص بالسن، ولا يوجد هنا قياس ولا شبهة القياس، فلا يكون الحديث دليلاً على القصاص في أي عظم من عظام الجسم، ومن باب أولى أن لا يكون دليلاً على أي عضو من أعضاء الجسم وليس في عضو من أعضاء الجسم، فهو في عظم السن خاصة.

فهذه الأمور إذا لوحظت عند الاستدلال بالحديث دلت على أن السن إذا كسرت يجري فيها القصاص، ولا يجري القصاص في غيرها من العظام مطلقاً لعدم وجود دليل على ذلك، ولأن حديث أنس لا يدل إلا على كسر السن. ومن هذا يتبين أنه لا قصاص في أي عضو من أعضاء جسم الإنسان، ولا قصاص في أي عظم من عظام جسم الإنسان سوى السن إذا كسرت. وإنما عقوبة كل عضو ما ورد بشأنها في الحديث من الأرش.

ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل: السن بالسن، وإنما قال: القصاص، وهـذا يعني أن تجري في السن المماثلة عند العقوبة، فإن كسرت السن تكسر سـن مـن كـسرها، وإن قلعت السن تقلع سن من قلعها وإن قُلِقِلَت من مكانها مجرد قلقلة فُعل بسن الكـاسر كـذلك، بمعرفة مختص ولم تعدم بلاد المسلمين من المختصين، ولكن القضية قضية قناعة والتـزام، فـإن من يشترك في رجم الزاني أو قطع يد سارق، لا يصعب عليه البتة تنفيذ أمر القـاضي الـشرعي بالتكنولوجيا الحديثة التي سخرها الله لعبادِهِ الصالحين، ليطبق حكم الله في القصاص. غير أنه يجب أن يعلم أنه كما ورد القصاص في السن وردت الدية في السن، فقد جـاء في كتـاب النبـي عليه الصلاة والسلام إلى عمرو بن جزم حين بعثه إلى اليمن: (وفي السن خمـس مـن الإبـل). فمتى يجب القصاص ومتى تجب الدية؟ يقول بعض الفقهاء: إن القصاص في السن إنما هو في العمد، فمن أصاب سن أحد عمداً ففيه القصاص كما هو حديث أنـس، وأمـا في غـير العمـد ففيه الدية، على ذلك فإنه إن ضربه قاصداً كسر سنه بشيء يكسر غالباً أو بفعل الغالب منـه أن يكسر السن، أو بشيء لا يكسر السن ولكن اقترن بـشيء يجعلـه يكـسر الـسن، فإنـه في هـذه الحالات فقط يكون عمداً ويجري القصاص، أما إن ضربه غير قاصد كـسر سـنه أو بـشيء لا يكسر السن وكسر سنه، فإنه لا قصاص وإنما تجب الدية وهي خمس من الإبل، هذا هو حكـم القصاص في أعضاء جسم الإنسان وفي عظام جسم الإنسان، فلا قـصاص في أي عـضو مـن أعضاء جسم الإنسان مطلقاً، ولا قصاص في أي عظم من عظام جسم الإنسان سوى الـسن، ففيه وحده القصاص إن كان الكسر عمداً.

وأما الجراح وهي التي في البدن فإن القصاص فيها ثابت بالسنة، ففي صحيح مسلم عـن أنس ـ أن أم حارثة ـ جرحت إنساناً فاختصموا إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقـال رسـول الله عليه الصلاة والسلام: (القصاص القصاص) علماً أن القصاص في هذه الحالـة لم يطبـق بـسبب تنازل أهل المجروح، كما هو ثابت في نهاية الحديث. وعن جابر أن رجلاً جـرح رجـلاً فـأراد أن يستقيد: (فنهى النبي عليه الصلاة والسلام أن يستقاد من الجارح حتى يبرأ المجروح).

غير أن القود في الجراح لا يجري إلا إذا تـوفرت شروطـه التـي فهمهـا الفقهـاء، فمـن شروطه أن يكون عمداً، فإن كان غير عمد أي خطأ فلا قود، وفيـه ديـة. ومـن شروطـه أن لا

يكون مخوفاً أي أن لا يخشى من القصاص موت المقتص منه، فإن كان مخوفاً، أي يخشى منه الهلاك فلا قصاص وفيه مال (تعويض). ومن شروطه أن لا يكون مما لا يوصل القصاص فيه إلا بأن يخطئ الضارب أو يزيد أو ينقص، فإن كان كذلك فلا قصاص، وكذلك لا قصاص إذا عفا صاحب الحق، أو إذا أخذ الدية أو التعويض وترك طلب القصاص. والقصاص إنما يجري إذا طلب المجني عليه، فإن لم يطلب فلا قصاص لأنه حق العبد، فإذا توفرت هذه الشروط يجري القصاص، وإذا اختل شرط فلا قصاص، وإنما تكون عقوبتها المالية الواردة في الشرع، ولا يجري القصاص إلا بعد أن يندمل الجرح ويبرأ لحديث جابر.

هذا في الجراح وهي التي في البدن. وأما الشجاج فهي التي في الرأس فلا قود فيها أي لا يجري فيها القصاص وذلك لأنها لا تدخل تحت أحاديث الجراح، لأنها ليست جراحاً، ولا يطلق عليها اسم الجراح، ومعروف عند العلماء أن الشجاج في الرأس، والجراح في البدن، فلا تكون أحاديث الجراح دليلاً عليها، لأنها لا تدل عليها لا لغة ولا شرعاً، ثم إنَّه لم يرد نص يدل على القصاص في الشجاج لا في الكتاب ولا في السنة، ولذلك كانت عقوبة الشجاج هي الدية الواردة في السنة.

ومن ذلك كله يتبين أن عقوبة ما دون النفس فيها تفصيل، فأعضاء جسم الإنسان جميعها، وعظام جسم الإنسان جميعها ما عدا الأسنان، والشجاج أي الجراح التي في الرأس، عقوبتها جميعها عقوبة مالية بحتة، وهي الدية الواردة في السنة ولا عقوبة بدنية فيها، فلا قود أي لا قصاص، وأما الأسنان والجراح التي في البدن، فلها عقوبة بدنية وعقوبة مالية، فالأسنان إن كان الاعتداء عليها عمداً أي خطأ، أو ترك المجني عليه القصاص وطلب الدية، ففي الحالتين فيها الدية ليس غير أن تكون حينئذٍ عقوبتها عقوبة مالية. والجراح إن استوفت شروطها جميعها ولم يترك المجني عليه القصاص فإن عقوبتها حينئذ عقوبة بدنية وهو القود أي القصاص، وإن اختل شرط من شروطها أو ترك المجني عليه القصاص فحينئذ تكون عقوبتها عقوبة مالية وبالله المستعان.

19/ 5/ 1998م

الرسول لا يجتهد بالوحي
عصمة الرسول من عقائد المسلمين

إشارة إلى الموضوع المنشور في صحيفتكم الغراء العدد رقم / 7702/ تاريخ 30/ 12/ 1999م، تحت عنوان (علماء مسلمون يؤكدون اجتهاد الرسول يعتد به والقول بعكس ذلك يخالف الشريعة) ولما هذا الموضوع من أهمية عقدية لأنه تطرق إلى موضوع عصمة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، باعتبار العصمة من عقائد المسلمين، والعقائد بإجماع علماء الأصول يحتاج ثبوتها إلى دليل قطعي الثبوت وقطعي الدلالة، ولم يقل عالم من علماء المسلمين الأوائل بجواز أن يكون دليل الأصول أو الاعتقاد دليلاً ظنياً، ولقد أكد على ذلك الإمام الشاطبي في كتاب الموافقات (إن أصول الفقه في الدين قطعية لا ظنية، والدليل على ذلك أنها راجعة إلى كليات الشريعة، وما كان كذلك فهو قطعي) وكذلك الإمام الأسنوي، في كتابه (نهاية السؤال عند الكلام على دلالة الفعل) من حيث إنَّ الدليل الظني لا يعتبر قال: (وأما بالآحاد إن أفادت فإنها تفيد الظن، والشارع إنما أجاز الظن في المسائل العملية، وهي الفروع دون العلمية كقواعد أصول الدين وكذلك قواعد أصول الفقه كما نقله الأنباري شارح البرهان عن العلماء قاطبة) القول بأن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم اجتهد في بعض الأحكام، وأنه أخطأ في بعض اجتهاده ثم صحح الله له هذا الخطأ، يعني أنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ الناس شريعته من اجتهاده الشخصي لا من وحي الله إليه، فهذا كله باطل عقلاً لأن محمداً صلى الله عليه وسلم كباقي الأنبياء والرسل معصوم عن الخطأ فيما يبلغه عن الله تعالى عصمة قطعيَّة دل عليها الدليل العقلي. وفوق ذلك فإنه ورد الدليل الشرعي القطعي الثبوت والدلالة على أن تبليغه عليه الصلاة والسلام الرسالة في كلياتها وجزئياتها إنما كان عن الوحي، وما كان يبلغ الأحكام إلا عن الوحي قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ﴾ (الأنبياء 45)، أي قل لهم يا محمد إنما أنذركم بالوحي الذي أنزل علي، مما يعني أن مصدره محصور بالوحي.

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل 44).

أي البيان يأخذ حكم المبين وكله محصور بالوحي وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم 3-4) فكلمة (ما ينطبق) من صيغ العموم ويشمل ذلك القرآن والسنة ولا يوجد ما يخصصها بالقرآن لا من الكتاب ولا من السنة، فتبقى على عمومها أي إنّ جميع ما ينطقه من التشريع هو من الله سبحانه وتعالى.

وقد اختص الوحي فيما يبلغه عن الله من تشريع وغيره من الأحكام والعقائد والأفكار والقصص، ولم يشمل الوسائل والأساليب من أمور الدنيا من أعمال الزراعة والصناعة والعلوم وما شاكلها، فقد حصل هذا التخصيص بأمرين: الأول بوجود نصوص أخرى جاءت مخصصة في غير التشريع كما في قوله عليه الصلاة والسلام في موضع تأبير النخل (أنتم أدرى بأمور دنياكم..) رواه مسلم، وقوله للمسلمين في معركة بدر عن مكان إلنزول حين سأله الحباب بن المنذر رضي الله عنه أهو وحي من الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: هو الرأي والحرب والمكيدة. أما الأمر الثاني الذي خصص الوحي بالتشريع والعقائد والأحكام وغير ذلك واضح من موضوع البحث، ذلك أن محمد رسول، والبحث هو فيما أرسل به لا في غير ذلك فكان موضوع الكلام هو المخصص، وصيغة العموم عامة بما تبقى في الموضوع التي جاءت به ولا تضم جميع المواضيع.

فالعبرة هي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والمراد بالسبب هو الحادثة التي نزل بسببها القرآن فالموضوع ليس خاصاً بل هو عام لجميع الحوادث ولكنه يبقى في موضوع الكلام لا في جميع المواضيع.

وموضوع بحث الوحي هو الإنذار، أي إبلاغ الناس التشريع والأحكام قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ﴾ (الأنبياء 45) وقوله: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (ص 70) يبين أن المراد هو ما أتى به من العقائد والأحكام وما أمر بتبليغه والإنذار به. وذلك لا يشمل استعمال الأساليب أو أفعاله الجبلية عليه الصلاة والسلام التي تكون من جبلة الإنسان، ومن طبيعة خلقته كالمشي والنطق والأكل.. الخ إلا إذا دل عليه النص بالحل أو الحرمة. ولذا يختص الإنذار بما يتعلق بالعقائد والأحكام. وما أمر بتبليغه من كل ما يتعلق بأفعال العباد والأفكار هو وحي من الله.

ويشمل الوحي أقوال الرسول وأفعاله وسكوته فنحن مأمورون باتّباعِهِ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ (الحشر 7).

وقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب 21)، فكلام الرسول وفعله وسكوته دليل شرعي لكونه وحياً من الله سبحانه وتعالى.

وقد كان رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحي ويبلغ ما يأتيه من الله تعالى، ويعالج الأمور بحسب الوحي ولا يخرج عن الوحي مطلقاً قال تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (الأحقاف 9) وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ﴾ (الأعراف 203)، أي لا أتّبعُ إلا ما يوحى إلي من ربي. ولذلك كان لزاماً على من يؤمن بالقرآن اتّباعُ الرسول عليه الصلاة والسلام وهذا كله صريح وواضح وظاهر في العموم، فكل ما يتعلق به عليه الصلاة والسلام مما هو مأمور بتبليغه هو وحي ليس إلا.

وكانت حياة الرسول التشريعية في بيان الأحكام للناس سائرة على ذلك، فكان عليه الصلاة والسلام ينتظر الوحي في كثير من الأحيان كالظهار واللعان وغيرهما. وما كان يقول حكماً في مسألة أو يفعل فعلاً تشريعياً أو يسكت سكوتاً تشريعياً إلا عن وحي من الله تعالى. وقد كان يختلط على الصحابة في بعض الأحيان الحكم في فعل من أفعال العباد بالرأي والمشورة، فإن قال لهم: إنّه وحي سكتوا لأنهم عرفوا أنه ليس من عنده كما حصل يوم صلح الحديبية، وإن قال لهم: بل هو الرأي والمشورة تناقشوا معه، وربما اتبع رأيهم كما في غزوات بدر وأحد والخندق. وكان يقول لهم في غير ما يبلغه عن الله (أنتم أدرى بأمور دنياكم) كما ورد في حديث تأبير النخل ولو كان الرسول ينطق في التشريع عن غير وحي لما كان ينتظر الوحي حتى يقول الحكم، إذ لو لم يكن كذلك لناقشوه من غير سؤال، وعلى ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام كان لا يصدر في قوله أو فعله أو سكوته إلا عن وحي من الله سبحانه وتعالى لا عن رأي من عنده، ولم يكن عليه الصلاة والسلام مجتهداً قط، إذ لا يجوز الاجتهاد عليه شرعاً وعقلاً. فالدليل الشرعي على ذلك هو الآيات الصريحة التي تدل على حصر جميع ذلك بالوحي: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ﴾ (الأنبياء 45). ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ (الأحقاف 9). ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ (النجم 3).

والدليل العقلي هو أنه عليه الصلاة والسلام كان ينتظر الوحي في كثير من الأحكام مع الحاجة العاجلة لبيان حكم الله في حينه فلو جاز له الاجتهاد لما أَخَّر الحكم حتى نزول الوحي، فذلك دل على أنه لم يجتهد، ولا يجوز في حقه الاجتهاد. وعلاوة على ذلك فإن الاجتهاد معناه احتمال وقوع الخطأ، وبما أنه صلى الله عليه وسلم واجب الاتّباع، فيعني أنه لو اجتهد وأخطأ لوجب علينا اتّباعُ الخطأ، وهذا أمر باطل لأن الله لا يمكن أن يأمر باتّباعِ الخطأ، وفوق كل ذلك فإنه معصوم من الخطأ في التبليغ، ولا يجوز في حقه احتمال الخطأ في التبليغ مطلقاً، لأن جواز الخطأ على الرسول ينافي مقومات الرسالة والنبوة. فالإقرار بالرسالة والنبوة يحتم الإيمان بعدم جواز الخطأ على الرسول في التبليغ وعصمته من ذلك. وعليه فلا مجال مطلقاً للاجتهاد فيما يبلغه من الأحكام بقوله، كما لا يقال: إنّ الله لا يقره على الخطأ، وأنه يبينه له سريعاً، لأن الخطأ في الاجتهاد حين يحصل من الرسول يصبح فرضاً على المسلمين أن يتبعوه حتى يحصل البيان، فيكون هذا البيان مجدداً لحكم آخر غير الحكم الأول يؤمر المسلمون باتّباعِهِ وبترك الأول وهو الخطأ. لا يقال ذلك لأن هذا قول باطل ولا يجوز في حق الرسول أن يبلغ حكماً ثم يقول للناس إن ذلك الحكم خطأ لأنه من عندي والصواب هو ما جاءني من الله ثم يأمر بترك الحكم الأول واتّباعِ الحكم الثاني، لا يجوز اعتبار أي دليل عقلي على أمر شرعي، لأن الأمر الشرعي يجب أن يكون دليله شرعياً، لأن الأمر الذي دليله شرعي هو الحكم الشرعي. أما العقائد فإن دليلها يكون عقلياً ويكون شرعياً. فمسألة أن الرسول مجتهد أو غير مجتهد هو من العقائد وليس من الأحكام فدليله يكون عقلياً ويكون شرعياً. وحيث إنَّه ثبت بالدليل العقلي والدليل الشرعي أنه لا يجوز في حق الرسول أن يكون مجتهداً فهو عقيدة من العقائد يجب التصديق والإيمان الجازم بها.

وأما الآيات التي أوردها من يقولون بأن الرسول اجتهد بالفعل والتي توهموا حصول الاجتها فيها، فإنه لا يوجد آية تؤيد ذلك مطلقاً فمثل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (الأنفال 67) ومثل قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ (التوبة 43) ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ

عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ (التوبة 84) وكقوله تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ (عبس 1 ـ 2)، وغير ذلك من قبيل هذه الآيات فإنها كلها لا تدخل أبداً ضمن باب الاجتهاد في أحكام الشرع، وإنما أتت من قبيل تحديد الأولويات أي تحدد ما هو الأولى بالرسول أن يقوم به. فلم يحدث أن بلغ الرسول حكماً معيناً للناس ثم تبين خطأ الحكم الذي بلغه وتطلب منه تبليغ الصواب في هذا الحكم، ولكن ما حدث هو أن الرسول قام بعمل من الأعمال تطبيقاً لحكم شرعي من أحكام الله التي سبق أن نزل بها الوحي وبلغها الرسول للناس، ثم خالف الرسول ما هو الأولى به أن يقوم به حسب هذا الحكم، ولا يعد تحديد الأولى تشريعاً لحكم جديد فالحكم كان مشروعاً وكان الرسول مأموراً به وبتبليغه. ففي الحوادث التي جاءت بها هذه الآيات قام عليه الصلاة والسلام بالعمل حسب ما أمر الله، إلا أن قيامه كان خلاف الأولى بين الخيارين، والأنبياء والرسل يجوز عليهم شرعاً وعقلاً أن يفعلوا خلاف الأولى.

إن معنى خلاف الأولى أن يكون أمر مباح ولكن بعض أعماله أولى من بعضه، أو أن يكون هناك أمر مندوب ولكن بعض أعمالِهِ أولى من بعضه، فمباح للمرء مثلاً أن يسكن المدن أو أن يسكن القرى ولكن سكنى المدن أولى من سكنى القرى لتاجر الجملة و لصاحب المصنع أو لمن يرغب بتحصيل التعليم العالي، فإذا سكن القرى فعلى خلاف الأولى. وإعطاء الصدقة سراً وجهراً أمر مندوب، ولكن إعطاءها سراً أولى من إعطائها جهراً، فإذا أعطاها علناً فعل خلاف الأولى، فالرسول عليه الصلاة والسلام يجوز عليه كسائر البشر أن يقوم بما هو خلاف الأولى بين الخيارين، والتمعن في الآيات التي وردت بهذا الصدد تجد أن منطوق الآيات ومفهومها ودلالتها يدل على ذلك.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الأنفال 67). يدل على أن الأسر كان مشروعاً بشرط سبق الإثخان، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ ﴾ (محمد 4) التي جاءت في سورة محمد التي نزلت قبل سورة الأنفال فقد سبق أن نزل حكم في سورة محمد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ

تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد 4) فحكم الأسرى كان نازلاً ومعروفاً قبل نزول الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ في سورة الأنفال. ولذا لم يكن ينبغي له أن يأخذ الأسرى حتى يثخن، والمراد بالإثخان هو القتل والتخويف الشديد وليس من شرط الإثخان في الأرض قتل جميع الناس، إذ إنَّ المسلمين يوم بدر قتلوا كثيراً من أعدائهم وأسروا الكثير وهذا جائز من آية سورة محمد التي هي سورة القتال ومن هذه الآية نفسها، التي تدل على أنه بعد الإثخان يجوز الأسر، فصارت هذه الآية دالة دلالة بينة على أن ذلك الأسر كان جائزاً بحكم هذه الآية. ولا تدل الآية على أن الرسول قد اجتهد في حكم الأسرى حين أسر وجاءت الآية تصحح اجتهاده، ولا أن الأسر الذي فعله الرسول عليه الصلاة والسلام في بدر كان تشريعاً فجاءت الآية تبين خطأه وكذلك لا تدل على أن الأسر كان ذنباً مخالفاً للحكم الذي نزل ولكن تدل على أن الرسول في تطبيق حكم الأسرى الوارد في آية محمد: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ في معركة بدر ـ كان الأولى أن يشد أكثر في القتل والقتال حتى يكون الإثخان أبرز، وبعد ذلك يتم أخذ الأسرى. فنزلت الآية موضحة أنَّ الإثخان قد حدث على وجه هو خلاف الأولى، لأن الأولى أن يكون أكثر من ذلك وليست تشريعاً لحكم جديد، ولا تصحيحاً لاجتهاد شخصي فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يأسر يوم بدر إلا بعد أن اعتقد بوصفه قائداً للمعركة أنه قد أثخن قبل أن يأسر تطبيقاً لحكم الإثخان المنزل سابقاً، ولكن لفظ الإثخان (والالتزام بحدوده) تختلف فيه القيادات، أي يختلف فيه قدر الإثخان من حيث التكتيك وليس من حيث وقوع الإثخان. فالخلاف إذن من حيث التكتيك ـ كما يقولون الآن ـ وليس من حيث الإستراتيجية، وهذا موضوع من قبيل الرأي والحرب والمكيدة وليس له علاقة بتشريع جديد أو باجتهاد من الرسول عليه الصلاة والسلام، فالإثخان المشرع مسبقاً قد حصل من النبي ولكن من باب أولى أن يكون أكثر من ذلك.

وأما قوله تعالى في تمام الآية: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال الآية 67)، فهو وصف لرغبة بعض الصحابة رضوان الله عليهم وهم بشر وليسوا ملائكة في أخذ الأسرى قبل الإكثار في الإثخان طمعاً في فداء هؤلاء

الأسرى وطمعاً بأخذ حطام الدنيا من ذلك الفداء، مع أن الله يريد إعزاز دينه بقتلهم في المعركة لا بأخذهم أسرى. والعتاب ليس في أخذ الفداء وإنما في أخذ الأسرى قبل تحقق الإثخان. وأما قوله تعالى في الآية التالية لتلك الآية ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال 68)، فإنه ليس فيه وعيد من الله بالعذاب على أخذ الأسرى كما يتوهم البعض، بل هو بيان للنتائج التي كان يمكن أن تترتب على أخذ الأسرى قبل المبالغة بالإثخان، وهي خسران المعركة وإصابة المسلمين بالقتل من الكفار وذلك هو المراد بالعذاب العظيم وليس عذاب الله. فالآية تعني أنه لولا علم الله بأنكم ستنتصرون لأصابكم بسبب أخذكم الأسرى قبل المبالغة بالإثخان انكسار وهزيمة من أعدائكم. وإطلاق كلمة (العذاب) بمعنى القتل في الحرب جاءت كذلك في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ (التوبة الآية 14).

ولذلك فلا يتأتى أن يكون معناها عذاب الله. إن الخطاب عام للرسول والمؤمنين، فعذاب الله للرسول غير وارد، وإن عدت الآية تصحيح اجتهاد ـ على حد تعبير البعض ـ فهو خطأ معفو عنه ولا يستحق عليه عذاباً من الله وإن عدت عتاباً على خلاف الأولى كما هو الواقع فلا يستحق عليها عذاباً من الله. ولذا فلا يتأتى مطلقاً أن يفهم من كلمة (العذاب) عذاب من الله، بل المراد بها أنه لأصابكم قتل وإذلال من أعدائكم.

وأما الأحاديث الواردة في سبب نزول هذه الآية وفي قصصها فإنها أخبار آحاد ولا تصلح دليلاً على العقيدة بل تصلح دليلاً على الأحكام الشرعية، وجواز الاجتهاد في حق الرسول وعدم جوازه من أمور العقيدة التي لا يقبل فيها إلا الدليل القطعي الثبوت القطعي الدلالة. وفوق ذلك جوازه في أمور العقيدة التي لا يقبل فيها إلا الدليل القطعي وهو النص الصريح الوارد في سورة محمد في حكم الأسرى وكونه كان نازلاً مسبقاً، فحكم الأسرى من الأحكام الشرعية التي ينتظر فيها الرسول الوحي ولا يشاور أصحابه بشأنها ولا يعمل الرسول بما يشير به أصحابه في أمر شرعي ثم ينزل الوحي فيصححه لأن ذلك يجعل تشريع الأحكام بالمشورة وبالرأي لا بالوحي، وهذا كلام بمنتهى الخطورة، تعامل معه الوحي بمنتهى الصرامة في سورة الحاقة منذراً رسوله محمد عليه الصلاة

والسلام بالالتزام بالوحي، وأن لا يخرج عما أمر به من ربه فهو مبلغ وليس بمجتهد، قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ (الحاقة 44 إلى 47).

وأما قوله: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة الآية 43) فإنها لا تدل على اجتهاد، لأنه سبق أن نزل حكم بأنه يجوز للرسول أن يأذن لمن شاء وقد جاء ذلك في سورة النور التي نزلت قبل سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ (النور 62) وقد نزلت هذه السورة بعد سورة الحشر في معركة الخندق، وآية: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ جاءت في سورة التوبة ونزلت في شأن غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. فالحكم كان معروفاً وآية النور صريحة تدل على أنه يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يأذن لمن يشاء ولكن في تلك الحادثة التي نزلت فيها آية التوبة وهي غزوة تبوك وتجهيز جيش العسرة، كان الأولى به عليه السلام أن لا يأذن للمنافقين في التخلف، وإنه لا يفهم من كلمة عفا كما يفهم البعض بأن الرسول قد أذنب وغفر الله سبحانه وتعالى خطأه، وهذا خلاف ما أثبتناه شرعاً وعقلاً بل عفا هنا بمعنى الترك وعدم الاكتراث لغة، لأن هذه الآية جواب على ما روَّجه المنافقون بعد أن أذن الرسول للبعض. فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لا تكترث يا محمد بما يقولون، فهي كاستعمالنا، لبيان العبارة ـ أي أهمله ـ إذن هذه الآية ليست تصحيحاً لاجتهاد ولا تشريعاً لحكم يخالف حكماً كان الرسول قد اجتهد في الحادثة نفسها، وإنما هو فعل على ما هو خلاف الأولى.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (التوبة الآية 84)، فإنها جاءت بعد قوله تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ (التوبة الآية 83) وقد أمر الله الرسول في آية: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ بأن لا يصحبهم الرسول وذلك لتخذيلهم وإهانتهم حتى لا ينالوا شرف الجهاد والخروج مع الرسول. وأمره في الآية التي

بعدها مباشرة وهي ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ أن يمعن في إذلالهم بعدم الصلاة عليهم أو أن يقوم على قبره، فهذه الآية والآية التي قبلها والتي بعدها تبين أحكام المنافقين والكيفية التي يجب أن يعاملوا بها من الاحتقار والإنزال عن رتبة المؤمنين. وليس في هذه الآية ما يدل على أن الرسول قد اجتهد في حكم، وهذه الآيات منسجمة مع آيات المنافقين المكررة في السورة نفسها، ولا يظهر في أي منها لا صراحة ولا دلالة ولا منطوقاً ولا مفهوماً حتى ما يثير أدنى شبهة أن فيها تصحيحاً أو تنبيهاً على خطأ.

وأما ما ورد في شأن نزول الآية ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾ من أخبار فهي آحاد ولا تصلح دليلاً على العقائد وتعارض الدليل القطعي الذي يحصر تبليغ الرسول للأحكام بما جاء به الوحي ليس غير، وأنه لا يتبع إلا الوحي.

وأما قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ فليس فيها أي وجه دلالة في العتاب للرسول، لانشغاله بشخصيات مهمة طمعاً في إيمانهم ليشدوا أَزْر هذا الدين أمثال الوليد بن المغيرة وعمرو بن هشام (أبو جهل) ـ حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعوا (اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين) ـ لانشغاله عن شخص مؤمن من خيار الصحابة يستطيع عليه الصلاة والسلام أن يجيبه في أي وقت لاحق، والرسول عليه الصلاة والسلام مكلف بتبليغ الفقير والغني والقوي والضعيف، وأن انتباه الرسول إلى القوي في مرحلة ضعف المسلمين في مكة كان من واجباته عليه الصلاة والسلام بوصفه مبلغاً، وعليه أن يركز على ما فيه قوة للمسلمين.

وهكذا يثبت عقلاً وشرعاً بأن من كمال العقيدة الإسلامية الإيمان الجازم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجوز في حقه مطلقاً أن يكون مجتهداً في التشريع بل هو مبلِّغٌ، وإن اجتهاده عليه الصلاة والسلام كغيره من سائر البشر واجب عليه وليس جائزاً فقد في كل ما هو من قبيل الأمور المدنية التي تشمل الرأي والحرب والمكيدة من خطط وأساليب وعلوم وتكتيك وبذل الرعاية والعناية لتحقيق مصالح المسامين في هذا الخصوص.

وأضيف بأن عدم تفريق بعض علماء المسلمين بين ما هو من الحضارة وما هو من المدنيَّة أوقعهم في هذا الالتباس الخطير، كما أن خلطهم بين شخصية الرسول عليه الصلاة

والسلام المبلغ عن أمر ربه (الرسول، النبي) وبين شخصيته البشرية (قاضي، قائد، رجل دولة، خبير...) هو الذي أوقع بعض العلماء الأولين والمعاصرين في هذا الخطأ الخطير، الذي ترك المجال لبعض ذوي النوايا السيئة أن يعملوا على صرف الإسلام من التصور الإلهي (الوحي) إلى التصور البشري (الواقع) من حيث يعلمون أو لا يعلمون.

15/ 1/ 2000م

الحاسة السادسة

إشارة إلى ما كتبتم في زاويتكم اليومية في صحيفة الشرق الأوسط الخميس 7 صفر 1421هـ الموافق 11/ 5/ 2000م تحت عنوان الحاسّة السادسة موجودة أعلق مختصراً بما يلي:

إن جوهر التقاطع الوحيد بين قراءتكم وقراءتي لما يسمى بالحاسة السادسة يكمن في نقطة واحدة وهي: هل ما سمي بالحاسة السادسة هو عملية غريزية ترجع إلى الحواس وما يتعلق بها من مشاعر وعواطف فقط أو هو عملية تستخدم فيها المعلومات السابقة (الأدوات المعرفية) عند الإحساس بواقع مادي أو معنوي، والجواب هو:

1 ـ الغرائز والحاجات العضوية موجودة عند الحيوان وعند الإنسان، وهي خواص (مقدرات) فطر الله سبحانه وتعالى عليها الكائنات الحية العاقلة وغير العاقلة.

2 ـ هذه الغرائز الكامنة تخرج عن كمونها بوجود مؤثرات مادية أو معنوية (الواقع) لتبحث عن إشباع معين بوسيلة من الوسائل من خلال دوافع غريزية طبيعية فطرية، وإذا لم يتم هذا الإشباع مع وجود المؤثر الخارجي يعيش الحيوان والإنسان في حالة عدم توازن وقلق بسبب وجود التناقض بين الدوافع الفطرية الناجمة عن الغرائز وبين وسائل إشباعها.

3 ـ أجمع العلماء قديمهم وحديثهم على وجود خمس حواس عند الحيوان وعند الإنسان تقوم هذه الحواس بنقل الواقع إلى الدماغ ليصار هناك إلى اتخاذ قرار أو القيام بتصرف أو سلوك. فهي تقوم مقام الرادار وأدوات الاستشعار عن بعد.

4 ـ أجمع علماء الطب على أن نهايات شبكة الأعصاب الحسية (الجهاز العصبي) وهي الحواس قادرة على نقل الواقع إلى الدماغ عند الإنسان وعند الحيوان، وكلاهما قادر على استرجاع الإحساس وتكراره.

5 ـ إن دماغ الإنسان فقط فيه المقدرة على تفسير الإحساسات وربطها بما قبلها وما بعدها من معلومات سابقة يصل بها إلى أحداث متوقعة ربطاً عقلياً وليس استرجاعاً غريزياً للإحساس مربوطاً بالإشباع الغريزي فقط كما هو عند الحيوان.

بناءً على ما تقدم أقول:

إن الحس لا يحصل منه فكر، بل الذي يحصل هو الحس فقط، أي الإحساس بالواقع مهما تكرر نوع الإحساس، ولكي يحدث الفكر لابد من وجود معلومات سابقة يفسر بواسطتها الواقع الذي أحس به.

والذي يجعل الإنسان يدرك ليس الدماغ، وإنما المعلومات السابقة مع الدماغ ومع الواقع الذي يحسه، والماركسية هي الفلسفة الوحيدة المادية التي عرَّفت الفكر، بأنه انعكاس للمادة على الدماغ، فعبرت عن الإحساس بالانعكاس، وأنكرت المعلومات السابقة للحكم على الواقع، وجعلت الواقع مصدر التفكير وليس موضعاً له. وبذلك اشتركت مع الحيوان بأن مصدر الفكر هو الواقع. واعتبرت ذلك قفزة نوعية في تطوير الفلسفة الهيغلية التي قالت بسبق التفكير للواقع عندما عرفت الفكر بأنه انعكاس للدماغ على الواقع وكلاهما سرق من الفلسفة اليونانية التي سبقتهم في تصور نظرية خاطئة للمعرفة.

إن أمثلة سعادتكم عن تجنب الحفرة (والحريق) وسلوك المرأة حيال طفلها، لهي أدلة كافية على أن ما أسميه حاسة سادسة عند الإنسان، إن هو إلا عملية عقلية محضة. استعملت فيها المعلومات السابقة لتفسير الإحساس بالواقع من قبل الدماغ. لأن مظهر الخوف الذي هو مظهر من مظاهر غريزة حب البقاء هو الذي يدفع الإنسان لاستخدام معلوماته السابقة بأن الغاز يحترق والطفل يختنق، ولقد علمنا الإسلام الربط بين الأسباب والمسببات من أجل إمكانية الوصول إلى نتائج، ولو تركت الأمور على غاربها للعواطف والمشاعر لسيطرت شطحات الصوفية والقدرية الغيبية على سلوك الإنسان. وحتى لا نخلط بين التفكير والتوهم، كلنا يعلم كم كرَّة قامت المرأة إلى ولدها بدافع الشعور الغريزي ووجدته على خير ما يرام.

إن ربط الأسباب بالمسببات واجب شرعي، وهذا ليس له علاقة بقدر الله سبحانه وتعالى الذي لم يطلع عليه أحد، فالتقصير بالأسباب إثم كبير والرضى بقدر الله طاعة واجبة. أما ما ذكره سعادتكم عن الإنسان البدائي، فعلماً أني لا أقر بوجود إنسان بدائي

وإنسان حديث، لأن دماغ الإنسان فيه قوة الربط منذ خلقه الله سبحانه وتعالى (وعلم آدم الأسماء كلها...) فالإنسان قادر على زيادة معلوماته واستخدامها. إلا أنَّ ما ذكرتموه يؤدي بشكل واضح بأن الحاسة السادسة موجودة عند الحيوان وهي بقايا من الفترة التي كان الإنسان قريباً من عالم الحيوان، كما تقولون، فالإنسان عندما ترقى حسب فهمكم لم يعد بحاجة للحاسة السادسة المتوهمة، لأنه أصبح عنده التفكير العقلي. فهي لازمة للحيوان فقط كما هو إقراركم.

إن مصطلحات (الموهبة والملكة والإبداع والانقداح، والفراسة والتوسم) كلها مصطلحات تدل على أن صاحبها بلغت بِهِ العبقرية في مجال ما بحيث اعتاد استخدام حواسه الخمسة مجتمعة في إحساس بواقع ما لتفسير الحدث بموجب معلوماته وخبرته ومستشاريه وكذلك يفعل القادة والمفكرون في كل مجال. وإن من سموا عباقرة من سياسيين وعسكريين أو فنانين إضافة إلى إرهاف الإدراك الغريزي الذي يشترك به الإنسان والحيوان، أضافوا الإدراك العقلي فكانوا من الناجحين. فوصفهم الناس بالعباقرة نظراً لسرعة البديهة في اتخاذ قراراتهم، فظن البعض أنهم ملهمون.

إن ما أسميته بالحدس والإلهام والإدراك النابع من تداعي الأفكار السريعة ليس إلا تفكيراً عقلياً محضاً، ناتجاً عن مراس وخبرة ومعلومات واهتمام وحرص، وهذا ما جعل الناس يظنون أن هذا السلوك بناءً على حاسة سادسة متوهمة، لأنهم خلطوا بين الإحساس الغريزي والإدراك العقلي حيث فضل الله الإنسان على الحيوان بأن عنده (إدراكاً غريزياً + إدراكاً عقلياً).

11/ 5/ 2000م

لعنة دولي

درس السيد فرويد أصل الأنواع وبحث في علم الوراثة (الجيني) للإنسان والحيوان والنبات، وأثر الجينات في الخلق والتغيير والتطور، وتوصل بأن القرد هو الأصل النوعي للإنسان، إلا أن من سوء طالعه ضاع عند الحلقة المفقودة واندثرت نظريته ولم يبق منها إلا بعد نظره في اشتراك الإنسان مع القرد في حب التقليد والتماهي وذلك بالقفز على الكراسي كونُه دبلوماسياً وسياسياً، ولقد مات فرويد من غير أن يستطيع إثبات أن اللعب بجيْناتِ الإنسان والحيوان يؤدي إلى تحسن مفيد في ما أسماه الأنواع الجديدة للكائن الحي.

أما السيد أينشتاين فلقد استطاع أن يحدث تغييراً حقيقياً في جينات المواد، وذلك عن طريق اللعب في تركيب الذرات وذلك بقذف (نيترون) إلى داخل الذرة، مما لا يستطيع أن يحتمله النظام الذي جرت الخلقة على أساسه فتفجرت الذرة بسبب إدخال ما ليس من الطبيعة على الطبيعة، فحدث خلل في المعادلة التي تستمر بموجبها الحياة الطبيعية، لأن المادة خلقت بموجب نظام معين قسري وبمعادلة متوازنة لا يمكن اللعب بها، وإن أي تغيير بهذا النظام يؤدي حتماً إلى الخروج عن الظروف التي تجعل المادة تستمر في الحركة ضمن نظام مخصوص، وإن الخروج من هذا النظام يعني الوصول إلى مرحلة الفلتان الأمني والفوضى غير المنظمة التي تجعل الحياة على خلاف الطبيعة، مما يجعل انتهاء الذرة وفنائها حتمياً بسبب امتداد اليد البشرية للعبث بالنظام الإلهي.

ولقد استمر الإنسان بالعبث في النظام الكوني فأقدم على ما أسماه العلماء بالاستنساخ، وذلك بتفريغ المادة الجينية (المورثات) من نواة البويضة، وإدخال المواد المورثة لخلية أخرى إليها لإيجاد نوع من الحياة بمواصفات جينية منفردة بالوسيلة الاصطناعية، وبذلك أعتقد بأنه أتى بما لم تأت به الأوائل من إمكانية تحسين النوع البشري فأطلت علينا النعجة العليلة (دولي). ذكرني بما تقدم المرض المستشري الآن بالثروة الحيوانية في أوربا والذي أسموه (الحمى القلاعية) التي تهدد قطعان المواشي في أوربا بالهلاك، حيث تهم الحكومة البريطانية الآن بإتلاف (مليون) رأس من الغنم لعلهم

يتمكنون من إيقاف هذا الوباء، ومن قبل ذلك الوباء الذي لحق بقطعان الأبقار في أوربا بما أسموه (جنون البقر).

إن إقدام العالم الغربي الرأسمالي الجشع على اختراق كل القيم من أجل تحقيق المنفعة والربح المادي، هو الذي دفعهم إلى اللعب بالمورّثات (الجينات) الخلقية، وهو السبب في هذه الكوارث البيئية، حيث أقدموا على اللعب بالنظام الكوني الحياتي الذي هو نظام الفطرة الطبيعي، باعتبار الإنسان كائناً صناعياً وليس كائناً اجتماعياً، فدمروا البيئة وأضعفوا النسل بسبب توهمهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً فلاقوا وبال أمرهم، والمستقبل المخفي أعظم، ورحم الله من علق على جنون البقر بقوله (أنا لا أستغرب لماذا يجن البقر بل يجب أن يجن فهل من المعقول أن تلعب بثديي البقرة (الحلب) بشكل يومي ولا يقترب منها الثور سوى مرة واحدة في السنة أو تلقحها اصطناعياً، ألا يكفي هذا للجنون)؟!

20/ 3/ 2001م

الاستقرار والحركة

الاستقرار يأتي من السكون، والسكون ضد الحركة، وعندما يعم السكون يعم الهدوء، وإذا عم الهدوء دخل الناس في مرحلة البلادة، والبلادة تقتل التفكير، وإذا قتل التفكير شلت الحركة وإذا شلت الحركة صدئتِ العقول وتأكسدت أغشية الأدمغة، وتعرقل وصول الدم إلى الخلايا، وهذا يسبب نقص التروية التي من شأنها أن تؤدي إلى الجلطات الدماغية، وحدوث جلطة يؤدي إلى الموت أو الشلل، والشلل إما أن يكون كلياً أو نصفياً، أي إما أن تسكن وتستقر نهائياً أو تعيش عالة على الآخرين، فإن مت استرحت، وإن استمرت الحياة فأنت موجود ولكن لست موجوداً، أنت شيء من الأشياء ولكنك لست عقلاً يفكر في جسد يتحرك، أنت ساكن ومستقر، أنت كالجدول الذي وصل إلى مجراه فاستقر وسكن وركد ونبتت فيه الطحالب والطفيليات والفطريات وماتت فيه الكائنات الحية المفيدة بسبب نقص الأوكسجين، وخرجت منه الروائح الكريهة بسبب الكون.

العكس صحيح، التغيير أساس للتطور، والتطور وليد الحركة، والحركة تحرض العقل على التفكير والتأمل، وإذا خرج العقل من أسر الواقع وهيمنة الضغط والإكراه والتدجين، انتقل من السكون والاستقرار إلى الحركة والإبداع وإذا سرت هذه الروح في المجتمع تفتحت المواهب وانطلقت الإبداعات، وانتقل من استقرار آسن إلى تغيير مبدع.

20/ 3/ 2001م

الموقع ـ المسؤولية ـ المنصب

* ثلاثة ألفاظ يظن أنها مترادفة، ولكنها في الحقيقة متغايرة ومتباينة، مع فروقات دقيقة تعبر عن وساعة اللغة العربية في ترجمة معاني الألفاظ والمصطلحات، وحيث إنَّ هذه الألفاظ من الألفاظ المشتركة في أصل اللغة، واللفظ المشترك هو الذي يعبر عن معانٍ مختلفة، ويحدد المعنى موقع هذا اللفظ في الجملة وسياق الموضوع، لأن اللفظ أداة من أدوات التعبير في اللغة، بما في ذلك المعنى اللغوي الذي استخدم فيه اللفظ في أصل اللغة، وينصرف المعنى اللغوي إلى المعنى المجازي حسب استعمالات العرب. وسوف نقصر معاني هذه الألفاظ الثلاثة على المعاني المجازية في ما يخص الإدارة والحكم.

* إن كون المرء في موقع لا يحتم أن يكون مسؤولاً في دولة أو في منصب حكم وإدارة. لأن موقع إنسان هو الذي يحدد قوته وأثره على القرار الصادر عن الهيئات الرسمية في الدولة، فقد يكون في موقع المتنفذ القادر على الإيحاء بالقرار كما هو حال أهل الفعاليات الاقتصادية في أي دولة من الدول، كرؤساء الشركات الكبرى وأعضاء غرف التجارة والصناعة أو مشايخ القبائل أو ممثلي الهيئات الدينية، وهذا الواقع يظهر للعيان في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية، حيث يستطيع أصحاب الشركات الكبرى ومالكو أجهزة الإعلام كعوائل (فورد، روكفلر) أن يؤثروا في القرار السياسي من خلال موقعهم الاقتصادي، ولقد قيل في حق (فورد): إنَّه لم يخالف القانون قط، لأنه هو الذي يصنع القانون، فيفصله بشكل ديمقراطي على مقاسه. وكذلك حال رؤساء الكنائس الأنجليكانية في بريطانيا، والكاثوليكية في فرنسا والأرثوذكسية في روسيا، وحال البابا كراعي للكنيسة الكاثوليكية في العالم. أما في العالم الثالث فإن كثيرين في مواقع تجعلهم يؤثرون على القرار السياسي والاقتصادي من خلال مواقعهم، ولقد قيل في حق إمبراطور روما (إني أحكم روما، وإن زوجتي تحكمني لأن ابني الصغير يحكم زوجتي، إذن إن ابني يحكم روما).

* بناءً على ذلك نجد أن المرء كونه في موقع معين لا يشترط أن يكون بالضرورة صاحب منصب وسلطان، لأن المنصب هو صلاحية سياسية أو إدارية قد يجلس فيه من

يستحق ومن لا يستحق فهو سلطة آمرة قسرية ولكن لا يعني أن من وصل إليه مؤهل، فقد يكون أهلاً لذلك وقد لا يكون.

* أما المسؤولية فهي قد تختلف عن صاحب الموقع وعن صاحب المنصب، لأن صاحب المسؤولية لم يوجد بالصدفة في موقع أو منصب، بل هو شخص عنده الاهتمام بشؤون الناس والوطن فهو متحسس هموم الناس ومشاكلهم ويشعر بالمسؤولية تجاههم، لذلك يجد بأن المنصب هو هم وابتلاء وتكليفاً وليس تشريفاً، وأكثر من عبر عن ذلك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، عندما قال (والله لو عثرت شاة على الفرات لخشيت أن يسألني الله عنها لمَ لم أعبد لها الطريق).

* ذلك فإن من الممكن أن يكون الإنسان مسؤولاً من خلال منصب معين وأن يكون مسؤولاً وليس له موقع أو منصب، وأكثر الثلاثة هموماً، هو من كان من خلال موقع معين يمارس مسؤولية منصب معين، أعان الله هذا الإنسان الذي يسهر على سلامة الناس وهم نيام، وحاله يقول أنتم تنامون وأنا أسهر على خدمتكم ومحاسب أمامكم وأمام الله عن كل تقصير.

2001/10/11

خطاب مفتوح إلى دعاة المجتمع المدني

دأبت أجهزة الإعلام الواسعة الانتشار في الآونة الأخيرة بالتركيز على فكرة المجتمع المدني، فتداولت المحطات الفضائية ووسائل الإعلام المقروءة وجهات النظر المختلفة من متعارضة ومتناقضة بهذا الخصوص، زاعمة أن المناداة بالمجتمع المدني يحل أزمات المجتمع والشعوب والأمم والدول.

أزعم حسب علمي ومتابعتي لما نشر من كتابات وما بث من خلال الفضائيات وما قيل في المنتديات من رأي ورأي آخر واتجاه معاكس، على لسان من أسموهم مثقفين ومفكرين، أزعم أن أحداً منهم لم يحدد مفهوم المجتمع المدني بشكل جامع مانع، فكان حالهم حال عميان تلمس كل منهم عضواً من أعضاء فيل، فمن لمس ساقه قال هذه نخلة، ومن لمس خرطومه قال هذا حبل، ومن لمس أذنه قال هذه مروحة، وكذلك حال من لا يستعمل حواسه جميعاً لتشخيص الواقع المادي الماثل أمامه.

ضاع هؤلاء المتعلمون (الأكاديميون) حملة الشهادات العليا في تشخيص المرض لأنهم ظنوا أنفسهم مثقفين وهم في الحقيقة متعلمون فقط قادرون على إعطاء محاضرات جامعية لطلاب ينظرون إلى أستاذهم أنه شيء كبير قادر على إعطائهم معلوماتٍ تمكنهم من الحصول على علامات ليكونوا في عداد الناجحين.

أنا لا ألوم هؤلاء المتعلمين لأننا جميعاً افتقدنا من سنين طويلة العيش في وسط سياسي يمكننا من معرفة هموم الشعوب والأمم والدول، أفتقد الجميع في العالم العربي والإسلامي جو الحرية والإبداع الذي يمكن المواطن من مزاولة دوره في المجتمع والدولة، أصبحنا جميعاً نفكر في أنفسنا وأسرنا ومصالحنا، وتركنا هموم الوطن والشعب والدولة، فأصبنا بحالة مرضِية، هي عدم الاكتراث بالأمور العامة والاهتمام بالمصالح الخاصة، فحملنا الشهادات العليا وانفصلنا عن المجتمع وأصبنا بالاكتئاب وقصر النظر فهل ينطبق على أحد منا تعريف المثقف، لا أعتقد ذلك، فإن هذا الوسط لا يمكن أن ينتج مثقفين ومفكرين ولو أنه أنتج متعلمين.

إن فكرة المجتمع المدني بالشكل والأساليب التي طرحت به إعلامياً، هي فكرة ذرائعية (ميكافيلية) وغير صحيحة، يطرحها البعض بحسن أو سوء نية، من أجل

زحزحة الحكام عن مراكزهم، ثم إزالتهم بطريقة التقسيط المريح، ولقد فهم الحكام جيداً هذه الرسالة، وإنهم سوف لن يسمحوا بذلك طالما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

كان الأولى بحملة الشهادات العليا من الذين وقعوا على بيان / 99/ وبيان الألف في سوريا، أن يسلكوا طريقاً أوضح وأنظف من الطريق الذي سلكوه.

كان المفروض أن يكون خطابهم خطاباً واعياً، وبحدود فهمهم وإدراكهم الدستوري للحكم الجديد بأسلوب النصيحة وليس الفضيحة، فإن من طبيعة الحكام في كل زمان ومكان أن لهم هيبة، وإذا مست هيبتهم ثارت حفيظتهم، وأغلقت عقولهم.

كان عليهم أن يجعلوا النظام في سوريا يدرك بأن الحكم في العالم كله حكم فرديّ منذ خلق الله هذه الخليقة وحتى الآن، وأن للدول مؤسسات قادرة على التأثير على رئيس الدولة، وأن الديمقراطية الغربية أكذوبة كبرى لم تتحقق على الواقع قط، وأن أعتى ديكتاتورية في العالم هي الديكتوريات الغربية التي تحكم الولايات المتحدة وأوربا الغربية من خلال مؤسسات اقتصادية هي الصانع الحقيقي للقرار، وهذا لا يقدح بهذه الأنظمة لأن هذه سنة من سنن الحياة، ولكن الذي يعيبها أن تكذب وتدعي بأنها تطبق الديمقراطية التي كانت خيالاً في ذهن أفلاطون وستبقى لذلك إلى الأبد وهي (حكم الشعب بالشعب وللشعب والأمة مصدر السلطات).

إن ما ذكر أعلاه مما كان يجب على المتعلمين أن يفهموه، لا يعني أن يكون الحاكم مستبداً، بل يعني أن يكون حاكماً فرداً، فهو يقود البلاد حقيقة عن طريق اللجان الاستشارية في كافة مرافق الدولة، وهو الذي يستمع إليهم ويناقشهم، ثم يتبنى الرأي الأرجح للصواب فيصبح قانوناً تشريعياً سواءً أخطأ أم أصاب، وهذا ما يحدث في الدنيا قاطبة، وخلافه ديكوراً أو نفاقاً على الشعوب والأمم.

كان عليهم أن يفهموا الحاكم بأنه رئيس للشعب وليس للحزب، وأنه مسؤول عن الناس وعن الحيوان وعن النبات باعتباره القائد الأعلى للدولة، وأن الشعب كل الشعب أمانة في عنقه، وأنه مسؤول عن المال العام، وأن أي مختلس ومسيء سيكون عرضة للمساءلة والعقوبة، وأن القانون لا يستثني حاكماً أو محكوماً فالجميع يطولهم القانون.

كان عليهم أن يفهموا الحاكم أنهم يحبون هذا البلد كما هو يحبه، وأنهم مستعدون للتضحية من أجل مستقبل هذا البلد وأن لهم الحق في إبداء الرأي ومعارضة سياسة الحكام وتبيان خطئهم ومحاسبتهم وهذا ليس بمنة على الشعب بل واجب عليه، وأن الأحزاب السياسية ضرورة وطنية لمحاسبة الحكام على ما يتخذون من قرارات، وأن البلد بدون أحزاب تكون مزرعة للطفيليات والمغرضين والمستفيدين.

وأن الأحزاب السياسية ليست مجموعة من الشخصيات والأبناء والأصدقاء العاطلين عن العمل بعد أن انتهى مفعولهم السياسي، فأصبحوا عالة على الأمة والدولة.

وأن واجب الشعب أن يقول وواجب الحاكم أن يسمع، لكن في النهاية القرار بيد الحاكم، والمحاسبة حق الشعب ولا أحد فوق القانون، وكما قال معاوية الخليفة الأموي حاكم دمشق لبطانته التي تريده أن يبطش بخصومه (**لهم الحق أن يقولوا ما يريدون، ولنا الحق أن نفعل ما نراه صواباً، على أن لا يحملوا علينا السلاح**).

كان عليهم أن يفهموا الحاكم بأن الجيش والمؤسسات الأمنية إنما وجدت من أجل حماية الدولة خارجياً، وصون كرامة الوطن وحماية أمنه داخلياً، وليست وسيلة من وسائل البطش والذل وهدر الكرامة.

وأن الشعب هو الذي يدعم الجيش والأجهزة الأمنية، وهو عمقها الإستراتيجي وإن أي شرخ بين الشعب وحماته هو خطأ قاتل وفظيع يعرض الدولة والشعب للضياع، كما قال كونفوشيوس (**تقام الدولة على طعام يكفي الشعب وجيش يذود عن حماه، وولاء الشعب للدولة، وإن قلة الطعام تميت أفراداً من الشعب، وإن الشعب كله جيش، أما انعدام ولاء الشعب فإنه يميت الأمة نفسها**) وإن الشعب الذي انتخب الحاكم برضا واختيار هو الذي يحميه ويذود عنه وهو الذي يدعمه ويسير أمامه ووراءه، ويلتف من حوله، وإن ولاء الأجهزة ساعة وولاء الشعب حتى قيام الساعة، وإنَّ الشعب ليس له مصلحة خاصة، وإنَّ ولاءَه مطلق للحاكم الذي يخدم الدستور عندما يعدل بهذا الشعب وينصفه من ظلم وجور أصحاب المصالح الآنية، وإنَّ حاكماً يقود شعباً عزيزاً في وطن عزيز لن يغلب أبداً داخلياً وخارجياً.

2001/12/16م

معنى أن تكون حزبياً

الحزب هو مجموعة من الناس آمنت بأفكار محددة واعتقدتها وتعمل في سبيلها لتتحقق كعلاقات في واقع المجتمع والدولة.

المفترض أن ينطبق هذا التعريف على واقع أي حزب عقائدي يهتم بالمصلحة العامة، من هذا التعريف الجامع المانع تستمد مواصفات الحزب والحزبيّين.

وحيث إنَّ الحزب يقوم على حزبيّين آمنوا بأفكار، وأن الخلل إذا نفذ إلى الفكر فيكون قد نفذ إلى الحزب، فمن هذا المنطلق يجب أن ندرس طريقة كيف يكون الإنسان حزبياً.

لا يكون الإنسان حزبياً إلا إذا جذبته أفكار الحزب، ولا يمكن للأفكار أن تجذب إنساناً معيّناً إلا إذا درسها وراجعها وتعايش معها حتى أصبحت تسيطر على كل ذرة من ذراته، أي حلت هذه الأفكار في شخصيته وتمكنت منها لدرجة السيطرة عليها، بحيث تصبح هذه الأفكار هي المسيرة لاعتقاده وسلوكه.

إذا سيطرت أفكار الحزب على الشخص أهلته لأن يكون حزبياً، وهذا يفسر كون الحزبي يبدأ نصيراً ثم يصل إلى مرحلة الحزبي، فمرحلة التثقيف هي التي تعمل على غرس أفكار الحزب في شخصيته فتتفاعل معه وتصبح شغله الشاغل، فتبعده عن كل ارتباط شخصي أو مصلحي دوني أو مذهبي أو عشائري، فيصبح الدافع الرئيسي لهذا التغيير في حياته أن يحول أفكار الحزب لتكون أفكاراً للمجتمع نتيجة القناعة والرضا وإدراك الناس أن هذه الأفكار هي التي تحقق لهم العيش الكريم كأفراد والسيادة والعزة للدولة والمجتمع.

إن مرحلة الكفاح السلبي لأي حزب من الأحزاب هي التي تفرز من المجتمع الثلة الواعية والفئة المختارة وهم من أشد الناس حساسية لقضايا المجتمع ومن أكثرهم استعداداً للتضحية في سبيل أفكار الحزب.

إن الخطر يكمن في مرحلة الكفاح الإيجابي، وهي المرحلة التي يصل فيها الحزب إلى السلطة، حيث يعمل لتطبيق أفكاره في واقع الدولة والمجتمع، وهنا تكمن الخطورة على نفسيات وعقليات ودوافع الوافدين الجدد إلى الحزب، حيث تبدأ كوامن المصالح

الشخصية في التحرك في هذه المرحلة، ولهذا على قيادة الحزب أن تكون حريصة جداً على منع دخول أي إنسان للحزب لا يكون من جنسه ولا يصل إلى رقي أفكاره، وإن مرحلة النصير هي التي تؤهل هذا الإنسان فتجعله أهلاً لأن يكون حزبياً أم لا.

إن الأحزاب العقائدية الكبرى كالحزب الشيوعي الماركسي الذي حكم الاتحاد السوفييتي لأكثر من سبعين سنة لهو أقرب مثال على كيفية انهيار النظم والأحزاب والدول.

إن السرعة التي انهار بها الحزب الشيوعي والاتحاد السوفييتي شيء قريب من الخيال، ولكن إذا درسنا كيف وصل المتسلقون إلى قيادات الحزب، وكيف وصل من أسموا أنفسهم إصلاحيّين (الواقعيين)، ونهبوا خيرات الاتحاد السوفييتي باسم الحزب العقائدي، مما جعل فارقاً كبيراً بينهم وبين الشعوب التي من المفترض أن تحميهم من المرتدين، لكن الهول الكبير عندما أصبحت الردة هي الأساس في قيادات الحزب، فسرقت القيادات الدولة والشعب وظهر المتسلقون الجدد الذين نهبوا خيرات البلاد وأصبحوا يملكون المليارات وليس الملايين.

هنا انهار الاتحاد السوفييتي، عندما انهارت قياداته وانسلخت عن أفكارها العلمية وسيطرت عليها المصالح الدونية، فقضى على الحزب وعلى الدولة أربعة أشخاص أصبحوا هم رؤساء روسيا وبيلا روسيا وأوكرانيا وكازاخستان، فكيف يقضي على دولة تتزعم تياراً عالمياً وثاني دولة في العالم بأربعة أشخاص، وتباع نياشين ضباطها في سوق الأحد، وتباع دباباتها وطائراتها من قبل ضباطها، وتنهب ثروات البلد على أيدي الحزبيّين القدامى والجدد، وتوزع أساطيل الاتحاد السوفييتي على الكيانات الجديدة المفرزة عن دولة الاتحاد السوفييتي العظيم.

إن وجود المتسلّقين في أي حزب من الأحزاب الذين وصلوا إلى مراكز القيادة بدون استحقاق من حيث الوعي الفكري والولاء الحزبي، فوصلوا عن طريق الولاء الشخصي والمصلحي، هؤلاء هم الخطر الكامن الذين فقدوا الاستعداد للدفاع عن منجزات الحزب والثورة، وانغمسوا في أوساط البورجوازية والبيروقراطية.

هذه الكوادر التي فككت الاتحاد السوفييتي العظيم الذي أسسه لينين وطوره ستالين بالقهر والذل، لم يكن لها أن تقضي على قوة نووية أسطورية لو كان شعب الاتحاد السوفييتي مستعداً للتضحية دفاعاً عن الفكر الماركسي والدولة السوفييتية، ولكن شعباً ذليلاً خضع لتسلط واستبداد الحكام بالقوة والقهر لن يدافع عن ديكتاتور فرض نفسه على الأمة والمجتمع بفكر مادي مضاد للفطرة والغريزة. وهذه نهاية أي حزب لا تحتضنه الأمة ولم تأت به الشعوب للسلطة.

2003م

رد على مقال للأستاذ المحامي نذير سنان في الاقتصادية
تعديل قانون الأحوال الشخصية

اطلعت على ما نشرته صحيفتكم الغراء بخصوص آراء حول ضرورة تعديل قانون الأحوال الشخصية السوري للمحامي الأستاذ نذير سنان ورد الأستاذ المحامي محمد الحكم جنكو، كما وصلني رد للأستاذ مأمون جويجاتي، ولقد أدلى كل منهم بدلوه، ولقد فتحت صدرها مجلتكم للجميع وهي مشكورة على ذلك، وآمل أن يتسع صدرها أكثر وتعطيني المساحة اللازمة مساهمة في إغناء هذا الحوار الذي لا ينفي تعارض الرأي والرأي الآخر، وكما يقولون إن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية.

إن مقترحات الأستاذ نذير سنان في تعديل قانون الأحوال الشخصية السوري غاب عنها الحقائق التالية:

1 ـ إن قانون الأحوال الشخصية السوري، راعى فيه المشرع أنه قانون يحكم العلاقات الشخصية بين المسلمين، وأن مصادر التشريع في الإسلام هي كتاب الله وسنّة رسوله وما يتبعها من مصادر تبعية على خلاف بين الفقهاء، ولذلك لا يعتبر من مصادر التشريع علوم المنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع، حيث العبرة في قوة الدليل الشرعي الذي يعين الحلال والحرام والمندوب والمكروه والمباح، هذا الدليل الشرعي هو الذي يعطي المسلم الحق بالقيام أو الامتناع عن فعل معين، بغض النظر عما إذا ناقض الرأي أفكار الغرب والمستشرقين أو خالف ما عليه الآباء من عادات وتقاليد.

2 ـ إن الشرع هو الذي يحسن أو يقبّح الفعل، فما حسنه الشرع فهو حسن وما قبحه الشرع فهو قبيح، وإن دور العقل ينحصر في التشريع بفهم الدليل الشرعي وفهم الواقع المادي ومدى انطباق الدليل على الواقع، وهذه هي العملية الاجتهادية التي يقوم فيها المجتهدون المؤهلون لإعطاء رأي في واقع معين بغض النظر عما إذا وافق هذا الرأي رغبات وشهوات إنسان أم خالفها، فإن الذي يحكم السلوك البشري عند المسلم هو الشرع وليس الهوى.

3 ـ إن ما سمي بحقوق المرأة وظلم المرأة أفكار دخيلة على الأمة الإسلامية، تسربت من المجتمعات الغربية التي استبدت بالمرأة وهضمت حقوقها واعتبرتها سلعة من

السلع، فحصلت على بعض الحقوق بطريق التطور التاريخي، حيث استطاع الرجل الغربي الجشع أن يطور حقوق المرأة من مرحلة العبودية القسرية الجبرية إلى مرحلة العبودية الاختيارية كما هو حاصل الآن في أسواق الغرب من نيويورك إلى كوبنهاغن.

ـ إن الإسلام خاطب الإنسان كقوة عاقلة مفكرة ولم يخاطب الرجل أو المرأة، بل كان موضوع الخطاب هو الإنسان بعقله وغرائزه وحاجاته العضوية، فكان خطاب الإسلام دائماً (يا أيها الناس...)، (يا أيها الذين آمنوا...) فالله سبحانه وتعالى لم يخاطب الرجل أو المرأة بخطاب مخصوص إلاّ إذا تعلّق الأمر بحاجة خلقية جبلية، (كما هي أحكام الحيض والنفاس والحجاب والحضانة...) بالنسبة للمرأة، وأحكام (القوامة والنفقة والرعاية) بالنسبة للرجل، فالأصل بالخطاب هو الإنسان العاقل المفكر بغض النظر عن كونه ذكراً أو أنثى.

4 ـ ليس الأستاذ نذير بل كثير من المفكرين وبعض علماء المسلمين وعلماء المنطق وعلم النفس خلطوا بين ما هو من أنظمة المجتمع، وما هو من النظام الاجتماعي بالنسبة إلى المرأة، إن أنظمة المجتمع يخضع لها الإنسان بوصفه إنساناً عاقلاً مكلفاً بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة، بينما النظام الاجتماعي ينظم العلاقات بين الرجل والمرأة على اعتبار الميل الفطري والغريزي الموجود في كل منهما للآخر، حتى تستمر الحياة عن طريق استمرار النسل، فمتى تملك المرأة طلاق نفسها، أو متى يكون لها حق حضانة الصغير هو من النظام الاجتماعي. أما علاقات الاقتصاد والمعاملات والحكم والسياسة والعقوبات والتعليم هي من أنظمة المجتمع التي لا تميز بين رجل وامرأة.

ـ فالمرأة شاركت في الحياة السياسية منذ البعثة النبوية، فكان أول شهيد في الإسلام امرأة هي (سمية) رضي الله عنها ولم يكن رجلاً، وأباح لها الشرع العمل في التجارة كما هو حال الرجل، فهي تبيع وتشتري وتزاول كل صنوف الأعمال التجارية، وأباح لها كافة وظائف الدولة فلها أن تكون قاضية وعضواً في مجلس الشورى (مجلس الشعب) فالشرع لم يفرّق بين رجل وأنثى في كل ما هو من الوظائف العامة.

5 ـ للمرأة في الإسلام شخصية مالية مستقلة، ولقد سبق الإسلام كافة التشريعات الوضعية في هذا المجال، فللمرأة ذمة مالية مستقلة كما هي للرجل منذ ولادتها وحتى

وفاتها، فهي تتصرف بأموالها على الوجه الشرعي بدون وصاية أو قوامة طالما أنها ليست سفيهة أو معتوهة أو مغفلة حكمها حكم الرجل في التصرف بأمواله، وينطبق عليها ما ينطبق على الرجل. ولها أن توكل زوجها في إدارة أموالها وتعطيه أجراً على ذلك، كما لها أن توكل غيره ولا حرج، كما لها أن تتصدق على زوجها إن كان محتاجاً أو تعطيه من الزكاة إن كان من مستحقيها.

6 ـ واجب الرجل أن يدفع الصداق لزوجته وأن ينفق عليها وعلى أولادها وأن يسكنها السكن الذي يسكن به أمثالها. كما أن لها زيادة على ذلك ان تأخذ منه ثمن حليبها إن أرضعت أطفاله، ولها عليه نفقة الخادم إن كانت من أهل ذلك عرفاً. والمرأة تستحق كل ذلك ولو كانت ثرية وزوجها فقير معدم، ولو كان مندوباً على المرأة الأصيلة أن لا تترك زوجها في عوز وفقر وهي في غنى وقادرة على مساعدته، حيث إن ذلك ليس واجباً عليها بل مندوب بحقها وتؤجر على ذلك.

ـ للمرأة حق طلب الطلاق من زوجها إن لم يتمكن من الإنفاق عليها، كما أن لها حقاً أن تأخذ من ماله إن كان قادراً بخيلاً، وورد في قصة هند زوجة أبي سفيان رضي الله عنه عندما شكت لرسول الله عليه الصلاة والسلام شح أبا سفيان، فقال: (خذي من ماله وولدك ما يكفيك بالمعروف).

7 ـ للمرأة أن تشترط على خاطبها أن تكون العصمة في يدها، وأن تملك حق طلاق نفسها عندما يوافق الزوج على شرطها كوكيلة عنه، قوله عليه الصلاة والسلام: (المسلمون عند شروطهم، وكل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل...)، ولقد توسع السادة الحنابلة في الشروط التعاقدية بين الرجل والمرأة، وفي ذلك تفصيل ليس مجاله هذه العجالة.

ـ حيث إن الأستاذ نذير لم يتقيد بما ذكر أعلاه من الالتزام بمصادر التشريع الإسلامي في الفهم والإدراك، وغلب عليه ما ظنه إنصافاً للمرأة مما تصوره اضطهاداً وظلماً عانته من جراء سوء تطبيق قانون الأحوال الشخصية السوري، وهذا يقتضي التوضيح على النحو التالي:

التعدد في الزواج والعلاقات الجنسية:

ـ إن تعدد العلاقات الجنسية موجود في الحياة منذ خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون وخلق الرجل والمرأة. وقد يكون هذا التعدد مشروعاً أو غير مشروع حسب عقائد الناس وأعرافها، وإن الشرائع السماوية الثلاث قد حددت العلاقة الجنسية المشروعة بالزواج بين رجل وامرأة تحل له شرعاً بموجب ما شرعت هذه الأديان.

ـ وإن الشرائع الثلاثة قد حرّمت العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج وأسمت هذه العلاقة (زنى) سواءً أكان بالتراضي أم القسر، فيما هو يسمى الاغتصاب.

ـ إن الواقع الحسي والعملي في الحياة يثبت وجود العلاقات الجنسية غير المشروعة عند البشر بغض النظر عن ديانتهم، مسلمين أو نصارى أو يهوداً، ولكن ليس كجزء من شرائعهم بل كسلوك بشري غريزي. والإسلام بوصفه أحد الأديان السماوية الثلاثة قد حدد العلاقات الجنسية في إطار الزواج، وأباح للزوج أن يجمع على عصمته في وقت واحد أربع زوجات كحد أعلى، وإن الإباحة لا تعني الوجوب، بل تعني جواز الفعل أو الترك.

إن الغريزة الجنسية فيها قابلية الإثارة سواء بالمقروء أو المرئي أو بتداعي الأفكار، وهذه الغريزة تحتاج إلى إشباع، وإذا لم تشبع عند الرجل أو المرأة يعيش الإنسان في قلق وعلى خلاف الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وإشباع الغريزة إما أن يكون بالطريق الصحيح وهو الزواج الذي شرعته كافة الأديان وأقرته الأعراف عند الشعوب التي لا تدين بعقائد سماوية، أو يكون إشباعاً بطريق خاطئ وهو الزنى، أو بالطريق الشاذ وهو اللواط والسحاق أو إتيان الحيوان كما هو حال المجتمعات الغربية.

ـ لقد وجد الإشباع الجنسي الخاطئ أو الشاذ مع وجود الشعوب والأمم والخلق على وجه هذه البسيطة ولكن، لم يشرع كقوانين تجعل الفاحشة سلوكاً مشروعاً إلاّ في العصور الحديثة وخاصة في القرن العشرين، حيث أخذت في العالم الغربي وضعها القانوني الذي يجعل منها أمراً مألوفاً ليس للناس العاديين بل لعلية القوم من حكام ووزراء ورجال أعمال متنفذون، مارسوا الجنس بشكل مبتذل، منهم من مارسه

في البيت الأبيض مقر الحكم كالرئيس الأمريكي كلينتون مع المتدربة مونيكا لوينسكي والرئيس كينيدي مع مارلين مونرو، ومنهم من مارسه في مكتبه الحكومي مع خادمة كوزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق إسحاق مردخاي، ومنهم من زاوله في الحدائق العامة والمراحيض (تواليت) كوزراء بريطانيين كثر عزلتهم تاتشر من مجلس وزرائها، ومنهم من اعترف على (التلفزيون) كالأميرة ديانا ومنهم من اعترف للصحف كولي عهد بريطانيا (الأمير تشارلز)، ومنهم من كتبت عنه صحف (التابلو) كالأميرة مارجريت أخت ملكة بريطانيا وابنتها الأميرة (آنا)، وأميرة ويلز سارة جفرسون زوجة الأمير إدوارد الابن الثاني لملكة بريطانيا، وهذا غيض من فيض، ولكن أحببت أن أذكركم ببعض الحالات التي يمارسها علية القوم، فكيف بأسافل الناس؟ والتي تجعل الإشباع الجنسي أمراً ضرورياً. حيث إما أن ينظم هذا الإشباع من خلال واقع البشر وميله الجنسي بشكل يراعي تنظيم استمرار النسل، أو أن يختلط حابل بنابل وتصبح الشعوب قطعاناً تحركها غرائزها دون ضوابط أو مقاييس.

ـ إن الزنى وجد في بعض الحالات عند المسلمين، منهم من ستره الله سبحانه وتعالى وبقي يطمع بمغفرة الله، ومنهم من أصر على الرسول عليه الصلاة والسلام ليوقع عليه قصاص الزاني في الدنيا تطهيراً له من عذاب الآخرة، مثل ماعز والغامدية رضي الله عنهما. ولمعرفة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى بضعف البشر، حاول عليه الصلاة والسلام أن يصرف النظر عن اعترافات الزاني في حضرته الشريفة، فقال له: لعلك قبلت، لعلك لامست... وأشاح وجهه الكريم عنه، ولكن التقوى عند الرعيل الأول من الصحابة جعلهم يصرّون على اعترافاتهم ويفضلون التطهير عن طريق إيقاع حد الزاني، على عذاب الآخرة.

ـ حاول الهرب ماعز رضي الله عنه أثناء تطبيق حد الزنا، إلا أن الجمع الذي كان ينفذ حد الرجم لم يمكّنه من ذلك، وعندما علم بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك قال: (لولا تركتم صاحبكم...)، وهذا يدل على أنه يجوز للزاني المعترف في مجلس قضاء رسمي أن يعود عن اعترافه، وعند ذلك لا يوقع عليه حد الزنا، بل توقع عليه

عقوبة ما دون الزنا. وهذه من رحمة الإسلام بالإنسان، حيث علم الله ضعفه وإمكانية الوقوع في الخطأ بسبب الخضوع المؤقت إلى الدوافع الغريزية.

ـ لقد سقت هذه الرواية المروية في الصحاح من السنة النبوية لأوضح بأن رغبة الميل الجنسي عند الرجل والمرأة فطرية، وهي غريزة تظهر قوتها بموجب المؤثرات التي يخضع لها الإنسان.

ـ حيال ما تقدم أقول: تعدد العلاقات الجنسية موجود عند العالم الغربي وهو جزء من حضارته ومفاهيمه الفكرية، وجميعهم يزاولون متعة الجنس كما هي متعة الطعام والشراب، ولكن خارج إطار الزواج، (العاهرة، الخليلة ـ girl friend, percetute) مأجورة وغير مأجورة، وسواء اتخذتها متعة أو مهنة، ومن لم يتوفر له ذلك قام بعمليات السطو والاغتصاب، ومن لم يتوفر له ذلك مارس الجنس مع الحيوان من كلا الجنسين، ومن لم يتوفر له ذلك مارس الجنس مع المحارم. ويكفي الغرب الذي لا يؤمن بتعدد الزوجات أن أكثر من 30٪ من حالات (فض البكارة) في بريطانيا قام بها الآباء المبجلون حسب إحصاءات رسمية نشرتها صحف بريطانية. هذا غيض من فيض لمفاخر الغرب الذي يقول بعدم التعدد، ولكنه يفعل التعدد يومياً ويمارسه حقيقة، لكن بشكل حيواني وبدون احترام لكرامة المرأة، كما هو حاصل في (Dow Town) مركز المدن الكبرى في نيويورك وباريس ولندن وفرانكفورت.

ـ إن الحضارة الغربية أفرزت مجتمعاً حيوانياً (بهائمياً) حول المرأة إلى سلعة طالما أنها نضرة مشتهاة للأكل كالفاكهة الطازجة، ولكن ما أسرع ما ترمى في صندوق القمامة بعد أن يذهب رحيقها ونضارتها بانتهاء مفعولها (Expired) وتحال على التقاعد متسكعة على طرقات المدن الكبرى، أو في إحدى منازل المعاقين إن كانت وفرت بعض المال من جهودها الليلية.

ـ إنها مأساة لا تدركها المرأة المسلمة بشكل معبّر، إلا عندما تشاهد مناظر النساء في الغرب عندما (تابوا بعد أن شابوا) يجلسن على مقاعد الحدائق العامة وكأنهم

هشيم أصفر ينتظر الريح ليجعله هباءً منثوراً، فلا أب يعيل ولا أخ يغار ولا أم تعطف ولا زوج حنون.

ـ إن تعدد الزوجات في النظام الإسلامي مفخرة كبيرة تفخر بـه الأمـة الإسـلامية لأنه يحافظ على كرامة المـرأة عنـدما يطبـق بـشكل سـليم واعٍ وضـمن شرع الله سـبحانه وتعالى، وحتى لا يقع المسلم فريسة للتعسف باستعمال الحق ويقع في مهانة ومذلـة الـدنيا وعقاب الآخرة، عليه الانتباه إلى ما يلي:

1 ـ التعدد جائز ليس بواجب، أي هو مباح، وحكم المباح الشرعي، عرفه الفقهاء (بأنه يستوي فيه الفعل أو الترك) وهو ما لا يمدح فاعله ولا يذم تاركه.

2 ـ والرجل مكلف بالعدل بين زوجاته في كافـة الأمـور الماديـة (سـكن، مأكـل، مشرب، مبيت... الخ) أما الميل فلا يستطيع كل إنسان كائن من كان أن يطبقـه لأنـه شيء داخلي يتعلق بالناحية (الفيزيولوجية والـسيكولوجية) فهـو أمـر لا يـستطيع الإنـسان أن يتمثله في علاقته مع أبنائه وأصدقائه لأنه يقوم على عوامل لـصيقة بالمـشاعر والعواطـف المتبادلة، والرضا والغضب حيال بعض التصرفات، فهـذا تكليـف للبـشر بـما لا يطيـق. والرسول عليه الصلاة والسلام وصف هذا الواقع بقوله: (اللهم هذا قدري في ما أملـك فلا تحاسبني فيما لا أملك).

ـ ولقد عانى الرسول عليه الصلاة والسلام من مشاكل كثيرة مـع زوجاتـه، وهـو النبي والرسول والقدوة لكل من آمن بالإسلام ديناً، وما روي من الأحاديث الـصحيحة عما حدث بين زوجاته وبينه عليه الصلاة والسلام، يعطينا دليلاً حسياً على البـشرية التـي يتمتع بها الرسول وزوجاته، لأن الإنسان كائن مـن كـان لـيس مـن الملائكـة الـذين (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون). حتى إنَّ الله سبحانه وتعـالى هـدد زوجـات الرسول عليه الصلاة والسلام جميعاً بالطلاق وهنّ أمهات المـؤمنين لكـنهم بـشر أيـضاً، وهذا واضح في القرآن الكريم في سورة (التحريم).

ـ إذن ليس التعدد بالأمر السهل ولا يقدم عليه إنسان متزن إلا إذا كان عنده وضع اضطراري يجعله يفضل التعب والجهد المادي على العيش في وضـع عـائلي تعـيس يجعلـه

مخيراً بين إقامة علاقات خارج الحياة الزوجية أو الموت كمداً وهذا لا يوجبه عليه الشرع أو العقل. فالتعدد جائز وليس بواجب، والجواز يستوي فيه الفعل والترك لكنه حلال، ومن لم يعدل بين زوجاته إثمه على نفسه وعقابه على الله.

الزواج والطلاق:

ـ إن الأستاذ سنان لم يقل بحرية العلاقات الجنسية، ولكن مآل مقترحاته توصل إلى ذلك على استحياء من حيث النتيجة، فالإسلام حض على الزواج المبكر والرسول عليه الصلاة والسلام حض على إكثار النسل قوة ودعماً للقدرة البشرية للأمة، فلو أخذ المشرع السوري باتجاه الأستاذ سنان لتحولت البلاد بشكل طبيعي إلى نادٍ ليلي نهاري ولأكتفى شباب المجتمع بالعلاقات الجنسية خارج الحياة الزوجية، كما هو الحال في الولايات المتحدة والعالم الغربي، نظام (girl friend).

ـ وكذلك حال الطلاق (وهو أبغض الحلال إلى الله) كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام أي إن الطلاق حلال، ولكنه كالكي بالنسبة لصنوف التداوي، فهو آخرها، ومع أنه بغيض لكن لابد منه لإنهاء بعض العلاقات الزوجية التي أحالت البيت إلى قطعة من جهنم، فإما طلاق، ولعل الله يغني كل من سعته، ويبدل كل زوج بحال أفضل، فلا زواج كاثوليكي في الإسلام بل عقد بإيجاب وقبول، ليعيش الزوجان حياة سعيدة في ظل المودة والرحمة وتربية الذرية الصالحة، أو طلاق أو خلع يفتح المجال أمام كلا الزوجين ليجرب حياة أخرى.

ـ لا يوجد في الإسلام نظام الفرقة المؤقت (Separation) كما هو في النظام الغربي، حيث يفترق الزوجان مؤقتاً ويجرب كل منهما حياته مع شخص آخر، ولا حرج في ذلك عرفاً أو قانوناً، بل الزوج يزور زوجته المفترق عنها في بيت صاحبها ويسلم عليه فيرى أولاده وينصرف. وأنا شخصياً حضرت مع زوج زار زوجته المفترق عنها في الولايات المتحدة، وهذا الشخص عربي سوري، سيطرت عليه قيم الغرب فتقبلها وأصبحت جزءاً منه فلم يعد يملك نخوة أبي جهل أو شهامة الزير سالم. وربما يعود الزوجان إلى بعضهما بعد فترة طويلة أو قصيرة إذا وجدا أن حياتهما الزوجية أفضل من الحياة المؤقتة مع صاحب طامع أو صاحبة ترغب في مسكن يؤويها.

ـ أذكّر الأستاذ سنان بأن المفكر هو الذي يحول الواقع السيء إلى واقع جيد، وإن كون واقعنا سيئاً لا يعني أن نتغير انحداراً على هذا الواقع بل علينا أن نرقّي الواقع إلى مستوى الفكر الصحيح الذي يحافظ على قيم المجتمع الصحيحة ويقضي على التقاليد الفاسدة. ولا زلتُ أذكر غير طيب الذكر السيد بيغن عندما زار السيد السادات في القاهرة من أجل مفاوضات السلام أحضر معه من ضمن الوفد الرسمي جزاراً ليقوم بذبح الحيوان الذي سيأكل منه بيغن وأعضاء الوفد في مصر ولم يستحي من ذلك، ولو فعل مسؤول عربي شيئاً من هذا القبيل لاستخف به المجتمع الدولي، فعلى الأستاذ سنان أن يعرف أن رقي المجتمعات بالمحافظة على قيمها وعلى نسلها وعلى شبابها وشاباتها فإن الثروة البشرية هي ثروة المجتمع وليس الثروة الحيوانية.

نظام أموال الأسرة:

ـ كثير من مقترحات الأستاذ سنان درستها بهدوء محاولاً إيجاد مبرر له وملتمساً له العذر في سوء الفهم والإدراك مع النية السليمة، أما نظام أموال الأستاذ سنان، فهو نقل واضح عن التشريعات الغربية سواء في الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبي، وليس له علاقة بواقع المسلمين أو المسيحيين أو اليهود. بل هو نظام رأسمالي وضعه الآباء المؤسسون للرأسمالية في العالم الغربي، هؤلاء الذين اعتقدوا بفصل الدين عن الحياة، ووضعوا الشركات الكبرى مقام الله سبحانه وتعالى حتى سيطرت شركات (الكارتلات والتروستات) على العالم الغربي وأصبح هذا العالم بأكمله أرضاً وشعباً مملوكاً لهذه الشركات فهي التي تقدر الخير والشر لشعوبها وللعالم، وتجعلهم ينقادون إلى ما تريد الشركات بإرادتهم، وهذه أعتى دكتاتورية مرت على العالم، بأن تجعل الإنسان يختار ما اختاره له غيره بإرادته.

ـ إن العبقرية الرأسمالية هي التي اخترعت نظام أموال الأسرة حتى يبقى رأس المال متداولاً بقيادة أحدهم سواء أكان رجلاً أو امرأة لتبقى الإمبراطوريات الرأسمالية مسيطرة على شعوبها وعلى القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة.

ـ إن الإسلام حارب الرأسمالية منذ نزل الوحي على الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ (سورة الحشر)، فالإسلام منع تداول الثروة في أيدي أناس معيّنين سواءً أكانوا أسراً أو هيئات (Organizations) أو مؤسسات (Establishments) كما هي حال النظام الغربي الآن.

ـ إن تفتيت الثروة جزء هام من أنظمة الحياة المعادية للرأسمالية كما هو الحال في النظرية الاشتراكية الماركسية العلمية، وكما هو الحال في الإسلام، وإن ارتباط الرجل والمرأة بنظام مالي من خلال اتفاقيات كما هو حال النظام الغربي زيادة على ما ذكرت من سيطرة الرأسمالية الجشعة، هو أيضاً يربط الزوجين مادياً وليس روحياً. فكم من أزواج وزوجات حافظوا على رباطهم في زواج نظري وورقي مع أزواجهم، وترك كل واحد الآخر أن يصاحب ويعاشر كما يشاء، ويعدد العلاقات الجنسية كما يريد، فيعيش الزوجان حالة شراكة (براغماتية Brugmative) في المال وانفصال وتفكك في الحياة الزوجية والأسرية فلا أدري إذا كان هذا ما يريده الأستاذ سنان.

ـ وأخيراً إن المتتبع لما سمي بمؤتمرات حقوق الأسرة في روما وقطر والقاهرة، والمتتبع للمؤسسات الغربية التي دعت إلى هذه المؤتمرات يجد أن مقترحات الأستاذ سنان مأخوذة من مناقشات هذه المؤتمرات ومن مقرراتها، فهي أفكار جرى تفصيلها في الخارج لواقع شعوب معينة ما زالت تعيش في شقاء هذه الأفكار والقوانين المفرزة عنها.

ـ أنا لا أدعي الكمال لقانون الأحوال الشخصية السوري، ولكنه على الأقل راعي صورة الشرع كمصدر تشريعي وليس المؤسسات التشريعية الغربية التي سيطرت على أفكار الكثير من المثقفين من خلال مصالحهم وطموحاتهم.

ـ إن قانون الأحوال الشخصية السوري، ليس هو قانون تجاري يجري تعديله بناء على عولمة التجارة الدولية وواقعها الجديد، بل قانون الأحوال الشخصية يعالج مشاكل المسلمين الاجتماعية وخاصة الأسرية التي هي عضد المجتمع، وإن أي خلل على الأسرة يؤدي إلى خلل في الأمة وخلل في الدولة. إن أي تعديل يجب أن يكون على أساس مدى

انطباق الدليل الشرعي (النص) على الوقائع المستجدة، وهذه هي عملية اجتهادية يقوم بها عالم فقيه بكتاب الله وسنة رسوله وبالوقائع المستجدة في كل وقت، فإن باب الاجتهاد لم يقفل وإن من قال بقفْلِهِ أخطأ، فهو مفتوح حتى قيام الساعة لكن للعلماء المتخصصين الحريصين والمخلصين.

6/ 7/ 2003م

مشكلتنا أن يكون القاضي قاضياً والمحامي محامياً

في الرد على ما أثاره مشكوراً الأستاذ المحامي نذير سنان بخصوص موضوع تعديل قانون السلطة القضائية في جريدتكم الغراء الاقتصادية في الأعداد (115 ـ 116 ـ 117).

ـ أنا لا أريد أن أكرر ما ذكره الأستاذ المحامي نذير سنان، فقد أجاد وأفاد وغطى الموضوع تغطية يشكر عليها، من حيث أهمية استقلال القضاء واثر ذلك على إحقاق حق كل إنسان يعيش تحت كنف دولة تعهّد ولاة الأمر عندما تقلّدوا مناصبهم الخطيرة والحساسة بالحفاظ على دستور الدولة، واحترام إنسانية المواطن الذي مكّنهم من أن يكونوا في مركزهم الحكومي ليرعوا شؤونه بموجب الدستور وأحكام القانون.

ـ ولما تقدم أقول وبشكل صريح وواضح: إنّي مع ما ذكره الأستاذ سنان ولكن لابد من الإيضاحات والإضافات الهامة التالية:

1 ـ إن الخلل الأساسي لا يكمن في أحكام الدستور والقوانين فقط، وإن كنت لا أدّعي لها الكمال، ليصار إلى تعديلها، بل الأخطر هو كيف يصل الإنسان ليكون في موقع هام سواءً في السلطة التشريعية أو التنفيذية أو القضائية، لأن السلطات الثلاث تتصل ببعضها اتصالاً وثيقاً، بحيث تؤثر كل سلطة على السلطات الأخرى، فإذا طرأ خلل على إحدى السلطات تتأثر السلطات الأخرى، فمثل السلطات كمثل القوم الذين ركبوا سفينة واحدة فإما أن ينجوا جميعاً أو يغرقوا جميعاً.

ـ إن السلطة التشريعية هي التي تحاسب الجميع من رأس الدولة إلى أصغر موظف فيها، فإذا كان ممثل الشعب في السلطة التشريعية يخضع لمؤثرات السلطة التنفيذية والإدارية، فكيف تستطيع السلطة التشريعية حماية السلطة القضائية أمام طغيان مؤثرات السلطة التنفيذية المنظورة وغير المنظورة.

ـ إن ممثلي الشعب عندما يصلون إلى هذا المركز الحساس بكفاءتهم ووعيهم واستقامتهم لا يخافون طغيان السلطة التنفيذية، ويستطيعون أن يشرّعوا للسلطة القضائية ما يضمن لها الهيبة والوقار والسطوة، بحيث لا تخاف في الله لومة لائم مصداقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (والله لو سرقت فاطمة لقطع محمد يدها)، بل إن السلطة

التنفيذية ترتعد فرائصها خوفاً من السلطة التشريعية التي تسحب الثقة منها في أي وقت تتجاوز فيه السلطة التنفيذية على السلطة القضائية، وبذلك لا يخاف قاضٍ على مركزه ولا ينافق محامٍ خوفاً على قطع شريان الوكالات عنه.

2 ـ إن القاضي إنسان يفصل الخصومات بين الناس والجهات العامة والخاصة، فهو الذي يصدر القرار فيصبح ملزماً على وجهه للسلطة التنفيذية، فهل كل إنسان حمل شهادة بالقانون يمكن أن يكون قاضياً، أنا أزعم أنه لابد من وجود (غربال) قضائي يقوم بغربلة كل المتقدمين لاستلام هذا المنصب الخطير، ودراسة طلبات المتقدمين من الناحية الأخلاقية والنفسية والعائلية زيادة على المؤهل الجامعي.

ـ كيف ستسلّم رقاب الناس وأموالهم إلى إنسان لا يردعه دين ولا خلق ولا تربية، لابد من (الفلترة) لجميع المتقدمين حتى لا يصل إلى هذا المنصب الهام متسلّق تمكّن بظروف خاصة من حيازة إجازة في القانون.

ـ أنا لست من مؤيدي الطبقة (البرجوازية) بكافة أشكالها وأصنافها، لكنني أصر على وجوب التحلي بالصفات النبيلة للقاضي، ابتداءً من نقاء حليب أمه وحتى الطعام الحلال الذي أطعمه والده، وإلى التربية التي رباها في بيته، مروراً بدائرة رفاقه وأصحابه. كل هذه الصفات تساعد على صقل شخصية القاضي لتجعل منه رجلاً مستقيماً حريصاً على مصالح الناس جميعاً، همه إحقاق الحق ولو كلفه ذلك غضب الآخرين، وهذه مهمة هيئات الرقابة في الدولة سواءً كانت هيئات تفتيشية أو رقابية أو أمنية، فالعبرة في تقلّد منصب القضاء للكفاءة والاستقامة والأهلية وليس للمحسوبية الشخصية أو الحزبية.

3 ـ لا يكفي أن يكون القاضي مؤهلاً من الناحية العلمية والخلقية والتربية العائلية، بل حتى تضمن استقامة هذا القاضي عليك أن تؤمن له المركز المالي والحياتي الذي يوازي هذا المركز الاجتماعي الخطير.

ـ إن القاضي بشر يأكل ويشرب ويلبس، وليس كالملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون بل هم يسبحون، بناءً على ذلك لابد من أن تؤمن لهذا الإنسان الذي اصطفيته لهذا العمل الجليل الحياة الكريمة المريحة مع أسرته وأولاده، من حيث السكن

والمواصلات والمدارس من الابتدائي إلى الجامعة، كل قاضٍ على مستواه إن كان مبتدئاً وحسب سنين خبراته وسجله الناصع النظيف.

ـ إن القاضي إذا كان غضبان لا يصح قضاؤه فكيف إذا كان ليس معه ثمن الكساء والدواء له ولأهله، لابد أن يشغل باله في أمور المعيشة الحياتية.

ـ إنّ قاضياً مشغولاً بالأمور الحياتية لن ينجح في القضاء ولن يستطيع أن يهيئ لأسرته ما يكفيها لتجعله يرتاح ويعطي وقته لمشاكل الناس في المكتب والبيت على سواء.

ـ وأزيد بأن على القاضي عند تعيينه في هذا المنصب الخطير أن يقدم كشفاً بما يملك ليضم إلى ملفه ويحاسب على أساسه في المستقبل، فلا يكفي أن تختار الجيدين المؤهلين بل عليك أيضاً أن تأخذ الأسباب التي تساعدك وتساعدهم على أن يستمروا مستقيمين، فإن مغريات الحياة كثيرة، ومع تشدد الغربيين في التأكيد على كثير من الأمور التي ذكرتها عند تعيين القضاة، فقد ظهرت أسوأ الحالات في بلادهم، التي كشفت عن اختراق قضاة سيئين كثر لسور القضاء الحصين، فالكمال لله وحده.

ـ هنا تستطيع الدولة أن تحاسب القاضي، عندما تعطيه حاجاته التي تمكّنه من العيش بحياة أسرية مريحة في منأى عن الفقر والعوز والحاجة لأوباشِ القوم وأراذلهم، عندها للدولة الحق في محاسبة القاضي من التشهير به وزجره وفصله، وحتى قطع رأسه.

4 ـ الأصل أن المحاماة مهنة رفيعة وشريفة لا يمارسها أراذل الناس وأوباشهم، فالمحامي مؤتمن على وكيله، فهو محل ثقة من الموكل الذي وكله لينوب عنه مقام نفسه، مصداقاً لقول الرسول عليه الصلاة والسلام (المستشار مؤتمن).

ـ إن عدم إدراك الناس لقيمة عمل المحامي، وعدم إدراك المحامي لقيمته الذاتية، هي التي أساءت إلى هذه المهنة العظيمة، فانحدرت هذه المهنة مع انحدار مستوى ما أسماه الأستاذ سنان مهنة (الثوب الأسود) ولذلك فإن صلاح القضاء يصلح معه صلاح مهنة المحاماة، فكل منهما يؤثر على الآخر، وإن أول ظاهرة صحية على تحسن القضاء أن لا يكون القاضي بحاجة للمحامي، ولا يمكن أن أتوسم خيراً طالما أن القاضي يركب مع المحامي في سيارته الخاصة نظراً لفقر القاضي في وسائل الحياة، علماً أن المركوب حاجة ضرورية لكرامة الإنسان العادي ـ فكيف للقاضي ـ **وقديما قيل البر يستعبد الحر** ـ.

هناك سيناريو رابع
رداً على ما كتبه الأستاذ فندي في صحيفة الشرق الأوسط

لا أشك بأن الأستاذ فندي كاتب رصين ومطلع ومدرك لطريقة تفكير الغرب (البراغماتية) ومع ذلك غاب عنه السيناريو الرابع أو غيّبه قاصداً على طريقة قناة الجزيرة التي تحضر أو تغيب حسب حالة الطقس العامة، لأن ما سأذكره أدناه لا يمكن أن يغيب عن أي كاتب ألمعي كالأستاذ فندي.

ـ إن دولة قطر هي دولة من دول المنطقة التي أفرزتها اتفاقية (سايكس بيكو) البريطانية الفرنسية بعد الحرب العالمية الأولى، ولم يكن للولايات المتحدة شأن دولي مؤثر في ذلك الوقت، ولذلك كانت دائماً تنظر إلى اتفاقية سايكس بيكو بأنها مؤامرة صنعت من ظهر الولايات المتحدة مراعية المصالح البريطانية الفرنسية، كما أن الجامعة العربية كانت أيضاً من مفرزات هذه الاتفاقية. وإن السياسة البريطانية هي التي رسمت الحدود الجغرافية للمنطقة مراعية مصالحها قبل المصالح الفرنسية بالنسبة للثروات الطبيعية في المنطقة ولأنظمة الحكم فيها.

ـ تعاظمت قوة الوَلايات المتحدة في العالم والمنطقة على أثر الحرب العالمية الثانية، باعتبار أنها مع الاتحاد السوفييتي كانتا الدولتين اللتين فازتا بالحرب، وخسرت بريطانيا وفرنسا الحرب العالمية الثانية وأصبحتا دولتين من الدرجة الثانية.

ـ حيث إن الولايات المتحدة لم تكن تتمتع بصلات قبلية وعشائرية وأسروية في المنطقة، مما جعلها بشكل رئيسي تعتمد على الانقلابات العسكرية في المنطقة لإيصال عسكريين للسلطة للقضاء على النفوذ البريطاني والفرنسي بدءاً من انقلاب حسني الزعيم في سوريا.

ـ لم تتمكن الولايات المتحدة من التواجد في المنطقة كقوة تعمل على ضرب النفوذ البريطاني والفرنسي إلا بعد حرب السويس عام 1956م، عندما انسحب اليهود والبريطانيون والفرنسيون إثر إنذار أيزنهاور.

ـ بعد حرب السويس اتجهت السياسة الأمريكية إلى كنس النفوذ البريطاني والفرنسي ليس من الشرق الأوسط فقط بل من جنوب شرق آسيا (حروب الهند الصينية وحتى شمال أفريقيا)، وطالبت بتحرير الشعوب، وهذا يعني في مفهومها الانعتاق من النفوذ البريطاني والفرنسي والدخول في النفوذ الأمريكي.

ـ اختصاراً للموضوع استمرت حالة ما سمي بالحرب الباردة حتى هدم سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي، حيث استطاعت الدول الغربية الأوروبية أن تستفيد من انهيار الاتحاد السوفييتي وتجييره لصالحها، فخرقت هذه الدول بقيادة (تاتشر، ميتران، كول) المسار الذي عملت له أمريكا، وهو إنهاء الماركسية والإبقاء على اتحاد سوفييتي قوي، فاستطاعت الدول الغربية تفكيك الاتحاد السوفييتي أيضاً، وهذا ما ضعضع السياسة الأمريكية في العالم، لأن اتحاداً سوفييتياً قوياً يهدد أوروبا ولا يهدد الولايات المتحدة هو ركن أساسي في السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

ـ نشأ عن تفكك الاتحاد السوفييتي موقف دولي جديد وخطير، أصبحت فيه أوروبا الغربية عن طريق المجموعة الأوروبية والسوق الأوروبية المشتركة منافسة للولايات المتحدة، وأخذت تسعى لاتحاد أوروبي سياسي بالإضافة إلى قوة عسكرية رادعة في البحر الأبيض المتوسط، وهذا يعني تحجيم حلف الأطلسي كقوة غربية بقيادة وسيطرة أمريكية.

ـ استهدفت الجزيرة منذ لحظة انطلاقتها الأولى وحتى الآن المنظومة السياسية والجغرافية للمنطقة فعملت على إزالة ما بقي من هيبة الحكام والدول القائمة في المنطقة، ولم تجد لها مكاناً سوى (مزابل التاريخ) كما صرح بذلك مرات عديدة المتحاورون ومسؤولوا البرامج السياسية فيها وأصحاب المداخلات.

ـ إن الرئيس بوش ونائبه تشيني وكونداليزا رايس وباول ورامسفيلد جميعهم عبروا بصيغ مختلفة أن هدفهم من احتلال العراق التغيير الجغرافي والسياسي للمنطقة، أي إنهاء مرحلة (سايكس بيكو) جغرافياً وسياسياً.

ـ وأصرح ما كان ذلك واضحاً على لسان (كونداليزا رايس) بقولها مخاطبة المؤتمر الأوروبي الأخير، (إننا نريد الشرق الأوسط الأوسع) الديمقراطي بعد إنهاء استبداد حكام المنطقة.

ـ أما المجموعة الأوروبية بقيادة فرنسا وألمانيا فهي ترغب في شرق أوسط جديد أيضاً ولكن أمانه بأمان أوروبا وليس بأمان الولايات المتحدة ولهذا أسمته (الشرق الأوسط الجديد) وهذا ما عبر عنه رئيس وزراء إسرائيل الأسبق (بيريس) في كتابه شرق أوسط جديد.

ـ ولكن الفرق بين الشرق الأوسط الأوسع والشرق الأوسط الجديد، أن الشرق الأوسط الأوسع الأمريكي تتغير فيه الحدود والأنظمة، ومرتبط مباشرة بالولايات المتحدة، ومستقبل إسرائيل فيه غير واضح، باعتبار أن التصحيح الجغرافي والسياسي سيطرأ على كل المنطقة، بالإضافة إلى ديمقراطية تنهي دور العسكر، وربما تدخل فيه باكستان وبعض دول الجمهوريات الإسلامية السوفييتية سابقاً، بينما الشرق الأوسط الجديد (الأوروبي) لا تتغير فيه الحدود ولكنه مرتبط ارتباطاً عضوياً مصلحياً مع الاتحاد الأوروبي وديمقراطيته تعتمد الأحزاب العشائرية والقبلية والأسروية ضمن خطوط رئيسية يضمنها أصحاب المصالح الاقتصادية..

ـ وكلا الديمقراطيتين تعتمدان ديمقراطية (مؤسلمة ومهجنة ومدجنة) بعد تراجع المد القومي وانحسار ما سمي بالتيار التطرفي اليساريّ.

ـ إن قناة الجزيرة القطرية تعتبر فرعاً لهيئة الإذاعة البريطانية BBC حتى إن غالبية معدي البرامج والمذيعين المؤثرين هم أصلاً من BBC أو لا يزالون يعملون معها، مثل جميل عازر، وسامي حداد، وفيصل القاسم، وكلنا يعرف دور الـ BBC في خدمة السياسة البريطانية في العالم العربي منذ أسست هذه الهيئة.

ـ البريطانيون خبراء في نفسية شعوب الشرق الأوسط ولهم ارتباطات عشائرية وقبلية وعائلية منذ قدوم (لورنس) إلى هذه المنطقة ممهداً لإزالة دولة الخلافة (الرجل المريض).

ـ إن معاهدة (سايكس بيكو) أرستْ دعائمها بشكل فعال السياسة البريطانية وهي التي صممت هذا التقسيم الجغرافي المعقد، حسب مصادر الطاقة الموجودة داخل الأرض والذي ما كان يعرف عنها شيوخ القبائل أي شيء في ذلك الزمان، وما تزال المخططات

التي قسم بها الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا موجودة لدى الهيئات المسؤولة في لندن وباريس.

ـ لم يكن للولايات المتحدة نفوذ ووجود مؤثر بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ولذلك (خرجت من المولد بلا حمص) كما يقولون واستحوذ البريطانيون والفرنسيون على كل شيء، وبمعنى آخر إن السياسة الحقيقية للولايات المتحدة هي ضد تقسيمات (سايكس بيكو) من حيث الناحية الجغرافية والسياسية.

ـ هذا التداخل بين السياسة الأمريكية والبريطانية، مما يجعل الضباب والدخان يعمي الأبصار عن الدور الحقيقي لقناة الجزيرة الذي بدأ مع باكورة العهد الجديد في قطر، مستهدفاً أوضاع المنطقة الجغرافية والسياسية، وبشكل خاص المملكة العربية السعودية باعتبارها أم الجزيرة العربية وإن أي تفكك فيها يؤثر على ملحقاتها التي فُصّلتْ بموجب معاهدة سايكس بيكو.

ـ إن النظرة السياسية للشرق الأوسط سواءً أكانت أمريكية أو بريطانية أو أوروبية تتفق على إطلاق الحريات المبرمج وإحلال ديمقراطيات مكذوبة محل الديكتاتوريات من خلال الحوار بدل الرأي الأوحد، وهذا هو الدور الذي تقوم به قناة الجزيرة من خلال تحقيق مصلحة اتفق عليها الأمريكيون والأوروبيون، هي إنهاء الأوضاع الجغرافية والسياسية السائدة في الشرق الأوسط، وذلك بإحلال الليبرالية وأسلمة الديمقراطية.

ـ أما ما ستكون عليه الأحوال السياسية والجغرافية في الشرق الأوسط، فهذا ليس مهمة قناة الجزيرة، بل يجلس الكبار على النهائي وفي وقت التصفيات كما جلس (تشرشل وروزفلت وستالين) في يالطا، وكما جلس ريغان وجورباتشوف في (كيركيافيك).

هذا هو السيناريو الرابع الذي برر وجود الجزيرة يا أستاذ فندي.

8/ 2/ 2004م

استطلاع الآراء حول استثمار أرض مدينة المعرض

في العدد 9144 المؤرخ في 12/ 1/ 2005م نشرت جريدة تشرين الغراء، في صفحة شؤون محلية موضوعاً عنوانه (استطلاع الآراء حول استثمار أرض مدينة المعرض..) والحقيقة أن هذا الموضوع أثار عندي شجوناً تتعلق بأرض المعرض أصلاً وفصلاً، حيث إنّ أغلبية الأفكار المطروحة كما ذكرتم ركزت على إنشاء حديقة عامة، وهذا اقتراح جيد، لكن هناك من يستحق أن تسمى هذه الحديقة باسمه، وهو الشخص الذي أوقف هذه الأرض الطويلة العريضة والتي تقع في أهم موقع في مدينة دمشق في العهد العثماني لتكون مرفقاً واستراحة للحيوانات المسنة التي تركها أصحابها نظراً لعدم إمكانية رعايتها من قبلهم بعد أن استنفدوا شبابها وطاقتها، وهذا ثابت في سجلات وزارة الأوقاف الموقرة كما هو ثابت في سجلات وزارة الاقتصاد التي وضعت يدها عليها لسنين طويلة، ثم استعادتها وزارة الأوقاف في حكم قضائي.

ليس هذا هو الموضوع الأساسي، إنما الموضوع هو عودة إلى الوراء لاستكشاف مدى رقي أمتنا وشعبنا من حيث القيم والمشاعر التي أهلّت هذه الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس.

يفتخر الغربيون أمريكان وأوروبيون بما يطرحونه من أفكار حول حقوق الإنسان، ويتطاولون علينا باعتبارهم أمة متقدمة تحاول أن تفرض علينا قيمها، على أساس أنها هي التي اخترعت هذه القيم وأحدثتها، ونحن أمة مهزومة فكرياً وسياسياً وعسكرياً لا نتمكن من الدفاع عن أنفسنا حيال هذه الهجمة البربرية التي تتعرض لها أمتنا العملاقة التي علمت الأمم الأخرى دروساً في احترام قيمة الحيوان وليس الإنسان فقط، لأن لهذا الحيوان حقّاً في الحياة فهو مخلوق غير عاقل يجب أن يؤمن له الإنسان العاقل الطعام والشراب وحق الراحة والنزهة والتقاعد، ولذلك أوقف صاحب هذه الأرض هذا المكان ليكون مكاناً للراحة والاستجمام للحيوانات الضالة والضعيفة.

وهذا يذكرني بأنواع من الأوقاف الأخرى، أوقفها أصحابها في طرق الخير والكرامة للإنسان حتى لا يهان في بلاد المسلمين مخلوق عاش تحت ظل هذه العقيدة،

ويستطيع أي مفكر مهزوم ومضبوع بالثقافة الغربية وقيمها أن يراجع أنواع الوقفيات عند المسلمين.

ـ هناك وقف الآنية المكسورة، يشمل كل من كسر عنده إناء مستعار ولا يستطيع أن يجاهر أمام صاحبه خوفاً من أن يؤذيه باللسان، فيستطيع هذا الكاسر أن يذهب إلى متولي وقف الإناء المكسور، ويأخذ إناءاً جديداً مثله تماماً يقدمه إلى صاحبه.

ـ هناك وقف النساء الغاضبات، وهي المرأة التي اختلفت مع زوجها وليس لها مكان تبيت فيه بعد أن خرجت غضبى من بيت الزوجية، فتذهب إلى متولي الوقف لتأكل وتنام وتشرب مع مثيلاتها، حفاظاً لكرامتها وحفظاً لها من أبناء السوء، حيث يأتي زوجها ليعيدها إليه معززة مكرمة.

ـ هناك وقف الحلي والمجوهرات، حيث تستطيع المرأة المدعوة إلى عرس أو خطوبة أو مناسبة فرح، أن تذهب إلى متولي الوقف فيعيرها من الحلي ما تلبسه أمام أقرانها جبراً لخاطرها من مشاعر الحرمان، ثم تعيد هذه الحلي إلى الوقف بعد نفاد السبب.

ـ هناك وقف ثياب العرائس، حيث تستطيع كل امرأة غير قادرة، أن تلبس من ملبوسات الوقف ما ترفع به شأن نفسها ثم تعيده بعد ذلك.

ـ حتى إنَّ هناك وقفاً لحاجات العبد، وهو العبد الذي ارتكب إهمالاً في مال سيده، فيذهب إلى متولي الوقف ويأخذ منه حاجته حتى لا يعرض نفسه للمهانة أمام سيده، إن كان سيده من الناس السيئي المعاملة لأن للعبد كرامة إنسانية، أوصى به الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى تطعمه مما تأكل وتشربه مما تشرب وتلبسه مما تلبس، حتى يتم إطلاقه لأسباب معروفة شرعاً، وكم من العبيد رغب سيده في إطلاقه ورفض العبد ذلك.

ـ هناك أنواع كثيرة من الوقفيات في سجلات أوقاف المسلمين تؤكد على أن أمتنا هي التي حفظت حقوق الحيوان قبل حقوق الإنسان، لأن الإنسان يستطيع أن يتدبر نفسه وحاجاته، أما الحيوان فربما تجتاح البلاد ظروف تجعل حاجاته صعبة التناول بشكل فطري وغريزي.

إن الغرب بشكل عام والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص لم تكن لا سابقاً ولا حالياً تراعي حقوق الإنسان الفطرية والطبيعية، ومن يعود للتاريخ يدرك يقيناً بأن الغرب ليس لديه قيم آدمية على الإطلاق، فلقد أبادوا الهنود الحمر سابقاً بكل أنواع الأوبئة والأمراض وكان اعتبارهم أقل من الحيوانات، وفي حروبهم لم يميزوا بين رجل أو امرأة أو طفل إذا كان ذلك يتعارض مع مصالحهم وما حدث في أفريقيا وكوريا وفيتنام ليس عنا ببعيد. وما يجري أمامنا الآن في العراق ماثل للعيان، فهم لا يمانعون من أن يقتل الصاروخ عائلة كاملة ولو كان المقصود منها شخص واحد مشتبه به. وهذان سجنا أبو غريب وغوانتنامو شاهدانِ على ذلك.

أين حقوق الإنسان التي يدّعونها، وأين حقوق المرأة بشكل خاص التي بحثوها في مؤتمراتهم السابقة واللاحقة، ونذكّر أن الولايات المتحدة استرقت شعبها بالكامل وحولتهم إلى عبيد أرقاء يعملون حسب تعليمات الصناعي الذي لا يرحم أحداً، فهم يدّعون حرية غير حقيقيّة لأنهم عندما زعموا أنهم شرّعوا شرعة حقوق الإنسان اختاروا الوقت المناسب بعد أن تحوّل كل شعب الولايات المتحدة إلى عبيد لديهم لكن ببذات أنيقة. وإن العبودية تعني السيطرة، وإن أقصى حدود السيطرة الاسترقاقية يمارسها أهل الفعاليات التجارية والصناعية على (كوكتيل) الشعوب المقهورة في الولايات المتحدة.

وإن ديكتاتورية الحكم في الولايات المتحدة أشد وأعتى من ديكتاتورية البروليتارية التاريخية أيام ستالين، لأنها استعباد حقيقي ورق مهذب، حوّل الناس إلى آلات تنفذ ما يريده الأغنياء باختيارهم وهذا هو مفهوم الرق الحقيقي.

كما حولوا نساءهم العاديات تحت اسم حقوق المرأة إلى خادمات وجامعات قمامة في المطارات والموانئ والمحلات العامة، والنساء الخمس نجوم حولوها إلى بيع جسد في نيويورك ولوس أنجلوس، ومن لا يعلم ذلك عليه أن يعلم، استرقوهم بثمن بخس تحت اسم حقوق المرأة.

هذا ما رأيت أن أوضحه في هذه العجالة، بأن العرب والمسلمين قد أنصفوا الحيوان قبل أن ينصفوا الإنسان، وإن الغرب سيطرت عليه القيم المادية النفعية

والمصلحية، النابعة من نظريات آدم سميث وريكاردو، وحتى تاريخه، فهم لا يـروون إلا من خلال مصالحهم، ومن يريد أن يتهاها عليهم فعليه أن يـضغط عـلى مـصالحهم حتـى يفتحوا عقولهم، وخلاف ذلك سيبقى تحت سيطرتهم ونفوذهم، فهم لا يفهمون إلا لغـة المصالح وميزان القوى، وقد تعلموا ذلك منذ أن هـاجر أوائلهـم الأوروبيـون لأمريكـا، وذبحوا شعبها ثم ذبحوا بعضهم، فاستقرت عندهم قاعدة البقاء للأقوى بعد ذلـك، ثـم استقروا على هذه العقلية ولن يفهموا إلا من خلال العقلية (البراغماتية) وعندها يتوجـب عليهم احترامنا.

13/ 1/ 2005م

المكر والسذاجة
رد/ على الدكتور غسان الرفاعي

إشارة إلى مقالة الدكتور غسان الرفاعي والمنشورة في صحيفة تشرين الغراء في زاوية آفاق بتاريخ 1/ 6/ 2005م العدد 9674، تحت عنوان (الخرف والحكمة)، حيث ينتقد الدكتور غسان المستشرق الإنجليزي النشأة الأمريكي التربية برنارد لويس، ويصفه بأنه صاحب فكر خرف، لأنه يقول بأن (التوتر في الشرق الأوسط لا يمكن فهمه، بشكل أفضل، إلا حين نقر بأنه نتيجة صراع حضارات، لا صراع بين دول وأمم، ويطالب بإلغاء ندوات الحوار بين الشرق والغرب، وبإيقاف الدجل السياسي والثقافي، بدافع الحرص على الحقيقة ووضع النقاط على الحروف، ويقارن سعادة الدكتور، خرف برنارد لويس بحكمة شباب عرب في باريس يدعون إلى طريق آخر يليق بالكرامة الإنسانية ـ هو الاحتكام إلى المنطق وتغليب الحوار الديمقراطي النزيه على ضجيج الأسلحة وعربدة القتل).

ـ أقول لسعادة الدكتور الرفاعي، إن برنارد لويس تربى في المدرسة البريطانية الاستخباراتية الخبيثة التي تخفي الغايات وتبرز الأقوال والأعمال، لكنه أتقن (البراغماتية) في المدرسة الأمريكية عندما درّس في جامعاتها وأصبح كبير مستشاري البيت الأبيض لشؤون الإسلام السياسي، وصاحب كلمة مسموعة في أوساط صنع القرار السياسي الأمريكي.

ـ وحيث إنَّ فكر برنارد لويس يخدم السياسة الأمريكية مباشرة، والسياسة البريطانية من حيث المآل والاتصال، ولهذا فهو يطرح الأفكار في الأوقات المناسبة التي تحقق أغراض من فرّغوه وهيَّؤوا له كل أسباب الراحة والأمان، ليكتب ما أسماه التاريخ السياسي الإسلامي، ولذلك يحاول أن يحوز على مصداقية الفكر التاريخي الذي يذكر الوقائع كما هي من غير تأثر عاطفي أو وجداني، ويعتبر أن هذا عمل المؤرخ الذي لا يخلط بين الوقائع كما هي أو كما حدثت وبين الآمال والخيالات والتصورات في دماغه والتي يرغب بعقله الباطن أن يحولها إلى حقائق تاريخية، ليست لأنها حقيقة، بل لأنه يريد أن تصبح حقيقة.

ـ السؤال، لماذا بعد الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م تحاول الاستخبارات الأمريكية والبريطانية إخراج كتب برنارد لويس إلى دائرة الضوء ونفض الغبار التاريخي عنها لترويجها في الأوساط الشعوبية، سواءً في العالم الغربي أو في العالم الإسلامي؟

ـ والجواب: إن برنارد لويس كاتب ومفكر متمكن من الفكر الإسلامي ودارس للمراجع التاريخية والإسلامية القديمة، إلا أنه يخلط عن عمد بين مصادر التشريع الإسلامي ومصادر التاريخ الإسلامي والفرق بينهما كبير، فالتشريع نصوص عن الوحي (المقدس) والتاريخ نصوص عن الماضي الذي يحتمل الصدق والكذب، والخطأ والصواب، لأن كاتب التاريخ السياسي إما محب أو مبغض وكلاهما غير ثقة، ولهذا نقل لويس الفقه الإسلامي المتأثر بواقع تاريخي، كان فيه المسلمون القوة المسيطرة على العالم إن لم تكن الوحيدة في عهد الخلافة الراشدة والأموي والعباسي والعثماني.

ـ وفي الجهة المعاكسة للبروفسور لويس، ينهض شباب باريس الذين وصف فكرهم الدكتور الرفاعي بأنهم أصحاب حكمة لأنهم يطالبون بحوار الحضارات، والخرف لويس يعتبر حوار الحضارات نوعاً من العبث والحقيقة أن لا أحد يعير مقولة شباب باريس أو يعطيها أهمية لأنهم لا حول ولا قوة، ولا تدعمهم قوة دولية، ولذلك لا يقيم المفكرون الغربيون لهؤلاء الشباب أي وزن، بل يعتبرونهم ساذجين خياليين، لأن العقلية البراغماتية هي المسيطرة على الولايات المتحدة بشكل خاص، وعلى الغرب بشكل عام. فلماذا يحاور الغرب المسيحي الشرق المسلم إذا كان هذا الشرق ليس له وزن ولا قيمة في الحياة الدولية؟

ـ إن لويس يعتبر أن الإسلام انطلق من الجزيرة العربية وفتح البلاد ودانت له العباد وعمَّمَ قيمه عن طريق الجهاد، وثبت حضارته وقيمه في العالم، ولذلك هو يحاول أن يخيف الأوروبيين من هذا النوع من الإسلام، فحتى ولو خلعت تركيا كل ثيابها وأظهرت كل عوراتها فلن يقبل بها المجتمع الأوروبي لأنهم يعتبرون أن أوروبا بلد مسيحي، وتركيا بلد إسلامي، ولو بعد مرور ثمانين سنة على حكم تركيا بالكمالية العلمانية، ولذلك فإن لويس يحاول أن يدعم الفكر الاستئصالي في الولايات المتحدة، هذا الفكر الذي يرى أنه بعد 11

سبتمبر لم يعد في الإمكان التعايش بين الخير والشر، ويقصد بالخير الحضارة الغربية، وبالشر الحضارة الإسلامية، حيث لا لقاء بينهما كما يقول شكسبير (to be or not to be).

ـ إن لسان حال لويس يؤكد على أن التعايش الحضاري بين المسيحية والإسلام غير ممكن كما يطرحه عقّال الساسة ورجال الأعمال في الولايات المتحدة، وكما طرحه ولي عهد بريطانيا الأمير تشارلز في محاضرتين في جامعة أكسفورد عام 2002م بعد هجوم الحادي عشر من سبتمبر، وأكد فيه على أن استقرار العالم يقوم على التفاهم بين الحضارتين الإسلامية والغربية ضد الثقافة الإلحادية، حيث استقرار العالم الإسلامي ضرورة مطلوبة لاستقرار الاتحاد الأوروبي نظراً للمصالح وللحدود البرية المشتركة بين العالمين.

ـ وعلى البروفسور لويس أن يعلم أن الإرهاب في المفهوم العربي والإسلامي، لفظ حميد وصحي، وهو يعني أن تكون الدولة قوية بعددها وعدتها وإمكانياتها الفنية، حتى تيأس أي قوة أخرى من محاربتها أو اختراقها، فتتحقق الغلبة والسيطرة بدون حروب ـ أي الإرهاب في الإسلام هو حرب نفسية وقائية تمنع حدوث الحرب المادية، وهذا واضح في القرآن الكريم الذي يطلب من المسلمين إعداد القوة حتى يزرعوا الرهبة والخوف عند العدو بدون أن يستعملوا ضده السلاح، مصداقاً لقوله عليه الصلاة والسلام (نصرت بالرعب مسيرة شهر). وليس الإرهاب كما هو عند أسياد (لويس) الذين يدمرون الحجر والشجر والبشر كما هو حال العراق وسائر بلاد العالم التي دخلتها جيوش الولايات المتحدة.

ـ وأضيف بأن الحروب والقتال بين الأمم والشعوب هو سنة كونية لم ولن يستطيع أحد أن يوقفها لا في العهود القديمة ولا العهود الحديثة، وكما قال أحدهم: إن السلام هو فترة راحة وهدنة بين حربين، علماً أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي اعترف بكافة الأديان السماوية، المسيحية واليهودية، واعترف بالمشركين كافة وبعقائدهم وبأديانهم، فهو لم يلزم أحداً على ترك دينه ومعتقده والنص واضح في ذلك سواء من كتاب الله أم من سنة رسوله.

ـ وإن الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يجعل هذا العالم المضطرب يعيش في هدوء واستقرار تأمين، فلم يضطهد اليهود إلا بعد أن خرج المسلمون

من الأندلس ولم يضطهد المسيحيون، فهم يعيشون مع المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، بل كان إنصافهم واحترامهم واجباً شرعياً، لكن بعد أن ظهرت الرأسمالية بقيمها الحقيرة وسطوتها الدولية وعملت على سحق الحضارة العربية الإسلامية وإحلال قيمها مكان القيم الإسلامية، ظهر مفكر مثل الصنيعة الاستخباراتية لويس ليقول بعدم إمكانية تعايش الحضارات، لأن أسياده الرأسماليّين ومدرسته اليهودية ترغب في تعميم هذا الفكر لتخويف الغرْب من الحضارة الإسلامية وللتأثير على صناع القرار السياسي في الغرب.

ـ إن لويس يحاول أن يفهم الغرب بأن لا تحاولوا أن تتعايشوا مع المسلمين فإن هذا غير ممكن ويقصد بذلك إبقاء الشرق خاضعاً للغرب وتحت سيادته وسيطرته، وأن الحل الوحيد هو سيطرة الحضارة الغربية بقوتها وقيمها حتى لا يعود للإسلام والعرب وزن دولي مرة أخرى يتفاهم من خلاله مع الحضارة الغربية الند للند، ولكلٍّ حضارة وزنها وكرامتها في المحافل الدولية، وهذه من أخبث الأفكار التي استؤجر لويس من أجلها. وهو ليس بالمفكر الخرف كما يرى سعادة الدكتور الرفاعي، بل هو المفكر الماكر.

16/ 6/ 2005م

رد على معوقات الإصلاح الديني

إشارة إلى ما كتبه الأستاذ المهندس عدنان الرفاعي في صحيفة تشرين الغراء تحت عنوان (معوقات الإصلاح الديني في الفكر المحسوب على الإسلام) في العدد رقم / 9286/ تاريخ 26/ 6/ 2005م، وعلى رده التعقيبي المنشور في العدد / 9316/ تاريخ 31/ 7/ 2005م على رد الأستاذ المصري، ولأهمية هذا الموضوع كونه يخص كل المهتمين في الفكر الإسلامي أقول ما يلي:

أولاً: لجهة إنكار حجية السنة النبوية، كونها وحياً من الله تعالى ومصدراً تشريعياً:

ـ إن تحديد معنى السنة، ووعاءها، وآليتها، ومصدرها وقوة إلزامها، هذه الأمور الأربعة هي التي توضح وجهات نظر الكاتبين المتعارضتين، بل أحياناً المتناقضتين، فاللون الرمادي محبب إلى كل ضعيف حجة ليتمكن من الهروب بدلالة اختلاف معاني الألفاظ والتراكيب، فالأمر إما أن يكون أبيضَ أو أسودَ، إذا كان من مشتملات العقائد، أما إنْ كان من الأحكام الشرعية فيجوز أن يكون دليله قطعياً أو ظنياً.

1 ـ معنى السنة: عرّف الكاتب السنة بقوله: (إن السنة محصورة فقط بالأقوال والأفعال التي قام بها (ص) كتبيان لكليات النص القرآني) أي وافق الأستاذ المصري بأن أقوال الرسول (ص) وأفعاله هي السنة، فأخرج من التعريف الذي ذكره الأستاذ المصري كلمة (التقرير)، علماً أنه لا خلاف عند علماء القانون بأن إقرار المشرّع أي سكوته هو فعل سواءً كان سلبياً أم إيجابياً، هذا فيما إذا اعتبر الكاتب أن الرسول (ص) أوحي إليه مع القرآن مثله، وهي السنة، في التشريع، فيما لا يخالف كتاب الله سبحانه وتعالى.

أي لا خلاف بين الأستاذين في تعريف السنة، إلا إذا كان الأستاذ الرفاعي لا يدرك مدلولات اللغة وقواعد القانون، فعليه أن يستعين بخبير قانوني.

2 ـ **وعاء السنة:** طالما اتفقنا على معنى السنة، فلنحاول أن نتفق على وعائها، حيث خلط الكاتب بين ما هو من السنة، وما هو ليس منها، عندما فهم أن التاريخ وسير المغازي من السنة، وهذا ليس بصحيح، حيث لا يعتبر التاريخ في الإسلام مصدراً من مصادر

التشريع، إنما هو عبارة عن وقائع نقلها المؤرخون، والناقل إما مبغض أو محب، علماً أنه يحتمل الخطأ والمبالغة في النقل وإن كان نقي السريرة، فكيف إذا كان سيء السريرة. والتاريخ ليس من الوحي وليس من السنة بإجماع المسلمين. كما لا تعتبر آراء الصحابة رضوان الله عليهم من الوحي إذا لم يحدث عليها إجماع، بل هي رأي صحابي يحتمل الخطأ والصواب كونه اجتهاداً بشرياً وكذلك أقوال التابعين، ولا عصمة إلا للرسول عليه الصلاة والسلام فيما ينقله وحياً عن ربه، كونه تشريعاً مبلّغاً للعباد من المعصوم، وليس كونه صفات خلقية للرسول عليه الصلاة والسلام يمارسها ككل البشر في طريقة المشي والأكل والشراب، إلا أن يقول هذا السلوك ليس شخصياً بشرياً بل هو وحي من الله وذلك بالدلالات الأصولية الشرعية كدلالة الإشارة والاقتضاء... وما إلى ذلك.

ـ لا يدخل في وعاء السنة ما هو من (الرأي والحرب والمكيدة) وما هو من أمور الدنيا، فالرسول (ص) ليس عالم كيمياء ولا فيزياء بل أتى مبلّغاً لنصوص يفهم منها أحكام شرعية لسلوك العباد، وكلنا نعرف حادثة تأبير (النخل) عندما أخطأ في ذلك، وقال للصحابة أنتم أدرى بأمور دنياكم. وحادثة ماء بدر عندما ترك مكانه نزولاً عند رأي الصحابي الحباب بن المنذر، فأقر بخطئه لاتخاذ هذا المكان، لأن الخبير العسكري (الحباب) أعلم من الرسول عليه الصلاة والسلام بالتكتيك العسكري والإستراتيجي.

ـ ولهذا علينا أن نميز بين شخصيات الرسول (النبي وما يوحي إليه من العقائد والمغيبات، والرسول، وما يوحي إليه من أحكام هذه الرسالة). وفي هذين الأمرين تكمن عصمة الرسول عليه الصلاة والسلام، أما شخصية الرسول (رجل الدولة ـ القائد ـ السياسي ـ القاضي) كلها يمارسها بوصفه بشراً قد يخطئ وقد يصيب، ويستشير أهل الرأي والخبرة من حوله ليصل إلى الرأي الأفضل الذي يحافظ فيه على مصالح المسلمين، قوله عليه الصلاة والسلام (إنما أنا بشر وأقضي بينكم فعسى أن يكون أحدكم ألحن بحجته من الآخر فأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه، فإني أقضي له بقطعة من جهنم..) هذه دلالات واضحة على أن الرسول (ص) عندما يكون متلبساً شخصية القاضي قد يخطئ وقد يصيب، وهذا ينطبق على كافة ممارساته البشرية عندما تكون من غير مصدر الوحي سواءً أكان من القرآن أم من السنة.

هذا هو وعاء السنة، بحيث لا يدخل فيها ما ليس منها فيؤدي إلى تبني أحكام ليست من الشريعة، فنكون خلطنا بين الوحي والاجتهاد البشري.

3 ـ **آلية عمل السنة:** الكاتب يعترض على قول الشيخ محمد أبي زهرة عندما قال إنّ (السنة مكملة للقرآن الكريم...) ويصر أنها ليست مكملة بل (مفسرة ومفصّلة لكلماته).

أرى أنه لا خلاف حقيقي بين آلية عمل السنة عند أبي زهرة أو الكاتب، بل الخلاف لفظي، لكن الكاتب التقط نقطة ضعف لغوية فسلط عليها الإضاءة، بحيث يفهم القارئ أن ذلك يعني أن القرآن ناقص، لأن عكس الإكمال هو النقصان. وأنا أوافق الكاتب بأن استعمال هذه الكلمة لم يكن دقيقاً فهي من اللون الرمادي الذي به يكون الخلاف، ودرءاً للخلاف المصطلحي الشكلي وسداً للذرائع، أتقيد بفهم الكاتب أن السنة (مفسرة ومفصلة لكتاب الله تعالى) حيث لا يمكن التوسع على صفحات جريدة يومية، أكثر من ذلك، وأسوق أقل ما يمكن من أمثلة بهذا الخصوص:

أ ـ **تفصيل مجمل القرآن:** الله سبحانه وتعالى أمر بالصلاة، والرسول (ص) صلى وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، وهذا ينطبق على الزكاة، الحج والجهاد والبيوع... كلها فصّل وبيّن فيها الرسول (ص) **مجمل** القرآن.

ب ـ **تخصيص العام:** لقد ورد في القرآن عموميات ولكن السنة جاءت وخصصت كل ما هو عام، والقرآن الكريم حدد أحكاماً للإرث والرسول خصص حالات منها على سبيل المثال عدم استحقاق قاتل مورثه للإرث.

ج ـ **تقييد مطلقِهِ:** ورد في القرآن الكريم آيات مطلقة وجاءت السنة وقيدت هذا الإطلاق بقيد معين، قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ (المائدة 38) فهذا أمر مطلق في كل سرقة، وكل سارق، ولكن السنة قيدت السرقة التي يجري فيها القطع بقيود، أن تكون بنصاب معين من حرز مثلها وسراً ومن غير شبهة، فأخرجت المغتصب والنشال والمختلس والسارق بشبهة من حكم قطع اليد إلى أحكام أخرى قوله (ص) ادرؤوا الحدود بالشبهات.

د ـ **إلحاق الفرع بأصله:** لقد قامت السنة بإلحاق الكثير من فروع الأحكام بأصلها الذي ورد في القرآن الكريم فيظهر هذا الفرع بأنه تشريع جديد، ولكن عند التدقيق يتبين أنه ملحق بأصله الذي ورد في القرآن، كتحريم الجمع بين المرأة وأختها أو عمتها أو خالتها أو ابنة أخيها أو ابنة أختها كما هو في حديث البخاري (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها، فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم) وهذا ملحق بقوله تعالى الأصل: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ...﴾ (النساء 23).

وأمثلة الإلحاق بالأصل كثيرة كتحريم الكثير من الطيور الجارحة والحيوانات ذات المخالب، وتحريم الرضاع بإلحاقه بأصله الذي ورد في القرآن، قوله (ص) يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب.

هـ ـ لكن ليس معنى ذلك أن السنة لم تأتِ بتشريعات جديدة غير ملحقة بأصلها في كتاب الله، بل ذلك حدث في تحديد الملكيات العامة والخاصة قوله (ص): (المسلمون شركاء في ثلاث الماء والكلأ والنار) وقوله (ص): (من كان له أرض فليزرعها أو ليمنحها أخاه وليس لمحتجر بعد ثلاث)، ولكن مثل هذه التشريعات قليلة والأعم الأغلب أن التشريع الذي بيّنه الرسول (ص) له أصل في القرآن الكريم.

4 ـ **مصدر السنة وقوة إلزامها:** لم ألحظ فيما كتبه الأستاذ الرفاعي أنه يؤمن بأن السنة حتى بموجب تعريفه، أنها وحي من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله محمد (ص) حتى أتحدث عن قوة إلزامها لديه. وهو يستطيع أن يفصح عن ذلك سلباً أم إيجاباً. لكنه أشار عندما تحدث بمفهوم الطاعة، بأن طاعة الرسول (ص) هي من باب (تعليمات) أصلها في القرآن الكريم.

حسب دراستي لفكر الدكتور محمد شحرور الذي ربما تأثر به الكاتب، فهو يقصد بالتعليمات، آراء غير ملزمة للمسلم أو المسلمة ويجوز التقيد بها، أو مخالفتها، حسب الزمان والمكان والتطور المستمر في المجتمعات، وينطبق ذلك على ما أسماه تعليمات الرسول (ص) في أحكام عورة المرأة المسلمة، حيث عورتها مكان الجيوب كما فهم من القرآن الكريم، والمرأة تستطيع أن تخرج عارية في الطريق العام، باستثناء الجيوب، ولكنه

يخاف عليها من الطقس الجوي وازدراء المجتمع إذا كان المجتمع لم يصل إلى مرحلة تقدمية في التعري. إلا أنها إذا كشفت حتى الجيوب وخرجت عارية تماماً فهي قد خالفت تعليمات الرسول (ص) بسبب ثياب غير ملائمة للطقس، أو لذوق الناس، حيث يدخل هذا في نطاق العيب وليس في نطاق الحلال والحرام والثواب والعقاب، وهذا هو المقصود بالتفاعل بين المجتمع والواقع في مرحلة تاريخية معينة، ولكل مجتمع تفاعلاته، نقلاً عن نظرية المادية التاريخية التي نقلها ماركس عن هيجل وطورها بنقلة نوعية.

ثانياً: لجهة ما يرغب الكاتب بالرد عليه:

1 ـ قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (التوبة 43). ليس كما يتصور الكاتب أن الرسول (ص) ارتكب إثماً وعفا الله عنه، وهذا محال عليه، بل الموضوع أنه يجوز للرسول (ص) أن يقوم بما هو **خلاف الأولى**، أي أن يختار بين خيارين مباحين لكن أحدهما فعله أولى من الآخر، لكن كلاهما صحيح. وهذا معروف عند المشرعين والقانونيين.

علماً أن الآية / 62/ من سورة النور والتي نزلت قبل سورة التوبة المقصودة قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ ، حيث شرحت الوضع في شأن غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة.

إذن الحكم الشرعي كان معروفاً مسبقاً بأن للرسول أن يأذن لمن يريد، وهذا تقدير شخصي له كقائد ليس له علاقة بالوحي، لأن الوحي مسبقاً أجاز الإذن وعدم الإذن، فليس في ذلك اجتهاد، بل كان الأولى بالرسول عليه الصلاة والسلام أن لا يأذن للمنافقين في غزوة العسرة لأنهم كانوا يتحجّجون بأهلهم وأموالهم. وإنه لا يفهم من كلمة (عفا) كما يفهم البعض بأن الرسول قد أذنب وغفر له الله سبحانه وتعالى خطأه، بل عفا هنا بمعنى الترك وعدم الاكتراث كما جاء في القاموس، عندما يقال عن شيء عفا عليه الزمن، أي أصبح من التاريخ، فالله يخاطب نبيه بأنك لم ترتكب خطأً ولا تكترث لما حدث، بعكس ما يتصور الكاتب ومن هو على نهجه بالتفكير ولا ألومهم في ذلك، حيث يغلّبون استعمال المنطق بالفهم والاستدلال على فهم الواقع من مصادره كما هو.

كما أني أزيد بمعلومات الكاتب وأذكره بأن ليست هذه الحادثة الوحيدة التي ذكرت في القرآن والتي فهم منها البعض أن محمّداً (ص) قد أخطأ في التشريع. وهذا محال عليه شرعاً وعقلاً، كما هو حكم الأسر قبل الإثخان قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ (الأنفال 67) وقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ...﴾ (سورة محمد 4)، وكما يظن البعض في سورة ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ...﴾ وفي مواضيع كثيرة ظن البعض أن هناك خطأ وقع فيه الرسول عليهُ الصلاة والسلام، فهموا ذلك نتيجة ضعف معلومات وسلامة نية أو عن سوء طوية.

حيث لا يجوز في حق الرسول (ص) أن يكون مجتهداً في الشريعة، فهو ناقلٌ للوحي بأمانةٍ عن ربه سواءٌ بالقرآن أو بالسنة. والمجتهد يخطئ ويصيب، فإن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر، وهذا يصح في حق البشر وفي حق الرسول (ص) في غير التشريع كما ذكرنا آنفاً.

2 ـ حديث ابن عباس رقم / 5465/ صحيح البخاري:

ـ ذكر ابن عباس بأنه (ص) كان يحب موافقة أهل الكتاب هذا رأي لابن عباس رضي الله عنه وليس حديثاً ولا سنة، ورأي ابن عباس يحتمل الخطأ والصواب، والقاعدة الشرعية الصحيحة تقول (شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا) مشتقة من قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة 48) على خلاف ما هو موجود عند بعض الفقهاء وإلا لجاز محاسبة الحيوان والطيور واسترقاق السارق، كما ورد بنصوص شرائع بني إسرائيل عند سليمان وداود ويوسف عليهم السلام، حيث ذكرها الله سبحانه وتعالى في القرآن على سبيل الإطلاع على شرائع من قبلنا.

ـ في الجواب على الحديثين رقم (4969 ـ 4971) اللذان ذكرهما الكاتب فيما يخص اليهود والنصارى، هذان الحديثان يتعلقان بالعقائد، أي بلّغهما الرسول (ص) بوصفه نبياً يخبر عن اليوم الآخر، وليس كونه رسولاً يحمل رسالة وتشريع للعالمين، وبإجماع علماء التوحيد وأصول الدين من المسلمين المعتبرين، لا يوجد أحد منهم قال بجواز أخذ

العقائد بالدليل الظني، جميعهم يقولون بيقينية العقائد وأن العقائد لا تؤخذ إلا عن يقين، وحيث هذين الحديثين يتعلقان بالعقائد وهما ليسا متواترين علماً أنهما صحيحان، لذلك لا يكون أي منهما حجة قطعية في العقائد، لكنه يجوز التصديق بهما من قبل المسلم، لأن عدم الجزم لا يعني الإنكار، وإذا حدث الإنكار فيجب أن يكون من قبل عالم مجتهد متمكن في علم الحديث من حيث المتن والسند والتعارض والترجيح.

وحيث أن الكاتب أنكر الحديثين بشكل استهزائي وبكل من يؤمن بهما لاعتبارهما في رأيه يخالفان (صريح كتاب الله تعالى وما يثبت من الفهم والمنطق) وهذا كلام أمي في علم الحديث غير مؤهل أن يفتي في أقل من هذه الأمور بكثير. لأن العلم والمنطق ليسا حجة في العقائد عند أي إنسان يدرك معنى الاعتقاد، فقد يصيب العلم وقد يخطئ وكذلك المنطق، وهذا موضوع آخر.

أما كون ما ذكر في الحديثين بأن اليهود والنصارى كفار، فهذا ثابت بصريح القرآن وبآيات عديدة يحفظها الكاتب إلا إذا كان منكراً لها أو عنده تخريجة حسب أسلوبه في الفهم والإدراك لا أعرفها أنا وأمثالي، كما أن كافة أسفارهم القديمة والحديثة تعتبر غير النصراني وغير اليهودي كافراً وأسفار بني إسرائيل جميعها تعتبر من آمن بالسيد المسيح عليه السلام (مجرّفاً) أي زنديقاً وكافراً ومرتداً، والأناجيل المعتبرة جميعها تعتبر من قتل المسيح عليه السلام وهم اليهود كفرة، يعذبهم الله في الدنيا والآخرة، وإن الماركسي يعتبر الرأسمالي كافراً بالماركسية، وكذلك الرأسمالي يكفر بالماركسية، والكفر بالشيء يعني الإنكار، ولا يعني البغض والكراهية، (لكم دينكم ولي دين)، فلماذا هذا الاستغراب أيها العالم الجهبذ؟ والكافر باعتقادهم يذهب إلى جهنم وبئس المصير، فلماذا هذه المراوغة، هذه عقائد، ويجب على كل إنسان أن يحترم عقائد الآخر بغض النظر عن ديانته، فاحترام الديانة شيء والإيمان بها شيء آخر. وأضيف بأن الحديث سواءً كان متواتراً أم مشهوراً أم صحيحاً لا يرد إلا من جانب المتن أو السند، وعليك أيها الأستاذ أن تعود إلى دراسة علم قبول ورد الحديث لعل الله يزيد في علمك فيتراجع غرورك إنه سميع مجيب.

3 ـ حديث صحيح مسلم رقم / 4975/ :

كما أوضحت أعلاه للسيد الكاتب أن الحديث لا يرد إلا من خلال المتن أو السند من قبل عالم في الحديث كما يرد مخطط البناء الهندسي من قبل مهندس متخصص.

لو كان الكاتب قد قرأ سورة النور، لعرف كيف اتهمت عائشة أم المؤمنين بالزنا ومن قبل كبار الصحابة رضوان الله عليهم لما استغرب حديث (المجبوب)، هذا تعليم للأمة يا أستاذ، وتعليم خاص للقضاة كيف يأخذون بالقرائن، ويقررون الجازم منها وغير الجازم، حتى يعرف أن الفرق كبير فيما إذا قدّ القميص من قبل أو دبر (سورة يوسف).

4 ـ حديث البخاري رقم 379 فيما يتعلق بالدعوة إلى الإسلام:

أيها الأستاذ العالم لا يجوز أن تأخذ آية واحدة من القرآن أو حديثاً واحداً للرسول عليه الصلاة والسلام وتفتي بموجبه فيكون حالك حال من قرأ قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ ولم يتابع قوله: (الذين هم عن صلاتهم ساهون)، هذا الحديث يتعلق بنشرِ دعوة الإسلام، وليس في إكراه الناس لترك عقائدهم. فالإسلام هو الدين الوحيد الذي ترك الناس وما يعبدون سواءً أكانوا أهل كتاب أم مشركين، واعترف بهم جميعاً، وترك لهم حرية اختيار عقائدهم. حتى ولو كانوا يهوداً أو نصارى أو صابئة، وارجع إلى القرآن والحديث فتعرف ذلك، قوله (ص): (من كان على يهوديته أو نصرانيته فلا يفتن عنها) وقوله (من آذى ذمياً فقد أذاني ومن آذاني كنت خصمه يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته..).

هذا الحديث وغيره في نفس المعنى يتعلق بالحكم الشرعي للحكام عندما نزلت الرسالة، الذين يمنعون شعوبهم بالقوة والقهر من أجل أن يفهموا دعوة الإسلام عن طريق الحواجز المادية التي أحاطوهم بها وبالقوة المسلحة لمنعهم من فهم الإسلام.

إن الحروب التي شنها المسلمون هي ضد الحكام في بلاد الروم وفارس ليكسروا الحواجز المادية التي تمنع الشعوب من فهم دعوة الإسلام، وبالحكمة والموعظة الحسنة والبيان المبين، وبعد إزالة هذه الحواجز، لا يكره أحد من الشعوب على ترك دينه، بل هو حر في قبول الإسلام أو رفضه، والدليل على ذلك أنَّ بلاد المسلمين هي الوحيدة في الدنيا

التي لم يكره فيها إنسان على ترك معتقده، وهذه هي دور العبادة موجودة للجميع في بلاد المسلمين، ولو لم يغتصب اليهود فلسطين ويطردوا أهلها بالقوة والقهر وبمعونة من إخوانهم الأمريكان والأوروبيّين ما قاتلهم المسلمون، فهم عاشوا آمنين في بلادنا قبل استيلائهم على فلسطين، ولولا دعوة الإسلام لما تحررت دمشق وأمثالها من بلاد العرب ولبقيت حتى الآن بيد الروم، فهل هذا ما تريده؟

وأذكرك أنه في هذا العصر، وهو القرن (20 ـ 21) تقوم الولايات المتحدة بشن حروب على العالم لتعميم قيمها وفرضها بالقوة المسلحة وليس بالقناعة كما فعل الإسلام، وهي أزالت الحكام في العراق بالقوة، ولكنها تستعمل القوة والإكراه لفرض قيمها ليس على العراق فقط بل على ما أسموه (الشرق الأوسط الأوسع)، وهي تفتخر بذلك، وأنت وأمثالك تعيب على المسلمين إزالة الحواجز المادية التي وقفت عائقاً أمام فهم الناس للإسلام وترك الناس بعد ذلك لاختيار الإسلام أو رفضه، وبذلك كفاية، حتى لا يأخذ الموضوع منحى آخر غير ما نقصد.

ـ أما بخصوص الناسخ والمنسوخ، فإنه علم قائم بذاته في الشريعة والقانون، والنسخ يكون للحكم وليس للنص، حيث المتأخر ينسخ المتقدم، والآيات في كتاب الله سبحانه وتعالى واضحة بهذا الخصوص ولا أريد أن أطيل. وأخيراً فإني رددت على الأستاذين بأقل ما يمكن أن يكتب على صفحات جريدة يومية، لأن مجال أمثال هذه الاجتهادات المتعارضة أبحاث ومحاضرات تفي هذا الموضوع حقه. ولكن صحيفتكم الغراء هي التي فسحت المجال للكاتب ومن واجبها أن تفسح المجال للرأي الآخر.

وأضيف بأنه ليت الكاتب أنكر حجية السنة كوحي من الله تعالى في التشريع بطريق مباشر كما فعل د. محمد شحرور ونيازي عز الدين وأضرابهم كثير، فلقد كانا صريحين وواضحين وجريئين في ذلك، أما اللجوء إلى أسلوب الكاتب وهو التشكيك ببعض أقوال الرسول (ص) والاستهزاء بها والغمز عليها، والحط من شأنها بحجة مخالفتها لكتاب الله تعالى، وبشكل يجعل القارئ نفسه يتقزز من السنة، وبالتالي يزدري

السنة نفسها ولا يجدها أهلاً لأن تكون مصدراً محترماً للتشريع عند المسلمين، وإن إزالة هيبة السنة مقدمة لإزالة هيبة القرآن، حيث الكثير من أرباع المثقفين بدؤوا بالكتابة حول التعارض والاختلاف والتناقض في آيات الله سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم، لكن بغير علم ولا هدى ولا بلاغ مبين.

4/ 8/ 2005م

في الرد على مقالة التطوير والتحديث والإصلاح للدكتور أسامة حبوس

إن ردي الحواري على الدكتور حبوس ينحصر في نقطتين جوهريتين فقط وكل ما عداها هو فرعي تابع لهما، قد أوضحته في ردي المنشور بالعدد رقم (1426) وتاريخ (14/ 8/ 2005م) من صحيفتكم الغراء تشرين، إحداهما شكلية والأخرى موضوعية.

1 ــ من حيث الشكل:

لا أوافق الكاتب على استعمال ألفاظ (التطوير والتحديث والإصلاح) فيما يخص المسائل الفكرية، وخاصة عندما تكون هذه المسائل تنحصر في العقائد والأحكام الشرعية، حيث فكر العقائد لا يخضع للإصلاح أو التطوير أو التحديث، كونه يتعلق بغيبيات جرى الاعتقاد بها عند الإنسان عن طريق العقل أو النقل القطعي الثبوت والقطعي الدلالة، لأن العقائد لا تؤخذ إلا عن يقين وهي تحتاج إلى تصديق جازم مطابق للواقع عن دليل عقلي أو نقلي ثبت أصله عن طريق العقل. أما بالنسبة إلى الأحكام الشرعية وهي عند كافة الفقهاء ظنية تحتمل الخطأ والصواب كما قال الإمام الشافعي (رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب) وكما قال الإمام أبو حنيفة: (إذا لم تجدوا دليلاً لرأيي فاضربوا به عرض الحائط) وكما قال الإمام مالك: (كلُ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر) وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ومنذ البعثة النبوية عرف المسلمون الاجتهاد القائم على قوة الدليل وغلبة ظن المجتهد للاستدلال على الحرام والحلال، وما تفرع عنهما من مندوب ومكروه ومباح. ولذلك فإن ألفاظ التطوير والتحديث والإصلاح محصور استعمالها في الخطط والأساليب والوسائل والأشكال المدنية، ولا يجدي استعمالها فيما يخص أفكار الحضارة، أي أفكار ومفاهيم وقيم الحياة، وهذا ينطبق على مفكري المسلمين وغير المسلمين فلكل مجتمع قيمه الحضارية التي تؤثر على سلوكه وتضبط تصرفاته في الحياة الدنيا.

ويجري التطوير والتحديث والإصلاح حيث يبدع الفنيون في تطوير الأشكال المدنية التي تجعل الحياة أسهل وأفضل في كافة مجالات الحياة الاقتصادية والتكنولوجية وغيرهما من مرافق الحياة، كل المفكرين الذين دعوا إلى إدخال التطوير والتحديث والإصلاح في عقائد وقيم الأمم والشعوب كانوا عاملاً مدمراً لوطنهم وأمتهم وليس (جلاسنوست وبروسترايكا) جوربا تشوف عنا ببعيد، حيث كان عاملاً مدمراً لبلاده عندما لم يفرق بين تحديث وتطوير وإصلاح موديلات السيارات وبين القيم التي قامت عليها الاشتراكية الماركسية العلمية، فمزق دولة عظيمة أدى غيابها وبيعها في المزاد العلني إلى تغيير الموقف الدولي في العالم، فكانت الهزات الارتجاجية الناتجة عن زوال الاتحاد السوفييتي لا تقل عن الهزات التي نتجت عن زوال دولة الخلافة العثمانية التي ما زال العالم العربي والإسلامي يعاني منها حتى الآن والتي أدت إلى مؤامرة (سايكس ـ بيكو) التي جزأت الأمة ومنحت أرض فلسطين لليهود، وكل ذلك بفضل التطوير والتحديث والإصلاح الذي ينادي بها الكاتب العتيد من أجل تدمير الشعوب والدول بالتقسيط لتحل قيم الولايات المتحدة بعولمتها ولتحويل عالمنا العربي والإسلامي إلى بسمار صغير في عجلتها بحجة التطوير والتحديث والإصلاح وتجديد الخطاب الديني.

2 ــ من حيث الموضوع:

لقد سمعت وقرأت عن أصول الفقه عند المسلمين على اختلاف مذاهبهم فمنهم من حصر مصادر التشريع بالقرآن والسنة والقياس والإجماع، ومنهم من زاد بمصادر تبعية كالمصالح المرسلة والاستحسان والاستصلاح والعرف وشرع من قبلنا وإلى غير ذلك من مصادر الفهم والإدراك، أما أن يكون الواقع مصدر التفكير، فهذا لم يقله أحد قط، إنما الذي قالت به هي الماركسية العلمية، حيث اتفق (أنجلس وماركس) على أن الفكر هو انعكاس للمادة على الدماغ، حيث يتولد الفكر من الواقع كما يقول ماركس: (ليست حركة الفكر سوى انعكاس الحركة الواقعية المنقولة إلى دماغ الإنسان والمستقرة فيه) كما يقول أيضاً: (ليس إدراك الناس هو الذي يحدد معيشتهم، بل على العكس من ذلك إن معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد إدراكهم).

والكاتب لا يعدوا بدعوته إلى اعتبار أن الواقع هو الأساس الذي يتحكم في فهم النص بأن جعل الواقع هو الأساس وليس النص، وأنه يؤمن بإله عاجز ليس عنده مقدرة على فهم الواقع المادي المستجد والمتجدد الذي خلقه وأبدعه، فهو خلق وترك وعلى الإنسان أن ينظم غرائزه وحاجاته العضوية التي خلقها الله كما يريد وكما يناسب مصالحه المتصورة في كل وقت وفي كل مكان وزمان، فالواقع عند الكاتب مصدر التفكير وليس موضع التفكير.

إن اعتبار الواقع مصدراً للتفكير كما يريد الكاتب، هذا يعني أن النص الإلهي سواء كان من كتاب الله أو من سنة رسوله صلى الله عليه وسلم يعرض على الواقع فإن كان يناسب الواقع يقبل النص، وإلا يلغي النص إن كان من السنة بحجة عدم الثبوت أو التناقض المزعوم، بحجة القاعدة الغربية أن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان والحقيقة أن كل زمان ومكان صالحان لتطبيق أحكام الإسلام عليهما وليس العكس، وإن كان من كتاب الله فيطوع النص تحت الواقع ويلوي عنقه ليناسب هذا الواقع.

والمجتهدون المعاصرون ما شاء الله كثر، ولا يعوزهم أي فهم لدلالات النص، بل يكفي أن يكون هذا النص عندهم لا يناسب الواقع كإباحة الربا بحجة أن علة تحريم الربا هي استغلال الغني للفقير فمتى انعدم الاستغلال والحاجة أبيح الربا، بهذا الفهم المعاصر تصرف آيات وأحاديث تحريم الربا وتحصر فيما هو من الاستغلال فقط، أما إذا كان المرابي يفيد نفسه ويفيد غيره ويفيد المصرف فهذا حلال، وهو فهم يساعد على تطور الحياة وتحديثها وإصلاحها.

ولهذا يحاول الكتاب المعاصرون أن يقنعوا شعوبنا بأن أمتنا غير قادرة واقعياً على مجابهة الولايات المتحدة بقدها وقديدها وأسلحتها النووية والنيتروجينية والارتجاجية، وهي تدعم اليهود في فلسطين، ولذلك علينا أن نجدد ونحدث ونطور خطابنا الديني بما يتناسب مع قوة أمريكا وغطرستها فنكون واقعيين حداثيين متنورين وذلك بتحويل كل معاني آيات القرآن والأحاديث التي تأمرنا بقتال اليهود وطردهم من فلسطين وبتحويل معانيها إلى معاني السلام والمسالمة والموادعة والمصادقة، فندجن أنفسنا حسب الواقع

الدولي الأمريكي اليهودي الصارم، فيصرف معنى الجهاد والقتال إلى جهاد النفس ومنعها من الشهوات والملذات، وترك الدنيا للكفار ونحن نهمل الدنيا وإبداعاتها وننسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليزرعها) وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال، الآية 60).

إن إخضاع النص الإلهي للواقع بحجة ثبات النص وحركة المحتوى وبدون أي ضوابط من أصول الفقه واللغة وأقل ما يمكن من مواصفات المجتهد، تجعل الدين مجالاً لتلاعب الجهلة والمغرضين من أصحاب الأهواء الذين انطبعوا بالواقع المادي والثقافي للولايات المتحدة والعالم الغربي.

أريد أن أسأل الدكتور أسامة متى كان المسلمون والعرب متخلفين عن ركب الحضارة حتى يقوم بهذا الهجوم الظالم عليهم في افتتاح مقالته وأمامنا الواقع الذي يكذب ذلك، من عهد الخلفاء الراشدين عندما اكتسحوا العالم في سنتين ونصف في عهد الخليفة الراشد أبي بكر، وأين عهد الأمويين عند اكتسحوا العالم حتى (بواتيه) في عهد الوليد بن عبد الملك وإخوته، أم في العهد العباسي عندما كان يقول الرشيد للغيمة: (اذهبي حيثما شئت فسوف يأتيني خراجك) ونشيدنا العربي السوري الذي يقول: (ومنا الوليد ومنا الرشيد ولم لا نسود ولام لا نشيد)، أم عهود الأيوبيّين وحتى المماليك والعثمانيون حيث حاصروا (فيينا) مرتين وهددوا أوربا ستة قرون، وهل المتخلف الضعيف يستطيع أن يقوم بذلك أيها المتنور الفاضل، وحتى عندما انهارت الدولة العثمانية كانت دولة عظمى مشاركة في الحرب العالمية الأولى.

وأذكرك يا سعادة الدكتور أن تعود إلى مكتبات بغداد ودمشق والقاهرة وغرناطة ونواكشوط وطشقند واستانبول لتعرف كم الفرق شاسعٌ في العلوم والثقافة بين العالم العربي والإسلامي الناهض والعالم الغربي التافه الذي كان يعيش حياة القرون الوسطى عالة على جهود المسلمين الثقافية والعلمية.

أيها الأخ الكاتب العتيد إن المسلمين والعرب كانوا في كل حقبة من حقب التاريخ ولمدة (12) قرناً مثلتهم دولة عظمى دانت لها الرقاب والعباد والملوك ولم نرَ الضعف

والانحطاط إلا مع نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث بدأ الفكر التبشيري يهاجم الإسلام والمسلمين، هذا الفكر الذي أسست له الجامعة الأمريكية في بيروت والمدارس البريطانية والفرنسية على طول وعرض العالم العربي والإسلامي، وأصبحت له مدرسة كبيرة واسعة الانتشار تعتبر فهم فقهاء المسلمين هو المسؤول عن تخلف الأمة وتطالب بمدرسة إصلاحية تحديثية تطور الفكر الإسلامي وبدأت بالماسوني (جمال الدين الأفغاني) وتلميذه (النجيب محمد عبده).

النهضة أيها الدكتور أسامة بالعودة إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً وفتح باب الاجتهاد للواعين من علماء المسلمين الذين لا يحكمهم الهوى بل يحكمهم النص، ودور العقل واستيعاب النص الإلهي منطوقاً أو مفهوماً بدلالات علة التشريع والمقاصد الشرعية وإنهاء مرحلة (القفال) الذي أفتى بوقف باب الاجتهاد ومنذ القرن الرابع الهجري، فكان ذلك سبب تخلف الفقه الإسلامي عن إعطاء حلول لمشاكل الحياة المستجدة، فهناك فرق كبير بين الاجتهاد القائم على دليل من النص ليكون الواقع موضع التفكير والإصلاح والتطوير والتحديث القائم على سيطرة الواقع على النص بجعله مصدراً للتفكير.

أن الأنبياء والرسل والمصلحين طرحوا أفكارهم لإصلاح المجتمع وليس للخضوع لأفكار المجتمع السائدة والمنحطة، إن مهمة المفكرين السمو بالمجتمع وليس الانحدار والانحطاط إلى واقع المجتمع كما هو حال الماركسية، عندما قالت بأن الفكر انعكاس للمادة على الدماغ وخرجت بنظريتها الديالكتيكية المادية والتاريخية وألغت دور العقل.

وكما هو حال الرأسمالية الغربية التي جعلت النفعية هي الأساس الذي يقوم عليه هذا المبدأ فنزلت بالمجتمعات إلى الدرك الأسفل من الانحطاط فشرعت كل أنواع الموبقات طالما أن المجتمع يتطلبها، بل أن الرأسماليين يروجون للحاجات الغريزية حتى يطلبها المجتمع طالما فيه منفعة لهم ولو أدت إلى إشباع غرائز الناس بالوسائل المحرمة أو الخاطئة أو الشاذة.

وختاماً يا دكتور أسامة أقول: إن النهضة هي الارتفاع الفكري والحضاري، وإن الوسائل المادية هي نتاج لهذا الارتفاع، وإن الفهم الصحيح للإسلام الذي تطالب به، لا يقوم على الاستهتار بأقوال الفقهاء السابقين رضي الله عنهم وبتمزيق دفاترهم العتيقة كما تزعم، وكما هي كتب الدكتور محمد شحرور والسيد نيازي عز الدين وأضرابهم كثير، بل بالعودة إلى الاجتهاد في كتاب الله وسنة رسوله واعتبار أقوال الفقهاء السابقين ثروة فقهية عظيمة تحتمل الخطأ كما تحتمل الصواب لأنها فهم بشري لأئمة كبار بذلوا وسعهم فهم مأجورون إن أخطؤوا أو أصابوا فجزاهم الله عنا كل خير ولا عصمة إلا لرسول الله عليه أتم الصلاة والتسليم فيما أوحي إليه من ربه من كتاب الله أو سنة رسوله....

22/ 10/ 2005م

ـ إنّ عدم تفريق المفكرين بين ما هو من أنظمة المجتمع التي تحكم العلاقات بين جميع بني الإنسان ذكوراً وإناثاً وبين ما هو من النظام الاجتماعي الذي يحكم العلاقة الناتجة عن اجتماع المرأة بالرجل والرجل بالمرأة وما يتفرع عن هذه العلاقة، إنَّ عدم التفريق هذا هو الذي جعل المجتمع الإسلامي في حالة ضياع بين متعصب جاهل متمسّك بالعادات والتقاليد وإن خالفت شرع الله من قرآن أو سنة، وبين حاقد خبيث مفتون بالحضارة الغربية بهرته ثمارها فعاش على قشورها ولم يتعمّق في داخلها. ولو عاد الجميع للدليل الشرعي من كتاب الله وسنّة رسوله، والتمسوا علاج المشكلات من الشرع لا من تصوّرات العقل والمنطق المتقلبّة حسب الظروف والأهواء، لوجدوا النظام الاجتماعي في الإسلام يعطي الحلول الدائمة لكل رجل وامرأة آمنا بالإسلام عقيدةً ونظاماً وأسلوب حياة. والعيش بموجب نظام الإسلام يعطي كلاً من المرأة والرجل الطمأنينة يقيناً وواقعاً ملموساً لأنهما يعيشان بموجب نظام وضعه لهما خالقهما سبحانه وتعالى بغض النظر عما إذا ناقض ذلك أفكار الغرب، أو خالف ما عليه الآباء والأجداد من عادات وتقاليد.

الوحي خاطب الإنسان العاقل:

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات 13)، ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ (الانفطار 6)، كما يقول: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ (عبس الآية 17-19). فالله خاطب الإنسان بالتكاليف، وجعل الإنسان موضع الخطاب والتكليف، وأنزل الشرائع للإنسان، ويبعث الله الإنسان ويحاسب الإنسان ـ كإنسان ـ سواء أكان رجلاً أو امرأة. وقد خلق الله الإنسان امرأة ورجلاً في فطرة معينة تمتاز عن الحيوان، فالمرأة إنسان، والرجل إنسان، ولا يختلف أحدهما عن الآخر في إنسانيته، وقد هيأهما الله لخوض معترك الحياة بوصف الإنسانية، وجعلهما يعيشان حتماً في مجتمع واحد، كما جعل بقاء النوع متوقفاً على

اجتماعهما، وعلى وجودهما في كل مجتمع. ولا يجوز أن يُنظر لأحدهما إلا كما يُنظر للآخر، بأنه إنسان يتمتع بجميع خصائص الإنسان ومقومات حياته بما في ذلك العقل والغرائز والطاقات الحيوية. فجعل الخالق في كل من الرجل والمرأة الحاجات العضوية ووضع فيهما غريزة البقاء وغريزة النوع، وغريزة التديّن. وجعل في كل منهما إمكانية التفكير، فالدماغ الموجود عند الرجل هو الدماغ الموجود عند المرأة إذ خلقه الله دماغاً للإنسان وليس دماغاً للرجل أو للمرأة، وذلك من حيث قوة الربط وتحليل المعلومات، وإن صلة الرجل بالمرأة، وصلة المرأة بالرجل من الناحية الجنسية الغريزية صلة طبيعية من أجل تحقيق الغرض الذي خلق الله له هذه الغريزة وهو بقاء النوع. وإن النظرة الحقة إلى غريزة النوع وصرفها في وجهها الصحيح الذي خلقت له، يفسح المجال للإنسان ليقوم بجميع الأعمال ويتفرغ لكافة الأمور التي تسعده، ويسود مفهوم التعاون بين النساء والرجال في الحياة العامة لا مفهوم الجنس، أي تسيطر المفاهيم المربوطة بالعقيدة لا المفاهيم المربوطة بالغريزة، بحيث يكون الاستمتاع استمتاعاً مشروعاً محقّقاً بقاء النوع، متفقاً مع المثل الأعلى للمسلم، وهو رضوان الله تعالى.

وقد جاءت آيات القرآن منصبة على تنظيم الناحية الزوجية، أي على الغرض الذي كانت من أجله غريزة النوع: فجاءت الآيات مبيّنة أن خلق الغريزة من أصله إنما كان للزوجية أي لبقاء النوع، وقد بيّنت ذلك بأساليب مختلفة، ومعاني متعددة، لتجعل نظرة الجماعة إلى صلات المرأة بالرجل نظرة مسلطةً على الزوجية، لا على الاجتماع الجنسي، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ (النساء 1) وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف 189). وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد 38). وقال: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل 72). وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾

(الروم 21). وقال: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ (الشورى 11). وقال: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ (النجم 45 ـ 46). وقال: (النبأ 8).

إن الله سلط الخلق على الذكر والأنثى من ناحية الزوجية، وكرر ذلك حتى تظل الصلات بين الذكر والأنثى منصبة على الزوجية أي على النسل لبقاء النوع. وعمل على إزالة الوقائع والأفكار التي تثير الغريزة الجنسية من المجتمع بحيث لا تكون هي الأساس في العلاقة بين الرجل والمرأة في الحياة العامة. وكون المرأة تثير غريزة النوع عند الرجل، وكون الرجل يثير غريزة النوع عند المرأة لا يعني أن الإثارة أمر حتمي الوجود كلما وجد الرجل مع المرأة أو المرأة مع الرجل، بل يعني أن الأصل في كل منهما أن يثير وجوده مع الآخر هذه الغريزة. فقد يوجدان معاً ولا تثار هذه الغريزة، كما لو وجدا للتبادل التجاري أو للقيام بعملية جراحية لمريض، أو لحضور دروس العلم، أو غير ذلك. ولكن في جميع هذه الحالات وفي غيرها توجد قابلية إثارة الغريزة الجنسية بينهما، إلا أنه ليس معنى وجود القابلية وجود الإثارة، بل تحصل الإثارة من تحويل النظرة من قبل كل منهما إلى الآخر من نظرة لبقاء النوع إلى نظرة الذكورة والأنوثة. ولهذا لا يجوز أن يجعل وجود قابلية الإثارة لغريزة النوع عند الرجل والمرأة حائلاً دون اجتماع الرجال والنساء في الحياة العامة ودون التعاون بينهما. بل لابد من اجتماع الرجل بالمرأة في الحياة العامة، ولابد من تعاونهما. فهذا التعاون بين الرجل والمرأة ضروري للمجتمع وللحياة العامة. وهذا التعاون لا يمكن أن يحقق إلا بنظام ينظم العلاقة الجنسية بينهما، وينظم الصلات والاجتماع بين المرأة والرجل. ولابد أن ينبثق هذا النظام عن النظرة إلى هذه الصلات بين الرجل والمرأة بأنها نظرة لبقاء النوع لا نظرة إثارة جنسية. وبهذا النظام يمكن اجتماع وتعاون المرأة والرجل في الحياة العامة. والنظام الوحيد الذي يضمن هناء الحياة، وينظم صلات المرأة بالرجل تنظيماً طبيعياً هو النظام الذي تكون الناحية الروحية أساسه، والأحكام التي تحقق القيمة الخلقية مآله وهذا النظام هو النظام الاجتماعي في الإسلام. فهو ينظر إلى الإنسان رجلاً كان أو امرأة على أنه إنسان، فيه الغرائز، والمشاعر، والميول، وفيه العقل. ويبيح لهذا الإنسان

التمتع بلذائذ الحياة، ولا ينكر عليه الأخذ منها بالنصيب الأكبر، ولكن على وجه يحفظ الجماعة والمجتمع ويؤدي إلى تمكين الإنسان من السير قدماً لتحقيق هناء الحياة. والنظام الاجتماعي في الإسلام وحده هو النظام الاجتماعي الصحيح، لأن هذا النظام يأخذ غريزة النوع على أنها لبقاء النوع الإنساني وينظم صلات الذكورة والأنوثة بين الرجل والمرأة تنظيماً دقيقاً، بحيث يجعل هذه الغرائز محصورة السير في طريقها الطبيعي، موصلة للغاية التي من أجلها خلقها الله في الإنسان. وينظم في الوقت نفسه الصلات بين الرجل والمرأة ويجعل تنظيم صلة الذكورة والأنوثة جزءاً من تنظيم الصلات بينهما بحيث يضمن التعاون بين الرجل والمرأة من اجتماعهما معاً لما فيه خير الجماعة والمجتمع، والفرد. ويضمن في الوقت نفسه تحقق القيمة الخلقية، وجعل المثل الأعلى رضوان الله حتى تكون الطهارة والتقوى هي التي تقرر طريقة الصلات بين هذين الجنسين في الحياة وتجعل أساليب الحياة ووسائلها لا تتناقض مع هذه الطريقة بحال من الأحوال. فقد حصر الإسلام صلة الجنس أي صلة الذكورة والأنوثة بين الرجل والمرأة بالزواج، وملك اليمين، وجعل كل صلة تخرج عن ذلك جريمة تستوجب أقصى أنواع العقوبات، ثم أباح باقي الصلات التي هي من مظاهر غريزة النوع الجنسي، كالأبوة والأمومة والبنوة والأخوة والعمومة والخؤولة، وجعله رحماً محرماً. وأباح للمرأة ما أباحه للرجل من مزاولة الأعمال التجارية والزراعية والسياسية وغيرها، ومن حضور دروس العلم والصلوات، وحمل الإسلام كرسالة وغير ذلك.

كما جعل الإسلام التعاون بين المرأة والرجل في شؤون الحياة، وفي علاقات الناس بعضهم مع بعض، أمراً ثابتاً في جميع المعاملات. فالكل عباد الله، والكل متضامن للخير، ولتقوى الله وعبادته. وقد جاءت الآيات مخاطبة الإنسان في الدعوة إلى الإسلام بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف 158)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ (النساء 1) وجاءت الآيات مخاطبة المؤمنين في العمل بأحكام الإسلام: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (الأنفال 24). وجاءت الآيات عامة شاملة للرجل والمرأة: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾

(البقرة 183)، ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (البقرة 43)، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (التوبة 103)، ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ (التوبة 60)، ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ (التوبة 34)، ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ (التوبة 29)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ (التوبة 23)، ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى 38).

وقال عليه الصلاة والسلام: (من استأجر أجيراً فليوفه أجره). رواه البخاري، وقال: (من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم). إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث، فهي كلها عامة للمرأة والرجل، والقيام بها يمكن أن يحصل فيه اجتماع بين الرجل والمرأة، حتى ما كان جائز القيام به فردياً كالصلاة مما يدل على إباحة الإسلام للاجتماع بين الرجل والمرأة للقيام بما كلفهم به من أحكام وما عليهم أن يقوموا به من أعمال.

أحكام شرعية في الحياة العامة:

وقد احتاط الإسلام لكل ما قد يؤدي إلى الصلة الجنسية غير المشروعة ويخرج أياً من المرأة والرجل عن النظام الخاص المشروع لتلك العلاقة. وشدد في هذا المنع فجعل العفة أمراً واجباً. وجعل استخدام كل طريقة أو أسلوب أو وسيلة تؤدي إلى صيانة الفضيلة والخلق أمراً واجباً لأن (ما لا يتم الواجب إلا به واجب) وحدد لذلك أحكاماً شرعية معينة كثيرة منها:

1 ـ أنه أمر كلاً من المرجل والمرأة بغض البصر، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور 30، 31).

2 ـ أمر النساء إن يرتدين اللباس الكامل المحتشم الذي يستر كل ما هو موضع للزينة، ما ظهر منها، وأن يدنين عليهن ثيابهن فيسترن بها. قال تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور 31)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب 59) أي لا يبدين محل زينتهن إلا ما ظهر منها (الوجه والكفان)، والخمار غطاء الرأس والجيب

طوق القميص، أي فتحة القميص من العنق إلى الصدر، أي ليجعلن خمرهم على عنقهن وصدورهن، والإدناء من الجلباب هو إرخاء الثوب إلى أسفل حتى القدمين.

3 ـ منع المرأة من أن تسافر من بلد إلى آخر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرم. قال عليه الصلاة والسلام: (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أنْ تسافر مسيرة يوم وليلة إلا ومعها محرَم لها) رواه مسلم.

4 ـ منع الخلوة بين الرجل والمرأة إلا ومعها محرم. قال عليه الصلاة والسلام: (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها محرم) رواه البخاري. وعن ابن عباس أنه سمع النبي (ص) يخطب يقول: (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم، فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة إني اكتتبت في غزوة كذا، قال: (فانطلق فحج مع امرأتك).

5 ـ منع المرأة أن تخرج من بيتها إذا لم يأذن لها زوجها لأن له حقوقاً عليها، فلا يصح أن تخرج من منزله إلا بإذنه وإذا خرجت بغير إذنه كانت عاصية واعتبرت ناشزة (لا تستحق النفقة). كما هو حديث أنس رضي الله عنه: فقوله عليه الصلاة والسلام { اتقي الله ولا تخالفي زوجك }.

6 ـ حرص الإسلام على أن يجعل جماعة النساء منفصلة عن جماعة الرجال في الحياة الخاصة وفي المسجد والمدرسة وما شاكل ذلك. فجعل المرأة تعيش في وسط النساء والرجل يعيش وسط الرجال، وجعل صفوف النساء في الصلاة متأخرة عن صفوف الرجال، وأن يكون عيش النساء مع النساء أو مع المحارم، فتقوم المرأة بأعمالها العامة كالبيع والشراء ونحوه على أن تذهب بعد العمل لتعيش مع النساء أو مع محارمها.

7 ـ حرص الإسلام على أن تكون صلة التعاون بين الرجل والمرأة صلة عامة في المعاملات، لا صلة خاصة كتبادل الزيارات بين الرجال الأجانب والنساء والاختلاط الذين منعه الشرع لأن المقصود من هذا التعاون هو مباشرة المرأة لاستيفاء مالها من حقوق ومصالح، وأداء ما عليها من واجبات.

المرأة والرجل أمام التكاليف الشرعية:

حين جاء الإسلام بالتكاليف الشرعية التي كلف بها المرأة والرجل، وحين بين الأحكام الشرعية التي تعالج أفعال كل منهما، لم ينظر إلى مسألة المساواة أو المفاضلة بينهما أية نظرة، وإنما نظر إلى أنَّ هناك مشكلة معينة تحتاج إلى علاج، فعالجها باعتبارها مشكلة معينة بغض النظر عن كونها مشكلة تخص امرأة أو رجلاً. فالعلاج هو لفعل الإنسان أي للمشكلة الحادثة، وليست المعالجة للرجل أو للمرأة. ولهذا لم تكن مسألة المساواة أو عدم المساواة بين الرجل والمرأة موضع بحث، وليس لهذا الشيء وجود في التشريع الإسلامي، بل الموجود هو حكم شرعي لحادثة وقعت من إنسان معين، سواءً أكان رجلاً أو امرأة. وعلى هذا ليست المساواة بين الرجل والمرأة قضية تبحث ولا هي قضية ذات موضوع في النظام الاجتماعي، لأن كون المرأة تساوي الرجل، أو كون الرجل يساوي المرأة ليس وارداً في منظور الإسلام ولا هو مشكلة محتملة الوقوع في الحياة الإسلامية. فهذا القول ما هو إلا من الشعارات الواردة من الغرب، ولا يقولها أحد من المسلمين سوى تقليد للغرب الذي كان يهضم المرأة حقوقها الطبيعية باعتبارها إنساناً، فطالبت بهذه الحقوق واتخذ بحث المساواة طريقاً لنيل هذه الحقوق. وأما الإسلام فلا شأن له بهذه الاصطلاحات لأنه أقام نظامه الاجتماعي على أساس متين يضمن تماسك الجماعة والمجتمع ورقيهما، ويوفر للمرأة والرجل السعادة الحقيقية اللائقة بكرامة الإنسان الذي كرمه الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ (الإسراء 70). وعلى هذه النظرة شرعت التكاليف الشرعية وعلى أساسها تكون الحقوق والواجبات للرجال والنساء. فحين تكون الحقوق والواجبات حقوقاً وواجبات إنسانية، أي حين تكون التكاليف تكاليف تتعلق بالإنسان كإنسان، نجد الوحدة في هذه الحقوق والواجبات، أي نجد الوحدة في التكاليف فتكون الحقوق والواجبات على كل من المرأة والرجل واحدة وتكون التكاليف كذلك واحدة للرجال والنساء. وينطبق ذلك أيضاً على أحكام العبادات والاقتصاد والسياسة والتعليم وحمل لواء الإسلام، وما إلى ذلك. ولكن حين تكون هذه الحقوق والواجبات وهذه التكاليف الشرعية تتعلق بطبيعة الأنثى بوصفها أنثى، وبطبيعة وضعها في الجماعة،

وموضعها في المجتمع، أو تتعلق بالذكر بوصفه ذكراً وبطبيعة مكانه في الجماعة، وموضعه في المجتمع، تكون هذه الحقوق والواجبات أي هذه التكاليف، متنوعة بين الرجل والمرأة، لأنها لا تكون علاجاً للإنسان كإنسان، بل تكون علاجاً لهذا النوع من الإنسان الذي له نوع من الطبيعة الإنسانية مختلف عن النوع الآخر. لذا لابد أن يكون العلاج مخصصاً لهذا النوع من الإنسان لا للإنسان مطلقاً. فمثلاً جعلت شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد في الأعمال التي تكون في جماعة الرجال، وفي الحياة العامة، كمثل شهادتها على الحقوق والمعاملات، قال تعالى: ﴿ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ (البقرة 282). ولكن جعلت شهادة النساء وحدهن كافية في الأمور التي تحدث في جماعة النساء فحسب ولا يكون فيها للرجال دور، كجناية مثلاً تحصل في حمام النساء. كما يكتفي بشهادة امرأة واحدة في الأمور التي لا يطلع عليها إلا النساء كشهادة المرأة في البكارة والثيوبة والرضاعة فالرسول (ص) قبل شهادة امرأة واحدة في الرضاع.

وجعل الإسلام نصيب المرأة في الميراث نصف نصيب الرجل في بعض الحالات، قال الله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء 11).

وهذا في العصبات كالأولاد والإخوة والأشقاء والإخوة لأب لأن واقع الأنثى في ذلك أن نفقتها واجبة على أخيها إن كانت فقيرة ولو كانت قادرة على العمل. وجعل نصيب المرأة كنصيب الرجل في بعض الحالات، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ (النساء 12) وهذا في الإخوة لأم، لأن الكلالة هو المقطوع الذي لا أصول ولا فروع ولا إخوة أشقاء أو لا أب له، فتبين أن المراد بالأخ أو الأخت هو الأخوة لأم. وواقع الأنثى في ذلك أن نفقتها لا تجب على أخيها لأمّها وإن كان محرماً لها.

وأمر الإسلام أن يكون لباس المرأة مخالفاً للباس الرجل، كما أمر أن يكون لباس الرجل مخالفاً للباس المرأة. ومنع أحدهما أن يتشبه بالآخر باللباس، وبما يختص به ويميزه عن النوع الآخر، كتزيين أعضاء الجسم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لعن رسول

الله (ص) الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل)، وعن ابن عباس قال: (لعن النبي (ص) المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء..) رواه البخاري. وجعل الإسلام الصداق على الرجل للمرأة، وجعله حقاً لها عليه، مع أن الاستمتاع هو لهما معاً وليس للرجل وحده. فقال تعالى: ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾ (النساء 4)، ومعنى نحلة هو عطية إذ الصداق عطية وليس هو بدل البضع كما يتوهم البعض.

وجعل الله تعالى العمل لكسب المال فرضاً على الرجال ولم يجعله فرضاً على المرأة بل مباحاً لها، إن شاءت عملت وإن شاءت لم تعمل. قال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ (الطلاق 7). (ذو) لا تطلق إلا على المذكر. وقال: ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ (البقرة 233). فجعل النفقة على الذكر وجعل الإسلام أمر القوامة للرجال على النساء، فجعل لهم القيادة والأمر والنهي، قال الله تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء 34) وقد بين أن هذه القوامة كانت للرجال بما جعل الله لهم من زيادة في التكاليف كالحكم، وإمامة الصلاة، والولاية في النكاح، كما جاء في قوله تعالى: (بما فضل الله بعضهم على بعض). وهذه القوامة للرجال هي أيضاً بمقابل ما ألقي على عاتقهم من تكاليف الإنفاق من المهر والتموين، فقال تعالى: (وبما أنفقوا من أموالهم).

وجعل للمرأة حق حضانة الصغير ولداً كان أو بنتاً، كما جعل للمرأة مباشرة الإنفاق على الصغار إذا ماطل أبوهم، أو قتر عليهم، فقد جاءت هند إلى رسول الله (ص) فقالت: (يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني من النفقة ما يكفني وولدي: فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف...) رواه البخاري.

وهكذا جاء الإسلام بأحكام متنوعة خص الرجال ببعضها، وخص النساء ببعضها، وميز بين الرجال والنساء في قسم منها، وأمر أن يرضى كل منهما بما خصه الله به من أحكام. كما نهى الرجال والنساء عن التحاسد وعن تمني ما فضل الله به بعضهم على بعض، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا

ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ (النساء 32) وهذا التخصيص في الأحكام ليس معناه عدم مساواة وإنما هو علاج لأفعال الأنثى باعتبارها أنثى، وعلاج لأفعال الذكر باعتباره ذكراً، وكلها قد عولجت بخطاب يتعلق بأفعال العباد. وإذا درس واقع هذه الأفعال جميعها يتبين أن الأحكام هي مفصلة لعلاج مشكلة لنوع من الإنسان باعتبار نوعه. وذلك يختلف عن علاج الإنسان باعتباره إنساناً ولم يلاحظ في هذا العلاج ناحية المساواة أو عدم المساواة لأنها ليست محل البحث وإنما لوحظ فيه أن يكون علاجاً معيناً لمشكلة معينة لإنسان معين. هذه هو وجه التنوع في الأحكام بين الرجل والمرأة فيما ورد من أحكام متنوعة ـ وهذه الأحكام هي ضمن كافة الأحكام التي أتت لمعالجة حال الإنسان، سواء أكان علاجاً واحداً لكل من الرجل والمرأة كطلب العلم، أو كان متنوعاً بينهما كتنوع العورة واختلافها بالنسبة للرجل وبالنسبة للمرأة. ولا يعني ذلك مطلقاً تمييز إنسان، أو بحث مساواة أو عدم مساواة.

وفي ختام موضوع المرأة لابد من التعرض إلى نقطتين هامتين لو بإيجاز، وهما نقطتان يثيرهما المضبوعون بالثقافة الغربية من أبناء المسلمين. وتتعلق هاتان النقطتان بحظر الإسلام على المرأة أن تتولى ما هو من الحكم ومعنى كونها ناقصة عقل ودين. إن قول الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: (ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة...) رواه البخاري، أو (خاب قوم ولوا أمراهم امرأة..) رواه البخاري. هو نص ثابت بعدم جواز أن تتولى المرأة ما هو من الحكم. ويجب على المسلم والمسلمة القبول والرضا بما خص الله به الرجال في جعل الحكم من صلاحياتهم فقط، ولكن إيضاحاً لحكمه هذا الأمر سأشرح ما هو الحكم وما هو عمل الحكام من حيث الواقع.

معنى عدم أهلية المرأة لتولي الحكم:

إن الحاكم ومن في حكمه ممن يقوم بمهام الحكم كرئيس الدولة أو نائب الرئيس أو الملك أو ولي العهد هم أناس يقوم عملهم بالأساس على قيادة الأمة أو الشعب، أي إنهم أصحاب قرار. والحاكم هو المسؤول عن الأمة وعن الشعب داخلياً وخارجياً، وهو الذي يتبنى الاقتراحات فتصبح مراسيم وأوامر يتعلق بها مصير شعبه وربما مصير شعوب آخرين في العالم عندما تكون دولته دولة عظمى.

فالحاكم يتخذ قراراته وأوامره بموجب التفكير العقلي وبدون سيطرة المشاعر والعواطف عليه حتى ولو كانت قراراته تمس أقرب الناس إليه من أخ أو ذي رحم أو جار أو صديق، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها..) رواه البخاري. فهل تستطيع المرأة أن تقوم بهذه المهام الجليلة العظيمة التي تتطلب منها أحياناً أن تكون وكأنها قدت من صخر مجردة من كل عاطفة أو مشاعر تجاه أي مخلوق في الدنيا حتى ولو كان ولدها الذي تربى على ثديها أو أخوها الذي حملته صغيراً على كتفها؟ لا شك أن الفطرة التي فطر الله سبحانه وتعالى المرأة عليها بوصفها امرأة وأمّاً وربة بين وعرْضَاً يجب أن يصان، يجعل الحنان والعطف والرقة والإلفة والوداعة من صفاتها الفطرية. فهذه الصفات هي التي جعلت المرأة تستيقظ ليلاً على بكاء رضيعها وتتحسس حاجات ولدها بحيث تشعر بها قبل أن تحدث، فتسهر لسهره إذا مرض وتتعافى معه إذا تعافى، كل ذلك جعل عواطفها ومشاعرها في الغالب وهي المسيطرة على قراراتها، ولو أن الله سبحانه وتعالى خلقها على غير ذلك لما استمر هذا الكون ولما استمرت هذه الحياة، فتكوينها هذا هو من أسباب عمران هذا الكون واستمراره. علاوة على ذلك كيف تكون حال قرارات المرأة وهي في عادتها الشهرية، سبعة أيام في الشهر، أي (54) يوماً في السنة، وما أثر الآلام التي تعانيها خلال تلك الفترة على قراراتها التي يتعلق بها مصير الدولة والشعب والأمة وربما العالم بأجمعه؟ وكيف ستكون قراراتها أثناء فترة الحمل والرضاع والنفاس والرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (لا يقضي القاضي وهو غضبان) رواه الترمذي، علماً أن القاضي موظف وليس حاكماً باستثناء قاضي المظالم، ويقاس على الغضبان الجوعان والعطشان والزعلان وكل صفة تؤدي إلى تشويش التفكير واضطرابه، فكيف تستطيع المرأة أن تقوم بمهام الحاكم وهي مشوشة التفكير بحرصها على أولادها وزوجها وأهلها وكل ما يتعلق في عواطفها وإحساساتها المرهفة والشفافة والرفيعة؟ ولهذا يخطئ من يظن أن موضوع الحكم واختصاص الرجل فيه يتعلق بالذكاء والعبقرية فكثير من النساء يفقنَ الرجال بذكائهن وعبقريتهن في كل ما يتعلق بالإبداعات الفكرية والتكنولوجية ولا خلاف على ذلك.

لكن موضوع الحكم يتعلق بأهلية الرجل للحكم كمخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى وبعدم أهلية المرأة للحكم كمخلوقة خلقها الله سبحانه وتعالى، كما هو حال عدم أهلية الرجل للحضانة كمخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى وأهلية المرأة للحضانة كمخلوق خلقه الله سبحانه وتعالى ولا يعيب أحد على أحد فكل ميسر لما خلق له.

أما ما يمكن أن يثيره البعض من ضربهم الأمثلة بجولدا مايير وتاتشر والإمبراطورة كاترين ومملكة سبأ وشجرة الدر وزنوبيا وأنديرا غاندي ومسز اكينو وبنزيربوتو وخلافهن من النساء اللواتي حكمن في فترة من الفترات، فإن الرد على ذلك بإيجاز هو أن الإسلام عالج مشاكل الإنسان بوصفه إنساناً، وأعطى الأحكام للأعم الأغلب من البشر، أي للإنسان كما هو يجب أن يكون وليس للحالات الشاذة. فالإسلام أجاز للإنسان الملك تجاوباً مع فطرته في حب التملك علماً أن هناك شاذين لا يحبون المال. والإسلام جعل هناك ميلاً فطرياً من الرجال إلى النساء ومن النساء إلى الرجال، ومن ليس عنده هذا الميل ولا يرغب في إشباع حاجاته الجنسية هو إنسان شاذ أو مريض وليس على الفطرة الصحيحة. فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: (يعجبه من الدنيا ثلاث: النساء والطيب والصلاة) رواه أحمد ويقول: (إني أصوم وأفطر وأصلي وأنام وأعاشر النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني..) رواه البخاري. ولهذا فإن الإسلام كأي شريعة وقوانين عالجت مشاكل الإنسان العادي بميوله الفطرية، عالجته ككتلة متفاعلة من العقل والغرائز. فالإنسان ليس ملكاً إنما هو بشر ولذلك فهو عرضة للمسؤولية والحساب أمام القانون في الدنيا وأمام الله في الآخرة ولهذا لم يعط الإسلام أحكاماً لرجال عندهم مواصفات النساء ولا لنساء عندهن مواصفات الرجال، فهناك من الرجال من مشاعره وعواطفه تفوق النساء وهناك نساء متبلدات المشاعر والعواطف إلى درجة التجمد فكلاهما يحمل مواصفات شاذة وليست أصيلة إنما طارئة على الفطرة التي خلق الله سبحانه وتعالى الرجال والنساء عليها. فالعبرة بالأعم الأغلب ولا عبرة للشاذ عند وجوده وهذا شيء معروف في كافة القوانين والأنظمة أيضاً فهي وضعت لتنظيم البشر وليس لتنظيم الشواذ أو الملائكة.

أما من حيث واقع النساء اللواتي حكمن في فترات التاريخ القديم أو الحديث كالسيدة تاتشر أو جولدا مايير، فإن النجاحات التي حققتها دولهن في عهودهن ليس بالدليل على أن المرأة تستطيع أن تحكم إنما هو دليل على أن الدول القوية والعظمى تحكمها أجهزة ومستشارون وخبراء. إضافة إلى ذلك فإن إمكانات هذه الدول القوية تجعل أي إنسان يستطع أن يتقلد منصب الحكم فيها وإن كان امرأة أو ممثلاً أو مزارعاً، كما يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية أو في بريطانيا. فكل ما يحتاج الرئيس في هذه الدول القوية هو أن يتدرب (على البروتوكول الدبلوماسي) ويأخذ بعض (الكورسات) المكثفة في السياسة، حيث إنَّ اللجان الفنية والمستشارين والهيئات المتخصصة تقوم بكل شيء وتضع كل القرارات على طبق خاص جاهز للتوقيع عليها من قبل الرئيس. وطالما أن أعراض الضعف لم تظهر على الدولة القوية وكانت إمكانياتها الاقتصادية والعسكرية قوية فلا يوجد لديها مشكلة حكم، فالدولة العثمانية مثلاً عندما كانت أقوى دولة في العالم حكمها في بعض الفترات سلطان سفيه أو معتوه بينما كانت قواتها العسكرية تدك حصون أوروبا وقلاعها، ولم يؤثر ذلك عليها لأنها كانت قوية ومرهوبة كما هي حال الولايات المتحدة الأمريكية الآن. أما النساء اللواتي ورثن الحكم عمن سبقهن فلسن مقياساً على الإطلاق في مقدرتهنَّ أو عدمها لأن ظروف الحكام السابقين ومقدرتهم هي التي عاش على عزها فترة من الزمن أمثال هؤلاء النسوة كالإمبراطورة كاترين أو شجرة الدر وزنوبيا. أما أمثال الرئيسة اكينو وبوتر وأنديرا غاندي فإنهن بالأساس لسن حكاماً إنما أتت بهن الظروف وذهبت بهن ظروف من حيث لا يعلمن ولا يدرين. فلا ينظر بحالهن ولا يقاس عليهن. وعلى كل فإن الواقع الحسي لا يمنع من ظهور نساء شواذ عندهن المقدرة أن يحكمن كما هي الحال في الرجال الشواذ الذين لا يرغبون بالحكم أو بالتملك، لكن يبقى أصل القاعدة وهو أن المرأة كمرآة بعواطفها ومشاعرها غير مؤهلة فطرياً للحكم، هذا هو الواقع، والشاذ لا حكم له.

معنى ناقصات عقل ودين:

أما حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (النساء ناقصات عقل ودين) فلا يعني بأي حال من الأحوال ضعف التفكير عند المرأة أو ضعف الدين، لأن العقل موجود عند

المرأة كما هو موجود عند الرجل بعناصره الأربعة: الدماغ والواقع والإحساس والمعلومات السابقة.

والدين هو هنا بمعنى الإسلام، والمرأة مكلفة فيه اعتقاداً وأحكاماً كما أن الرجل مكلف به، فكيف يتأتى الضعف أو النقص؟ ولكن بدراسة هذا الحديث الشريف على ضوء النصوص الشرعية من القرآن والسنة التي كلفت الإنسان المخلوق من قبل الله تعالى رجلاً كان أو امرأة، وإن كلاهما سيدخل الجنة أو النار بعمله اعتقاداً وعملاً، وإن الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة، وإنه تعالى يؤاخذ المكلف القادر، فيكون معنى نقص العقل عند المرأة ليس له علاقة بالذكاء أو الفهم أو الإدراك، بل ينصب على ضعف المحاكمة والتقدير عند المرأة في بعض الحالات التي تقتضي فيها غلبة مشاعرها وعواطفها على تفكيرها، وهذا أمر طبيعي عند المرأة حتى تستمر الحياة ويستمر الكون وتستمر الحياة الزوجية ويستمر النسل وتعمر البيوت. أما نقص الدين فلا يفهم منه أبداً أن الرجال أتقى من النساء أو ما إلى ذلك بل يعني أن الطبيعة الخلقية للمرأة تمنعها من القيام ببعض الأعباء والالتزامات الدينية كالإفطار في رمضان بسبب الحيض والنفاس وسقوط الصلاة عنها وعدم قضائها لها. والمرأة بالطبع لا تأثم لعدم قدرتها بتلك الواجبات على أكمل وجه لأنها ساقطة عنها شرعاً. إنما هي تعتبر غير مكلفة بكل الواجبات التي يكلف بها الرجل فيصبح لديها نقص لاعتبارات خلقية فقط وهو نقص موجود لكنه مشروع.

وبذلك نكون إلى حد ما قد استوفينا ما يتعلق بالمرأة من أحكام بشكل عام وموجز، إذ حاولنا إزالة الشوائب التي علقت بالأحكام الشرعية المتعلقة بالمرأة سواء أكانت هذه الشوائب متأثرة بالتقاليد والعادات أو نابعة عن الحضارة الغربية.

عورة المرأة

القول بأن الحجاب مفروض على النساء في الإسلام يسترن به وجوههن ما عدا عيونهن هو رأي إسلامي قال به بعض الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب. والقول بأن الحجاب غير مفروض على النساء في الإسلام فلا يجب على المرأة المسلمة أن تستر

وجهها مطلقاً لأنه ليس بعورة، وهو أيضاً رأي إسلامي، قال به بعض الأئمة المجتهدين من أصحاب المذاهب.

وبما أن هذه المشكلة هي من المشاكل الاجتماعية الهامة، وتبني أي رأي من هذين الرأيين يؤثر على طراز الحياة الإسلامية، لذلك كان لابد من عرض شامل للأدلة الشرعية في هذه المشكلة، بدراستها، وتتبعها، وتطبيقها على واقع المشكلة. وعلى المسلم الأخذ بالرأي الأقوى دليلاً، فما يقوله المجتهدون استنباطاً من الأدلة الشرعية يحتمل دائماً الصواب والخطأ، والمجتهد إذا أخطأ فله أجر وإذا أصاب فله أجران، فقد قال الفريق الأول: إنَّ عورة المرأة هو جميع بدنها ما عدا وجهها وكفيها إنما هو في الصلاة فحسب، أما في خارج الصلاة فقالوا: إنَّ جميع بدنها عورة، بما في ذلك و جههـا وكفاهـا. واستندوا في قولهم هذا إلى الكتاب والسنة كما سيرد أدناه.

أما الدليل من الكتاب فهو قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ (الأحزاب 53) وهو أمر صريح في ضرب الحجاب عليهن. ويقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الأحزاب 59) ومعنى يدنين عليهن من جلابيبهن يرخينَها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، فلا يطمع فيهم طامع. وهذا أجدر وأولى أن يعرفن فلا يتعرض لهن، ولا يلقين ما يكرهن. ومنهم من يقول ذلك أدنى أن يعرفن هنالك (لا) محذوفة أي ذلك أجدر أن لا يعرفن جميلات أو غير جميلات فلا يؤذين.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الأحزاب 33) فأمر الله للنساء أن يقرن في بيوتهن دليل على الحجاب.

وأما من السنة فالدليل أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (المرأة عورة)، وما روي عن أم سلمة قالت: (كنت قاعدة عند النبي صلى الله عليه وسلم أنا وحفصة فاستأذن ابن مكتوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (احتجبن منه)، فقلت يا رسول الله إنه ضرير لا يبصر، قال: أفعمياوان أنتما لا تبصرانه). رواه أبو داود. وما رواه

أبو داود أيضاً: (كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءته الخثعمية تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه فصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه عنها). وعن جرير بن عبد الله قال: (سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري). رواه مسلم وعن علي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة) رواه أحمد.

هذه هي أدلة القائلين بالحجاب والقائلين إن جميع بدن المرأة عورة، أدلة لا تنطبق على المشكلة المستدل عليها لأنها جميعها ليست في هذا الموضوع. أما آية الحجاب: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ (الأحزاب 53)، فلا علاقة لنساء المسلمين بها مطلقاً وهي خاصة بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم بصريح الآية إذا تليت جميعها وهي آية واحدة مرتبطة ببعضها لفظاً ومعنى. فإن نص الآية هو: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ (الأحزاب 53) فالآية نص في نساء النبي، وخاصة بهن، ولا علاقة لها بنساء المسلمين، ولا علاقة لأية نساء غير نساء رسول الله بهذه الآية. ويؤيد كون هذه الآية بنساء الرسول عليه السلام ما روي عن عائشة قالت: (كنت آكل مع النبي صلى الله عليه وسلم حيساً في قصعة، فمر عمر فدعاه فأكل. فأصابتْ إصبعه إصبعي، فقال عمر: أواه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين فنزل الحجاب) وما روي عن عمر رضي الله عنه قال: (قلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو حجبت أمهات المؤمنين، فأنزل الله آية الحجاب). وما روي عن عمر مر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وهن مع النساء في المسجد فقال: (أن احتجبن فإن لكن على النساء فضلاً، كما أنَّ لزوجكم على الرجال الفضل، فقالت زينب رضي الله عنها، يا ابن الخطاب إنك لتغار

علينا والوحي ينزل في بيوتنا، فلم يلبثوا يسيراً حتى نزلت) فنص الآية وهذه الأحاديث قطعية الدلالة بأنها نزلت في حق نساء النبي عليه السلام ولم تنزل في غيرهن.

وأما الآية: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (الأحزاب 33) فهي أيضاً خاصة بنساء الرسول صلى الله عليه وسلم ونص الآية كاملاً هو: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ (الأحزاب 32، 33) عقب ذلك قال: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ (الأحزاب 34) فذكر هنا بأن بيوتهن مهابط الوحي، وأمرهن أن لا ينسين ما يتلى فيها من القرآن.

فهاتان الآيتان صريحتان بأنهما لنساء الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنهما خاصتان بهن فلا دلالة في أي منهما على حكم للنساء المسلمات غير نساء الرسول عليه الصلاة والسلام. وهناك آيات أخرى خاصة بنساء الرسول مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾ (الأحزاب 53). والتي لا تبيح لنساء الرسول أن يتزوجن بعده، بخلاف النساء المسلمات فإنهنَّ يتزوجن بعد أزواجهن. وآيتا الحجاب هاتان خاصتان بنساء النبي عليه السلام كآية تحريم زواجهن بعده.

ولا يقال هنا: إنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وإنَّ سبب نزول الآيات هو نساء الرسول وهي عامة فيهن وفي غيرهن، لا يقال ذلك لأن سبب النزول هو حادثة وقعت، فكانت سبب النزول. أما هنا فليست نساء الرسول حادثة وقعت وإنما هو نص معين جاء بحق أشخاص معينين. ونص على شخصهن فقال: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ (الأحزاب 32)، وقال: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ ﴾ (الأحزاب 53) والضمير لنساء الرسول، ومعين بهن ليس غير، وعقب ذلك بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ (الأحزاب 53) مما يشعر بعلة حجابهن. كل ذلك يحصر الآيتين نصاً بنساء الرسول، فلا تنطبق عليهما قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وكذلك لا يقال: إنَّ خطاب نساء الرسول خطاب للنساء المسلمات، فخطاب الرسول خطاب للمؤمنين. أما خطاب نسائه فهو خاص بهن، لأن الرسول هو محل الأسوة في كل خطاب أو فعل أو سكوت ما لم يكن من خصوصياته عليه السلام. أما نساء الرسول فلسن محل الأسوة. لأن الله يقول: ﴿ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب 21). ولا يصح أن تكون نساء الرسول قدوة، بمعنى أن يفعل الفعل لأنهن فعلنه أو يتصف بالصفة لأنهن يتصفن بها، بل هو خاص بالرسول لأنه لا يتبع إلا الوحي. فنساء الرسول يجوز عليهن الخطأ باعتبارهن بشراً. فالرسول يقول: (كل بني آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون) رواه الترمذي.

وكذلك لا يقال: إنه إذا كانت نساء الرسول وهن الطاهرات اللواتي يتلى الوحي في بيوتهن يطلب منهن الحجاب، فإن غيرهن من النساء المسلمات أولى أن يطلب منهن، لا يقال ذلك لسببين: أحدهما أن هذا ليس من قبيل الأولى، لأن الأولى هو أن ينهي الله عن الصغير فيكون نهياً عن الكبير من باب أولى كقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ (الإسراء 23)، فمن باب أولى أن لايضربهما والأولى يفهم من سياق الكلام كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران 75) فأداء ما دون القنطار من باب أولى وعدم أداء ما فوق الدينار من باب أولى. وآية الحجاب ليست من هذا القبيل لأن سياق الآية لا يدل إلا على نساء النبي ولا يدل على مفهوم آخر. ولفظ نساء النبي ليس وصفاً مفهماً حتى يقال غير نساء النبي من باب أولى، بل هن اسم جامد فلا يتأتى أن يكون له مفهوم، فيكون الكلام خاصاً بالشيء الذي جاء النص عليه ولا يتعداه إلى غيره. ولا يتأتى في الآية موضوع (من باب أولى) مطلقاً لا من ألفاظ الآية ولا من سياقها. والثاني أن هاتين الآيتين أمر لأشخاص مخصوصين قد نص عليهم بعينهم لاتصافهم بصفات معينة، فلا يكون أمراً لغيرهم مطلقاً، لا لمن هو أعلى منهم ولا لمن هو أدنى منهم، لأنه وصف معين ومحدد، وهو مختص بأشخاص معينين. فهو أمر لنساء الرسول بوصفهن نساء الرسول لأنهن لسن كأحد من النساء ولأن هذا العمل يؤذي الرسول عليه الصلاة والسلام.

وإذا انتفى انطباق قاعدة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) وانتفى أمر الإقتداء بنساء الرسول (أي أن يكن أسوة)، وانتفى كون غيرهن من باب أولى، وثبت أن هذا النص قطعي في كونِهِ خاصاً بنساء الرسول فيكون قد ثبت أن هاتين الآيتين خاصتان بنساء الرسول عليه السلام ولا تشملان النساء المسلمات مطلقاً بأي وجه من الوجوه. فيثبت بذلك أن الحجاب خاص بنساء الرسول، والمكث بالبيوت خاص بنساء الرسول، وينتفي الاستدلال بهما على كون الحجاب قد شرع لكافة النساء المسلمات.

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب 59) فإنها لا تدل على تغطية الوجه بحال من الأحوال لا منطوقاً ولا مفهوماً، ولا يوجد فيها أي لفظ يدل على ذلك لا مفرداً، ولا من وجوده في الجملة على فرض صحة سبب النزول. فالآية تقول: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب 59). ومعناها يرخين عليهن من جلابيبهن، و(من) هنا ليست للتبعيض وإنما هي للبيان أي يرخين عليهن جلابيبهن. ويقال أدنى الستر: أي أرخاه، أدنى الثوب «أنزله، أرخاه»، ومعنى يدنين يرخين. والجلباب هو الملحفة وكل ما يستر به من كساء وغيره. وقال الجوهري في الصحاح: «الجلباب الملحفة وقيل الملاءة» وقد ورد في الحديث الجلباب بمعنى الملاءة التي تلتحف بها المرأة فوق ثيابها. فعن أم عطية رضي الله عنها قالت: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نخرجَ في الفطر والأضحى، العوائق والحيض وذوات الخدور. فأمَّا الحيض فيعتزلن الصلاة ويشهدان الخير، ودعوة المسلمين. قلت يا رسول الله إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: (لتلبسها أختها من جلبابها) رواه البخاري، ومعناه ليس لها جلباب فوق ثيابها لتخرج فيها، فأمر بأن تعيرها أختها من ثيابها التي تلبس فوق الثياب فيكون معنى الآية المذكورة هو: إن الله طلب من الرسول أن يقول لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين يرخين عليهن ثيابهن التي تلبس فوق الثياب إلى أسفل. فالآية تدل على إرخاء الجلباب ـ وهو الثوب المرتخي الواسع ـ إلى أسفل، ولا تدل على غير ذلك. ولا يمكن أن يفهم أن معنى يدنين عليهن من جلابيبهن هو أن يجعلن ثوبهن على وجههن مهما فسرت كلمة يدنين ومهما فسرت كلمة جلباب، سواء في حدود المعنى اللغوي والمعنى الشرعي.

بل الآية نص واضح في إرخاء الثياب، وإرخاؤهما إنما هو يكون إلى أسفل وليس رفعها إلى أعلى. ولذلك فليس في هذه الآية أي دليل على تغطية الوجه لا من قريب ولا من بعيد، والقرآن تفسر ألفاظه وآياته بمعناها اللغوي والشرعي، ولا يجوز أن تفسر في غيرهما. والمعنى اللغوي واضح بأنه أمر للنساء بأن يرخين عليهن جلابيبهن، أي ينزلن ويسدلن ثيابهن التي يلبسنها فوق الثياب إلى أسفل حتى تغطي القدمين.

هذا بالنسبة للآيات التي يستدل بها من يقول أن الحجاب للنساء المسلمات قد شرعه الله، أما بالنسبة للأحاديث التي استدلوا بها على الحجاب فلا تدل عليه كذلك. كما أن حديث أم سلمة وطلب الرسول منها ومن حفصة أن تحتجب فإن الحديث ضعيف لا يحتج به، وفوق ذلك فإنه خاص بنساء الرسول، والحديث نصّ في أم سلمة وحفصة. وأما ما روي عن عائشة قالت: (كانت الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات فإذا حاذى بنا سدلت أحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه..) رواه أحمد، فإنه يعارض مع ما رواه البخاري عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تنقب المرأة المُحْرِمة ولا تلبس القفازين)، فحديث عائشة ينص على أن النساء المحرمات قد غطين وجوههن عندما كانت تمر بهن الركبان، وحديث ابن عمر يدل على النهي عن لبس النقاب وهو لا يغطي إلا القسم الأسفل من الوجه فكيف يتفق ذلك مع ستر الوجه كله بالثوب بإسداله على الوجه.

وبالرجوع للحديثين يتبين أن حديث عائشة هذا وقد تأكد بأنه من رواية مجاهد عن عائشة، وقد ذكر يحيى بن سعيد القطان أنه لم يسمع منها. وأما حديث ابن عمر فهو حديث صحيح قد رواه البخاري ولذلك يرد حديث عائشة لضعفه ومعارضته للحديث الصحيح ولا يحتج به. وأما الحديث الذي فيه الفضل بن عباس فليس فيه دليل على الحجاب بل فيه دليل على عدم الحجاب، لأن الخثعمية تسأل الرسول وهي كاشفة الوجه بدليل نظر الفضل إليه وبدليل ما جاء في رواية أخرى لهذا الحديث تقول: (فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفضل فحول وجهه إلى الشق الآخر) وروى هذه القصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (فقال له العباس: يا رسول الله لم لويت عنق ابن عمك؟ قال:

رأيت شاباً وشابّةً فلم آمن الشيطان عليهما)، رواه الترمذي. ولذا فيكون حديث الخثعمية دليلاً على عدم وجوب الحجاب لا على الحجاب، لأن الرسول كان يراها وهي كاشفة الوجه ولم يأمرها بتغطيته. فأما تحويله نظر الفضل، فلأنّه رأى أنه ينظر إليها بتكرار وتمعن، بدليل رواية علي (فلم آمن الشيطان عليهما) ولذلك حوّل نظره لأنه كان ينظر بتكرار لا لأنه نظر، والنظر إن كان بشهوة حرام ولو إلى غير العورة كالوجه والكفين.

وأما حديث نظر الفجاءة فإن الرسول أمر جريراً أن يصرف بصره، أي يغضّه وهو من قبيل غضّ النظر الوارد بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (النور 30)، والمُراد هنا نظر الفجاءة لغير الوجه مما هو عورة، أو النظر إلى الوجه والكفّين بشهوة والدليل على إباحة النظر إلى الوجه والكفين بغير شهوة حديث الخثعمية السابق، وكذلك أن الرسول كان ينظر إلى وجوه النساء حين بايعنه، وحين كان يعظهن، مما يدل على أن المنهي عنه هو نظر الفجاءة إلى غير الوجه والكفّين. وأما حديث علي: (لا تُتبع النظرةَ النظرةَ) فإنّه نهي عن تكرار النظر وليس عن مجرد النظر نظرة أولى. وعلى ذلك فلا يوجد من الأحاديث التي يستدلّ بها من يقول بشرعية الحجاب، وبهذا يتبين أنه لا يوجد دليل لا من الكتاب ولا من السنة يدلّ على أن الله شرع الحجاب للمسلمات، أو يدلّ على أن الوجه والكفين عورة، لا في الصلاة ولا خارج الصلاة. والأدلة التي استدل بها من يقول بخلاف ذلك لا يوجد فيها وجه قوي للاستدلال، فهي ضعيفة الرواية ضعيفة الاستدلال.

وأما كون الوجه والكفين ليسا بعورة، وكون المرأة يجوز لها أن تخرج إلى السوق والطريق في كل مكان كاشفةً وجهها وكفيها فذلك ثابت في القرآن والحديث.

أما القرآن فقد جاء فيه قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ (النور 31). فالله تعالى نهى المؤمنات أن يبدين زينتهن أي نهاهن أن يظهرنَ محلّ زينتهن لأنه هو المراد بالنهي. واستثنى من محلّ الزينة ما ظهر منها، وهو استثناء صريح، وهو يعني أن هناك محل زينة في المرأة يظهر لا يشمله النهي. أما ما هي الأعضاء التي يعنيها قوله: (إلا ما ظهر منها)، فذلك يرجع تفسيره إلى أمرين، أولهما إلى التفسير المنقول،

والثاني إلى ما يفهم من كلمة (إلا ما ظهر منها) حين يتم تطبيقها على ما كان يظهر من النساء المسلمات أمام النبي صلى الله عليه وسلّم في عصره أي عصر نزول هذه الآية. أما النقل فقد روي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية أن ما ظهر منها يعني (الوجه والكفين) وجرى على ذلك المفسرون. قال الإمام ابن جرير الطبري: (وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب) قول من قال: (عنى بذلك الوجه والكفين). وقال القرطبي: (لما كان الغالب من الوجه والكفين ظهورهما عادة وعبادة وذلك في الحج والصلاة فيصلح أن يكون الاستثناء راجعاً إليهما). وقال الإمام الزمخشري: (فإن المرأة لا تجد بدّاً من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشهادة والمحاكمة والنكاح وتضطر إلى المشي في الطرقات مما يظهر قدميها وخاصة الفقيرات منهن، وهذا معنى قوله: (ما ظهر منها).

وأما ما يُفهم من كلمة ما ظهر منها فإنه يتبين أنّ ما كان يظهر عند نزول هذه الآية هو الوجه والكفان. فقد كانت النساء يكشفن وجوههن وأيديهن بحضرته صلى الله عليه وسلم وهو لا ينكر ذلك عليهن، وكن يكشفهن وجوههن وأكفّهن في السوق والطريق، والحوادث في ذلك أكثر من أن تحصى، ومنها ما يلي:

1) عن جابر بن عبدالله قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم يوم العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذانٍ ولا إقامة، ثم قام متكئاً على بلال، فأمر بتقوى الله وحث على طاعته، ووعظ الناس وذكّرهم، ثم مضى حتى أتى النساء، وذكّرهن فقال: (تصدّقن أكثركنّ حطب جهنّم، فقالت امرأة في وسط النساء سفعاء الخدين: لِمَ يا رسول الله؟ قال: (لأنكن تُكثِرن الشكاة وتكفرن العشير)، قال فجعلن يتصدّقن من حليهن يلقين في ثوب بلال من أقراطهن وخواتيمهن (رواه النسائي).

2) عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس سأريك امرأةً من أهل الجنة قلت بلى، قال هذه المرأة السوداء أتت النبيّ صلى الله عليه وسلم، قالت: إني أصرع، وإني انكشف، فأدعو الله لي. قال: (إن شئتِ صبرتِ ولك الجنَّة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك). فقالت: أصبر. فقالت: (إني أنكشف فأدعو الله لي أن لا أنكشف فدعا لها..) رواه البخاري.

3) روى أبو بكر عن ابن جريج قال: قالت عائشة: دخلت عليّ ابنة أخي مزينة فدخل علينا النبي صلى الله عليه وسلّم فأعرض فقلت يا رسول الله ابنة أخي، وجارية. فقال: (إذا عركت المرأة لم يجز لها أن تظهر إلا وجهها، وإلا ما دون هذا، وقبض على ذراع نفسه فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى ونحوه).

فهذه الحوادث الثلاثة الثابتة في الأحاديث تدلّ دلالةً واضحة على أن الذي كان يظهر من المرأة هو الوجه والكفّان. والحديث الرابع يدل على إعراض الرسول عن النظر إلى مزينة لأنها كانت تبدي غير ما يظهر منها، ثم بينه أنه لا يجوز لها أن تبدي إلا الوجه والكفين. وهذا يدلّ دلالة واضحة أن المستثنى في الآية هو الوجه والكفان. ويدلّ على أنهما ليس بعورة لا في الصلاة ولا خارج الصلاة، فالآية عامة: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ (النور 31).

وأمّا ما يلي من الآية نفسها فإن مفهومها يدل على أن الوجه والكفين ليسا بعورة. فالله يقول: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور 31) والخمر جمع خمار، وهو ما يغطّى به الرأس والجيوب، وهو موضع القطع من الدرع والقميص، فأمر تعالى بأن يُلوى الخِمار على العنق والصدر، فدلّ على وجوب سترهما، ولم يأمر بلبسه على الوجه، فدل على أن الوجه ليس بعورة. وليس معنى كلمة الجيب هو الصدر كما يتوهّم، بل الجيب من القميص طوقه وهو فتحته التي تكون حول العنق وأعلى الصدر. وضَرْبُ الخمار على الجيب لَيُّهُ على طوق القميص من العنق والصدر، وذلك بجعل غطاء الرأس يلوى على العنق والصدر استثناءٌ للوجه، فدل على أنه ليس بعورة.

هذا من حيث الدليل من القرآن، أما الدليل من الحديث على أن الحجاب لم يشرعه تعالى، وأنّ الوجه والكفّين ليسا بعورة، وهو ما رواه أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلّم وقال لها: (يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفّيه). كما أخرج أبو داود عن قتادة أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال: (إنّ الجارية إذا حاضت لم يصلح أن

يُرى منها إلا وجهها ويداها إلى المفصل). وأخرج البيهقي عن أسماءَ بنت عميس أنها قالت: (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلّم على عائشة بنت أبي بكر وعندها أختها أسماء بنت أبي بكر وعليها ثياب شامية واسعة الأكمام، فلما نظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلّم قام فخرج قالت عائشة رضي الله عنها تَنحَّي فقد رأى الأكمام، فلما نظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلّم قام فخرج قالت عائشة رضي الله عنها تَنحَّي فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمراً كرهه، فتنحّت فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلّم فسألته عائشة رضي الله عنها لِمَ قام؟ قال: أوَ لم تري إلى هيئتِها، إنه ليس للمرأة المسلمة أن يبدو منها إلاهذا وهذا وأخذ بكميّه فغطى بهما ظهر كفيه حتى لم يبدُ من كفيه إلا أصابعه، ثم نصب كفّيه على صدغيه حتى لم يبدُ إلا وجهه). رواه أحمد.

فهذه الأحاديث صريحة بأن الوجه والكفّين ليسا بعورة وصريحة بأن الله لم يشرِّعْ ستر الوجْهِ والكفين. فلو شرع الله شيئاً من ذلك لتناقض نصّ هذه الأحاديث التي لم تشرِّعْ ستر الوجه والكفّين. فلو شرع الله شيئاً من ذلك لتناقض نصّ هذه الأحاديث التي لا تحتمل أي تفسير أو تأويل، بل تدل دلالة واضحة صريحة على أنه يجوز للمرأة المسلمة أن تخرج إلى السوق كاشفة وجهها وكفّيها، وتعامل الناس جميع المعاملات المشروعة من بيع وشراء وإجارة وتأجير وشفعة ووكالة وكفالة وغير ذلك وهي كاشفة وجهها وكفيها. فالحجاب بالهيئة الواردة في آية: ﴿ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ (الأحزاب 59) لم يشرعه الله تعالى إلا لنساء الرسول. فالحجاب وإن كان القول به يعتبر رأياً إسلامياً لأن له شبهة الدليل، وقد قال به أئمة مجتهدون من أصحاب المذاهب إلا أن شبهة الدليل التي يستدلون بها ضعيفة، لا يكاد يظهر فيها الاستدلال.

بقيت مسألة قول بعض المجتهدين: إنَّ الحجاب شرع للمرأة خوف الفتنة، فيقولون تمنع المرأة من كشف وجهها بين الرجال لا لأنه عورة بل لدرء الفتنة فهذا القول باطل من عدة وجوه:

أحدها: أنه لم يرد بتحريم كشف الوجه لخوف الفتنة نصٌّ شرعي، لا من الكتاب، ولا من السنّة، ولا من إجماع الصحابة. كما أنه ليس هناك علّة شرعية يُقاس عليها، ولذا

فلا قيمة له شرعاً ولا يعتبر حكماً شرعياً. فالحكم الشرعي المعتبر هو خطاب الشارع وتحريم كشف الوجه لخوف الفتنة لم يأتِ في خطاب الشارع. فالأدّلة الشرعية لم تأتِ بذلك بل جاءت على النقيض منه تماماً. فأباحت الآيات والأحاديث كشف الوجه والكفين إباحةً مطلقةً دون تخصيص لحالة من الحالات. ولذا فيكون القول بتحريم كشف الوجه وإيجاب ستره من باب تحريم ما أحلّه وإيجاباً لما لم يوجبه ربّ العالمين. فهو فوق عدم اعتباره حكماً شرعياً هو مُبطِلٌ لأحكام شرعية ثابتة بصريح النصّ.

ثانيها: إن جعل خوف الفتنة علّةً لتحريم كشف الوجه وإيجاب ستره لم يرد فيه أي نصّ شرعي لا صراحة ولا دلالة ولا استنباطاً ولا قياساً، فلا يكون علّة شرعية مطلقاً بل هو علّة منطقية. والعلة المنطقية لا اعتبار لها في أحكام الشرع بل المعتبر إنما هو العلة الشرعية ليس غير. وعليه فلا يقام أي وزن لعلة خوف الفتنة في تشريع تحريم كشف الوجه وإيجاب ستره لأنها ليست علّة شرعية.

ثالثها: إن قاعدة (الوسيلة إلى الحرام حرام) لا تنطبق على تحريم كشف الوجه لخوف الفتنة، وذلك لأن هذه القاعدة تقتضي أن يتوفر فيها أمران: أحدهما أن تكون الوسيلة موصلة إلى الحرام قطعاً وتكون سبباً للحرام بحيث ينتج عنها المسبب حتماً ولا يتخلف عنه، والثاني أن يكون ما تؤول إليه قد ورد النص بتحريمه وليس مما يحرمه العقل وكل ذلك غير موجود في كشف الوجه لخوف الفتنة، فقد قالوا يُستر الوجه لخوف الفتنة ولم يقولوا لتحقق الفتنة، وعليه فلا ينطبق كشف الوجه خوف الفتنة على قاعدة تحريم ما يكون سبباً لما هو حرام، أي يحرم شرعاص على من يفتتن به، فذلك ليس مما يؤول إليه قطعاً. فخوف الفتنة لم يرد نصٌّ يجعله حراماً بل لم يجعل الشرع الفتنة نفسها حراماً على من يفتتن به الناس، بل حرام على الناظر أن ينظر نظرة افتتان، ولم يحرم ذلك على المنظور. فقد روى أبو داود: (كان الفضل بن عباس رديف رسول الله صلى الله عليه وسلّم فجاءته الخثعمية تستفتيه فجعل الفضل ينظر إليها وتنظر إليه، فصرف رسول الله صلى الله عليه وسلّم وجهه

عنها) أي صرف وجه الفضل عنها، بدليل ما جاء في رواية أخرى لهذا الحديث (فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلّم الفضل فحوّل وجهه من الشق الآخر). وروى هذه القصة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزاد (فقال له العباس: يا رسول الله، لِمَ لوَيْت عنق ابن عمّك قال: رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما). ومن ذلك بتبيّن أن الرسول صرف وجه الفضل عن الخثعمية بستر وجهها وكانت كاشفة له، فلو كانت الفتنة حراماً على من يُفتتن به لأمر الرسول الخثعمية بستر وجهها بعد أن تحقق من نظرة الفضل إليها نظرة افتتان. ولكنه عليه الصلاة والسلام لم يأمرها بذلك بل لوى عنق الفضل، مما يدلّ على أن التحريم هو على الناظر بافتتانٍ لا على المنظور.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن كون وجْهِ المرأة ليس بعورة لا يعني وجوب إظهاره وعدم ستره، بل يعني جواز ذلك، أي إنَّ الحكم هو الإباحة والإباحة تعني جواز الفعل أو تركه، أي القيام بالفعل أو عدم القيام به. فمن تريد أن تستر وجهها من النساء المسلمات جاز لها ذلك ومن تريد أن تكشف جاز لها أيضاً، فالمباح هو ما يستوي فيه الفعل والترك، فالأساس بالأعمال عند المسلم التقيّد بالحكم الشرعي، والأساس بالتقيد الاقتناع عن دليل شرعي. فالمسألة مسألة تقوى وليست فتوى ولا يجوز بحق المسلم أن يقوم بالفعل لأنه وافق هواه أو رغبته، بل على المسلم أن يقوم بالفعل لأن دليله وصل عنده مرحلة غلبة الظن على الأقل، أو قلّد من وثق بعلمِهِ من المجتهدين، فحدثت عنده القناعة بالفعل نظراً لقوة الدليل. فيقوم بالفعل من غير خوف ولا وَجَل إلا من الله سبحانه وتعالى لأن الله سبحانه وتعالى جعل الشرع مصدراً لفهم الحكم الشرعي سواء وافق رغبات الناس أم خالفها.

المرأة بين واقعية المعاصرين وتراثية التقليديين

يخلط كثير من الناس وفيهم بعض علماء الدين وعلماء النفس والاجتماع عندما يكتبون وينظرون في موضوع المرأة، يخلطون بين ما هو أنظمة للمجتمع يخضع لها الإنسان بوصفه إنساناً عاقلاً مكلفاً، بغض النظر عن كونه رجلاً أو امرأة، وبين ما هو من النظام الاجتماعي الذي ينظم العلاقات بين الرجل والمرأة، على اعتبار الميل الفطري الغريزي الموجود في كل منهما للآخر حتى تستمر الحياة عن طريق استمرار النسل. وعلى هذا الأساس يجب على المفكر أن يفصل بين ما هو معتبر من أنظمة المجتمع، التي تنظم العلاقات التي تقوم بين الناس الذين يعيشون في مجتمع معين، بغض النظر عن اجتماعهم أو تفرقهم، أو كون الفرد رجلاً أو امرأة، كعلاقات الاقتصاد والحكم والسياسة والمعاملات والعقوبات والتعليم، وبين العلاقات الخاصة الثنائية التي تربط الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل. فتجارة الرجل مع المرأة مثلاً هي من أنظمة المجتمع، أي هي من أنظمة الاقتصاد وليست من أحكام النظام الاجتماعي المخصوص بعلاقة الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل التي تنظم غرائزهما وتحدد كيفية إشباع مظاهر غريزة النوع، كالميل الجنسي والأبوة والأمومة والعمومة والخؤولة والحنان والعطف. فحكم منع الخلوة بين الرجل والمرأة أو مسألة متى تملك المرأة طلاق نفسها أو متى يكون للمرأة حق حضانة الصغير، فإن كل ذلك من النظام الاجتماعي الذي يحكم علاقة الرجل بالمرأة وليس له علاقة بأنظمة المجتمع. أما مسألة هل يجوز أن تكون المرأة عضواً في مجلس الشورى أو مجلس الشعب أو قاضية أو موظفة، فكل ذلك من أنظمة المجتمع، وليس له علاقة بتنظيم كيفيات إشباع مظاهر غريزة النوع عند المرأة وعند الرجل وكيف يتم ذلك الإشباع، وما هي المشاكل التي تنتج عن الإشباعات الشاذة أو الخاطئة بالنسبة إلى الرجل أو المرأة على حد سواء.

ولذلك فإن عدم تفريق المفكرين بين ما هو من أنظمة المجتمع التي تحكم العلاقات بين جميع بني الإنسان ذكوراً وإناثاً، وبين ما هو من النظام الاجتماعي الذي يحكم العلاقة الناتجة عن اجتماع المرأة بالرجل والرجل بالمرأة وما يتفرع عن هذه العلاقة،

إن عدم التفريق هذا هو الذي جعل المجتمع الإسلامي في حالة ضياع بين متعصب جاهل متمسك بالعادات والتقاليد ولو خالفت شرع الله من قرآن أو سنة، وبين حاقد خبيث مفتون بالحضارة الغربية، بهرته ثمارها فعاش على قشورها، ولو عاد الجميع للدليل الشرعي من كتاب الله وسنة رسوله، والتمسوا علاج المشكلات من الشرع لا من تصورات العقل والمنطق وعلم الاجتماع والمصلحة المتقلبة، حسب الظروف والأهواء، لوجدوا نظام الإسلام يعطي الحلول الدائمة لكل رجل وامرأة آمَنا بالإسلام عقيدة ونظاماً وأسلوب حياة.

والعيش بموجب نظام الإسلام يعطي كلاً من الرجل والمرأة الطمأنينة يقيناً وواقعاً ملموساً، لأنهما يعيشان بموجب نظام وضعه خالقهما سبحانه وتعالى بغض النظر عما إذا ناقض ذلك أفكار الغرب أو خالف ما عليه الآباء والأجداد من عادات وتقاليد.

وتجنباً لأي سوء فهم لعنوان محاضرتي فإني أحب أن أوضح للجميع بأني أقصد بالواقعي، الإنسان الذي يعتبر الواقع مصدراً للتفكير وليس موضعاً له، ويجعل الواقع هو أساس التفكير الذي يفهم بموجبه الوحي من كتاب الله وسنة رسوله، بحيث يكون الواقع هو المصدر للفهم والإدراك وليس الوحي هو المصدر، عند اختلاف الوحي مع الواقع كما يتصور هذا المفكر الواقعي. فيكون سقط ضحية من حيث يدري أو لا يدري للمدرسة الماركسية التي عرفت الفكر بأنه انعكاس للمادة على الدماغ.

كما أني أقصد بالتراثي التقليدي، الإنسان الذي أوقف تفكيره وإدراكه عند رأي مذهبي لأحد المذاهب الإسلامية المعتبرة عند جمهور الفقهاء، ولا يقبل بأي رأي خلاف رأي إمامه ولو اقتنع بصحة دليل الآخر، واعتقد بصحة قفل باب الاجتهاد منذ ما يزيد على أحد عشر قرنا، ويتمسك بأن الفقهاء الأوائل رضي الله عنهم قد ختموا علوم الأولين والآخرين. وأن لا مجال للاجتهاد من بعدهم.

حيال ما تقدم أستطيع أن أصنف المدارس التي تصدت لموضوع المرأة بأربع مدارس وهي:

1 ـ المدرسة السلفية.

2 ـ المدرسة المذهبية.

3 ـ المدرسة التوفيقية الإصلاحية.

4 ـ المدرسة الليبرالية (للحريات).

أولاً: المدرسة السلفية:

ركزت المدرسة السلفية على أن العيش الصحيح في مجتمع إسلامي، هو ما كان عليه الرسول عليه الصلاة والسلام والسلف الصالح من بعده، من حيث التقيد بنصوص الوحي من كتاب الله وسنة رسوله لحل مشاكل الحياة. وانحصرت آراء هذه المدرسة فيما سمي بالمدرسة الوهابية نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وعلى أسس المذهب الحنبلي. وأساتذةِ المذهب الجدد في المملكة العربية السعودية وخارجها.

ولكن الواقع الحسي والعملي لفهمهم وإدراكهم لم يتقيد بهذه القاعدة الصحيحة، والتي لا يختلف مسلم معهم في عمومها. فلقد احتجوا بفساد المجتمعات، وأخذوا بقاعدة تغير الأحكام بتغير الأزمان، ومبدأ سد الذرائع، والمصلحة والمقاصد والعرف، وحاصروا المرأة ومنعوها مما أباحه الشرع لها، ومن حقها في العيش كما عاشت في زمن الرسول (ص) وفي زمن السلف الصالح وصحبِهِ الكرام البررة. فمنعوا عنها الكثير من حقوقها الشرعية الاقتصادية والسياسية والعملية. وقصروا حقوقها على الزمان والواقع الصالح بمفهومهم.

ومثال ذلك فهمهم لحديث الرسول (ص) (ما أفلح أو خاب قوم وَلَّوا أمرهم امرأة..). ومع إيمانهم بصحة هذا الحديث، إلا أنهم صرفوه إلى كل مجالات الحياة، وعطلوه لعلة تردي حالة المجتمع الأخلاقية. علماً أنهم يعلمون أن المقصود بالحديث هو (الحكم) فقط وليس مجالات الحياة الأخرى.

ثانياً: المدرسة المذهبية:

ركزت هذه المدرسة من خلال التعصب المذهبي الذميم على أقوال وآراء وإمام المذهب أو تلامذته المقربين، ورفضت الآراء الأخرى بغض النظر عن قوة أو ضعف الدليل، ومثال ذلك نظر الخاطب إلى مخطوبته، وما هي حدود عورة المخطوبة، ولم يفرقوا

بين ما هي تمكنه، وما هو يتمكن من أن يرى، والخلاف المذهبي على أشده في حدودِ عورة المخطوبة، علماً أن الأحاديث في ذلك صحيحة ومدركة وواضحة. وغلبوا ما عليه الآباء والأجداد على الوحي. ووضعوا خلف ظهورهم أقوال الأئمة الكبار رضوان الله عليهم إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا لم تجدوا لقولي دليلاً فاضربوا به عرض الحائط، وكل يرد عليه إلا صاحب هذا القبر. ويندرج تحت هذه المدرسة من أطلق عليهم المجتمع (المشائخ والشيخات) وأتباعهم، حيث الحق عندهم ما ينقله الشيخ عن إمام أحد مذاهب أهل السنة والجماعة، وما ينقله الجعفري عن إمام حوزته.

ثالثاً: المدرسة التوفيقية الإصلاحية:

هذه المدرسة حاولت أن تقنع نفسها بأنها تعطي الآراء من خلال النصوص الشرعية، ولكنها في الحقيقة كانت تحاول أن تصلح النص الشرعي من خلال الواقع بطريقة تلفيقية، تساعدها على مجابهة المدرستين السابقتين السلفية والمذهبية، فعمدت إلى نقل الكثير مما تعيشه المرأة الغربية لإسباغ الثوب الإسلامي عليه، عن طريق لوي عنق الأدلة الشرعية إن كانت من كتاب الله سبحانه وتعالى، أو إنكار نصوص السنة إن لم تكن توافق رغبتها، من خلال إبراز ما تراه من تعارض واختلاف وتناقض في هذه النصوص حسب تصوراتها، وعلى أقل احتمال صرف المعاني الحقيقية الشرعية إلى معاني تتصورها هذه المدرسة وتخدم رغبتها، في ما ساعد على تهتك المرأة والحط من شأنها، فعبثت بأحكام الطلاق وتعدد الزوجات والقوامة والإرث والعمل والحكم وغيرها كثير. ولقد تمثلت بالمدرسة المصرية الفرنسية المبكرة، التي دخلت مع أسرة محمد علي باشا والمطبعة الفرنسية، وعززها جمال الدين الأفغاني رئيس المحفل الماسوني الإسكتلندي، ومن بعده تلميذه محمد عبده وقاسم أمين بإشراف اللورد كرومر ومجلس الأميرة نازلي وتابعها مالك بن نبي ومحمد شحرور ومحمد حبش وغيرهم كثير.

رابعاً: المدرسة الليبرالية (الحريات):

هذه المدرسة لم تعمل مثل سابقتها المدرسة التوفيقية التلفيقية، بانتحال الدليل الشرعي لما تريد من أمر واقعي، بل عمدت مباشرة إلى الدخول بالموضوع بدون رياء ولا

مجاملة، وهو أن الإسلام ظلم المرأة ولم يعطِها حقوقاً كما أعطى الرجل، وأنه لابد من إنصاف المرأة المجني عليها، من خلال الأحكام الوضعية التي أكدت عليها منظمات وهيئات حقوق المرأة، ومنهم من بلغ به الشطط بأن للمرأة المسلمة حق الزواج بمن تريده مع اختلاف الدين، وحتى حقها في تعدد الأزواج كما هو حق الرجال، وحقها في القوامة، وحقها في العمل أينما تريد وبالوقت الذي تريد، ولو كان في نادٍ ليليٍّ أو نادلة خلف بار. إنها مدرسة لا تعطي للدليل الشرعي أي أهمية، فهي علمانية بطبيعتها جهاراً نهاراً، كما هي عند جلال صادق العظم وهدى شعراوي وغادة السمان وفاطمة المرنيسي واضرابهم كثير.

وإذا تغاضينا عما تقدم وعدنا إلى ينابيع الإسلام الصافية وهي كتاب الله وسنة رسوله، نجد أنه لا يوجد مشكلة في الإسلام اسمها حقوق المرأة على الإطلاق. لأن الإسلام خاطب الإنسان ابتداءً يا أيها الناس... أو يا أيها الذين آمنوا... فلم يفرق بالخطاب اعتقاداً أو تكليفاً بين الرجل والمرأة... الله كلف الإنسان ويبعث الإنسان ويحاسب الإنسان.

وإن الخطاب بوجه خاص عندما يكون للرجل أو للمرأة، لا يتعدى أن يكون خطاباً محصوراً في ما هو من خواص الرجل أو خواص المرأة. فلا يمكن أن يخاطب الله تعالى أو رسوله، الرجل بأحكام الحيض أو النفاس أو الحضانة، كما لا يمكن أن يخاطب الله تعالى المرأة بأحكام الحكم وقيادة الأمة، فكل ميسر لما خلق له، لأن هذه التكاليف تتعلق بجبلة الرجل والمرأة ومقدرة كل منهما الخلقية وليس لها علاقة بالذكاء والعبقرية.

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (الحجرات الآية 13). ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ... ﴾ (الإنفطار الآية 6). كما يقول: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ... ﴾ (عبس الآية 17-19).

مما تقدم نرى أن الإسلام جاء بالتكاليف الشرعية للإنسان، سواءً أكان رجلاً أو امرأة، وعالج مشاكل الإنسان وليس مشاكل الرجل أو المرأة، ولهذا لم تكن مسألة المساواة

أو عدم المساواة بين الرجل والمرأة موضع بحث. وليس لهذا الشيء وجود في التشريع الإسلامي، وعلى هذا ليست المساواة بين الرجل والمرأة قضية تبحث ولا هي ذات موضوع في المجتمع الإسلامي، لأن كون المرأة تساوي الرجل، أو كون الرجل يساوي المرأة ليس وارداً في منظور الإسلام، ولا هو مشكلة محتملة الوقوع في الحياة الإسلامية. فهذا القول ما هو إلا من الشعارات التي وردت إلى بلاد المسلمين من الغرب مع انحسار المد الإسلامي عن العالم، ولا يقولها أحد من المسلمين إلا تقليداً للغرب، الذي كان يهضم الحقوق الطبيعية للمرأة التي منحها إياه الخالق سبحانه وتعالى، باعتبارها إنْساناً كما هو الرجل إنسان. فطالبت بهذه الحقوق، واتخذ بحث المساواة طريقاً لنيل هذه الحقوق، وأما الإسلام فلا شأن له بهذه المصطلحات لأنه أقام نظامه الاجتماعي على أساس متين بخطاب إنساني يضمن تماسك الجماعة والمجتمع ورقيهما، قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ...﴾ (الإسراء الآية 70).

فابن آدم مكرم وله حقوق واحدة سواءً أكان ذكراً أو أنثى، مسلماً أو غير مسلم، فهو مخلوق وله حقوق ولا يحق لأحد أن يتجاوز عليها، بل أضيف: إنَّ الإسلام أعطى للحيوان حقوقاً لم يصل لها الإنسان حتى الآن في بلاد الغرب، فكيف بحقوق الإنسان، وكتب الفقه الإسلامي تشهد على ذلك، ويكفي أن نعلم أن الأرض التي يسميها أهل دمشق بين النهرين، والتي أقيم على قسم منها معرض دمشق الدولي، كانت وقفاً للحيوانات المسنة (المتقاعدة) فهي تأكل وتشرب وتنام، بعد أن تقاعدت وفنيت في خدمة الإنسان.

وأكتفي بهذا القدر مفسحاً الوقت للنقاش. فإن أخطأت فمن نفسي وإن أصبت فبتوفيق من الله تعالى.

6/ 12/ 2005م

جدلية العروبة والإسلام

قديماً قالت العرب، الفرق بين العبقرية والجنون شعرة، وأنا أقول: إن الفرق بين الخطأ والصواب شعرة، حيث بالإمكان جعل الأفكار متطابقة وليست متناقضة أو متعارضة بقليل من الحكمة وحسن التأتي عندما نريد بحث موضوع معين. هذا ما يجعلني أبحث عنوان هذه المقالة على طريقة شعرة معاوية التي لا مصلحة في قطعها طالما أمكن وصلها، فالواقع والنص يجعل ذلك ممكناً، إذا بحثنا الموضوع بطريقة رشيدة وأسلوب حكيم من خلال الحقائق التالية:

ـ الإسلام دين سماوي نزل على محمد (ص) العربي القرشي لحل مشاكل الإنسان بوصفه العقلاني والغرائزي، أي هو دين إنساني قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾.

ـ وصف الله سبحانه وتعالى الناس جميعاً بأنهم شعوباً وقبائِلَ، والشعب أرقى من القبيلة، لأن أي شعب من الشعوب هو مجموعة قبائل، فالقبائل يجمعها الأصل والنسب والقربى، بينما الشعب تجمعه المصالح والحياة المشتركة. فالعرب قبل رسالة الإسلام كانت مجموعة قبائل بمواصفات خاصة من حيث النسب والخلق، هذه القبائل متناحرة يجمعها الإشراك بالله وتفرقها المصالح، وتسود فيها سجايا حميدة تؤهلها للقيادة والعز والسؤدد ورذائل تجعلها في الأسفلين.

ـ اختار الله العرب واختار قريشاً من العرب ليكون الرسول النبي منهم، نظراً لمواصفات راقية من هذا الشعب أهلته لقيادة العالم، وكثيراً ما امتدح الرسول عليه الصلاة والسلام العرب كمعدن وأصل وامتدح قريشاً بشكل خاص، وأثنى على بني هاشم على وجه الخصوص، قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، قوله: «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، قوله: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»، قوله: «أنا عربي والقرآن عربي ولسان أهل الجنة عربي».

ـ الأمة أرقى من القوم والقبيلة والشعب، لأن الأمة تجمعها العقيدة والفكر، كما هو حال الأمة الأمريكية والأمة الصينية والأمة الإسلامية، فالأمة مجموعة من الشعوب وحَّدها فكر (أيديولوجي)، آمنت به قيماً وأسلوب حياة.

ـ التكليف في الإسلام للإنسان بغض النظر عن الجنس والعرق ذكراً أكان أم أنثى، ولا يوجد في كتاب الله ولا سنة رسوله خطاب تكليفٍ للعرب أو العجم أو لأي شعب من الشعوب، دائماً الخطاب يبدأ (يا أيها الذين آمنوا ـ يا أيها الناس). فالنبي عربي والرسالة عالمية، والعرب كشعب هم الذين حملوا رسالة الإسلام ابتداءاً وضحوا من أجلها في الداخل والخارج، وفتحوا البلاد ودانت لهم العباد، وقادوا أمة الإسلام بكل شعوبها وأجناسها ولغاتها إلى بوتقة الإسلام التي انصهرت فيها شعوب البلاد المفتوحة حيث امتزجت فيها الطاقة العربية بالطاقة الإسلامية، وأسلمت قيادتها إلى العرب كونهم مهد الإسلام الأصلي وقادته المؤسسين، وطاعةً للرسول عليه الصلاة والسلام قوله: (الخليفة من قريش) مع خلاف بين الفقهاء حول هذا الموضوع كونه على سبيل الوجوب أو الندب أو الأفضلية مع استيفاء شروط الانعقاد.

ـ مع ابتداء الفتوحات الإسلامية في بلاد الروم وفارس وما جاورها من بلدان العالم، حيث أصبح الدين الإسلامي هو دين البلاد المفتوحة واعتنقته الشعوب عن حرية واقتناع، وامتزجت الطاقة الإسلامية كأفكار ومبادئ بالطاقة العربية كلغة وأصالة، بطاقات أهل البلاد المفتوحة بما فيها من علوم ومدنية أثرت الحضارة الإسلامية العالمية. فبرزت إمكانية أهل البلاد المفتوحة في كافة مجالات العلوم الدينية والسياسية والعسكرية، فظهر منهم العلماء والمفكرون والقادة العسكريون والأدباء والشعراء.

ـ استمر العرب بحكم الشرع والواقع يقودون الأمة الإسلامية بمختلف شعوبها من مدريد إلى بنغلاديش (بلاد ما وراء النهر) كل العهد الأموي وحتى خلافة المأمون في العهد العباسي، والأمة بكل شعوبها راضية بقيادتهم حتى ظهرت الرايات الشعوبية الفارسية في فتنة الأمين والمأمون، من هنا بدأ الضعف في القيادات العربية للأمة الإسلامية عندما اعتلى سدة الخلافة قيادات مهجَّنة سيطر عليها الشعوبيون الفرس، ولم تنتهِ هذه المرحلة إلا بسقوط بغداد على يدِ المغول ونصائح المجوسي ابن العلقمي.

ـ أثبت التاريخ منذ بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، أنه لم ينازع العرب أي شعب من الشعوب التي اعتنقت الإسلام القيادة إلا في حالة ضعف القيادات العربية

وتخليها عن مسؤوليتها في حماية الدولة والدين. حيث التاريخ الإسلامي شاهدٌ على ذلك، سواء أكانت موجة السلاجقة أم الأيوبيّين أم المماليك أم الترك والمغول، جميع هذه الشعوب تصدت للغزو الخارجي الذي حاول القضاء على الإسلام والمسلمين بما فيهم العرب باعتبارهم معدن الإسلام. ولولا أن سخر الله سبحانه وتعالى هذه القيادات غير العربية لم يبق عرب ولا مسلمون بل أنهتهم الحروب المغولية والصليبية.

ـ بسقوط غرناطة عام 1492م رداً على سقوط القسطنطينية عام 1453م استطاع العثمانيون المسلمون رد الزحف الإسباني البرتغالي الصليبي على الجزيرة العربية عام 1516م بإنزالهم البحري الذي استهدف مدينة جدة لهدم الكعبة، وفي سواحل بدر لاستخراج جثة الرسول عليه الصلاة والسلام من مسجده في المدينة، عندما وجه حاكم مكة الشريف بركات نداء إلى السلطان سليم قائلاً له: «الغوث الغوث والعون العون...»[1] وهذا ما جعل السلطان سليم يرسل جيوشه إلى الجزيرة العربية ماراً إجبارياً ببلاد الشام لطرد الإسبان والبرتغاليين وقدَّم الشريف بركات للسلطان سليم، بردة وعصا الرسول عليه الصلاة والسلام مبايعاً بالخلافة لمن حمى الإسلام من سيطرة الصليبيين على بلاد المسلمين. وأصبحت الدولة العثمانية دولة الخلافة التي حافظت على العرب والمسلمين لقرون ضد الغزو الصليبي الأوربي، وللمعلومية استمرت الدولة العثمانية قرنين تحارب من أدرنة وبورصة الغرب الصليبي ولم تتجه باتجاه المنطقة العربية إلا بعد طلب مباشر من حكام الحجاز.

ـ ولما ضعفت الدولة العثمانية التي حكمت العالم الإسلامي من طنجة إلى دلهي في الهند، وكانت القوة الأولى في العالم ظهرت قوة الغرب واتحد العالم المسيحي بالكامل ضدها (روسيا/ أرثوذكس ـ بريطانيا/ بروتستانت ـ فرنسا/ كاثوليك) من أجل أخذ مخلفات (الرجل المريض) الخلافة الإسلامية العثمانية. بدأ الغرب متحداً لإثارة النعرات المذهبية والطائفية والعرقية لتفكيك دولة الخلافة العثمانية بدءاً من دعم ما سمي بالحركات التحررية في بلاد البلقان، ومن ثم إثارة النعرات القومية والمذهبية في الدولة الإسلامية

(1) كتاب الخلافة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها/ د. عبد العزيز الشناوي.

بين العرب والترك والكرد والأمازيغ وغيرهم من مكونات الشعوب التي وحَّدها الإسلام تحت شعار (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، ودأبت الاستخبارات الغربية على دعم الأقليات في بلاد المسلمين من أجل تفكيك الدولة ووراثتها في معاهدة سايكس بيكو، حيث ساهم العرب بقيادة الشريف حسين وبتخطيط من الإنجليز على تفكيك دولتهم وأدخلوا ولده فيصل ليكون ملكاً على سوريا واقطعوا ولديه الآخرين العراق وشرق الأردن، من أجل وعود كاذبة قطعها لورنس ونكلت بها بريطانيا، أوصلت البلاد العربية إلى الاستعمار المباشر من قبل البريطانيين والفرنسيين، حيث هم أنفسهم كانوا وراء الأتراك (الطورانيون) الماسون ويهود سالونيك أمثال، جاويد وطلعت وأنور ومدحت وجمال السفاح الذين هدموا الدولة من الداخل، وفككوها إرضاء لأسيادهم الغربيين، وباعوا البلاد العربية بدون مزاد علني ليحافظوا على دويلة تركية قومية طورانية يعمل شعبها عمال قمامة في برلين وفرانكفورت ويتوسل الاتحاد الأوربي ليكون عضواً من الدرجة الثانية بعد أن كانت أوربا تستجدي الدولة العثمانية.

ـ إن ما أريد أن أقوله في هذه العجالة: إن الإسلام دين إنساني كرم الإنسان بوصفه إنساناً بغض النظر عن الدين والعرق والجنس... ولكنه وضع العرب كشعب على قيادة المسلمين بحكم الواقع باعتبار القرآن عربي ولغة الدولة هي اللغة العربية، حيث لا يفهم هذا الدين فهماً صحيحاً إلا بها، ولقد دانت شعوب الدولة الإسلامية في كل وقت وزمان ومكان للقيادات العربية ما داموا أهلاً لذلك، باعتبار تفضيل الشرع لقيادتهم وتأكيد الواقع على ذلك. وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في سقيفة بن ساعدة عند الخلاف بين المهاجرين والأنصار على البيعة قوله: «إن العرب كالجمل الآنف لا تخضع إلا لهذا الحي من قريش»، فإن أبا بكر لم يلجأ إلى دليل شرعي ليبرر فيه ويؤكد على قيادة العرب ما داموا أهلاً، بل بحث بالناحية الواقعية وهي: المفترض أن الحكام من العرب وأن قريش ذؤابة العرب وعصبتهم ومنها نبيهم ونزل القرآن على لهجتهم، وأن لهم الأفضلية ما داموا أهلاً لذلك شرعاً وواقعاً، حيث لا يمكن في ذلك الوقت أن يقود المسلمين بلال أو صهيب الرومي أو سلمان الفارسي رضي الله عنهم، مع مكانتهم

العظيمة وخدماتهم الجليلة للإسلام والمسلمين، لأن الحكم لابد لـه مـن قواعـد وأسـس فكرية وعصبية يستطيع الحاكم بواسطتها ودعمها تصريف أمور البلاد وسياسـة الرعيـة، وهذا لا يتنافى مع قوله (ص): (أطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأنَّ رأسه زبيبة ما أقام كتاب الله فيكم). فهو يعني جواز أن يحكم أمة الإسـلام أي شـخص مؤهـل بغـض النظر عن لونه ونسبه، وهذا حَصَلَ كثيراً في التـاريخ الإسـلامي، لكـن الأفـضلية شرعـاً وواقعاً لمن هو عربي عنْدَ تساوي المواصفات.

وأختم مقالي بالقول المأثور: (إذا عز العرب عز الإسلام) فلماذا هذا الاختلاف.

13/ 6/ 2006م

رد على مأمون فندي/نهاية خطاب التطرف

عرض الأستاذ مأمون فندي على صفحات جريدتكم الغراء الشرق الأوسط العدد / 10059/ تاريخ 13/ 6/ 2006م، أفكاراً في السياسة الدولية تحت عنوان (نهاية خطاب التطرف) طالباً من الآخرين الإدلاء بدلوهم إن كان عندهم ما يخالف تنظيراته بقوله (ومن له حجة غير ذلك، فله حق الرد).

وحيث إنّ الكاتب قد فوض نفسه عن إدارة تحرير الشرق الأوسط بقبول الرد، فآمل نشر هذا الرد، وعدم لجوء إدارتكم إلى إهمال ردي على الأستاذ فندي كما حصل سابقاً.

كنت أتوقع بحكم العيش الطويل في الولايات المتحدة والمتابعة للأمور الدولية للأستاذ فندي أن يكون أوسع تصوراً وخبرة للوضع الذي يعالجه، وهو التطرف الديني مذكراً إياه بما يلي:

ـ إن التطرف الديني ليس قضية محلية أو إقليمية حتى تستطيع دولٌ مثل إيران أو تركيا أو مصر القضاء عليه أو استيعابه، لأن التطرف الديني في العالم كله سواء أكان تطرفاً إسلامياً أو مسيحياً أو يهودياً، هو في يد جهات دولية عالمية صاحبة قرار في الولايات المتحدة والاتحاد الأوربي، مع متابعة من الروس والصينيين واليابانيين. هذه الجهات منذ أيام ما سمي بالثورة الإيرانية والانقلاب الأفغاني الأول في السبعينات الذي قاده صهر الملك ضاهر شاه الأمير داود، هذه الجهات الأمريكية والأوربية هي التي فتحت أبواب جهنم عليها عندما لعبت بورقةِ التطرف الديني الإسلامي لتحافظ على جنودها، ولتضمن فوزاً ضد السوفييت وبدماء المسلمين، وهذا ما حصل.

ـ إن الولايات المتحدة كدولة (براغماتية) السياسة لا يهمها إلا مصالحها ومصالح رعاياها، حيث حاولت منذ جلاء السوفييت عن أفغانستان استيعاب المجاهدين الوافدين إلى أفغانستان وإعادتهم وإنهاء دورهم، ولكن على ما يبدو قد خرج المارد من القارورة ولم تتمكن الولايات المتحدة من تحجيم دور التطرف الديني وإخضاعه كلياً إلى إرادتها وليكون تحت سيطرتها، وذلك لأسباب أهمها اختراق الاستخبارات الأوربية وعلى رأسها

البريطانية لمخططات الولايات المتحدة في هذا الخصوص، ومحاولة تجيير الخلايا الجهادية لحساب مخططاتها ولإعاقة المخططات الأمريكية.

ـ بانهيار سور برلين عام 1990م، وانهيار الاتحاد السوفييتي بفعل الدس الأوروبي ضد الولايات المتحدة، وركوب المخطط الأمريكي القاضي بإنهاء الماركسية وإبقاء اتحاد سوفييتي قوي ضد الاتحاد الأوروبي، استطاعت ترويكا (تاتشر ـ ميتران ـ كول) تفكيك الاتحاد السوفييتي وإضعافه باختراق الرئيس السكير (يلتيس).

ـ إن تفكيك الاتحاد السوفييتي وإضعافه يا أستاذ فندي كان بفعل خبرة بريطانية أوربية عريقة تخدم وضعاً دولياً جديداً يضعف الولايات المتحدة ويجعلها في وضع سياسي صعب لا تستطيع فيه الانفراد بالسياسة الدولية متغاضية عن اتحاد أوربي سياسي وعسكري يكون فيه الاتحاد الأوربي شريكاً وليس أجيراً. هذا الذي أعاد الولايات المتحدة إلى مخططاتها السابقة بالعمل على إثارة واستغلال التطرف الديني الإسلامي والمسيحي واليهودي، وذلك بمخططات جديدة جهنمية مدعمة بالإرهاب الغرض منها إبقاء الولايات المتحدة على سدة قيادة العالم، وهذا لا يحدث إلا بتحجيم دور الاتحاد الأوربي ضمن النطاق الاقتصادي فقط، وتحجيم دور الصين لتكون دولة غنية مترهلة وليست عسكرية قوية لها مخططات خارج حدودها، وكذلك إبقاء روسيا ضعيفة واليابان مترفة مسالمة، لهذا السبب طرح أذناب CIA. من الكتاب نظريات متضاربة أمثال (فوكوياما هنتنجتون) في انتهاء الصراع أو بداية الصراع للحضارات. علماً أن الكاتبين قد طرحا نظريتين بمنتهى القدم يعرفها طلاب المدارس الإعدادية والثانوية في بلاد العرب والمسلمين.

ـ تأكيداً على ما ذكرت أعلاه من رعاية الولايات المتحدة للتطرف الديني والإرهاب، تحت مسمى حوار الحضارات ولكنها في الحقيقة تسعّر صراع الحضارات. فكان لابد لأهل الفعاليات الاقتصادية أصحاب القرار الحقيقي في الولايات المتحدة، من اختيار رئيسٍ بمواصفات بوش الابن، لأداء هذا الدور وبأغلبية 597 صوتاً في ولاية فلوريدا وبقرار من المحكمة الدستورية العليا، بعد أن أقنعوه بأنه ملهم من الله سبحانه

وتعالى في قيادة أمريكا والعالم لما يريده السيد المسيح عليه السلام من أمن وسلام ولا يتحقق إلا إذا سادت قيم وثقافة الولايات المتحدة العالم. من خلال جعل الشرق الأوسط مهد الحضارات والإثنيات مختبراً لصراع حضاري ديني، تصل منه الولايات المتحدة إلى ما أسمته كوندوليزا رايس (شرق أوسط واسع) بديمقراطية مكذوبة مبرمجة تخدم مصالحها ويتفاهم معها ويضم زيادة عما عرف بالشرق الأوسط بلدان في العالم الإسلامي من أندونيسيا إلى طنجة في المغرب. أي تأكيداً على هلال بريجنسكي الإسلامي الذي وضع أسسه عندما كان مستشاراً للرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي وأكد عليه في الكثير من محاضراته ومؤلفاته.

ـ إن الولايات المتحدة لا تستطيع التراجع عن إثارة ودعم التطرف الديني في العالم لأنه أصبح سياسة معتمدة من طرفها لتنظيم العالم بنظام دولي جديد، بعد انهيار نظام الثنائية القطبية مع انهيار سور برلين وتفكك الاتحاد السوفييتي، وبعد أن سيطر المحافظون الجدد على القرار في الولايات المتحدة، وافتتحوا وأشرف رجالهم من القساوسة الإنجيليّين على آلاف المحطات التلفزيونية والإذاعية في طول وعرض الولايات المتحدة، بقيادة قساوسة عملاء للمحافظين الجدد، أمثال روبرتسون وجيري فولويل وتيم هاي وجون هاجي، حيث يتبع هؤلاء القساوسة حوالي / 60/ مليون أمريكي يؤمنون بالقدرية كما شرحها القس ستيفن أولبري مؤلف ـ مناقشة النهاية الكارثية، والكاتبة غريس هالسل، في كتابها (يد الله) وكلها تدور حول فكرة أن المسيح عليه السلام عائد لينقذ العالم ولكنه لن يعود إلا إذا بُنيَ هيكل سليمان، فلا بد من تسريع بناء الهيكل حتى يعود المسيح، ويملأ الدنيا عدلاً بقضائه على اليهود الأشرار حتى ولو كان ذلك بحرب نووية.

ـ ليس صحيحاً أن القرار في الولايات المتحدة هو قرار يهودي، وهذه أكذوبة كبرى من أجل إرعاب العرب والمسلمين، بل القرار رأسمالي كنسي إنجيلي، قصد المحافظون الجدد منذ عهد ريجان منه استيعاب اليهود ضمن الكنيسة الإنجيلية وليس العكس، وإثارة الأحقاد الداخلية والخارجية على اليهود باعتبارهم أعداء المسيح

والمسيحية الحقيقيين وهم اللذين قتلوا المسيح كما يزعمون، وإنه لابد من محاسبتهم في معركة (هرمجديون) حيث يقضي المسيح على الأشرار جميعاً[1].

ـ وقفت الولايات المتحدة منذ عهد ريجان ضد أي صلح بين العرب واليهود سواء أكان في الحكم جمهوريون أم ديمقراطيون، لأن القرارات المصيرية في الولايات المتحدة لا خلاف عليها بين جمهوري وديمقراطي، فالجميع يخضعون لأصحاب الفعاليات الاقتصادية الملاك الحقيقيين للقرار في الولايات المتحدة، ولا يختلف الحزبان عن بعضهما إلا كما يختلف شعاراهما من حيث الشكل، الحمار والفيل فقط.

ـ إن كل مشروع جديد للصلح بين العرب واليهود تقتله أو تحبطه الولايات المتحدة، ولهذا قتلت رابين، وأحبطت مبادرة سمو ولي العهد الأمير عبدالله قبل أن يكون ملكاً على السعودية في بيروت، والتي وافق عليها ملوك ورؤساء العرب. علماً أن هذه المبادرة تضمنت كل قواعد العيش المشترك بين الشعبين، اعتراف وتبادل دبلوماسي وتجاري، طرق، مواصلات، مطارات، موانئ كل شيء مقابل الانسحاب من أراضي 1967م.

ـ لماذا فضلت إسرائيل بناء جدار بارتفاع عشرة أمتار وأن تعيش في دويلة صغيرة محددة، على أن تعيش في شرق أوسط إسلامي عربي تتعامل معه دبلوماسياً واقتصادياً، والسبب: هو معرفة إسرائيل بأن الولايات المتحدة لا تسمح لإسرائيل بأن تعطل مصالحها في الشرق الأوسط الأوسع والعالم، وثبت بأن شعار إسرائيل أن دولتها من الفرات إلى النيل أكذوبة كبرى خَدعت بها الشعوب العربية، وإسرائيل غير قادرة على تحقيقه، لكن طرح هذا الشعار كان مساعداً على أن نعتبر كعرب أن تحجيم إسرائيل ضمن حدودها قبل عام 1967م هو انتصار، لأننا أنقذنا البلاد الأخرى من الفرات إلى النيل.

ـ وفي النهاية أقول: يا أستاذ فندي هذا ليس نهاية التطرف الديني بل بدايته، وإن دخول الولايات المتحدة للشرق الأوسط الأوسع بجيوشها ليس عبثاً، فهي التي تقود التطرف الديني مباشرة في أفغانستان والعراق وفلسطين والصومال، وبفضل سياستها

---

(1) كتاب يد الله ـ غريس هالسل.

تراجعت كل الاتجاهات والحركات السياسية في الشرق الأوسط أمام التطرف الديني الإسلامي واليهودي، وهذا يساعد إسرائيل على الانتحار، حيث كل يوم ملايين المسلمين يشاهدون العنجهية اليهودية في احتقار العرب والمسلمين وقتلهم صغاراً وكباراً ورجالاً ونساءً، فأين انتهاء التطرف يا أستاذ.

إن التطرف الديني سياسة أمريكية ثابتة ومعتمدة لا تؤثر عليها إيران أو تركيا أو مصر أو المغرب، وإن الشرق الأوسط مقدم على توسع إلى شرق أوسط أوسع أمريكي، يوقف زحف الشرق الأوسط الجديد الأوربي، كما بحثه في كتابه بيريس رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، وإن هذا الشرق الأوسط الأوسع الذي سينظم العالم بأسره ومن خلاله للانتقال إلى وضع عالمي جديد، سيكون كالبلدوزر التي تقتلع في طريقها حدوداً ودولاً وتكسر الجغرافيا وتستغل التاريخ، وإن إسرائيل نفسها تعرف أنها ليست آمنة أيضاً مع هذا التنظيم الجديد، فكيف تقول يا أستاذ بانتهاء التطرف وهو بالكاد قد بدأ. وإن نظاماً دولياً جديداً للعالم سيظهر من خلال هذه السياسة الخطيرة، ينتقل فيه العالم من صدام حضارات إلى تفاهم حضارات، يؤدي إلى استقرار العالم الذي يعتمد الثقافة والحوار وسيلة للاستقرار الوحيد نظراً لاستحالة استعمال أسلحة التدمير الشامل، ويحضرني قول ماركسي عتيق بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، وعودة الصلبان الأرثوذكسية لتعلوا رأس يليتس وبوتين في المناسبات القومية، حيث قال: لا تصدقوا المفكرين الملحدين والعلمانيين، فلقد ثبت أن محمد وعيسى وموسى وبوذا وبراهما ما زالوا يحركون العالم من قبورهم.

17/ 6/ 2006م

طالب التفسير عارف ـ الأفغاني وعبده

طالعنا الدكتور الأستاذ عبد الكريم الأشتر بمقال رائع عنونه: (في طلب التفسير) على صفحة مدارات في جريدة تشرين الغراء في العدد 9642 تاريخ 19/ 8/ 2006م، استجابة مع رغبته أعلق بما يلي:

ـ إن الدكتور الأشتر ليس أستاذاً في علوم اللغة العربية وآدابها فحسب، بل هو مثقف مطلع على التاريخ المعاصر لما سمي بعصر النهضة، ولا يخفى عليه من هما جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولكنه يجب أن يلقي بحصة في مياه راكدة حتى ينبثق من حولها دوائر تتسع فتشمل ما ذكره من أسماء أو لم يذكر، بل يريد أن يكشف حقائق تاريخية مغمورة ساعدتْ على طمسها الثقافة المضللة التي عششت في أدمغة بعض المتعلمين والمثقفين، حيث لا يمكن أن يستوعبوا ما يعرفه الأستاذ الأشتر لأنه يخشى من صدمة مغايرة لكل الدراسات الرسمية الإقليمية والدولية التي أعطت هالة كبيرة للأفغاني وعبده وهما لا يستحقانها، لما عرف عن الدكتور الأشتر من الأدب الجم وكراهيته للمهاترات، وخاصة عندما تكون ثقافة النخبة على خلاف ما اكتشف وعرف من أكاذيب مضللة في التاريخ المعاصر.

ـ إن الدكتور الأشتر يريد من غيره أن يفسر علاقة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بالماسونية والاستخبارات البريطانية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وهل أفضل منه يستطيع أن يفسر ذلك. ولكني تماشياً مع رغبته في أن أكون البادئ بالتفسير المطلوب الذي هو أستاذ فيه، معتمداً على المراجع التاريخية التي يعرفها الدكتور حق المعرفة وهي: كتب الأساتذة د. محمد محمد حسين وخاصة كتابه (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) وكتب الدكتور محمود شاكر، والدكتور عمر فروخ، والأستاذ أنور الجندي، والأستاذ النقاش، والدكتور حسين حمادة، هذه الكتب التي فضحت بالوثائق علاقة، هذا الرجل المغمور المسمى جمال الدين الأفغاني بالماسونية العالمية، ويكفي أن تقرأ كتاب مذكرات جمال الدين الأفغاني، لتطلع على صورة طلب انتسابه، إلى أن ترقى في الماسونية ليكون رئيساً للمحفل الاسكتلندي البريطاني، بعد أن فشل في أن

يكون ذا كعب عال في رئاسة المحفل الماسوني الفرنسي، ويكفيه فخراً أن الدكتور (برنت) البريطاني كان مرافقاً له بحجة أنه طبيبه الخاص، ولكنه في الحقيقة كان الملهم له فكرياً والموجه له عقائدياً وتكتيكياً؟

ـ أما من الناحية الفكرية، فلم يأت جمال الدين الأفغاني بأي فكر بنّاء على الإطلاق بل كان يعتقد ويروج إلى نظرية الحلول ووحدة الوجود والطبيعة، التي سبقه إليها الحلاج وابن عربي، حيث أقدما على السطو على الفكر الفلسفي الإغريقي واقتنصا منه أفكاراً كثيرة كما فعل هيجل وماركس في تفسير الوجود، والمصيبة الكبرى أن هذا الفكر المنحرف انطلى على كثير ممن أسموهم الناس علماء مسلمين. وكانت دعوته أينما حل ضد وحدة المسلمين وتخدم السياسة البريطانية، توطئة لمعاهدة (سايكس ـ بيكو) ولمرحلة العميل البريطاني لورنس. والمعروف عن جمال الدين الأفغاني أينما حل من أقصى الشرق إلى الغرب تلتقطه الدوائر الثقافية الغربية وتروج له ولعلمه ولأفكاره علماً أنه لم ينقل ولم يعرف عنه كتاب في الإسلام من حيث التشريع.

ـ استطاع جمال الدين الأفغاني أن يؤثر على محمد عبده وأن ينسبه إلى الماسونية عن طريق مجلس زوجة ملك مصر أحمد فؤاد الأول والأميرة (نازلي) والمعروف أن مجلسها كان بإشراف المندوب السامي البريطاني في مصر (اللورد كرومر) وجميع مرتادي هذا المجلس ممن أسموهم علماء أو مفكرين كانوا مربوطين بسوء أو حسن نية إلى المحفل الماسوني البريطاني، وكان هذا المجلس بطريقة غير مباشرة، يدعوا الناس إلى ترك الجهاد والقتال ضد الإنجليز في مصر والشرق الأوسط، عن طريق ما أسموه بالدعوات الإصلاحية الاجتماعية التي قادها محمد عبده وسعد زغلول وأمثالهم، وتتلمذ عليها الماسوني الكبير طه حسين الذي أسموه عميد الأدب العربي. عندما ترأس تحرير مجلة الكاتب لأصحابها اليهود آل صروف وأبو نظارة ومن يستطيع أن يعود إلى بعض أعدادها يجد أنها كلها تحض على العطف على اليهود ومنظرهم البائس عندما كانوا ينزلون من البواخر مهاجرين، من أوروبا إلى أرض فلسطين، ولا غرابة في ذلك على طه حسين فهو تربى في مدرسة المستشرق الهولندي (مرجليوث) وعمل مبشراً للثقافة الغربية والحضارة الفرعونية

الحاقدة على العرب والمسلمين، وعاش ومات خادماً للحضارة والثقافة الغربية، وكان صنيعة لها.

وعلى كل لا أرغب أن أخوض كثيراً في قائمة طويلة من أدباء ومفكرين اجتمع أكثرهم في مصر تحت الولايات البريطانية بعد أن غادروا بلاد الشام وأسسوا الصحف والمجلات المرتبطة جميعها بالدوائر الغربية البريطانية والفرنسية وأسموها ثقافة الإصلاح حيث أسس آل زيدان وآل تقلا وآل البستاني الصحف المشهورة في مصر الأهرام والهلال والأخبار وصحف كثيرة أخرى.

الموضوع يطول يا دكتور أشتر وأنت تعرف أكثر مما أنا كتبت لأن معرفتي التاريخية المتواضعة لاتصل إلى غبار علمك. ولكني ساهمت قليلاً بأن أفتح شهيتك الخجولة لتخرج كنوز المعلومات التي تعرفها حق المعرفة حتى تزيل الهالة المضللة التي أحاطت بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وغيرهم من أقرانهم الذين مارسوا دوراً تخريبياً على هذه الأمة الكريمة، فالعلم يا دكتور أمانة وتبليغه بالشكل المبين واجب ومسؤولية في الدنيا والآخرة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه.

آملاً أن لا تكتم العلم الذي تعرفه

27/ 8/ 2006م

العلم والعلمانية بين النظرية والتطبيق

ـ يخطئ من يظن أن العلمانية كما هي عند فلاسفتها الأوروبيين قامت على نكران أن للكون والإنسان والحياة خالقاً أوجدها من عدم، فهي تؤمن بوجود خالق وراء الطبيعة ولكن هذا الموجد نظم الكون في أحسن حال، لكنه لم ينظم العلاقات الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية، وترك حل هذه المشاكل للعقل البشري حسب الزمان والمكان.

ـ بعد صراع مرير ومذابح يندى لها الجبين بين مؤيدي الحركة (اللوثرية) وبين الكنيسة الكاثوليكية المدعمة بأباطرة وملوك أوربا بدأ من منتصف القرن الخامس عشر، وبعد الفرز المذهبي على أثر الثورة الفرنسية عام 1789م استقرت أحوال أوربا بأن أصبحت الكلمة العليا للبروتستانت في بريطانيا وألمانيا وحلفائهم، واستقرار المذهب الكاثوليكي في فرنسا وإيطاليا وحلفائهم.

ـ توصل فلاسفة أوربا ومنظّروها إلى الفصل بين الدين والحياة، حسب المقولة المنسوبة للإنجيل المقدس (أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله) وتم الحجر على بابا الكاثوليك في حي من أحياء روما أسموه (دولة الفاتيكان)، ونهضت أوربا نهضتها العلمية التي ما تزال آثارها تسيطر على الفكر العالمي حتى الآن. بشعاراتها النظرية (حرية، عدالة، مساواة) للجميع أمام القانون بغض النظر عن أديانهم وعقائدهم ومذاهبهم، ولتكون المواطنة هي الأساس في هذه الدول، وطبعاً انتقل هذا الفكر إلى العالم الجديد في الأمريكتين بعد اكتشافها عام 1492م، وتقنين في الدستور الأمريكي الذي وضعه جورج واشنطن بعد تأسيس الولايات المتحدة واستقلالها عن البريطانيين والفرنسيين والإسبان والبرتغاليين. وزاد على ذلك أن الثورة البلشفية عام 1917م رفضت الاعتراف بالأديان واعتبرتها أفيون الشعوب وأنكرت بنظريتها المادية الديالكتيكية والتاريخية وجود الخالق، ونسفت الحل الوسط الذي اعتمدته الشعوب الأوروبية قبلها، وأنكرت وجود خالق الكون والإنسان والحياة.

والسؤال المطروح الآن هل العلمانية كانت فكراً فلسفياً نظريّاً، أم واقعاً حقيقياً تمثله الناس في حياتهم وطبقوه كمبادئ عملية في مجتمعاتهم وهو موضوع محاضرتنا لهذه الأمسية.

للإجابة على هذا السؤال لا أريد أن أدخل بالفلسفة الخيالية والسفسطائية، بل أريد أن أعالج الموضوع حسب الواقع العملي الذي مارسته هذه الشعوب من خلال الحقائق التي لا يمكن التنازع حولها نظراً لثبوتها واقعاً وسلوكاً. وسوف أكتفي بأمثلة بسيطة ولكنها هامة ابتداءً من حركة (تضامن) التي قادها رئيس نقابات العمال السيد (فاليسا) في بولندا وحتى الآن.

ـ قادت الكنيسة الحركات العمالية في بولندا ضد حلف وارسو عندما انتخب لأول مرة بابا في الفاتيكان من (بولندا الشيوعية) واستطاعت هذه الحركة جمع الملايين للقيام بعصيان مدني ضد الحكام الشيوعيين في بولندا، وهذا كان البداية لهدم سور برلين عام 1989م، وإلى توحيد الألمانيين (غربية وشرقية) الذي أعقبه انهيار الاتحاد السوفييتي الماركسي، وإلى تفكيكه، وخرجت الصلبان الأرثوذكسية مقتلعة أصنام لينين أينما كانت، ومكتفية بترك قبر (لينين) كمتحف سياحي، تستفيد منه الدولة لدعم ثروتها القومية. ولم يصل يلستين أوبوتين إلى السلطة إلا بعد تعميده في الكنيسة الأرثوذكسية العظمى في موسكو تحت الصلبان الضخمة التي حملها البطاركة وبمباركتهم.

وتفكك الاتحاد السوفييتي، هذه الدولة العظمى، وعاد كل إلى ما يعتقد، عندما أنزل جورباتشوف عصاه، وقُصت أجنحة الاتحاد السوفييتي، وعادت الجمهوريات الإسلامية إلى دينها الإسلامي كشعوب، ولم يبقَ إلا حكام هذه الجمهوريات بفضل الدعم العسكري الروسي المباشر لهم في السلطة.

ـ تفككت يوغوسلافيا، هذه الدولة التي صنعها النظام العالمي بقيادة (تيتو على أثر الحرب العالمية الثانية) وأصبحت دويلات على أساس ديني (صربيا) ومن والاها للأرثوذكس و(كرواتيا) للكاثوليك و(البوسنة) للمسلمين، وقامت بينهم المذابح البشعة على أساس ديني، وكأن هذه الشعوب لم تدرس لا أفكار ماركس ولا أفكار (سبينوزا) حتى ولا أفكار (هوبز) وطريقته الأخلاقية في التعامل الإنساني. فكانت مذابح يندى لها الجبين على أساس مذهبي ديني، قتلت الأطفال واغتصبت النساء حتى ولو كانوا تحت علم الأمم المتحدة، وكان قادة المذابح دكاترة وبروفسورات في مختلف العلوم الطبيعية والإنسانية والقانونية والاجتماعية.

ـ أما المملكة المتحدة فحدث ولا حرج عن مذابح الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا في القرن العشرين، ويكفي المشاهد اشمئزازاً عندما يرى مسيرة (الأورانج) في كل سنة يتقدمها العلماء والمفكرون السياسيون من البروتستانت ليذكروا الكاثوليك بالنصر الذي حققه البروتستانت عليهم وفي المذابح التي أوقعوها بهم.

ـ وطلّت علينا الولايات المتحدة في عهد بوش الثاني، بما هو ينافي كل قواعد العلمانية، حيث هذا الرئيس تأتيه إلهامات، ويأتيه وحي من السماء، ليدفعه باتجاه الأعمال السياسية والعسكرية من أجل سيطرة قيم الكنيسة الإنجيلية على كل قيم العالم. فلقد أعلن حروباً صليبية لا تتوقف حتى تسيطر إلهاماته على العالم وليدحر الشر، المتمثل بالمسلمين، ويسيطر الخير المتمثل في البروتستانتية الإنجيلية، التي أوصلته إلى الحكم، بفضل أتباعها البالغ عددهم حسب إحصاءات رسمية / 50/ مليون مواطن يتبعون هذه الكنيسة المدعمة بمئات الإذاعات المرئية والمسموعة وبقيادة قُسس فتحت لهم خزائن أصحاب القرار السياسي والاقتصادي في الولايات المتحدة.

ـ أين العلمانية التي يدعيها العالم الغربي ومن ورائه الأمم المتحدة عندما ساعدت وأيدت وشرعت قيام دولة أسموها (إسرائيل) على أرض يقطنها شعب جزء من العالم العربي والإسلامي، باسم الدين اليهودي، وباسم إرث بني إسرائيل، فذبحوا أهلها لا لسبب إلا لأنهم يدينون بدين غير اليهودية لتكون دولة إسرائيل بعرق نقي وحيد هو بنو إسرائيل.

ـ أما منطقتنا منطقة الشرق الكبير أو الجديد، فأين العلمانية التي علمتنا إياها مناهجنا الدراسية ومفكرونا القوميون والوطنيون.

هل أبدأ من لبنان البلد الذي كان يعتبر نافذة العلمانية الغربية على الشرق الأوسط، فبعد أكثر من ثلاثين سنة من الحروب المذهبية والطائفية، وللأسف بقيادة أساتذة في العلمانية كلهم يحملون درجات الدكتوراة الحقيقية أو الفخرية، سواءً أكانوا مسلمين أو مسيحيين، خضعوا لإرادات طوائفهم ويسيرون بطريق (الكونتونات) الدينية بل المذهبية، فالمسيحيون تحزبوا سياسياً بانحيازهم إلى مذاهبهم كاثوليك وبروتستانت

وأرثوذكس، والمسلمون كل عاد إلى مرجعيته السنية أو الشيعية بغض النظر عن الصواب والخطأ وعما تعلموه في مدرسة العلمانية، والدروز التفوا حول قياداتهم الجنبلاطية أو الأرسلانية، إنه نموذج فسيفسائي مخجل قضى بشكل واضح على كل ما تعلمه شعب لبنان على أساس العلمانية، ليثبت أنّها أكاذيب في الكتب وليست حقائق على الأرض.

ـ أما العراق فحدث ولا حرج عن انهيار العلمانية، وثبوت بطلانها، وذلك بانتماء الناس إلى مذاهبهم، بل إلى عشائرهم وقبائلهم، فأين العلمانية عندما تجد كل يوم في شوارع بغداد أكثر من / 50/ جثة قتلت لا لسبب إلا لأنها تنتمي إلى مذهب ديني ربما لا تفهمه ولا تعلم عنه الكثير. سوى إدراكها أن الإنتماء الطائفي والمذهبي والديني أصبح أمراً ضرورياً لها حتى لا تباد بشكل جماعي، وإن قتلت بشكل إفرادي.

إن ما ذكر غيض من فيض لأستدلّ به على خطأ قاتل يعتمد عليه مفكرونا وهو، أنَّ العلمانية هي التي أنهضت أوربا، ولأدلل على أن هناك فرقاً بين العلمانية والعلم، وأن الذي أنهض أوربا وتابعتها أمريكا هو الطريقة العلمية في التفكير، أي دراسة الواقع عن طريق (الملاحظة والتجربة والاستنتاج) هذه هي الطريقة التي أوصلت العالم الغربي ليكون سيد العالم في الوقت الحاضر، حيث سلك الطريقة التجريبية والتحليلية في دراسةِ الواقع، فوصل إلى ما هو عليه من علوم أدت إلى سيطرته على مرافق الدنيا، عندما أطلق الحكام مواهب الشعوب للبحث بالمادة بعمق واستنارة للوصول إلى تطويعها بموجب القوانين التي خلقها الله عليها، فتوصلوا إلى فهم القوانين التي تسير حركة المادة واكتشفوها وأبدعوا بها، فوصلوا إلى نهضة مادية مكنتهم من قيادة العالم، ولكنهم لم يصلوا إلى نهضة فكرية ومعنوية روحية لأنهم لم يربطوا القوانين المكتشفة بمن هو نظم هذه القوانين وهو الله سبحانه وتعالى.

والذي يؤكد على وجهة نظري أن اليابان قد وصلت إلى أرقى العلوم وأسهلها وأفضلها وأرخصها بدون العلمانية المزعومة، بل وصلت بالطريقة العلمية التي مارسها المواطن، علماً أنه لا أثر للدين في علاقات الشعب الياباني وإن كان عندهم تقاليد موروثة وآداب اجتماعية.

إن العلمانية كما وصفها مفكروها في الغرب لا أثر حقيقي لها على حياة المواطن عندهم، فهي لازمة فقط لمؤسساتهم بالقدر التي تمكن الدولة المملوكة لأهل الفعاليات الاقتصادية (الرأسماليين) من المحافظة على القيم الرأسمالية التي تمكن أصحاب الفعاليات الاقتصادية من السيطرة على مرافق البلاد داخلياً والعالم خارجياً، ولهذا تنتهك الدولة عندهم حقوق الإنسان بمجرد أن يخالف قيم الرأسمالية بغض النظر عن العلمانية التي قالها المفكرون الأسبقون. فتعلن حالة الطوارئ وتنتهك كرامات الناس وحتى تمنع امرأةٌ مسلمة من الحجاب في فرنسا لمخالفتها لقيم المجتمع، باعتبار ممارستها لفكر غير حضاري بموجب قيمهم.

إن الواقع العملي يثبت بأن العلمانية أكذوبة كبرى، ربما أسسها مفكرون مخلصون مقتنعون بها، لكن الواقع الفعلي أثبت استحالة وجودها حقيقة في حياة الشعوب، فتم في بلاد العرب والمسلمين الخلط بين العلمانية والعلم، حيث ثبت أن العلمانية نظرية خيالية لا تثبت أمام الواقع، وأنَّ أي ظروف استثنائية يعود الناس جميعهم إلى عقائدهم، فالعقائد تختلف فيها الناس، وهذا حقهم في الإقرار أو الإنكار، وليس الاختلاف في العقائد موجباً للكره والبغضاء بل لكلٍّ قِيَمُهُ وموازينه، فالاختلاف رحمة وحضارة، والكره والبغض عداء، والعلم مشاع للجميع، وهو مجموعة القواعد والقوانين التي تخدم الفكر الصحيح لتكونَ على أساسه النهضة الصحيحة التي تملأ العقل قناعة والقلب طمأنينة، وهذا ما يفتقده الغرب، ومن سار على حذوه، فقد امتلكوا الارتفاع المادي ولكنهم لم يمتلكوا الارتفاع الفكري الذي يؤدي بهم إلى سعادة الدنيا والآخرة.

أختم محاضرتي بالتساؤل أين العلمانية، عندما يجري توزيع الأسلحة النووية في العالم على أساس ديني فعلي، فنجد ما أسماه المراقبون السياسيون القنبلة البروتستانتية للولايات المتحدة وبريطانيا والقنبلة الكاثوليكية لفرنسا والكونفوشوسية للصين وكوريا الشمالية والبراهمية للهند والسنية للباكستان، والآن ننتظر القنبلة الشيعية، إنَّه عالم غريب يتحدث باليسار ويكتب باليمين أو العكس، ولله الحمد أن فلاسفة العلمانية المؤسسين ليسوا على قيد الحياة، وإلا لماتوا حزناً وألماً على نظرياتهم التي دحضَها الواقع الفطري الإنساني.

18/ 11/ 2006م

الجزء الثالث

الشورى والديمقراطية بين مساحة الالتقاء والافتراق

تهدد الولايات المتحدة ما أسمته منطقة الشرق الأوسط الكبير بنوعين من الأسلحة، أسلحة مادية بمختلف صنوفها التقليدية والمتطورة، وأسلحة معنوية بمختلف أنواعِها الجرثومية، وأقصد بها (الديمقراطية الغربية) والتي تعني بموجب فهم الولايات المتحدة، فرض القيم والحضارة والمفاهيم الغربية على المنطقة بالقوة.

ـ إن أكثر من خمسين سنة ساهمت فيها الولايات المتحدة بشكل رئيسي في فرض ديكتاتوريات استبدادية على المنطقة وقهرها للشعوب، جعلتها تخلص بنتيجة يقينية وهي أن القهر لا يشكل قناعات عند الشعوب، بل إن رد الفعل عند الشعوب كان عودة الفكر الديني كمخلص من الاستبداد.

ـ أعادت الولايات المتحدة التفكير في وضع المنطقة والعالم ووصلت إلى أن مساهمتها في غياب الديمقراطية هي التي جعلت الشعوب تنفصل عن حكامها، فكان لابد أن تعمل على أخذ الحكام والشعوب معاً، وحيث إنَّ التيار الديني هو السلعة المتواجدة في السوق السياسي نظراً لكساد سوق الأفكار الأخرى من خلال محاكمة الناس لتجاربها في الخمسين سنة الماضية، هذا دفع الولايات المتحدة على لسان كافة مسؤوليها ابتداءً بالرئيس وانتهاءً بكافة أعضاء مجلس أمنه القومي إلى التصريح بفرض ديمقراطية أمريكية مكذوبة على الشرق الأوسط الكبير، والمقصود به الشرق الأوسط العرفي إضافة إلى بعض البلاد الإسلامية من جاكرتا إلى المغرب العربيّ.

ـ لا أريد في هذا الموضوع الذي أعالجه أن أتدخل في أزمة السياسة وما هي دوافع أمريكا لفرض ديمقراطيتها، والدلائل على ذلك، بل أرى أن أقيد بحثي بالموضوع الفكري لديمقراطية الولايات المتحدة المزعومة، التي ستصل إليها وزيرة خارجيتها (رايس) من خلال سياسة الفوضى الخلاقة بل (الهدامة) وهل هذه الديمقراطية تستحق أن نتخاذل أمامها ونبتهج بقدومها؟ وهل هي من القوة بحيث تستطيع التغلب على هذه المنطقة العريقة؟ أم على الولايات المتحدة أن تسحب ديمقراطيتها وتجر الخذلان معها.

ـ وهل تستحق هذه الديمقراطية أن ننبهِرَ بها؟ وهل هي الطريق إلى خلاصنا مما نحن فيه من ذل وخنوع؟ وهل تصلح أن تكون طريقنا إلى النهضة والكرامة كما يقولون؟ وما هو الفرق بين الديمقراطية الغربية والشورى؟ وهل الذل الذي عانيناه من استبداد الحكام وضياع الحقوق يجعلنا ننتقل، من استبداد الحكام المحليين إلى استرقاق النظام العالمي الجديد الذي ربما يحول بعضنا إلى أغنياء ولكننا أرقاء؟

مفهوم الديمقراطية النظري:

ـ الديمقراطية مصطلح إغريقي، بكل الأحوال يعني حكم الشعب بالشعب وللشعب، والأمة مصدر السلطات. فالشعب ينتخب حكامه وهو الذي يعين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية بطريق مباشر و غير مباشر، كما أن مبدأ فصل السلطات الثلاث هو أيضاً من أسس الديمقراطية، فالديمقراطية بهذا المفهوم الذي وضعه أصحابها قد حررت الشعوب وجعلت السيادة والحاكمية لها وأطلقت الحريات، فهي تختار حكامها بالانتخاب الحر وهي التي تصنع الدستور والقوانين مباشرة أو عن طريق من تنتخبهم كممثلين لها.

التطبيق العملي للديمقراطية:

ـ حيث إنَّ الشعوب لا يمكن أن تحكم نفسها بنفسها بشكل مباشر فكان لابد من أن تنتخب ممثلين عنها ليكونوا السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية بموجب أحكام الدستور.

ـ والسؤال كيف يصل هؤلاء الممثلون إلى أن يكونوا حكاماً في البلاد التي تحكمها الديمقراطية الغربية؟ إن الظاهر يقول: إنه في الديمقراطيات الغربية سواء أكان فيها الحكم رئاسياً كالولايات المتحدة، أو وزارياً (برلماني) كبريطانيا، أو مختلطاً بين الرئاسي والوزاري كما هو في فرنسا، فإن الحكام يصلون فيها إلى سدة الحكم عن طريق الانتخابات بترشيح من أحزابهم السياسية. فالأحزاب السياسية هي التي ترشح أعضاء من قبلها ليكونوا ممثلين لها في السلطة التشريعية وهؤلاء الأعضاء ينتخبهم الشعب بانتخاب نزيه حرّ مباشر. ولذا يقال: إن الشعب يحكم نفسه من خلال اختيار من يراه صالحاً للحكم بواسطة

الانتخابات الحرة. لكن الحقيقة والواقع بخلاف ذلك، فالشعب في الواقع لا يختار الحكام فعلاً بمجرد التصويت لمرشحين معينين، لأن رجال الأعمال في المجتمعات الغربية الديمقراطية من مصرفيين وصناعيين وأصحاب الثروات في الواقع هم الذين يمسكون بالقرار الحقيقي في الدولة، وهم الذين يقومون بالتحكم في الأحزاب والمجالس التشريعية والنقابات، لا أفراد الشعب العاديين كما يقال. ولا يستطيع أحد غيرهم أن يصل إلى الحكم أو إلى المجالس التشريعية أو التنفيذية أو القضائية إلا إذا كان رجلاً من رجالهم وبمباركتهم من أجل استكمال اللعبة الديمقراطية، فهؤلاء الذين يسيطرون على أجهزة الإعلام الخاصة، أو العامة، هم الذين يسيطرون على رؤوس الأموال وعلى الشركات التي تصنع الحرب والسلم وتفتح الآفاق أمام دولهم ورعاياها أو تغلقها. ورؤوس الأموال هذه هي التي ـ بواسطة رجالها في الحكم ـ تثير الحروب التي تحرك عجلة التصنيع وهي التي توقفها فيكون الركود الاقتصادي، وتحرّك الاقتصاد كما تشاء بقوانين التجارة والضرائب وغيرها. ولذلك فإن سيطرة رؤوس الأموال في الديمقراطيات الغربية هي الأساس في كل شيء، فالناس في الغرب نظرياً هم أحرار ينتخبون من يشاؤون، لكن في الواقع هم ينتخبون من أرادت هذه القوى الرأسمالية له أن ينجح في الانتخابات.

ـ فالمواطن في الديمقراطيات الغربية هو حرّ بأن ينتخب من يريد لكن ضمن الشروط والظروف التي وضعها هؤلاء الكبار، فالشعب يختار بإرادته ما يريده صنّاع القرار في تلك البلاد، والمثل المأثور في الولايات المتحدة أن مستر فورد الأول لم يخالف القانون قط لكن يصنع القانون على مقاس فورد. هذه الديكتاتورية العلمية الحديثة التي تجعل الناس بمحض إرادتهم يختارون ما اختاره صنّاع القرار لهم. ولذلك تجد أن المجتمع الغربي يسخط على شخص دَهَسَ قطة في الطريق العام وتقوم عليه رابطة حقوق الحيوان، بينما لا يسخط لذبح آلاف الفلسطينيين وغيرهم من المستضعفين في سائر أنحاء العالم، بل لا يسخط أيضاً لرؤية المشرّدين في شوارعه وهم يموتون جوعاً وبرداً من جرّاء الأمراض والمخدرات. والسبب في ذلك أن الرأسماليين لا تهمهم أرواح البشر بل عملوا أن تسير الأمور هكذا لتحقيق أهدافهم، ومنها خلق القلاقل والصراعات في العالم، وجعلوا

شعوبهم تتلهّى بقضايا طبقة الأوزون ومايكل جاكسون ومادونا والإجهاض والممارسات الجنسية والإيدز.. الخ، بينما يستمرون في استغلال سذاجة شعوبهم وامتصاص خيرات العالم الثالث ـ كما يسمونه. وتوضيحاً لذلك سنضرب مثلاً بالدولة التي يعتبرها العالم وتعتبر نفسها قمة الديمقراطية ألا وهي الولايات المتحدة.

الولايات المتحدة الأمريكية والديمقراطية:

ـ ينتخب الشعب الأمريكي رئيسه مباشرة بموجب دستور البلاد الذي وضعه المؤسسون الأولون من قادة الاستقلال. ويتم عادة انتخاب أحد مرشحي الحزبين الرئيسيين، الجمهوري أو الديمقراطي. والحزبان ليس لهما دستور مكتوب بل لكل منهما شعار، فشعار الحزب الجمهوري الفيل وشعار الحزب الديمقراطي الحمار، ويعتبر الحزب الجمهوري هو الحزب المحافظ، بينما يعتبر الحزب الديمقراطي أقل محافظة أي (ليبراليّاً. ويتناوب على الحكم في الولايات المتحدة رئيس من أحد هذين الحزبين، وهو الشخص الذي يكون قد اختير لتمثيل مصالح القوى الرأسمالية الكبرى في البلاد. فمنذ بداية الحملة الانتخابية يتم تسليط الأضواء على عدة أشخاص من الحزبين الجمهوري والديمقراطي، وكل حزب يقوم بانتخابات أولية وفرعية ومحلية عن طريق مندوبي الحزب، حتى يُنتقى من كل حزب شخص واحد يكون مرشحاً للرئاسة. ويتخلل الحملات الانتخابية مقابلات تلفزيونية وحملات عشاء وتجمعات خطابية ومهرجانات في الهواء الطلق يتم فيها تقديم الطعام مجاناً للناس حيث يكون هناك فرق موسيقية وفقرات ترفيهية، مما يجذب حضور الناس للاستمتاع بتلك المهرجانات ورؤية مرشحي الرئاسة.

ـ ويسمح الدستور الأمريكي للمرشح أن يجمع تبرعات من قبل الشعب والمؤيدين له من أجل تغطية نفقات حملته التي تبلغ أحياناً مئات الملايين من الدولارات، وحيث إنَّ الأفراد العاديين من المؤيدين لا يساهمون سوى بجزء يسير جداً من هذه المبالغ فإن رجال الأعمال من الرأسماليين أمثال رؤساء شركات الصناعات الثقيلة والعسكرية والمؤسسات البنكية وشركات النفط هم الذين يموّلون الحملة الانتخابية للرؤساء. فهذه الشركات في الحقيقة والواقع هي التي تقوم بعملية الانتخابات، لا بسطاء الأمريكيين

الذين يعتبرونها مناسبة للتسلية والأكل والضحك. فرجال الأعمال هم الذين يوصلون الرئيس الأمريكي لسدة الرئاسة وهم الذين يضعون له دفتر شروط مسبقة قبل تأييده ودفعه إلى البيت الأبيض. وإذا خالف الرئيس دفتر الشروط يستغنى عنه فوراً كما حصل لجون كينيدي وريتشارد نكسون الذي خرج من البيت الأبيض وهو يبكي والذي سبق وأن استغنى عن نائبه سبيرو أغينيو الذي أرغم على الاستقالة فوصل للحكم الرئيس فورد بدون أي انتخاب من الشعب الأمريكي، أي بدون إرادة الشعب.

ـ فلا توجد في الواقع أي إرادة للشعب الأمريكي إلا في القضايا الدعائية البسيطة التي يتصور فيها الشعب أنه قادر على حل مشاكله، مثل البلديات والحاكم والحدائق والمدارس والطرق وما إلى ذلك من الأمور التي ليست لها علاقة بالحكم. فواقع الأمر أن الناخب الأمريكي حرّ فقط في وضع ورقة الانتخابات في الصندوق، وذلك بعد أن تكون قد تمّت برمجة تفكيره لاختيار الأشخاص الذين اختارهم صنّاع القرار. ولا يقال كيف يعرف صنّاع القرار من سيفوز حتى يؤيدونه ولذا فإن هذا الوضع غير حقيقي، لا يقال ذلك لأن صنّاع القرار يدعمون كلا المرشحين بشروط مسبقة، ولابد من وجود كلا المرشحين حتى تكتمل اللعبة الديمقراطية. وإن لم يتعاون المرشح أو يقبل بالشروط يكون سقوطه وفشله في الانتخابات حتمياً حيث تقوم تلك القوى الرأسمالية بإشعال الرأي العام ضده ومهاجمته وتحسين صورة المرشح الآخر، وإن لم يكن كفئاً. كما ظهر في انتخابات بوش الابن، حيث ألزم أهل الفعاليات الاقتصادية آل غور على تعيين ليبرمان اليهودي نائباً له، وهذا وحده كافٍ لإسقاط آل غور وخسارته لكل صوت أمريكي لا يقبل وصول يهودي إلى سدة الرئاسة، وخسارته كذلك لأصوات المسلمين، ومع ذلك فاز بوش الابن بأكثر من 507 أصوات في ولاية (فلوريدا) وبقوة قرار قضائي من المحكمة الدستورية العليا التي فرضته فرضاً كما هي رغبة المعلمين الكبار، علماً أن آل غور مع ذلك قد فاز بالأكثرية العددية لأصوات الشعب الأمريكي. كما سقط الرئيس جورج بوش الأول ذو الخبرة والحنكة والسجل القيادي أمام مرشح مغمور ليس لديه أي خبرة وسجلُّهُ أسود من الفضائح كمعاشرة الساقطات وتعاطي المخدرات والهروب من الجندية

والتظاهر ضد بلده في الخارج كما ذكرت ذلك بعض الصحف الأمريكية، وأكد سقوط بوش الأول ترشيح السيد روس الذي أخذ 10٪ من أصواته، هذه هي اللعبة الديمقراطية.

أما المجالس التشريعية، الكونجرس بمجلسيه (الشيوخ والنواب) فأعضاؤه جميعاً من رجال الأعمال البارزين أو من مؤيديهم ورثوا النيابة كابراً عن كابر منذ أيام جورج واشنطن حتىٰ الآن. وما يقال من أن هناك رقابة من الكونجرس على الرئيس الأمريكي، فإن ذلك مجرد اختلاف ظاهري فكل قرار هام يمس الأمن ومصالح البلاد يتم التشاور فيه مسبقاً بين الرئيس ومعاونيه من طرف وبين رؤساء الأغلبية والأقلية في الكونجرس، وجلسات الاستجواب التي تجري في الكونجرس هي شكل ظاهري لإتمام إخراج اللعبة الديمقراطية، ولكن في النهاية القرار قرار الرئيس، الذي هو قرار من أوصل الرئيس للسلطة من خلال اللعبة الديمقراطيَّة ، فالرئيس هو الدولة وهو القائد العام للجيش والقوات المسلحة، ويستطيع أن ينقض أي قرار للكونجرس حفاظاً على مصلحة الشعب الذي انتخبه. وعند اتخاذ القرارات في الأمور المصيرية يتولى الرئيس الأمريكي بالتعاون مع مجلس الأمن القومي وبالتنسيق مع الكونجرس إخراجها إلى العلن على اعتبار أنها رأي الشعب ورأي الأكثرية. وتقوم أجهزة الإعلام التي سيطر عليها الكبار بإخراج الحدث بالصورة التي يريدها أصحاب القرار الملاّك الحقيقيون لهذه الأجهزة، ويحتفظ ملاك القرار بملفات فضائح يتم استخدامها للإطاحة بكل من لا يريدونه أن يصل أو يستمر في السلطة إما لأنه غير مؤهل لأنه يفهم اللعبة الديمقراطية أو يمتنع عن الاستمرار فيها، أو لأنه غير قادر على أن يقوم بالدور الذي يريدونه.

الديمقراطية الغربية أكذوبة كبرى:

ـ وهكذا فإنه في الواقع لا وجود للديمقراطية كما وضعها المفكرون وهي «حكم الشعب بالشعب وللشعب والأمة مصدر السلطات». ومع ذلك فإنه ليس هناك عيب في عدم التزام الأنظمة الغربية بالديمقراطية كما عرفها فلاسفتها النظريّون، إنما الذي يعيب هذه الأنظمة هو أنها تكذب على الشعوب وتقول: إنَّها تطبق الديمقراطية. ولو كان حكام

الغرب صادقين لاعترفوا بالحقيقة العملية وهي أن الديمقراطية فكرة خيالية غير قابلة للتطبيق وأن الحكم لا يمكن ن يكون إلا للفرد. فقد ثبت من الناحية العملية الواقعية أن قرار الفرد أقوى وأسرع وأهم من قرار الجماعة، وعندما يكون للحاكم مجالس استشارية يصغي ويستمع لها ويناقشها في أمور البلاد وقضاياها لاستبعاد الآراء الهزيلة والمصلحية والخيالية والنظر في الآراء القوية التي تعتمد على البيانات والنصوص للدستورية والحقائق والواقع المادي. ورأس الدولة الفرد هو الذي يتبنى القرار فيصبح قانوناً أو خطة أو أسلوباً، والسلطة التشريعية والأحزاب هي التي تحاسب الحاكم على أعماله، والسلطة التنفيذية هي التي تنفذ القوانين والخطط بأحسن السبل والأساليب والأدوات. وتقوم اللجان التنفيذية والمستشارون الفنيون بتحويل القرارات التي تبناها الحاكم إلى واقع السياسة الداخلية والخارجية في الدولة. وهذه الحقيقة هي التي تسير عليها كافة الدول في العالم، فلا وجود للقيادة الجماعية إلا في الخيال، بل القيادة دوماً فردية، وهذا هو الشيء الصحيح والطبيعي الذي سارت عليه الدول وقياداتها منذ أوجد الله سبحانه وتعالى عالم البشر. وعلى الديمقراطيات الغربية أن لا تخجل من ذلك وأن تعلنه بصراحة وجرأة لأنه هو الوضع الواقعي العملي الذي يمكِّن الدول والأمم والشعوب من النهوض والتقدم والرقي.

ـ فالقيادة والقرار لا يمكن أن يكونا إلا لفرد واحد، لأنه إذا كان القرار بيد أكثر من فرد فلا بد من ظهور الصراع على السلطة الذي ينتهي أخيراً بإبقاء القرار بيد الفرد حتى تستقر الأمور في الأمة. واستكمالاً للحقيقة فإن قيادة الفرد لا تعني الديكتاتورية كما يتصور البعض، لأن الفرد ينتخب عن طريق الأمة انتخاباً حقيقياً، ويلتزم بدستور البلد الذي أقسم على عدم الخروج عنه والتقيد به. ويجوز للمحكمة الدستورية العليا التي تتابع دستورية التشريعات والتزام الرئيس بالدستور أن تحاكم الرئيس عندما يثبت خرقه للدستور، كما تستطيع أن تعزله وهو دائماً تحت الرقابة والمحاسبة من قبل الأحزاب والصحافة والأفراد، وهي له ولأسرته «وحاشيته» بالمرصاد لكل صغيرة وكبيرة. بينما الحاكم الديكتاتور لا يلتزم بدستور لأنه لم يصل للحكم عن طريق الأمة، فهو يحكم

بالهوى ويتسلّط بالقوة. ولهذا ليس هناك أي مقارنة أو تشابه بين القيادة الفردية وبين الديكتاتور. فالفرد يحكم الأمة بموجب دستور والديكتاتور يحكم الأمة بالقوة والقهر والتسلّط. والحاكم الفرد تدافع عنه الأمة لأنها هي التي أتت به عن طريق الانتخاب وهي التي تحميه وتستطيع أن تعزله عندما يخالف الدستور. والديكتاتور هو الذي فرض نفسه بالقوة على الأمة، والأمة لا تحميه بل تنتظر الظروف للخلاص منه.

الشورى:

ـ الإسلام لا يخرج بأحكامه الشرعية العامة من حيث القيادة الفردية الصحيحة التي نوهنا عنها آنفاً، والإسلام لا يقر الديمقراطية، إذ الديمقراطية الغربية ليست من الإسلام لا شكلاً ولا موضوعاً. فالإسلام يعتبر أن السيادة للشرع الذي هو مصدر الدستور والقوانين وأن الأمة تختار من يحكمها بشرع الله. والقيادة في الإسلام فردية وليست جماعية، لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران 159). فالحاكم المسلم يشاور أهل الرأي والحل والعقد، وله صلاحية تبنّي الحكم الشرعي ليكون قانوناً سائداً. فالشورى حق من حقوق الأمة على الحاكم كما نص على ذلك كتاب الله وكما روي عن النبي محمد (ص).

فقد شاور الرسول عليه الصلاة والسلام المهاجرين والأنصار يوم الحديبية في أمر عودته من مكّة ذلك العام دون أن يعتمر، فأبدى الأكثرية انزعاجهم وظهرت مظاهر عدم القبول لما عزم عليه من العودة، لكن الرسول فيما بعد صمم وقال لهم: (هذا أمر ربي) رواه مسلم، أي إنَّ هذا من التشريع، وبعد ذلك دخل على زوجته أم سلمة رضي الله عنها وهو حزين فقالت يا رسول الله، احلق فيحلق القوم، فخرج إليهم محلِّقاً فأطاعوه بعدما علموا أن هذا أمر تشريعي أي من الوحي.

أما يوم بدر فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ألزم المسلمين جميعاً برأي شخص واحد من الصحابة هو الحُباب بن المنذر رضي الله عنه. فعندما نزل عليه الصلاة والسلام والصحابة عند ماء بدر قال له الحباب: يا رسول الله أمنزل أنزلكَ الله إياه فلا نتقدم ولا نتأخر؟ أم الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: (بل الرأي والحرب

والمكيدة)؟ قال الحباب: هذا ليس بمنزل فلننزل عند أعلى ماء بدر ونحوطه بحائط فنشرب ولا يشرب المشركون، فأمر الرسول الجميع بالنزول على رأي الحباب. فهذا يدل على أن ما كان من قبيل الرأي والحرب والمكيدة يلزم به الحاكم ولو كان رأي فرد واحد لأنه رأي الخبير العالم باختصاصه، أي رأي صاحب الخبرة والاختصاص. ويؤكد على ذلك قوله (ص): لمن سأله عن تأبير النخل (أنتم أدرى بأمور دنياكم) فالرسول عليه (ص) مبلغ للشريعة، وهو معصوم في تبليغ النبوة والرسالة، أما ما عدا ذلك فهو بشر يخطئ ويصيب. فالحاكم لا يمكن أن يكون عالماً بالسياسة والرياضيات والطرق والدفاع والجغرافيا، بل لابد أن يكون لديه أجهزة استشارية فنية من أصحاب الاختصاص، ويتبنى الحاكم الرأي المناسب بعد التشاور مع هؤلاء المختصين ويصبح قراره نافذاً وسائداً. ولهذا يقتضي نظام الحكم في الإسلام أن يكون هناك مجلس شورى يحاسب الحاكم ومعاونيه وكافة أجهزة الدولة على أي خروج واختراق للأحكام الشرعية وهدر المال العام. ويقوم المجلس ببحث ومناقشة أي أنظمة أو تشريعات تهم مصلحة الأمة وبعد ذلك يتم عرضها على الحاكم إما أن يوافق عليها فتصبح قانوناً أو يرفضها أو يعيدها للدراسة والبحث وذلك بعد التشاور مع مستشاريه المختصين. والشورى تكون ملزمة للحاكم برأي الأغلبية عندما تكون ليست من التشريع، أو من قبيل الرأي والحرب والمكيدة (فنية تخصصية)، أي عندما ترتبط فيها مصالح الأمة ويستوي فيها جواز الفعل أو الترك، كما حصل مع الرسول (ص) يوم أحد، فقد خرج إلى ظاهر المدينة للقاء العدو تحت ضغط رأي الأكثرية فقط، والذي يؤيد ذلك: قوله (ص) لأبي بكر وعمر (لو اتفقتما على مشورة ما خالفتكما).

ـ الشورى من أركان الحكم الصالح للمسلم ولغير المسلم على السواء، والحكم الذي يفتقد الشورى يكون حكماً استبدادياً، يفتقد فيه الحاكم آراء ذوي الخبرة والمعرفة، وتكون عاقبته وخيمة. والشورى مطلوبة شرعاً، قال تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (الشورى 38)، وقال تعالى أيضاً: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (آل عمران 159). ولقوله عليه الصلاة والسلام (المستشار مؤتمن)، ولفعل الصحابة رضي الله عنهم في سقيفة بني ساعدة يوم بويع أبا بكر بالخلافةِ.

ـ ولا يشترط في الشورى كيفية معينة وأجهزة خاصة وأسلوب معين، فالأمة العاقلة تبدع بالأساليب، والمهم الحفاظ على جوهر الشورى، أي أن تتم الشورى بين الحاكم والرعية، سواء أكانت بمجلس أو بمجلسين كما هو حادث في الولايات المتحدة (الكونغرس ـ مجلس الشيوخ ومجلس النواب) أو في بريطانيا (مجلس العموم ومجلس اللوردات)، وفي روسيا (مجلس نواب الشعب). والإسلام لم يحدد أساليب معينة للشورى، بل أمر بالشورى، والأساليب والوسائل متروك تحديدها للأمة، ولم يمر عهد من عهود الأمة إلاّ وكان فيه شورى، فالرسول عليه الصلاة والسلام كان يشاور أوجه المهاجرين والأنصار، وبنو أمية كانوا يشاورون الوجهاء والعلماء والقادة العسكريين، والعباسيون والعثمانيون جعلوا مجلساً للوجهاء والمتخصصين يشاورون فيه الناس ويجلسون فيه لسماع المظالم. فالشورى إذن كانت تتم ولكن بأساليب مختلفة.

ـ فالشورى من ميزات الحكم الصالح بشروطها وأركانها الشرعية، والحكام والأمة متروك لهم تحديد أساليب ووسائل أخذ الشورى، وتحديد كيفيات وصول عضو مجلس الشورى، وتحديد أعضاء المجلس، وشروط أهلية العضو واختصاصات المجلس ولكل الأمور الإجرائية. والمهم حصول الشورى بين الحاكم والمحكومين.

ـ إن الديمقراطية وقرار الأكثرية هو أكذوبة كبرى غير موجود في الواقع على الإطلاق، ولم يمارسه أحد منذ هبوط آدم عليه السلام على هذه الأرض وحتى تاريخ هذا اليوم. فالحكم لفرد، ولا يمكن أن يكون إلاّ لفرد، سواء كان المجتمع مسلماً أو غير مسلم، وهذا ما يمارسه المسلم وغير المسلم على السواء بالحقيقة والواقع، وخلاف ذلك وهم وتخيل أفلاطوني، مخالف للشرع والعقل عند المسلم، ومخالف للعقل ولسنة الحياة عند غير المسلم.

ـ من صاحب قرار الحكم في الولايات المتحدة دستورياً؟ السيد رئيس الدولة هو صاحب القرار. فهو الذي يعيّن نائبه، الذي لا يعدو أن يكون (طرطوراً) عمله الوحيد انتظار موت طبيعي أو غير طبيعي للرئيس حتى ينتقل من صفر إلى مائة ويصبح صاحب القرار.

ـ من الذي يعين الوزراء؟ الرئيس طبعاً. وللمعلومية، لا يسمون وزراء في أمريكا بل هم «سكرتاريا» السيد الرئيس، فاستعمال مصطلح (Ministry) هو استعمال شائع عند

العرب والإنجليز، بينما الأمريكان يلقبون الوزير بسكرتير (Secretary) سكرتير للخارجية، سكرتير للدفاع، سكرتير للمال. وهكذا كافة من نسميهم وزراء، والرئيس يستطيع أن يطرد أو يعزل السكرتير متى يريد، أو يطلب منه أن يستقيل حفاظاً على ماء وجهه.

ـ إن للرئيس الأمريكي حق إعلان الحرب والسلم بموجب أحكام الدستور. وهو الذي يتولى تسيير شؤون البلاد داخلياً وخارجياً، أما الكونغرس بمجلسيه فدوره لا يتعدى أن يقوم بمهزلة الديمقراطية المكذوبة، بأن يطلب من الرئيس عزل سكرتير من السكرتاريا، أو يعرض عليه تثبيت السكرتير عند تعيينه، لكن الذي يقرر نهائياً هو السيد الرئيس. لأن طبخة القرار السياسي أو العسكري تتم في الولايات المتحدة بين السيد الرئيس وأصحاب الفعاليات الاقتصادية الكبرى في البلاد، والممثّلة برئيس الأغلبية ورئيس الأقلية في الحزبين الجمهوري والديمقراطي، من خلال مجلس الأمن القومي، وهو مجلس استشاري للسيد الرئيس وأصحاب الفعاليات الاقتصادية الكبرى في البلاد، والممثّلة برئيس الأغلبية ورئيس الأقلية في الحزبين الجمهوري والديمقراطي، من خلال مجلس الأمن القومي، وهو مجلس استشاري للسيد الرئيس مشكّل من: (السيد الرئيس، نائبه، رئيس موظفي البيت الأبيض، ووزيري «سكرتاري» الخارجية والدفاع، ومستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي، ورئيس المخابرات المركزية)، وهكذا يتم صنع القرار في الولايات المتحدة الأمريكية.

ـ وما يحدث في الولايات المتحدة يحدث في بريطانيا وفرنسا على صعيد قرار الحكم، فرئيس الوزراء هو الذي يحكم في بريطانيا، ورئيس الجمهورية هو الذي يحكم في فرنسا، وكل منهما هو الذي يعيّن الوزراء ويطردهم، و«مسز تاتشر» ليست ببعيدة عنا، فلقد طردت ثلاثة وزراء في شهر واحد وطوني بلير طرد عدة وزراء بالتوالي وأولهم وزير الخارجية روبن كوك، و«ميتران» ذو الحكم الائتلافي الضعيف طلب من الوزراء الاستقالة حتى لا يهزّ وضعه الحزبي وكذلك يفعل كل رئيس فرنسي بما فيهم جاك شيراك، إلا أن القرار في النهاية لرجل واحد، حتى ولو كان الحكم ضعيفاً كما هو في فرنسا

لاعتماده على ائتلاف حكومي. ولا أريد أن استطرد بهذا الخصوص، فكل ما ينطبق على الولايات المتحدة ينطبق على كافة الديمقراطيات الغربية، لكنه يتجلى بوضوح في الولايات المتحدة، لأن النظام الأمريكي نظام «براغماتي» واقعي منذ نشأة الولايات المتحدة وتأسيسها، فلم يراع أنصاف الحلول ومراضاة بسطاء الناس والتافهين في المجتمع كما يحدث في أوروبا الغربية، فقد تبنّت أمريكا الحكم الفردي علناً بينما تبنّت الديمقراطيات الغربية الحكم الفردي مع بعض النفاق السياسي والاجتماعي، بسبب مخاطبتها للناس على قدر عقولهم، حيث إن مفهوم الديمقراطية الأفلاطوني في أوروبا له حد العراقة في الفهم وليس بالتطبيق، ولذلك لابد من الضحك على عقول بعض من يسمونهم مفكرين وكتاباً وأصحاب رأي حر. أما شعوب الولايات المتحدة فقد بنت ديمقراطيتها المزعومة حسب واقع شعوب بلدها وتفاوت أجناسهم، وإمكانية تمزقهم إذا لم تتمتع الأمة بولاء مطلق للدولة والحاكم. وإذا لم يكن القرار السياسي لفرد واحد فإن البلاد تتمزق وتنهار بسرعة، فلا يوجد في أمريكا مفاهيم حضارية تربط الناس سوى المصالح التي حققها لهم حكام الولايات المتحدة، ومن ورائهم أهل الفعاليات الاقتصادية، وهم الحكام الحقيقيون للبلاد.

ـ لابد من التنويه إلى أن بعض الناس بما فيهم سياسيون ومنظّرون ومفكرون يخلطون بين الحكم والإدارة، فيظنون إن إدارة البلديات والمديريات هي من الحكم، علماً أن هذا عمل إداريّ محضٌ لا يتعلق بالحكم في شيء، وهو متروك في الديمقراطيات الغربية للمتعلمين وعوام الناس ليمارسوا فيه حرياتهم ويظنوا أنفسهم يمسكون قرار الحكم، عندما يديرون البلديات فيفتحون الحدائق والطرقات والمقاهي، ويدافعون عن الحيوانات عن طريق «جمعيات الرفق بالحيوان» كما هو حال «بريجيت باردو»، ويعتقد كثير معها أنهم يمارسون الحريات التي تراقب الحكام وتوجههم، وفي الحقيقة، هذه الحريات الإدارية ليس لها علاقة بالحكم، بل هي كما يقولون (ضحك على اللحى)، أي إن حكام الديمقراطيات الغربية يتركون للشعوب حريات يشبعون بها هواياتهم وهم يظنون أنهم يملكون قرار الحكم، وهم في الحقيقة يتولون قراراً إدارياً ليس له علاقة بالحكم والسلطان.

ـ أما الحكم في الاتحاد السوفييتي سابقاً وفي روسيا حالياً وفي سائر أنحاء العالم الثالث، فهو فردي أيضاً، والقرار يعود فيها لفرد. وإذا كانت السلطة لأكثر من فرد يشاركه الحكم فلا بد من حدوث التصادم والاقتتال، وهذا ما حدث لروسيا بعد جورباتشوف، فلم يستقر الوضع نسبياً حتى قصف «يلسين» مقر «مجلس نواب الشعب» وأخرج المتمردين رافعي الأيدي أذلاء، بما فيهم نائبه «روتسكي» ورئيس مجلس النواب «حسبو اللاتوف». فالحكم لا يكون إلا لفرد، ومن يعتقد خلاف ذلك يكون مخطئاً ولا علم له بفن قيادة الشعوب.

ـ لم يخرج الإسلام عن هذا الواقع بل كان الوحي صريحاً، قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (آل عمران 159)، وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى 38). والقواعد الشرعية بهذا الخصوص معروفة (أمر الإمام يرفع الخلاف). وكل الدول المنقرضة والموجودة حالياً نفذت هذه القواعد سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة، لأن هذا واقع لا ينكره إلا جاحد أو مخادع، فمجالس الشورى و«البرلمانات» حرة في الاختلافات والآراء والمناقشات، لكن لابد في النهاية أن يتبنّى رئيس الدولة رأياً من هذه الآراء فيصبح قانوناً، والعقول تختلف وتتصارع ولابد من محكّم يرجّح وهو رئيس الدولة، فيتبنّى رأياً معيناً فيصبح قانوناً ملزماً سواءً في السياسة الداخلية أو الخارجية، وخلاف ذلك وهم وتنظير يوقع الأمة والشعوب والدولة بارتباك وضعف وتمرد وعصيان وثورات تؤدي إلى انحطاطها وزوالها.

ـ إن نظام الحكم الفردي هو النظام الوحيد الذي حكم العالم منذ خلق الله هذه الخليقة، وإنَّ هذا ليس استبداداً بل هو شيء طبيعي، وهو سنة الحكم للناس والمجتمعات مسلمين أو غير مسلمين. والديمقراطية الغربية أكذوبة كبرى ووهم ليس له واقع إلا في خيالات المنظّرين الذين عاشوا في برج عاجي على فتات الفلسفة اليونانية التي انقرضت لأنها خلاف الواقع.

والحمد لله رب العالمين

25/ 4/ 2003م

الشورى والديمقراطية بين الملائكية والواقع البشري
رد على الأستاذ شوقي بغدادي

على أثر حضور الأستاذ الموقر شوقي بغدادي ندوة (كاتب وموقف) التي أدارها الأستاذ الحلبي وحاضر بها الأستاذ جودت سعيد والدكتورة فريال المهنا وعنوانها (الشورى والديمقراطية)، كتب في جريدتكم الغراء تشرين بالعدد رقم 9372 تاريخ 3/ 10/ 2005م طالباً من أي مهتم أن يجيبه على أسئلة صعبة راودته أثناء وبعد هذه الندوة (وهي: لماذا لم تتحقق الديمقراطية إلا زمناً قصيراً.. أين الخطأ؟ هل هو في تطبيق الأديان أم في طبيعة الإنسان كمخلوق غير قابل للصلاح إلا في حدود ضيقة وكيف نفهم الحكم الإلهية وراء كل هذا؟.

سأحاول على قدر ضعفي وبساطتي أن أحاور الأستاذ بغدادي لعلي أساهم في حل هذه العقدة المستعصية كما يرى سعادته.

ـ أرى أن الدكتورة فريال والأستاذ جودت من خلال طريقة طرحهما للشورى والديمقراطية قد ساهما في تضخيم المشكلة للأسباب التالية:

فهمت الدكتورة فريال أن (الشورى ليست أكثر من مهمة استشارية يقوم بها الحاكم المسلم للاستئناس بآراء بعض الحكماء من دون أن تكون ملزمة له) النص، هذا الرأي ليس بصحيح لا من حيث فهم النصوص الشرعية سواء كانت من كتاب الله أو سنة رسول الله (ص) ولا من حيث الواقع، وإن فعله عليه الصلاة والسلام يدل على خلاف ذلك بدلالة الوقائع التالية:

1 ـ في صلح الحديبية رفض الرسول (ص) كل الآراء التي طلبت منه دخول مكة وأداء العمرة وأصر على توقيع الصلح والعودة إلى المدينة المنورة، وقال للجميع (هذا عن أمر ربي) أي وحيٌ، وبالأساس لم يشاور الرسول (ص) أصحابه ولم يطلب منهم الرأي لأنه (ص) حقق أهدافه في اعتراف العرب به كدولة وقوة يحسب لها حساب، فكان هدفه التظاهر وليس الحرب ولا دخول مكة، وهذا ما حصل، ولذلك لم تحصل لا شورى ولا

مشاورة ولا استئناس بالرأي، بل هناك أمر يجب طاعته وهو الوحي، بل على مجلس الشورى أن يفكر فقط في أفضل السبل وأحسنها لتنفيذ النص الشرعي. وكل ما من شأنه ذلك يقع تحت وعاء الشورى.

2 ـ يوم بدر بدّل الرسول (ص) مكان نزوله إلى مكان آخر عند ماء بدر نزولاً على رأي الحباب بن المنذر، عندما سأله الحباب (أمنزل أنزلك الله إياه أم الرأي والحرب والمكيدة) فقال عليه الصلاة والسلام، بل الرأي والحرب والمكيدة، يفهم من ذلك أن الرأي هنا للخبير المجرب والعالم المتخصص وليس لولي الأمر أو للأكثرية المطلقة أو النسبية.

3 ـ قوله عليه الصلاة والسلام لأبي بكر وعمر (إذا اتفقتما في مشورة ما خالفتكما) وهذا يدل على أن هناك أموراً ليست من الوحي أو من الموضوع الفني الذي يحتاج إلى نظرة متخصصين، إنما يكون في المباحات والمندوبات والواجبات المطلوبة شرعاً كما هو في (الصحة، التعليم، الدفاع..) أيهما أفضل مثلاً بناء المستشفيات الكبيرة أم الصغيرة، الطرق السريعة أم القطارات توقيع معاهدة حسن جوار أم عدمه.. إلخ فهنا الشورى فيها ملزمة للحاكم ولأجهزة الحكم لاشك في ذلك، لأنها من باب القيام بفعل أو عدم القيام به من دون رأي فني اختصاصي، كما حصل مع الرسول (ص) يوم أحد عندما ألزم نفسه والأقلية برأي الأكثرية وخرج ليلاقي العدو خارج المدينة. وهذا الموضوع يحتاج إلى شرح واستفاضة لا مكان لها في مقالة، ولكن ذكرنا ذلك على سبيل المثال.

ولمعلومية الدكتورة فريال، إن جميع الديمقراطيات الغربية بما فيها الولايات المتحدة لا تخرج من حيث التطبيق العملي عن الطريق الذي رسمه الإسلام للشورى.

ـ الرئيس الأمريكي هو القائد العام للجيش والقوات المسلحة وهو الذي يقود السياسة الخارجية للدولة، وهو الذي يعرض مشروعات القوانين على الكونغرس لتحوز على الأكثرية على شرط أن تكون هذه القوانين لا تمس الدولة وقوانينها، فهو مسؤول عن تنفيذ الدستور وحراستِهِ، وهو الذي إن شاء عين من يرى مصلحة الدولة في ذلك ولا يعرض القانون أو التعيين على الكونغرس إذا وجد أن هناك أغلبية ضده لا تفهم مصالح الولايات

المتحدة وليس ببعيد ما حدث منذ شهرين عندما عين الرئيس بوش السيد (بروتون) منـدوباً دائماً للأمم المتحدة وبدون عرضه على الكونجرس، فللرئيس حق تقريـر مـصلحة الولايـات المتحدة العليا، وإذا وجد خلاف ذلك يستعمل حق النقض ضد قرارات الكونجرس الحـائزة على الأغلبية، ولم تسعف الأكثرية الديمقراطية ومعها بعض الجمهوريين بإلزام الرئيس لوضع جدول زمني للانسحاب من العراق كما يحدث الآن في الكـونجرس، وهـذا حـدث كثـيراً في تاريخ الولايات المتحدة. والرئيس يشاور مجلـس الأمـن القـومي واجهـة الحكـام الحقيقيـين للبلاد، ويستمع إلى آرائهم على سبيل الاسـتئناس ويلـزم الجميـع بـما يجـدُهُ الأصـلح للأمـة. فالحكم في الولايات المتحدة فردي وليس دكتاتورياً، حيـث القـرار النهـائي يكـون للـرئيس، وكافة الوزراء تعمل سكرتاريا فقط، فوزير الدفاع كغيره من الوزراء لقبه في اللغة الإنجليزيـة Secretary of defense وليس Minister/ وزير. أذكر الأستاذ جـودت سـعيد بـأن الحريـات ليست وليدة الديمقراطية، بل إن حرية الشعب والأمة في انتخـاب الحـاكم شرعهـا الإسـلام ومارسها في برلمان (سقيفة بني ساعدة) لأول مرة في التاريخ البشري بشكل حقيقي جرى فيـه النقاش والمداولة واحتدم الموقف حتى وصل إلى الاتهامات بـين كبـار الـصحابة رضـوان الله عليهم بما فيهم مهاجرون وأنصار إلى أن تمت بيعة الانعقاد لأبي بكـر الـصديق رضي الله عنـه، ومن ثم تمت البيعة العامة عن رضا واختيار في مسجد الرسول (ص) وهذا يـدل عـلى جـواز الاختلاف والمنافسة على الحكم وعلى رئاسة الدولة.

لقد مرت حياة معاوية نسأل الله له المغفرة كأول مغتصب للسلطة في أربعِ مراحل:

1 ـ والٍ شرعي لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

2 ـ باغٍ وثائر على الدولة عندما رفع السلاح بوجه الخليفة.

3 ـ سلطان متغلب بعد وفاة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

4 ـ خليفة شرعي للمسلمين بعد عام الجماعة وبعد أن تمت البيعة له من أهل الحل والعقد ثم الأمة.

ثم عاد وانتكس واغتصب السلطة في حياته لابنه يزيد غفر الله له، ولكن معاوية لم يقمع الأمة، بل قمع كل من حمل السلاح، وقوله المشهور عندما طلب إليه بعض حاشيته

أن يستعمل القوة ضد من ينتقده (لا حرج عليهم طالما أنهم لم يحملوا علينا السلاح، فهم يقولون ما يريدون ونحن نفعل ما نريد) وكان معاوية يشتم أمام الملأ ولا يرد على شاتميه.

ولقد استمر هذا الواقع في العصر الأموي والعباسي والعثماني وفي كل عصور المسلمين، لم تقمع الأمة ولم يمارس عليها الاستبداد لآراء تعارض السلطة، فالقاضي يحكم بما يفهم، والعالم يدرس بالمسجد بما هو مقتنع، باستثناء عهد الخليفة المأمون عندما تحمس للمعتزلة لهوى سياسي عنده، ومن ثم أتى خلفاء بعده انحازوا ضد المعتزلة لأسباب سياسية أخرى ليس هنا مجال بحثها. وبعد ذلك استمر العلماء يدرسون ويبثون أفكارهم كل حسب قناعته وما يرى أن غلبة ظنه أنه صحيح، فكان في المسجد الواحد في بغداد منبر للمعتزلة ومنبر للأشاعرة ومنبر للقدرية، وبعد ذلك واظبت منابر السلفية والصوفية على بث أفكارها في هذه الصور جميعاً. أريد أن أقول للأستاذ الكريم شوقي: إنَّ البشر خلقوا وخلقت معهم أشد الغرائز آثاراً وهي غريزة (حب البقاء) وهذه الغريزة اتفق عليها المفكرون مسلمهم وكافرهم. وأحد مظاهر هذه الغريزة الحساسة (حب السيادة والسيطرة) ونحن البشر كائنات عضوية اجتماعية ـ ولسنا ملائكة نسبح ونقدس ولا نعصي الله، لأننا نجمع نقيضين (العقل ـ الغرائز) ولابد من أن تغلب بعض البشر غرائزهم على قيمهم لأنهم ليسوا أجساداً نورانية، بل يعيش البشر في صراع بين (القيم والعقل والعاطفة والمشاعر والغرائز) إن أهل الديمقراطيات الغربية لم يكونوا في يوم من الأيام أفضل منا فهم يتمتعون بالمواصفات التي خلقنا الله جميعاً عليها، فهم مثلنا فيهم البر والفاجر والأصيل والحقير، ولكنهم مارسوا فعلياً طاعة القانون لأنهم اقتنعوا بأن هذا القانون ينصفهم وأنهم هم الذين اختاروه، وهم الذين اختاروا حكامهم وهم الذين يستطيعون أن يعزلوهم إذا لم يحسنوا القيادة. ولكنهم يعودون إلى بشريتهم بسرعة إذا ضعفت سيطرة القانون، والشواهد على ذلك كثيرة فعندما انقطعت الكهرباء في نيويورك منذ أعوام لمدة خمسِ دقائق. ارتكب المواطنون الديمقراطيون الشرفاء ملايين السرقات حتى إنهم سرقوا وكنسوا محتويات (السوبر ماركات) عن بكرة أبيها، وصور الكاميرات الشغالة على المولدات الإضافية أبرزت شيوخاً وكهولاً ذكوراً وإناثاً أطفالاً وشباباً يسرقون كل شيء، وإن أحداث مدينة

(نيو أورليانز) ليست بعيدة عنا، حيث هبطت قيم هذا المجتمع إلى الحضيض، فانتشرت عصابات القتل والسرقة والتدمير حتى إنَّ رجال شرطة اشتركوا بها، ومورس اغتصاب النساء تحت هذا الجو المحزن في الأقبية والمحلات والطرقات. أين قيم الغرب ومثاليته وديمقراطيته يا أستاذي الكريم عندما ضعفت هيبة القانون وسطوته.

أما إذا أردنا أن نتكلم عن قمة الهرم السياسي في الولايات المتحدة فحدث ولا حرج، حيث اغتيل من يسمُّونَه محرر العبيد الرئيس (لنكولن) وقتل الرئيس (كينيدي) وقتل (57) شخصاً للتستر على مقتله، وكتبت ملايين الصفحات وامتلأت الخزائن بالتحقيقات وتم قفل الجريمة ولم يصلوا إلى المحرض والقاتل الحقيقي. أما إذا تحدثنا عن الجرائم السياسية التي ارتكبت في الاتحاد السوفييتي أيام ستالين وغيره من الرفاق الأبرار فحدث ولا حرج، هذا في العهود القريبة أما ما جرى بين المستوطنين في الولايات المتحدة من ذبح وحرق وإبادة بين بعضهم وحروب أهلية وفظائع يندى لها الجبين، وما جرى بين الإنجليز والاسكتلنديين والأيرلنديين فلا يتحمله مخلوق، حيث لا يجوز لأسكتلنديّ أن يتزوج من يحب قبل أن يضاجعها سيِّدُهُ اللورد الإنجليزي فتكسب بذلك هذا الفخر العظيم. يا أستاذ شوقي كل الحكومات الغربية قديمها وحديثها حكومات مستبدة من أيام الملوك الوارثين إلى الرؤساء الذين أوصلهم للسلطة أهل الفعاليات الاقتصادية في نيويورك ولندن وباريس هؤلاء هم الحكام الحقيقيون، فأين الديمقراطية التي يدعونها، حيث إنَّ الحكم ما زال بيد (الأرستقراطيين) الجدد الذين يصنعون الرئيس، حيث جعلوا المواطن حرّاً في أن يختار من اختاره له أصحاب الشركات الاحتكارية الذين يملكون الصناعات الثقيلة والنفطية والعسكرية وشركات التأمين والمصارف.

يا أخي العزيز: الديمقراطية لم تطبق قط على هذه البسيطة كما ذكرها الحالم الفيلسوف (أفلاطون) وانتقل الاستبداد في الغرب من الاستبداد الذي يستعمل القوة والبطش إلى الاستبداد الذكي الخبيث، وأنا أسميه (الرق المهذب) حيث استرقَّ الرأسماليون أصحاب القرار الحقيقي شعوبهم وجعلوهم ينفذون رغبتهم وبإرادتهم، حيث صنّعوا أفكارهم ليكونوا خدماً لهم ولمصالحهم، ولكنهم خدم محترمون أنيقون، بعد أن أمنوا لهم رفاهيتهم،

فالأمريكي العادي لا يملك بنساً واحداً، بل هو دائماً مدين للشركات الاحتكارية ولكنه يعيش ككائن بشري أمن له راعيه كل حاجاته الضرورية والكمالية، فالشعوب في العالم الغربي جميعها مملوكة للرأسماليين الحكام الحقيقيّن.

للحقيقة المنصفة أضيف: بأنه بفضل حرية العمل السياسي والإعلامي في الغرب، هذه الحرية جعلت جميع الحكام وأصحاب المصالح يراقبون بعضهم البعض باسم الشعوب، ويكفيهم فخراً بأن من يقع ويكشف حاله فلا مجير له أمام القانون والدستور. فيجري عليه تطبيق النظام، وهذه ميزة عظيمة، فإن كان (كلينتون) قد خالف القانون وأقام علاقات جنسية في البيت الأبيض مع (مونيكا) وحنث باليمين تحت القسم وإن كان له (14) صاحبة لكنه خضع لتحقيق يحق للغرب أن يفتخر به لأن هذه الرقابة والمحاسبة تجعل من يريد أن يخالف القانون مراقباً وتحت المجهر، فإن قبض عليه متلبساً ليس له شفيع وهذا يجعله لا يعيد الكرة مرة أخرى، وهذا هو الفرق الكبير بين أوضاعنا وأوضاعهم، حيث أوضاع العرب والمسلمين تجعل ارتكاب مخالفة القانون مفخرة (شطارة) كما يقولون لأنه لا يخشى رقابة المجالس التشريعية أو التنفيذية أو القضائية ولا يخشى أن تكشف الصحافة الحرة عورته وتظهره على حقيقته ولا يخشى حزباً معارضاً يسحقه في انتخابات حقيقية ويحاسبه على كل تقصير أو إساءة استعمال السلطة، فلا مدعوم في النظام الغربي إذا ألقي عليه القبض متلبساً. ولقد سبق الجميع بذلك الإسلام، عندما قال (ص) منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام (ويم الله لو أن فاطمة سرقت لقطع محمد يدها).

آمل يا أستاذ شوقي أن أكون قد ساهمت في إضافة متواضعة على ما يجول في فكرك.

دمشق 4/ 10/ 2005

رد على مقالة هل الإسلام دين ودولة

ـ هناك خطأ شائع يردده غالب المسلمين الحركيّين بكافة أطيانهم، هو (الإسلام دين ودولة)، وهذا كان رد فعل من قبل هذه الحركات على الشعار الذي طرحه العلمانيون من أبناء المسلمين، عندما نادوا (بفصل الدين عن الدولة) عقب انهيار الخلافة العثمانية في استانبول. معتبرين أن الحكم الديني في علاقات الدولة والمجتمع هو الذي أدى إلى انحطاط المسلمين، وأنَّ أوروبا عندما فصلت الدين عن الدولة نهضت من سباتها، فكان لابد للمسلمين أن يحذوا حذوها إذا أرادوا النهوض من كبوتهم.

ـ الحقيقة أن الإسلام (دين منه الدولة) وليس (دين ودولة) لأن نظام الدولة هو مجموعة أحكام شرعية منبثقة عن هذا الدين، فهي جزء منه. فالإسلام يشمل عقائد وأحكاماً شرعية على اعتبار أن الإسلام نظم ثلاث علاقات للإنسان، علاقة ما قبل الحياة الدنيا (الله)، والحياة الدنيا (المجتمع)، وما بعد الحياة الدنيا (الدار الآخرة).

ـ إن علاقتي ما قبل الحياة الدنيا وما بعدها، هي مجموعة العقائد عن الكون والإنسان والحياة، وليس لها علاقة في تنظيم المجتمع، بينما الحياة الدنيا التي نظمها الإسلام، تشمل مجموعة الأحكام الشرعية التي تنظم علاقة الإنسان بنفسه وهي المطعومات والملبوسات والأخلاق. وعلاقة الإنسان بالآخرين (المجتمع وتشمل العقوبات والمعاملات سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع...) وهو ما اصطلح على تسميته بالقوانين المدنية، وعلاقة الإنسان بربه وتشمل العقائد والعبادات.

ـ إذن، لا يوجد في الإسلام مفهوم الدولة الدينية التي تجعل الحاكم ظلاً لله سبحانه وتعالى على الأرض، كما هو حال الدولة الدينية في أوروبا أثناء تسلط الكنيسة على الشعوب الأوروبية عندما صادرت حق الشعوب في تنصيب حكّامٍ لهم، وحصرت هذا الحق في مجمعاتها (المسكونية) وكان ذلك سبباً حقيقياً في انحطاط هذه الشعوب كون المسيحية لم تعالج أمور الحياة الدنيا، (أعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله). إن الحاكم بموجب مفاهيم الإسلام تنتخبه الشعوب بكل حرية واختيار وتبايعه على كتاب الله وسنة نبيه، وإذا أخل بهذين الشرطين خلعته الأمة وانتخبت حاكماً آخر يوفي بهذين الشرطين،

وقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه عند بيعته لا يجعل مجالاً للشك، عندما قال: (أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم).

ـ أما ما ذكره الأستاذ الغادري بأن الدولة الدينية لم تقم إلا في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فإن هذا الكلام ليس صحيحاً وليس دقيقاً، لأن الدولة الدينية لم تقم لا في حياة الرسول ولا بعد وفاته، فهي بالأساس ليست موجودة ولم يشرعها الإسلام، وإن دولة الإسلام كانت دولة مدنية في عهد الرسول وبعده وحتى سقوط آخر خليفة في استانبول عام 1923م، وسبب الالتباس عند الأستاذ الغادري وغيره من المسلمين أنهم لم يدركوا أن للرسول عليه الصلاة والسلام شخصية النبي والرسول والحاكم والقاضي والسياسي ورجل الدولة، وبوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام انتهت مرحلة الوحي فلا نبوة ولا رسالة بعده، أي لا عقائد ولا أحكام شرعية سواء للفرد أو للدولة أو للمجتمع، واستمرت في خلفائه شخصية الحاكم والقاضي والسياسي ورجل الدولة، حيث يجوز في حق هؤلاء الحكام الصواب والخطأ بالاجتهاد والفهم والإدراك، كما يجوز في حقهم التقوى والهوى لأنهم بشر وليسوا معصومين، حيث المفترض أنهم مطيعون لأحكام الشرع وليسوا مبلِّغين عن ربهم كما هو فعل الأنبياء والرسل ومنهم المعصوم الرسول عليه الصلاة والسلام.

ـ فلقد حكم المسلمين في عصور الدولة الإسلامية خلفاء أمويّون وعبّاسيون وعثمانيون، منهم الصالحون ومنهم الطالحون، لكن أحداً منهم لم يدَّعِ أو يجاهر بأنه حكم بغير ما أنزل الله، فإن أحسنوا في تطبيق الشرع فقدوتهم في ذلك الخلفاء الراشدون، وإن لم يحسنوا فإن ذلك حدث مع حكام كثيرين في العصور السابقة واللاحقة والحالية في دول لا ينكر الأستاذ الغادري بأنها دول متقدمة في القرن العشرين.

ـ إن لا أحد يستطيع أن يحتج بأن الديمقراطية غير موجودة في بريطانيا لأن ملكة بريطانيا هي من أكبر أثرياء العالم من غير جهد بذلته سوى أنها من سلالة عائلة مالكة، ولا أحد يطلب بشكل جدي إزالة الملكية من بريطانيا بسبب مخازي العائلة المالكة، من أيام الملك هنري الثامن وحتى الأميرة مارجريت والأميرة آنا ابنة الملكة، وأولادها تشارلز

وادوارد وزوجاتهم ديانا وسارة جفرسون، والأمثلة على ذلك كثيرة، باعتبار أن هذا سلوك شخصي، ومخازي وزراء بريطانيّين أشد وأعتى من شذوذ في الحدائق والمراحيض العامة.

ـ أما النظام الديمقراطي في الولايات المتحدة فمخازيه أشد وأعتى ـ وهي لا تعد ولا تحصى منذ أيام جورج واشنطن وحتى أيام بوش الثاني، وكلها تؤكد على عدم وجود ديمقراطية حقيقية بل سيطرة مطلقة لرأس المال وأصحاب النفوذ، من اغتيال أبراهام لينكولن إلى مقتل كينيدي وفضائح نكسون، إلى قصة مونيكا مع كلينتون إلى فضيحة أسلحة الدمار الشامل في العراق في عهد الرئيس بوش الابن.

ـ أنا لا أدري لماذا يعتبر الأستاذ الغادري أن الإسلام انتهى كدولة أسماها (دينية) مع وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام وبقي الإسلام كدولة (مدنية) حتى عهد الأمويين والعباسيين والعثمانيين، كأن الإسلام دولة دينية لاهوتية، وإن الرسول هو خليفة الله على تطبيق التشريع، وبوفاته أصبح الإسلام دولة مدنية لأن ممارسات حكام المسلمين تحتمل الخطأ والصواب. وهل هناك حكام في الدنيا حكموا بلا أخطاء وبلا مصائب وبلا شهوات ونزوات، فإن هؤلاء الحكام ليسوا موجودين لا عند المسلمين ولا عند غيرهم، فالملائكة هم الذين لا يخطئون لأنهم مخلوقات نورانية غير عاقلة وبدون شهوات، وهؤلاء في السماء وليسوا على الأرض.

ـ في الحياة الدنيا يوجد حكام مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، وأبو العباس وهارون الرشيد. ومحمد الفاتح ومحمود الثاني، وجورج واشنطن، وكلينتون، وتشرشل، وبلير، وكل منهم قد يخطىء وقد يصيب، وقد يحترم الدستور و يخترقه، وقد يصل إلى السلطة بالانتخاب أو بالاغتصاب.

ـ وإن أحداً لا يستطيع أن يدّعي أن ستالين وبريجينيف لم يطبقا الماركسية، وإن كانت صنابير بيوتهم من الذهب الخالص، وإن وصلوا للسلطة بطريق الإرهاب، فإن لم يطبقا الماركسية في علاقات الدولة والمجتمع، فما هو النظام الذي طبق في الاتحاد السوفييتي؟

ـ وكذلك حال حكام المسلمين في عصورهم الثلاثة، فمنهم من أحسن التطبيق ومنهم من أساء، فمن أحسن نسأل الله له الأجر، ومن أساء نسأل الله له المغفرة.

بناءً على ما تقدم أقول: بأن الدولة الإسلامية دولة مدنية وليسَتْ دينية كون مصادر التشريع فيها وحياً عن الله سبحانه وتعالى، فالحكام والعلماء والفقهاء يجتهدون في مصادر التشريع لحل مشاكل الدولة والمجتمع بآراء مختلفة ومتعارضة، بل أحياناً متناقضة، والحاكم في الدولة الإسلامية يتبنى أحكاماً من هذا الفهم البشري لتصبح قوانين واجبة التطبيق، ليست على اعتبارها أحكاماً منزلة نصاً من الله سبحانه وتعالى بل على اعتبارها أحكاماً فهمها العقل البشري المؤهل من مصادر التشريع وتبناها الحاكم فأصبحت ملزمة للناس، بينما الدولة الدينية كما عرفتها أوروبا، كان فيها رجال الدين هم الذين يشرعون عن الله سبحانه وتعالى من غير شريعة، فأصبحت صلاحياتهم مطلقة كونهم يمثلون الحق الإلهي في الأرض وينوبون عنه بالتشريع والتنفيذ بالاتفاق مع ملوك رضوا أن يستغلوا الكنيسة ضد الشعوب ليحكموها باسم الله سبحانه وتعالى، فكان الله منـدمجاً في الكاهن والملك وهذا سبب تخلف الأوروبيّين في ذلك الوقت، حيث حكموا أوروبا باسم الكنيسة، والكنيسة حكمت باسم الله، والله لم يشرع نصوصاً لحل المشاكل المدنية للناس. ومن هنا جاء مصطلح الدولة الدينية وتداوله مفكرونا من غير ربط بالواقع الأوروبي والكنسي الذي أفرزه، فقاسوه على الإسلام على خلاف القياس، كون الإسلام لا يقر بمبدأ الكهنوت ورجال الدين ونظرية الحق الإلهي الكنسية.

إن عدم وعي الأستاذ نهاد الغادري وعدم إدراكه التشريعي والقانوني والسياسي، وثقافته الغربية واعتماده على روايات التاريخ المكذوبة والمنحولة هو الذي أوقعه في وهم عدم التفريق بين الدول الدينية والدولة المدنية.

12/ 4/ 2004م

رداً على السيد بريجنسكي

قناة الجزيرة الفضائية/ برنامج من واشنطن

السيد حافظ الميرازي المحترم

سعادة السيد بريجنسكي مستشار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي المحترم

لقد كنت أحد المشاهدين للبرنامج الذي شاركتم به على قناة الجزيرة مساء الاثنين في 13/ 11/ 2006م مع السيد حافظ الميرازي (من واشنطن)، ولقد حفَّز السيد ميرازي المشاهدين للرد بناء على رغبتكم، وإني أسجل على مقابلتكم ما يلي:

ـ تعلمون علم اليقين بأن الذي يحكم الولايات المتحدة منذ الاستقلال هم أهل الفعاليات الاقتصادية، سواء أكانوا تحت مسمى جمهوري أم ديمقراطي، وهم الذين يصنِّعون الرئيس الأمريكي كمتعاقد معهم لتنفيذ منهاج سياسي واقتصادي واجتماعي محدد، ولا يستطيع الرئيس أن يخرج عن هذا الاتفاق، وإلا كانت نهايته كنهاية كندي ونيكسون وبوش الأول، وأنت تعرف أسباب إقصائهم حيث ليس مجال ذكرها الآن. وليست هي موضوع بحثنا.

ـ إن أمثال سعادتكم من المستشارين في البيت الأبيض (ماكغفرن، كيسنجر، كوندوليزارايس، كولين باول...) لا تستطيعون الخروج عن الخط السياسي العام الذي أصبح من أجله الرئيس رئيساً، والذي لا يعلمه بدقة إلا من أتى به، وهم صنَّاع الرئيس المالكون الحقيقيون للقرار السياسي في الولايات المتحدة. وأنتم موظفون مهمتكم إعطاء الآراء والدراسات للرئيس وهو الذي يختار منها ما يوافق خط (اللوبيات) التي مكنته من السلطة.

سعادة السيد بريجنسكي، بناء على ما تقدم أقول بصراحة بأنك لم تكن شفافاً في هذه المقابلة عندما حمَّلت بوش وإدارته مسؤولية تردّي أوضاع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وإنَّ نهاية الولايات المتحدة في الشرق الأوسط ستكون كنهاية الوجود البريطاني والفرنسي بعد حرب السويس عام 1956م، ولم تجاوب السيد ميرازي عن القوة التي تستطيع أن تملأ هذا الفراغ في حال خروج الولايات المتحدة أو طردها كما طرد البريطانيون والفرنسيون. وكانت نصائحك لحكام المنطقة عامة رداً على سؤال السيد

ميرازي، هو أن تكون أفعالهم وليس أقوالهم المقررة لأوضاع المنطقة بخصوص النزاع العربي الإسرائيلي للوصول إلى استقرار في المنطقة.

إن وجهة نظري هي أن سياسة إدارة الرئيس كارتر بين 1977 ـ 1981م وأنت كنت فيها مستشاراً لشؤون الأمن القومي هي التي جعلت إدارة الرئيس بوش تتخبط في أوضاع سياسية ومستنقعات آسنة ليست من صنعها بل من صنعكم. والدلالات على ذلك ما يلي:

ـ لقد كان سعادتكم مستشاراً للأمن القومي عام 1978م للرئيس كارتر، وفي عهدكم الميمون منذ بدايات عام 1978م بدأت الثورة الإسلامية في إيران ووصل السيد الخميني إلى مطار طهران في 1 / فبراير/ 1979م، واستقبله 6 مليون إنسان وعلى رأسهم القائد الأعلى للقوات المسلحة الجنرال (قرباغي)، مع ثلة من جنرالات الشاه السابقين اللذين طلب منهم جنرالكم (هويزر) قائد قواتكم في ألمانيا، الوقوف على الحياد، وترك الصراع بين الشعب والشاه، وهذا وحده كافٍ لسقوط النظام، وهذا ثابت في مذكرات الجنرال (هويزر) واعترافات أبي الحسن بني صدر أول رئيس للجمهورية الإسلامية، والشاه نفسه. حيث إدارتكم هي التي سهلت وصول التيار الشيعي الخميني إلى السلطة ودعمته للاستئثار بالسلطة أيضاً.

ـ لا أشك يا مستر بريجنسكي بأن سلوككم السياسي هذا اتجاه الثورة الإسلامية الإيرانية هو الذي ولدَّ كل مشاكل المنطقة الحالية. لأنك كباحث ومستشار للأمن القومي، يجب أن تعرف عقائد وأفكار من يستلمون السلطة، فالإمامية الشيعية (الاثني عشرية) تقوم على أن من سموا (بأهل السنة) هم الذين اغتصبوا الحكم من آل البيت، وأنَّ الواجب الديني ردع الغاصب وقمعه وإعادة المغصوب، ورد الحكم إلى آل بيت الرسول (ص) ومناصريهم، وهذا وحده يكفي ليكون قاعدة لما أسمته كوندوليزا رايس (سياسة الفوضى البناءة) التي اضطرت إليها الإدارة الأمريكية في عهد بوش الابن لبناء شرق أوسط كبير أو أوسع على أساسها، وأنت يا صاحب السعادة وضعت أسس هذه الفوضى، عندما أيدت استلام الشيعة السياسية للحكم في طهران، وليس لك عذر في أنك

تجهل وجود أكثرية شيعية في العراقِ ولبنان وشيعة الهزارة في أفغانستان وباكستان، وأثر الشيعة السياسي على المنطقة، وأن غالبية الشرق الأوسط الواسع هي غالبية سنية، فكان من الطبيعي أن تحدث الفوضى التصادمية في هذه المنطقة التي وُضع في مستنقعها الرئيس بوش، وكنت أنت وكارتر في ذلك مشمولون بقول الشاعر العربي:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

ـ إن ما أسماه المتابعون لآرائكم السياسية (هلال بريجنسكي) في كتابكم ـ لعبة الشطرنج الكبرى ـ الصادر عام 1997م، وكتابكم ـ الاختيار ـ الصادر حديثاً للبلاد الممتدة من جنوب شرق آسيا مروراً بآسيا الوسطى إلى تركيا، والذي وصفتموه بأنه الهلال الإسلامي، هذا الهلال الغير مستقر والرخو الذي يعيش في حالة قلقة، قد ضمَّه الرئيس بوش ورايس إلى الشرق الأوسط القديم، وأسماه الشرق الأوسط الواسع، من أندونيسيا إلى طنجة، هذه المنطقة التي ستكون مجالاً (لسياسة الفوضى البناءة ـ الهدامة ـ) كما وصفتها رايس بقولها على أثر هجوم إسرائيل على لبنان (لقد بدأت الولادة وإنَّ على أهل المنطقة تحمل آلام المخاض).

هذا الشرق الأوسط الواسع الذي صرح عنه بوش مرتين، في العام الماضي قال: (إن هناك من الأصوليين من يعمل لقيام إمبراطورية إسلامية من أندونيسيا إلى مدريد)، ثم عاد وصرح منذ أسبوعين بقوله: (إن خروجنا من العراق يعني قيام إمبراطورية إسلامية من أندونيسيا إلى مدريد).

ما هو تفسير إصرار الرئيس بوش على ذكر (مدريد) إنه يصر على ذلك حتى يخيف أوروبا من الإسلام، لأن كلمة احتلال (مدريد) تعني امتداد الإمبراطورية الإسلامية على رأي السيد بوش إلى أوروبا، وهذا هو الشبح المخيف الذي يستعمله بوش ضد الاتحاد الأوروبي بعد أن فكك الأوروبيون بقيادة (تاتشر، ميتران، كول وبتواطؤ مع يلستين) الاتحاد السوفييتي بدون رغبة الولايات المتحدة، التي كانت تسعى مع جورباتشوف لإنهاء الماركسية وليس لتفكيك الاتحاد السوفييتي، فهي ترغب باتحاد سوفييتي غير ماركسي موحَّد وقوي وينسق معها، ليستمر بالضغط على أوروبا لتحتمي بالولايات المتحدة،

وهذا كان سبباً كافياً لإسقاط بوش الأول لفشله في المحافظة على الاتحاد السوفييتي، ولسحب الدعم له من قبل الجمهوريين والديمقراطيين، حيث تواطؤوا مع الملياردير (روس) ليرشح نفسه ضد بوش الأول ويأخذ من أصواته، فسقط ونجح المرشح كلينتون الذي اتفق الجمهوريون والديمقراطيون على نجاحه، كما اتفقوا على نجاح بوش الثاني ضد المسكين (آل غور) الذي ذهب ضحية المستشارين والمتنفذين الذين أرغموه على وضع السناتور اليهودي (ليبرمان) على قائمته نائباً للرئيس، وهذا وحده كاف ليسقطه وليخسر الكثير من أصوات المتدينين الإنجيليين الداعمين الأساسيين للجمهوريين، والذين محال عليهم قبول يهودي رئيساً للجمهورية في حال فراغ منصب الرئيس لأي سبب. ومع ذلك لم ينجح بوش الثاني إلا بأغلبية 705 أصوات بعد الفرز اليدوي عن ولاية فلوريدا وبقرار من المحكمة الدستورية العليا التي لا تخرج أيضاً عن رغبات المتنفذين.

وبعد ذلك يا صاحب السعادة أؤكد على: أن مقابلتك المذكورة لم تكن صريحة وأنَّكَ تعرف الكثير عما يجري وجرى بالشرق الأوسط وأنَّكَ كنت متسبّباً رئيسيّاً في ما وصل إليه الشرق الأوسط الآن. لأنك أنت الذي أعطيت النصح للرئيس كارتر كمستشار للأمن القومي لدعم المجاهدين المسلمين وتسهيل وصولهم إلى أفغانستان عن طريق باكستان، بل وتدريبهم والإنفاق عليهم وتزويدهم بالعتاد للوقوف في وجه الاتحاد السوفييتي والضغط عليه للانسحاب من أفغانستان، حتى يطرد المسلمون السوفييت من أفغانستان بدمائهم محافظة منكم على أرواح مواطنيكم، وهذا الذي أدى إلى الحروب التي تسمّونَها الآن حروب الإرهاب، علماً أن إدارتكم في عهد الرئيس كارتر هي التي خطَّطتها ودعمتها، فأنتم إذن المسؤول الأكبر عن ما يسمى حروب الإرهاب الآن، وأنتم الذين أخرجتم عفريت الإرهاب من قمقمه والرئيس ريغان طوره، وبوش متورط الآن في عدم مقدرته على إعادة هذا العفريت إلى قمقمه بعد أن انتقل إلى العراق وسائر بلاد المسلمين بدرجات متفاوتة من الخطورة.

وفي عهدكم الميمون أيضاً أكملتم المشوار الذي بدأه الرئيس غير المنتخب، الرئيس الصدفة (فورد) في لبنان، عندما دخل الجيش السوري إلى لبنان لضبط الأمن

والأوضاع في البلاد وضبط التوازن الطائفي ودرءاً لنار الفتنة عن سورية حيث أثرتم ودعمتم نار الحرب الطائفية في لبنان من بداية ولايتكم 1977م حتى نهايتها عام 1981م، فكانت الأسلحة تصل إلى كافة الطوائف تحت سمعكم وبصركم، وبتنسيق مع الكيان الصهيوني، خدمة لمخططاتكم، بحجة تحجيم النفوذ الأوربي في لبنان وسائر بلاد الشام. لكن هذا الاجتهاد هو الذي أوصل حزب الله إلى ما عليه الآن، وإن الإدارة الأمريكية غدت غير قادرة على السيطرة على مخططاتها ولله الحمد. وكل ذلك بسبب البدايات التي بدأتموها في عهدكم الكارتري فبيضَّت وفرَّخت، هذه النتائج التي أغرقت الولايات المتحدة في عهد بوش بمستنقعات أنتم المتسببون بها، ولو عدتم إلى الحكم الآن، لا أعتقد أنكم تستطيعون أنت والرئيس كارتر فعل أكثر مما تفعل إدارة الرئيس بوش.

أنت تعرف أن أمريكا ليست جادة في إنهاء النزاع بين العرب واليهود، لأن الشرق الأوسط الواسع من منظور أمريكا، سوف لن تكون فيه إسرائيل كما هي الآن، حتى إنكم توقعتم بأن سياسة المحافظين الجدد في الإدارة الأمريكية ستنهي أمريكا وإسرائيل معاً بالشرق الأوسط، وأيد قولكم رئيس البنك الدولي السابق جيمس وولفنسون عندما حذر منذ أيام فقط، أمام جمع يهودي في شيكاغو (بأن الولايات المتحدة قد تقصي إسرائيل من مركز اهتماماتها في أعقاب التغيرات الحاصلة في الشرق الأوسط) أي إنَّ أمريكا ستستغني عن خدماتها، حيث إسرائيل زاولت منذ تأسيسها حماية خريطة (سايكس بيكو) لصالح الأوروبيين، وأمريكا بسياستِها الجديدة تريد إنهاء هذه الخريطة الأوربية، وإيجاد خريطة جديدة تخدم المطامح الأمريكية، وإلا كيف يمكن تفسير تأييدكم لإسرائيل في قمعها وإرهابها، واستعمالكم حق النقض الذي يحد من طغيانها، وكل يوم جثث الفلسطينيين أطفالاً ونساءً محمولة على الأكتاف، والأقنية الفضائية تبث هذه المناظر التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تساعد على صلح بين اليهود والمسلمين، وتجعل ذلك مستحيلاً، وهل ممكن إيجاد شرق أوسط واسع من خلال

الفوضى البناءة كما تقول كوندوليزارايس، وإنهاء خريطة سايكس بيكو، وإسرائيل تبقى ككيان مستقل وآمن في المنطقة.

بناء على ما تقدم أجِدُ يا صاحب السعادة الفرق ليس كبيراً بينكم وبين الرئيس بوش وإدارته من الناحية الإستراتيجية فكلاكما تعملان لمصلحة الولايات المتحدة. وأنت ومن على رأيك من الديمقراطيين والجمهوريين بعد دعمكم لوصول الشيعة السياسية للسلطة كنتم تحبذون استقرار الشرق الأوسط بموجب نفس الخرائط الذي طرحها بوش ولكن بأسلوب الانقلابات والأعمال الداخلية، وبدون تورط عسكري، فأنتم اللذين ساهمتم في إشعال فتنة المذابح المذهبية والطائفية عندما دعمتم وصول الشيعة السياسية للحكم في إيران، وهذا الذي أدى إلى ظهور حزب الله في لبنان، وأنتم الذين دعمتم ما تسمونَه الإرهاب من خلال دعمكم للجهاد الأفغاني في أفغانستان لإضعاف الاتحاد السوفييتي داخلياً وخارجياً، وإن ما جرى في المنطقة والعالم هو وليد لسياساتكم أيام حكم الرئيس كارتر، من تفكيك للاتحاد السوفييتي وانتشار الإرهاب، وحروب الإرهاب المتضادة وظهور الإسلام السياسي.

فلماذا تتنكرون الآن وكأن سياسة الجمهوريين سياسة مستقلة عن الديمقراطيين، فالجميع يخدمون أهل الفعاليات الاقتصادية أصحاب القرار السياسي في أمريكا، وإن سياسة إدارة بوش تجني ثمار إدارتكم أيام الرئيس كارتر. فكان حالكم معها، كقول المثل العربي (ألقاه في اليم مكتوف اليدين وقال له إياك إياك أن تبتل في الماء). فماذا تستطيع أن تفعل إدارة الرئيس بوش أو أي إدارة أمريكية قادمة حيال المستجدات الدولية التي ساهمت أنت في إحداثها، والصين واليابان والاتحاد الأوربي وروسيا متربصون كل يريد حصته في النظام العالمي المتوقع والذي هو على أبواب الولادة، والولايات المتحدة في أضعف أوضاعها السياسية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945م، والظلم الذي وقع على العالم الإسلامي هو الداء وهو الدواء لإنقاذ العالم.

20/ 11/ 2006م

د. حبش منكر للسنة أم جاهل في علم أصول الفقه

صباح هذا اليوم السبت الموافق 7/ 4/ 2007م نقلت هيئة الإذاعة البريطانية من لندن بعد نشرة الأخبار الصباحية عن مراسلها بدمشق، تقريراً بخصوص عدم موافقة مجلس الشعب في سوريا على طرح اقتراح بتعديل أو إلغاء المادة / 584/ من قانون العقوبات العام، الّتي أعفت من العقوبة من فاجأ زوجه أو أحد أصوله أو فروعه أو أخته في جرم الزنا المشهود.

النص: م /548/ ق.ع عام

1 ـ يستفيد من العذر المحِل من فاجأ زوجه أو أحد أصوله أو فروعه أو أخته في جرم الزنا المشهود، أو في صلاتٍ جنسية فحشاء مع شخص آخر، فأقدم على قتلهما أو إيذائهما، أو على قتل أو إيذاء أحدهما بغير عمد.

2 ـ يستفيد من يرتكب القتل أو الأذى من العذر المخفف إذا فاجأ زوجه أو أحد أصوله أو فروعِهِ أو أخته في حالة مريبة مع آخر.

ولقد علق فضيلة الشيخ الدكتور محمد حبش بصوته المميز على تمرير هذا الاقتراح من قبل مجلس الشعب وعدم طرحه للتصويت في هذه الدورة، بأن قيام الزوج بجرم القتل هو زيادة عما فرضه الله سبحانه وتعالى على الزاني، وهو حد الجلد، ولم يتطرق سعادة الدكتور إلى أن هناك سنة نبوية، وهذه السنة تشريع من الله سبحانه وتعالى مثل القرآن الكريم، تفصّل مجملَه وتقيد مطلقَهُ وتخصص عامه وتفسر مشكله، وهي أصل من أصول الدين عند المسلمين جميعاً، قد أجمعت المذاهب الإسلامية على أنها مصدر من مصادر التشريع الأساسية في الإسلام، وهي الكتاب والسنة والقياس والإجماع، واختلفوا في المصادر الفرعية التبعية، وكل منهم مأجور على خلافهم إن شاء الله، فإما أن فضيلة الدكتور لا يقر بأن السنة أصل من أصول الدين التشريعية وأنها حجة عند المسلمين، وإما أنه لم يطلع من خلال دراسته الطويلة بالفقه وعلم الحديث، عما روي عن الرسول عليه الصلاة والسلام بالحديث الصحيح والسنة المشهورة بأنه رجم ماعزاً رضي الله عنه، كما

رُجمت الغامدية رضي الله عنها، وهذا ثابت عن الرسول عليه الصلاة والسلام وبإجماع الصحابة، بتطبيق حد الزاني رجماً على المتزوج سواء أكان رجلاً أو امرأة، وفي الموضوع تفصيل ليس هو مقصودنا في هذه العجالة.

هذا بالنسبة إلى أن حد القتل ممكن إيقاعه على الزاني أو الزانية المتزوجين بشكل عام إذا ثبت الجرم بشهادة أربعة شهداء أو بالإقرار، ولا أعلم فيما روي من المأثور أن حكم الرجم أو الجلد طبق على زان إلا باعترافه والثبات على هذا الاعتراف نظراً لصعوبة أو استحالة الثبوت بالشهود الأربعة.

ـ إن الموضوع المطروح هو حالة خاصة تقضي بأن يتقلد الزوج صلاحية الحاكم ويقوم بتنفيذ حد القتل نيابة عن الحاكم.

الأصل أنه لا يجوز لأحد أن يغتصب صلاحية الحاكم ويقوم بدور القاضي والمنفذ وهذا معروف من الدين بالضرورة في التشريع الإسلامي. حتى إنَّ الآيات من (6 ـ 10) من سورة النور شرحت هذه الوضعية بوضوح على النحو التالي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾ .

واضح من هذه الآيات بأنه لا يجوز للزوج قتل زوجته أو إيذاؤها ولو وجدها متلبسة بالزنا على فراشه، وعليه أن يأتي بأربعة شهداء، وفي حالة عدم وجود أربعة شهداء فليس أمامه إلا (الملاعنة) كما هي بالآيات السابقة ويفرق الله بينهما إلى الأبد، والحساب والفضيحة عنده في الآخرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه لأن الايات حددت إما أنه هو ملعون إن كان من الكاذبين، أو هي حل عليها غضب وسخط الله إن كان من الصادقين. وإن حديث سعد رضي الله عنه واضح في هذا الخصوص عندما قال للرسول عليه الصلاة والسلام: (إن وجدت زوجتي مع زان على فراشي هل أذهب لأحضر أربعة شهود قال: عليه الصلاة والسلام (نعم).

إذن موضوعنا التي تعالجه المادة / 548/ ليس هو إيقاع حد الزنا في حال ثبوته شرعاً على زان أو زانية بكراً، حتى يكون رد فضيلة الدكتور بأن حد الزاني أو الزانية هو الجلد، بل موضوع المادة، هو حالة مفاجأة رجل بوجود آخر في حالة تزاني مع زوجته أو أحد محارمه من الأصول أو الفروع.

هذا هو الموضوع الذي أطلق عليه القانونيون ومناصرو الحريات الغربية جريمة الشرف، علماً أن التطبيق العملي لهذا الطرح يُثبت أن جرائم الشرف لا علاقة لها بالموضوع الذي طرحه الدكتور حبش، ومن وراءه من الدوائر الغربية، لأن جرائم الشرف هي نوع من جرائم الثأر التي تقوم على التخطيط والملاحقة وعلى سبق الإصرار والترصد والعمد، ولا تقوم على عنصر المفاجأة كما حددها القانون في المادة / 548/ ، هذه المادة اعتبرت أن القاتل قد ارتكب جرماً في إزهاق روح بشرية، لكن المشرع راعى أن هذا الإنسان مرتكب الجرم قد وقع تحت شروط ومؤثرات خارجة عن إرادته، فأصبح حكمه حكم مسلوب الإرادة الذي جن جنوناً مؤقتاً يستوجب رفع القلم والحساب عنه. حيث وجد زوجه أو أحد أصوله أو فروعه في حالة تدع الحليم حيران والعاقل مجنوناً والمريد مسلوب الإرادة. وهذا شيء فطري ليس له علاقة بدينٍ أو نظام، إنه رد فعل ناجم عن فعل مؤثر وليس عن طريق افتراض نظري.

وإن كافة الأديان والعقائد، الإسلامية واليهودية والنصرانية والبوذية والهندوسية جميعها ذمت فعل التزاني، واعتبرته من الفحشاء والمنكر لا يجب أن يشيع بين الناس، إلا أن حالة إلقاء القبض على الزاني متلبساً بالجرم مع زوج أو ذي محرم، اعتبرته كافة الشرائع السماوية والوضعية بأنه امتحان صعب للمفاجَأ لا يحسد عليه، ولا يمكن تصور ما يحدث مع إنسان من رد فعل إذا وقع أمام هذا الابتلاء.

حتى إنَّ القوانين الوضعية والأعراف والتقاليد التي استمدت منها القوانين سواء أكانت المدرسة الفرنسية اللاتينية الرومانية أم المدرسة الأنجلو سكسونية العرفية، جميعها اعتبرت أن مفاجأة الرجل أو المرأة بأحد الأصول أو الفروع بوضعية تزاني على فراش الزوجية أمر إن حصل، فهو في أعلى حد عذر محل من العقوبة أو

مخفف لها حسب واقع حال التزاني ووضعية وصلة القربى، لأن القانون قدر أن هذا المفاجأ هو إنسان عاقل لكنه قد ينشَل عقله مؤقتاً فيدخل في الجنون المؤقت أو سلب للإرادة بشكل مؤقت أيضاً، وهذه هي الحالة التي عالجها استثناءاً حديث الرسول عليه الصلاة والسلام في كتب الفقه الإسلامي تحت فصل (إذا وجد رجلاً يزني بامرأته فقتله فلا قصاص عليه ولا دية)، وهي في رواية هشيم عن مغيرة عن إبراهيم عن سعيد في المغني 10/ 353/ أن رجلاً وصل راكضاً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وسيفه في يده يقطر دماً، ويتبعه قوم يقولون إن هذا الرجل قتل صاحبهم مع زوجته، فسأله عمر فقال: نعم ضربت فخذي امرأتي بالسيف فإن كان أحد بينهما فقد قتل، فقال: عمر ما يقول الرجل فقالوا: نعم قطع فخدي امرأته فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين، فقال عمر: للرجل إن عادوا فعد.

وهذه الرواية تدل على أن عمر رضي الله عنه قد حكم باعتباره قاضياً في هذه الواقعة وليس اعتباره خليفة للمسلمين، بعد أن اعترف الزوج القاتل وصدَّق على إقراره قوم من الناس شهدوا بأن المقتول كان بين فخذي المقتولة الزوجة، فحكم عمر رضي الله عنه وهو صاحب الولاية كأمير للمؤمنين وقاضٍ بأن هذا القاتل قتل دفاعاً عن عرضه، فله الحق بقتل من ألقي عليه متلبساً بجرم التزاني مع زوجه وبحالة استثنائية وخاصة من باب تخصيص العام، فالجرم واقع والقتل واقع، ولكن لا عقوبة استثناءاً من حديث سعد رضي الله عنه الذي طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام إذا وجد زوجته بهذه الحالة أن يذهب ويحضر أربعة شهود. وهذا ما يجب أن يكون عليه حال الزوج شرعاً، ولكن إذا لم يعطه الله الصبر والأناة والتمسك بالحكم الشرعي، وخرج عن تفكيره وعقله وجن جنونه وسلبت إرادته فحكم عمر هو الذي يقع، وهو حكم من سقط عنه القلم والتكليف والله أعلم.

إن كافة الشرائع والكتب السماوية والقوانين الوضعية راعت هذه الصفة الإنسانية، فحرمت القتل، وعالجت مشكلة القتل في حال وقوعها كأي واقع فأعطت عذراً محلاً أو مخففاً حسب الحال والمقال.

إن اعتراضي على الدكتور محمد حبش ليس بالخلاف والاجتهاد، فهو واجب وجائز في حق المسلمين، ولكنه يظهر أنه لا يقر بحجية السنة وبأنها مصدر من مصادر التشريع متجاهلاً إياها وعلناً وجهاراً ونهاراً مع هيئة الإذاعة البريطانية، هذه هي الجريمة التي يقترفها الدكتور المحدث محمد حبش وأمثاله، فإن سكت بعض العلماء على الدكتور حبش عندما قنن في كتاباته عن المرأة ليرضي الغربيين وخاصة الأمريكان، عندما كان يلوي عنق الأدلة الشرعية ويطوعها لرغبته بواقعية وذرائعية، فلا يجوز السكوت عليه عندما ينكر السنة مطلقاً كأصل من أصول التشريع، ولكن هيئة الإذاعة البريطانية لن تدخله الجنة، وكذلك رضا القائم بأعمال السفارة الأمريكية (مايكل كوربون) الذي دعاه إلى حفل السفارة الأمريكية بدمشق على شَرَفِ (نانس بلوسي) بتاريخ 5/ 4/ 2007م كما ذكرت جريدة الحياة في العدد رقم / 16071/ ، علماً أنه كما يشاع بأن السفارة الأمريكية لا تعطيه تأشيرة لدخول الولايات المتحدة، ثم نسمع عن محاضراته وقبوله في الولايات المتحدة زائراً معززاً مكرماً، إن الأحكام الشرعية يا فضيلة الدكتور لا تتغير حسب طقس الولايات المتحدة ورضاها وغضبها، وبالله المستعان.

دمشق 6/ 4/ 2007م

جدلية القتال والجهاد والإرهاب

كثير من المفكرين والعلماء خلطوا بين المصطلحات الثلاثة، وهي القتال والجهاد والإرهاب، بحيث لم يفرقوا بين الحروب والأعمال العسكرية التي هي شيء طبيعي وضروري لاستمرار الحياة وعمران الكون، ولا يمكن الاستغناء عنها لأنها رَجْعٌ لغريزة حب البقاء،و التي من مظاهرها حب السيادة والسيطرة والتملك، وما إلى ذلك من هذه المظاهر، وبين الجهاد بمفهومه اللغوي والجهاد بمفهومه الشرعي، وبين القتال كأعمال مادية من مظاهر الحروب. كما خلطوا بين القتال (كتكتيك) وبين قتال أهل البغي وأهل الحرابة. وخلطوا بين حمل الدعوة كأعمال فكرية ليست من الجهاد أو القتال في شيء، لأنها نوع من أنواع الكفاح السياسي والصراع الفكري، وبين الجهاد.

ونظراً لأهمية هذه المصطلحات عند تنزيلها على الوقائع، كان لابد من تعريفها بشكل جامع مانع يحول دون تلبس مفهوم الإرهاب بمفهومَيْ القتال والجهاد.

الحروب والقتال:

وجدت الحروب واقتتل الناس من قبل أن يكون هناك مسلم وغير مسلم، أي منذ وجد الإنسان كمخلوق على هذه الأرض، ولم يتوقف الاقتتال حتى الآن، ولن يتوقف طالما أنه يوجد ناس لا يزالون أحياء، وكل مَنْ يقول خلاف ذلك إما جاهل أو معاند، وإما مثالي خيالي ليس أهلاً لأن يعيش على هذا الكون. هذا «الإسكندر المقدوني» تلميذ «أرسطاطاليس» أخضع اليونان تحت سلطته ووصل إلى الهند وبلاد فارس، وهناك مَنْ يقول: إنَّه وصل إلى القطب الشمالي. وهذه حروب الإمبراطورية الرومانية، وطروادة، وقرطاجة، وحروب الحثيين والآشوريين والفينيقيين والهكسوس، هذه حروب الجزيرة العربية قبل الإسلام (غزو وسلب ونهب) (منها داحس والغبراء، الفجار، البسوس، بعاث) وغيرها كثير.

هذه الشعوب الأوربية اقتتلت جميعاً مع بعضها بعضاً سواء أكان اقتتالاً داخلياً أم اقتتالاً خارجياً، وكانت الحروب الداخلية سبباً من أسباب توحيد هذه الشعوب ونهضتها

حتى حُسِم الموضوع نهائياً لطرف على طرف آخر، وبذلك توحَّدت بريطانيا، وحُسِم الأمر لصالح الملكيين في عام 1648م، وتوحَّدت فرنسا من جراء حروب أهلية وحسِم الموضوع للجمهوريين فيها نهائياً، وهذه ألمانيا توحَّدت بعد الحروب الأهلية على يد «بسمارك»، وإيطاليا توحَّدت بعد الحروب الأهلية، وانتهى عهد الدوقيات والإمارات، وهذه الولايات المتحدة الأمريكية حولتها الحروب الأهلية ـ من أبناء لصوص ومرتزقة وقطاع طرق هاجروا من أوربا ـ إلى دولة محترمة لها هيبة ورهبة في سائر العالم، تتحكَّم في الموقف الدولي والنظام العالمي.

إن حروب ما يسمى بالعالم المتحضر ليست عنا ببعيدة، وأهمها الحرب العالمية الأولى والثانية، حيث خسر العالم ملايين الضحايا، علماً أن المدة الزمنية بين الحربين العالميتين عشرون سنة فقط تقريباً. وهذا يدل على مدى قوة الإنسان وجبروته وطموحه ونسيانه السريع للآلام والأحزان من أجل السيطرة والسيادة. ولولا الحرب العالمية الثانية لما دخل العالم في العصور الحديثة (تكنولوجياً)، فالحرب هي التي تقدح وتشحذ الأفكار وتظهر العبقريات الفردية للإنسان والجماعية للشعوب. صدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ﴾ (الحج:40)، إذن لابد من الحروب ولابد من القتال الذي هو بمثابة الأكل والشرب لا يستطيع أن يستغني عنه أي مجتمع، سواء أكان همجياً أو متحضراً.

نحن الآن في عصر التقدم المدني والعمراني والحضاري كما يقول المفكرون والمنظرون، نحن في عصر الثقافة والعلوم والتكنولوجيا، عصر الصعود إلى القمر، عصر «الكونكورد» والصواريخ عابرة القارات، عصر الأوبرا والمسرح، ماذا يحدث الآن؟.

حروب في منطقة الخليج العربي، العراق في حالة احتلال أمريكي مباشرة واقتتال داخلي مذهبي وطائفي ذميم يُندّى له الجبين، فلسطين، لبنان، الصومال، أفغانستان، الجمهوريات الإسلامية السوفييتيَّة، كلها مناطق وبلاد تحت الاحتراق والتهديم بسبب نزاعات داخلية أو احتلال خارجي، وغيرها كثير. اقتتال في كل مكان، ثورات داخلية، اضطرابات، عصيان مسلح، تمرد، حروب خارجية في كل مكان، وحتى تستمر مصانع

الأسلحة في الإنتاج وتزدهر بلاد الغرب اقتصادياً بقوة ميزان المدفوعات. حتى يقبض علماء الذرة والفيزياء والمختبرات ومراكز الأبحاث مرتباتهم الباهظة. فلا بدَّ من استمرار عجلة الحروب والاقتتال، وهذا كما ذكرت آنفاً لن يتوقف حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها. إلاَّ أن الدول الكبرى مع الأسف توهمنا بغير ذلك، تطلب من الدول الضعيفة (العالم الثالث) عدم التسلح إلاَّ بحدود الاقتتال مع بعضها بعضاً فقط، أمّا هي الدول العظمى فتتسلح بقمة تكنولوجيا الأسلحة التقليدية والإستراتيجية والكيماوية والذرية والهيدروجينية والارتجاجية. أما دول العالم الثالث فلا، لأنها يجب أن تبقى خارج لعبة الاقتتال الدولي للسيطرة على العالم، وتبقى مشغولة بحروبها المحلية، واقتتالها الديني أو الطائفي أو العشائري. فعمل الدول الكبرى بيع الدول الصغرى الأسلحة للاقتتال المحلي أو الإقليمي فقط، ويجب أن لا يحقق أحد الأطراف نصراً نهائياً على طرف آخر، وإلاّ عمّ الاستقرار، وبدأت الشعوب تفكر بالنهضة، وانتقلت إلى منافسة الدول الكبرى على تنظيم العالم، فليس مسموحاً لقوة أن تحسم الوضع القتالي المحلي وإلاَّ عمّ الاستقرار كما عمّ في أمريكا وأوروبا وبدأت النهضة الصحيحة.

في العالم المعاصر المتقدم الآن، هل استطاعت الأمم المتحدة أو مجلس الأمن وكافة المنظمات الدولية، والدول الكبرى التي لها حق النقض (الفيتو) أن توقف الحروب والاقتتال سواء أكانت حروباً داخلية، محلية، ثورات، اضطرابات، أم إقليمية. لم يتوقف الاقتتال إطلاقاً بل هو في حالة ازدياد وانتشار شاقولي وأفقي، أين جيوش وأساطيل الدول العظمى لتضبط هذا الفلتان الاقتتالي الفوضوي المنظم؟ نعم إنَّها فوضى اقتتالية منظمة، ويجب أن تستمر من منظور رأسمالي استعماري، وإلاَّ وقفت عجلة الاقتصاد الصناعي والتجاري في العالم، وعاش العالم في ركود اقتصادي يكون له آثار مدمرة على الدول الكبرى الطامعة. ولذلك يجب أن تستمر الحروب وإلاَّ توقف الإبداع والتقدم في العالم، لأن السلم في الحقيقة حالة غير طبيعية للبشر، وهي حالة مؤقتة وفترة زمنية بسيطة لا تتجاوز أن تكون فترة استعداد بين حربين، هذا ما عليه العالم الآن، فهذه طبيعة البشر ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ليس الإسلام ـ كما يصفه بعضهم ـ دين المثالية والملائكية، بل هو دين واقعي. راعى واقع الإنسان بغرائزه وحاجاته وشهواته ورغباته، ووضع الحلول للمشاكل التي تنتج عن إشباع غرائز الإنسان وحاجاته العضوية. ولذلك لم يلغ الإسلام الحروب والاقتتال لأن ذلك مستحيل، فكيف يلغي الله سبحانه وتعالى الحروب والاقتتال وهو الذي خلق الغرائز؟ وكيف يمنع الله سبحانه وتعالى المباشرة الجنسية وهو الذي خلق الشهوة الجنسية عند الرجل والمرأة؟ فهذا عبث، ومحال على الله سبحانه وتعالى أن يحمّل الإنسان المخلوق ما هو فوق طاقته. وكذلك كيف يلغي الله الحروب والاقتتال وهو الذي خلق عند الإنسان غريزة البقاء ومن مظاهرها حب السيادة؟

ولهذا سيكون اقتتال وحروب قطعاً، لكن الإسلام نظَّم الحروب، فألغى الاقتتال القبلي (العشائري) والطائفي والقومي والمصلحي والمذهبي والديني، وكافة أنواع الحروب والاقتتال، باستثناء قتال الحكام الذين يرفضون تحرير شعوبهم ويصرّون على استعبادهم، ويمنعونهم من استعمال عقولهم حتى يختاروا أن يرفضوا الإسلام أو يقبلوه. وهذا ما حدث عندما خرجت جيوش المسلمين من الجزيرة العربية، وحررت الشعوب العربية من سيطرة وظلم حكام الفرس والروم وقضت على هاتين الإمبراطوريتين.

قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ (البقرة: 256).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ (الحجرات: 13).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ (الحج: 73).

قوله (ص): (من قتل تحت راية عمية يدعو إلى عصبية فقتلته جاهلية) (الحديث رواه النسائي)، أي إنَّ الاقتتال من أجل العنصر أو اللون أو الجنس أو الطائفة أو المذهب، قتال مذموم ومنحط، ومن يموت لأجله يموت على غير الإسلام.

حدَّد الإسلام مَنْ تقاتل، وما هي أحكام وشروط القتال، كيف يبدأ وكيف يسير وكيف ومتى يتوقف، حدَّد المعاهدات الاضطرارية وأحكام المعاهد والمستأمن، وما هي الجزية وما شروطها، ممَّن تؤخذ وأين تنفَقُ، وما هي حقوق الذمي وما هي واجباته. فأحكام الحروب والقتال وشروطه، هي كأحكام إشباع الغريزة الجنسية، فالغريزة لابد لها أن تُشبع، لكن الإسلام حدَّد الفرق بين الزواج والزنى واللواط، وبيَّن أحكام المحرمات من النسب أو الرضاع، وحقوق الزوج والزوجة والذرية، كيف يتم الطلاق والخلع، وأحكام الحضانة والرضاع والنسب.وما إلى ذلك من أحكام وشروط إشباع الغريزة الجنسية على الوجه الشرعي.

الآن، بعد هذا التمهيد الذي كان لابد منه، ندخل في معنى الجهاد الذي هو نوع خاص من أنواع القتال، فما هي مواصفات الجهاد؟

الجهاد لغة:

مصدره الفعل الرباعي جاهد، وفعلة الثلاثي جَهَدَ، وفي لسان العرب، الجَهْدُ (بالفتح) المشقَّة، والجُهد (بالضم) الطاقة، أي استفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل.

فالجهاد لغة هو أعمال مادية يبذل فيها الإنسان كل وسعة وطاقته، سواء أكانت من أجل العيال أو خدمة للناس بأجر أو بغير أجر، فكل ما يقتضي استفراغ الوسع وبذل الجهد هو من الجهاد. حتى إنَّ معاشرة الرجل لزوجته والزوجة لرجلها، وبذل كل الطاقة والمشقة لحصول اللذة الجنسية هو من الجهاد بالمعنى اللغوي، قوله (ص): (في بُضع أحدكم صدقة) (الحديث رواه مسلم وأبو داود وأحمد). كما أن بذل أقصى ما يمكن من الطاقة والمشقة بالقتال هو بذل الوسع والجهد في أعمال الحروب وتكتيكها وما يتعلَّق بها من أجل تحقيق غاية معينة، سواء أكانت أساسية أو تافهة.

الجهاد شرعاً:

هو عبارة عن القيام بنفس أعمال القتال في الحروب لغة والتي تقتضي بذل الجهد والوسع والمشقة، لكن لوجه الله تعالى وبموجب أوامره ونواهيه.

قوله (ص): (يؤتى يوم القيامة بثلاثة، فيقول أولهم: قاتلت وقُتِلت في سبيلك يا رب العالمين، فيقول الله سبحانه وتعالى: كذبت، قاتلت ليقال: إنَّكَ شجاع وقد قيل خذوه إلى النار. ويقول الثاني: يا رب، أنفقت مالي في سبيلك، فيقول الله سبحانه وتعالى: كذبت، أنفقت ليقال: إنَّكَ جواد وقد قيل خذوه إلى النار. ويقول الثالث: يا رب أنفقت عمري أعلِّم في سبيلك، فيقول الله سبحانه وتعالى: كذبت، علَّمت ليقال: إنَّكَ عالم وقد قيل خذوه إلى النار..) (الحديث رواه الترمذي).

هذا الحديث يوضح أن الأصناف الثلاثة المذكورين بذلوا جهدهم ووسعهم، ولم يؤاخذهم الله سبحانه وتعالى على تقصير في ذلك، إنما آخذهم على أن هذه الجهود وتلك المشقة لم تكن لوجه الله تعالى، بل كانت رياء وسمعة فاستحقوا النار.

إذن الجهاد شرعاً: هو القتال + أن يكون لوجه الله تعالى = أعمال مادية (قول أو فعل) + الروح (إدراك الإنسان صلته بالله تعالى حين العمل أو القول).

أي أن يكون القتال بغاية رضوان الله سبحانه وتعالى. أي إنَّ الجهاد شرعاً بذل الوسع والجهد في القتال في سبيل الله مباشرة، أو معاونة، بمال أو رأي أو غير ذلك.

ولذلك فإن بعض علماء المسلمين وتلاميذ العلوم الشرعية المتقاعسين فهموا الجهاد خطأ عندما ضاعوا بين المعنى اللغوي للجهاد والمعنى الشرعي، فقالوا بجهاد النفس ضد المنكرات وضد الشهوات والرغبات واعتبروها من الجهاد الشرعي، لأنهم فهموا حديث الرسول (ص) خطأ وهو: (عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) (الحديث رواه البيهقي بسند ضعيف). عندما عاد عليه الصلاة والسلام من قتال بني قريظة. كما اعتبروا الجهاد من أجل العيال والرزق جهاداً شرعياً أيضاً، فهماً من أحاديث الرسول (ص) التي تحثُّ على الضرب في الأرض سعياً من أجل العمل والرزق. فهذا كله بمعنى الجهاد لغة وليس شرعاً.

إن أدلة الجهاد أدلة عامة ومطلقة تشمل الحرب الدفاعية، وتشمل مبادأة العدو بالقتال، وتشمل الحرب المحدودة، والحرب غير المحدودة، والحرب الوقائية وغير ذلك، فهي تشمل كل أنواع قتال العدو، لعمومها وإطلاقها، فتخصيصها بحالة من الحالات

السابقة يُحتاج إلى نص يحدد نوع هذه الحالة. ولم يرد أي نص يخصصها أو يقيدها لا من الكتاب ولا من السنة، بان تكون حرباً دفاعية فقط، فتبقى على عمومها تشمل (كل حرب من الحروب وكل قتال للعدو). ولنأخذ بعض آيات الجهاد التي وردت في سورة التوبة، لأن سورة التوبة من آخر ما نزل حتى لا يبقى مجال لادعاء التخصيص أو التقييد أو النسخ.

قال الله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة: 29).

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: 36).

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: 111).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (التوبة: 123). فهذه الآيات جاء الأمر فيها بالقتال عاماً ومطلقاً: «قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله» إلخ.. «وقاتلوا المشركين كافة» «يقاتلون في سبيل الله»، وهو يتضمن معنى الأمر: «قاتلوا الذين يلونكم من الكفار» فكلها ظاهر فيها العموم والإطلاق فتكون دليلاً على أن الجهاد هو قتال الكفار، سواء أكان مبادأة بالقتال أم كان دفاعاً عن المسلمين أم عن بلاد الإسلام، فهي تشمل الحرب الدفاعية والحرب الهجومية وكل نوع من أنواع الحروب من غير أي تخصيص أو تقييد. لعدم وجود ما يخصص هذا العام أو يقيد ذلك المطلق.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: 61).

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190).

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 39).

وما شاكل ذلك من الآيات فإنها كلها لا تصلح لأن تخصص عموم آيات «التوبة» ولا أن تقيد مطلقها، لأنها كلها نزلت قبل آيات «التوبة»، والمتأخر لا يخصصه المتقدم ولا يقيده، إذ التخصيص بمثابة النسخ لجزء من العام، لأنه صرف الحكم عن عمومه فأبطله في البعض ووضع مكانه حكماً آخر، وما دام التخصيص بمثابة النسخ، والنسخ يُشترَط فيه أن يكون الناسخ متأخراً عن المنسوخ، لذلك لا تصلح هذه الآيات لتخصيص آيات التوبة، لأنها متقدمة عنها في النزول، وآيات التوبة من آخر ما نزل في الجهاد فلا يتأتّى التخصيص، وما قيل في التخصيص يقال كذلك في التقييد، فلا بد أن يكون مصاحباً له حتى يصحَّ أن يكون قيداً له أو حتى يصح حمل المطلق على المقيد، وهنا جاءت آية: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾ (الأنفال: 61). وما شاكلها متقدمة على آيات التوبة فلا تصلح للتقيد، ولا يصح فيها حمل المطلق على المقيد لتأخر المطلق على المقيد بالنزول. لذلك لا تصلح للتخصيص ولا للتقييد، فيسقط الاستدلال بها على أن الجهاد حرب دفاعية فقط لعموم الأدلة التي نزلت بعد هذه الآيات. وعليه يبقى العام على عمومه لعدم وجود نص مخصص له، ويبقى المطلق على إطلاقه لعدم وجود نص مقيد يمكن أن يُقيَّد به أو يُحمَل عليه. ولهذا يكون الجهاد هو قتال الأعداء مطلقاً وبشكل عام يشمل كل قتال، فيشمل الحرب الهجومية، والحرب الدفاعية، والحرب الوقائية، والحرب المحدودة، والحرب غير المحدودة، وجميع أنواع الحروب.

وأمَّا أن آيات التوبة نسخت الآيات الأخرى التي قبلها فإنه ادّعاء خاطئ، فلا يوجد أي نسخ فيها وذلك لأنه ليس مجرد ظهور التعارض بين النصين كافياً لادعاء النسخ، بل لابدَّ أن تقوم حجة شرعية على أن هذا النص ناسخ لذاك وإلاَّ فلا يعتبر ناسخاً، فلا بدَّ من قرينة تدل على النسخ فمجرد ظهور التعارض بين الدليلين لا يعني أن أحدهما ناسخ للآخر، إذ قد يمكن الجمع بينهما فلا يكون هناك تعارض، وهذا ما هو واقع فعلاً في كثير من الأدلة التي ادَّعوا أنها ناسخة فإنه ظهر أنها غير ناسخة وأنه يمكن الجمع بيْنها، وذلك أن النصوص قد يتحدد موضوعها وتختلف ظروفها أو تختلف

أحوالها أو غير ذلك، والآيات التي ادعوا أنها منسوخة يختلف بعضها عن بعض إما في الظروف وإما في الأحوال وإما في الموضع: فآية ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ (الأنفال: 61) قيل: إنها نسخت بآية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ (التوبة: 29) والحقيقة أنه لا نسخ بينهما لأن كلاً منهما في حالة مختلفةٍ عن الأخرى، فالأولى تعني حالة الصلح والثانية تعني حالة القتال، والقتال والصلح حالتان باقيتان إلى يوم الدين، وأحكام كل منهما باقية لم ينسخ شيء منها. والصلح لا يكون إلاَّ بعد قتال، والآيات لم تلتزم بحالات معينة للصلح، إنما القبول به منوط بمصلحة الإسلام والمسلمين من خلال أن الإسلام ليس غايته قتال الناس، بل غايته إزالة الحواجز المادية التي وضعها الحكام المستبدون الذين يمنعون شعوبهم من فهم الإسلام. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ (محمد: 35)، فإذا كان المسلمون بقوة ومنعةٍ فإن الصلح عامل من عوامل تبليغ الإسلام وإفهامه للناس كفاراً أو مشركين. فإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لنفع يجتلبونه أو ضرر يدفعونه فإن لرئيس الدولة أو للإمام الحق في قبول الصلح. وعلى هذا فإن الآية لا تبين حالة الجهاد بل تبين حالة الصلح، فهي في موضوع الصلح، فالله تعالى يقول له: إنْ دعوك للصلح فلك الحق أن توافق على طلبهم ولا تخف من غدرهم، والآية التي بعدها تؤكد ذلك، فالآيات هي: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ (الأنفال: 61 ـ 63)، وعليه فلا تعارض بين هذه الآية وآيات القتال الأخرى لاختلاف موضوعها.

أما آية: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة: 190) فإن موضوعها هو عدم مجاوزة المقاتلين إلى مَنْ وراءهم من النساء والصبيان الذين لم يقاتلوا، فهذه الآية ليست منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ (التوبة: 36) لأن آية الأمر بقتال المشركين موضوعها الأمر بالقتال، فهي في الأمر بالجهاد، وأما هذه الآية فإنه أمر بحصر القتال بقتال مَنْ ليس من

أهل المناصبة من الشيوخ والصبيان والرهبان والنساء، وقوله ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾ (البقرة: 190) أي بقتال من نهيتكم عن قتالهم، مَنْ لا يقاتلونكم من النساء والشيوخ والصبيان، لأن هؤلاء إذا قاتلوا المسلمين يقاتلون ولو كانوا رهباناً ونساء وصبياناً، وإنما نُهي عن قتالهم لأنهم لا يقاتلون. فالنهي عن الاعتداء في هذه الآية هو نهي عن قتال هؤلاء ممَّنْ لا يقاتلون عادة. والنهي عن الاعتداء في آيات أخرى هو نهي عمَّن نُهينا عن قتالهم في أدلة أخرى من مثل النساء والشيوخ والصبيان، والذين بيننا وبينهم عهد، أو بالمفاجأة من غير دعوة أو ما شابه ذلك، والقرآن نهى في كثير من الآيات عن الاعتداء، والمراد منه عدم القيام بالأعمال التي نهى عنها الشرع في القتال، وليس المراد منها عدم المبادأة بالقتال، لأن آيات التوبة صريحة في طلب البدء بالقتال، إن وجدت الاستطاعة شرعاً وواقعاً ولم يتوفر سبيل غير ذلك للدعوة.

وأما آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (الحج: 39). فإنها كذلك أمر بالقتال مطلقاً ولا تعني أنها أمر بالقتال إذا كان مظلوماً، لأن قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ ليس علة للقتال بل هو وصف واقع، ذلك أن مشركي قريش كانوا يؤذون المسلمين أذى شديداً، وكان الصحابة يأتون رسول الله (ص) بين مضروب ومشجوج يتظلَّمون إليه، فيقول لهم: (اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال)، حتى هاجر فأنزلت هذه الآية التي أمرهم الله بها بالقتال بعد أن كان يمنعهم منه، قال الضحاك: (استأذن أصحاب رسول الله (ص) في قتال الكفار إذا آذوهم بمكة) فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ (الحج: 38)، فلما هاجر أنزلت ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ (الحج: 39)، وعلى هذا تكون الآية قد نزلت لرفع الحظر عن المسلمين بدفع الأذى عن أنفسهم بالقوة والقتال، وأمرتهم بقتال مَنْ يؤذونهم وهم كفار قريش، وتدل على الأمر بالقتال، أي إنَّ المسلمين كانوا ممنوعين من دفع أذى قريش بالقتال، فالآية قد رفعت هذا الحظر عنهم، هذا هو موضوعها، فهي في حالة معينة وليست في القتال، فهي دفع الأذى من قريش بقتال قريش، ولكنها تدل على الأمر بالقتال من قبيل دلالة الإشارة، وهي أن يكون الكلام قد سيق لبيان حكم أو دلَّ على حكم ولكن يُفهَم منه حكم آخر غير الحكم

الذي سيق لبيانه أو جاء ليدلَّ عليه، فالكلام هنا قد سيق لبيان رفع الحظر عن مقابلة الأذى بالقتال، فلا يكون هناك تعارض بينها وبين آيات سورة براءة لاختلاف موضوعهما، ولا تكون دليلاً على أن القتال إنما شُرِّع دفعاً للظلم لأنها ليست أمراً بالقتال بل هي إذن بمقابلة أذى المشركين بالقتال، والآيات كلها إذا قرئَتْ مع بعضها يظهر فيها ذلك بوضوح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ۝ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: 38 ـ 40)، فالآية تبين حالة معينة كانت موجودة وهي دفع الأذى بالقتال أي دفع القوة بالقوة، فهي لا تبيّن مشروعية القتال في سبيل الله، أي الجهاد لإعلاء كلمة الله، وإنما تبين مشروعية القتال لدفع الأذى، بخلاف الآيات الأخرى فإنها تبين مشروعية القتال في سبيل الله أي الجهاد لإعلاء كلمة الله، وبهذا كانا موضوعين مختلفين، فلا تعارض بينهما حتى يقال: إنها منسوخة بآيات سورة براءة، ولا هي آية جهاد في سبيل الله حتى يقال: إن الجهاد هو حرب دفاعية، وإنما هي آية في موضوع معين وهو الإذنُ بدفع الأذى بالقتال بعد أن كان المسلمون ممنوعين منه. ومن هذا كله يتبين أنه لا نسخ في آية من آيات الجهاد، وأن آيات الجهاد عامة ومطلقة ولم يرد ما يخصصها أو يقيدها، فتبقى على عمومها وإطلاقها ويكون الجهاد قتال الأعداء فيشمل كل قتال، وتدخل تحته الحرب الدفاعية والحرب الهجومية وأي حرب حسب ما يرى رئيس الدولة أو الإمام مصلحة للدعوة ومصلحة للمسلمين. فالقتال إنما هو لإزالة الحواجز المادية التي تمنع المسلمين من تبليغ الإسلام وإيصاله للناس كافة. وهذا ما يدّل عليه قول الرسول وفعله وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم.

وإن أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام والسيرة النبوية طافحة بأعماله التي تدل على ذلك، فإن خروج الرسول إلى بدر لأخذ قافلة قريش هو خروج للقتال، لأنه خرج للتجارة ولقتال منْ يحميها من قريش ثم كانت معركة بدر، فالخروج لم يكن للقافلة فحسب بل كان لها وللقتال، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ

وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ (الأنفال:7) والطائفتان هما: (العير والنفير)، فهو دليل على أن الخروج كان للتجارة وللقتال وهذا مبادأة بالقتال. فقريش كانت دولة، ولم تكن بعد قد اعتدت على الرسول أو على المدينة حتى يدافع عنها بل هو الذي بدأهم بالقتال، بدأهم أولاً بإرسال السرايا حتى كانت سرية عبد الله بن جحش ثم بغزوة بدر. أمّا في غزوِهِ لهوازن في موقعة حنين وفي حصاره الطائف فكان ظاهراً فيهما أنه هو الذي بدأ بالمقاتلة، ثم مؤتة بإرساله الجيش لقتال الروم، وغزوة تبوك بقيادته. ولقد قاد جيشاً في حروب دفاعية كموقعة أحُد وموقعة الأحزاب، مما يؤكد أن فعل الرسول كان يدل على أن الجهاد إنما هو القتال لإزالة الحواجز المادية التي تمنع تبليغ الإسلام، وإنَّهُ قد يكون حرباً دفاعية كتكتيك، أو حرباً هجومية كإستراتيجية.

إذن الجهاد هو القتال في سبيل الله لنشر الإسلام، وإنَّه مبادأة بالقتال، فإنه يكفي فيه فتح العراق وفارس والشام ومصر وشمالي إفريقيا فإنها كلها فُتِحَت في عهد الصحابة، وبإجماع منهم، وكون هذه الفتوحات مبادأة بالقتال لا يحتاج إلى دليل.

إن أية أمة تحمل دعوة لفكرة كلية عن الكون والإنسان والحياة، وطريقة معينة في العيش، لا يمكن أن تكون إلا أمة مقاتلة، أي أمة تبادئ الناس بحمل الدعوة والقتال في سبيلها. لأن الدعوة للفكرة الكلية المقرونة بطريقة للعيش تقتضي طبيعتها مبادأة الناس بالقتال في سبيلها، إذا لم يفتحوا بلادهم لتبليغها فهي قيادة فكرية تقود معتنقها لأن يحملها لغيره، وتقود حاملها والمحمولة إليه إلى الفكر والتفكير، فينتج حتماً الصراع الفكري بين الاثنين، واقترانها بطريقة معينة للعيش يقتضي رؤيتها حية في العلاقات فيحتم التطبيق إما بالاختيار وإما بالإجبار، وهذا ما يستوجب القتال إذا لم يحصل التطبيق بالاختيار، لذلك كانت مبادأة الأمة التي تحمل الدعوة بالقتال إذا لم يستجب المدعوون أمراً حتمياً، لأن القتال من أجلها منطوٍ تحت الإيمان بها، إذ هو إيمان بوقائع موجودة وليس مجرد تصديق بأفكار مجردة، فكان لابد من رؤية هذه الوقائع أي لابد من رؤية التطبيق.

وهذا ما يقوم به العالم الغربي الرأسمالي المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوربية، وكذلك العالم الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفييتيّ سابقاً، فهذه حروب

كوريا وفيتنام، ولاووس وكمبوديا.. وحروبهم ضد العالم العربي والإسلامي، كلها حروب لفرض طريقتهم في العيش والصدام من أجل ذلك، وقد بدؤوا حروبهم بإفناء الهنود الحمر وحتى الآن، كلها حروب من أجل سيطرة الأفكار وطريقة العيش.

والمسلمون في حملهم الدعوة الإسلامية وإن كانوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام ولكنهم لا يكرهون الأفراد على اعتناقه فقد جاءت النصوص صريحة في الكتاب والسُنَّة بعدم إكراههم، قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ (البقرة: 256)، وقال (ص): «إنه مَنْ كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتَن عنها» أي لا يُكْرَه على تركها. فالجهاد لا يعني إكراه الأفراد على اعتناق الإسلام، وإنما يعني إزالة الحواجز المادية والسلطات التي تمنع شعوبها من فهم أفكار الإسلام عقائد وأحكاماً شرعية، حتى تستوعب هذه الشعوب الإسلام ولها الحق في أن تقبله أو ترفضه. وأن يفتحوا بلادهم أمام المسلمين لإفهامهم الإسلام كعقيدة ونظام، وإلى تطبيق أحكام الإسلام عليهم، ولا يُكرَهون على اعتناق الإسلام وترك عقائدهم، فالقتال هو من أجل قبول غير المسلمين تطبيق أحكام الإسلام عليهم، وليس من أجل إكراههم على ترك ما يعتقدون. ولهذا كان الرسول يقول لأمير الجيش: «وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصالٍ أو خلال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم» ولم يقل له ادعهم إلى الإسلام فإن لم يسلموا قاتلهم أو مَن لم يسلم منهم اقتله، بل قال: «ادعهم إلى ثلاث خصال ادعهم إلى الإسلام.. وإنْ هم أبوا فلهم الجزية.. وأن أبوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم»، فالجهاد لا يعني مطلقاً إكراه الأفراد ولا الشعوب ولا الأمم على اعتناق الإسلام، وإنما يعني دعوتهم للإسلام.

إن فكرة تفسير الجهاد بأنه حرب دفاعية فحسب ونفي مبادأة الناس بالقتال عن معنى الجهاد، هذه الفكرة ليست فكرة إسلامية، وليست رأياً إسلامياً، ولا يحتملها معنى الجهاد لا لغة ولا شرعاً ولا وجود لهذه الفكرة قبل القرن التاسع عشر الميلادي بين المسلمين على الإطلاق، أي لا وجود لها قبل الاستشراق والمستشرقين وقبل حملة الغزو الغربية. فلم يقل بها أحد في بلاد الإسلام قبل ذلك مطلقاً. ولقد اختلف علماء المسلمين

في قبول السلم أو رفضه، ولم يختلفوا في معنى الجهاد، ولم يقل أحد من المسلمين من قبل لا من العلماء ولا من غيرهم: إن الجهاد حرب دفاعية، لأن القول بأن الجهاد حرب دفاعية يعني تعطيل الجهاد وإلغاءَه إلغاء كلياً، لأنه إذا كان حرباً دفاعية فقط فإنه يعني أن لا تحمل الدعوة إلى الإسلام ويقاتل في سبيلها من أجل إزالة الحواجز المادية التي تمنع وصولها للناس، ولا يقاتل في سبيل الدعوة على الإطلاق وإنما يقاتل إذا حصل اعتداء على المسلمين، أما إذا لم يحصل اعتداء فلا يصح القتال لأنه يعتبر حينئذ عدواناً، وقد نهى الله عنه في نهيه عن الاعتداء. هذا هو معنى القول إن الجهاد حرب دفاعية. وهذا لا شك إلغاء للجهاد وآيات القرآن في ذلك قطعية الدلالة لا تحتمل أي تأويل، وأحاديث الرسول في هذا صريحة لا تحتمل أي تفسير. ولم يرو أحد من الخلق لا من المسلمين ولا من غيرهم أن مسلماً قال هذا المعنى قبل القرن التاسع عشر، لا رواية صحيحة ولا رواية سقيمة حتى ولا رواية مكذوبة كما حصل في الكذب على المسلمين،. وهذا المعنى لم يُعرف إلاّ في القرن التاسع عشر الميلادي في الغزوة الثقافية، وفي حملة الاستشراق والمستشرقين التي كانت من جملة حملة الغزو الثقافي.

إن المستشرقين يعترضون لآيات التوبة التي جاءت صريحة في قتال الكفار، فيقولون: إن هذه دعوة للتعصب لا تتفق مع ما ترضاه الحضارة الفاضلة من تسامح، وهي دعوة إلى قتال المشركين وقتلهم حيث ثقفهم المؤمنون في غير رفق ولا هوادة، وهي دعوة إلى إقامة الحكم على أساس البطش والجبروت. هذا الكلام نقرؤه في كثير من كتب المستشرقين، وهو يُقال في معرض الطَعْنِ على الإسلام وتسفيه أحكامه وإظهار وحشيته وبعده عن المدنية والحضارة، وهو يقال لصدِّ غير المسلمين عن الإسلام، ولتنفير أبناء المسلمين عن الإسلام ليتركوا دينهم ما دامت هذه هي وحشيته على حد تعبير المستشرقين، وهم لم يكتفوا بذلك بل قالوا: إن الإسلام نُشِرَ بالسيف، وإن الإسلام يُكْرِه الناس على الإسلام. وإن الناس حين يذهب عنهم سيف المسلمين يرجعون عن الإسلام، ولذلك يقول المستشرق (وشنتجتن إيرفنج) عن اندفاع المسلمين بالجهاد. «أية عقيدة يمكن أن يصوِّرها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشياً، إذ

يقنعهم بالفيءِ لَمَنْ يبقى والجنة لَمَنْ يموت، ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب، ثم يقول: وبقاء الهلال إلى اليوم في أوربا حيث كان يوماً ما بالغاً غاية القوة إنما يرجع إلى تنازع الدول المسيحية الكبرى، أو يرجع بالأحرى إلى تنافسهم، ولعلَّ الهلال باقٍ ليكون دليلاً على أن ما أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ». فقام جماعة من المسلمين يردون عليهم من باب الدفاع عن الإسلام، فاعتبروا تقبيح المستشرقين لأحكام الجهاد كما جاءت في سورة التوبة تقبيحاً صحيحاً ولكنهم برَّؤوا الإسلام منه فهو من فعل المسلمين وليس من الإسلام، ومن سوء فهم المسلمين وليس من أحكام الإسلام.

هذا هو الأصل في وجود معنى أنَّ الجهاد حرب دفاعية، فهو هجوم من المستشرقين في تقبيح حكم الجهاد، والدفاع من المسلمين بأن الجهاد حرب دفاعية، ولا يوجد دليل على أن هذا الدفاع من المسلمين قد دُسَّ عليهم من الغرب ليقولوا به، ولكني لا أستبعد أن يكون بعض المستشرقين قد دَسُّوه عن طريق محاولة إنصاف الإسلام فانطلى على المسلمين، لأن المستشرقين في غزوتهم الثقافية يقسمون أنفسهم قسمين: قسم يهاجم الإسلام وقسم يدافع عنه بحجة الإنصاف، فلا يبعد أن يكون قد قال ذلك بعض المستشرقين وقلَّدهم المسلمون، وعلى أي حال فإن هذا المعنى سواء دُسَّ على المسلمين أم قالوه من عند أنفسهم فإنه لم يكن موجوداً قبل حملة الغزو الثقافي، وإنَّ سببه إنما هو الغزوة الثقافية من الغرب ولا سيما حملة المستشرقين.

أما سبب هذه الحملة على الجهاد، فإنها من حيث هي جزء من الحملة على الإسلام في اتهامه بما ليس فيه وتقبيح بعض أحكامه، ولكن الدافع إلى الحملة على الجهاد بشكل خاص هي ما لاقاه الغرب وأوربا بالذات من هزائم أمام جيوش المسلمين، حتى كان عند الأوربيين جميعاً اعتقاد شائع بأن جيش المسلمين لا يُغلب، فكان لا بدَّ من ضرب الجهاد، فكانت حملة المستشرقين على الجهاد لتنفير المسلمين منه، ولتنفير غير المسلمين من المسلمين ما داموا وحوشاً ومتوحشين، فبدل أن يُشْرَحَ معنى الجهاد أولَ هذا التأويل الذي يخرجه عن معناه بل الذي يلغيه، وأشيع هذا المعنى بوسائل خبيثة حتى صار على لسان أكثر المتعلمين من المسلمين منذ القرن التاسع عشر حتى الآن. وما ذلك إلا لإلغاء

الجهاد بتحريف معناه. ولم تكتفِ إنجلترا بذلك بل قامت بإيجاد دعوة في الهند لإبطال الجهاد وجعله قاصراً على أيام الرسول، وأنه بعد الرسول قد انتهى، وتلك هي دعوة (القاديانية الأحمدية) في الهند، وكل ذلك من أجل إبطال الجهاد حتى يسهل ضرب المسلمين وحتى لا تقوم لهم قائمة، لأن كل أمة حاملة دعوة إذا تركت القتال انهارت واندثرت، ولذلك يقول سيدنا علي رضي الله عنه: (ما ترك قوم الجهاد إلاَّ ذلّوا).

إن الرد على المستشرقين لا يكون بتقبيح ما يقبِّحون والدفاع عنه، وإنما يكون بأخذ الحكم كما جاء به النص، وجعل منطوق القرآن هو الذي يقبِّح ويحسِّن وليس قول الغرب أو قول المستشرقين، ولست في حاجة للفت النظر إلى الدول الكبرى كيف تحشد قواها لاغتنامِ الفرصة لمبادأة غيرها بالقتال لنشر أفكارها وطريقتها بالعيش، وإنما أدعو إلى فهم آيات القرآن كما جاءت، وكما هي دلالتها العربية والشرعية، لا كما يُراد بنا أن نفهمها لنردَّ على المستشرقين.

قد يستغرب أي مضبوع بالديمقراطية الرأسمالية الغربية هذا الكلام الآنف الذكر، لكن استغرابه يزول بمجرد أن يفهم الديمقراطية الغربية ويستوعبها تطبيقاً علمياً، وليست نظريات خيالية مشوهة سببت العمى للمتعلمين والمثقفين على السواء.

ويزول هذا الاستغراب عندما يدرس واقع الديمقراطيات الكبرى الغربية الآن، وكيفية ممارستها العملية في نشر أفكارها وطريقة حياتها وحضارتها في العالم. وما أدلُّ على ذلك إلاَّ سلوك الولايات المتحدة والديمقراطيات الغربية في أوروبا وخاصة بريطانيا وفرنسا.

إن عقيدة المبدأ الرأسمالي الديمقراطي هي فصل الدين عن الحياة: (أعطِ ما لقيصرَ لقيصر وما لله لله)، وطريقة الوصول إليها هي الحريات، هكذا يقولون: وهذه العقيدة هي وجهة نظر عن الحياة لها طريقة معينة للعيش، فهي لا تربط الحياة الدنيا بما قبلها وهو الله وما بعدها وهو اليوم الآخر.

منذ أواسط القرن التاسع عشر هاجمت الديمقراطيات الغربية طريقة العيش عند المسلمين، والتي مقياسها (الحلال والحرام)، والتي تربط الحياة الدنيا بما قبلها وهو الله وما

بعدها وهو اليوم الآخر. وتحاول هذه الدول نشر عقيدتها وطريقتها في العيش وحضارتها، ابتداءً عن طريق الإقناع والحجة (الثقافة)، وتمارس ذلك عن طريق نشر أفكارها (التبليغ)، أي إنَّ المبدأ الرأسمالي الديمقراطي له دول تحمله، ولهذه الدول أجهزة، ويتبع لها مفكرون وكتَّاب وأدباء. وهذه المرحلة التي سارت بها الدول الغربية هي مرحلة (التبليغ)، أي في الحقيقة مرحلة (التبشير) من أجل أن تسود حضارة هذه الديمقراطيات في العالم.

ولمَّا عجزت هذه الدول الديمقراطية عن السيطرة على شعوب العالم الإسلامي عن طريق الإقناع، علماً أنها أقنعت أفراداً ولم تقنع شعوباً، دخلت أثناء الحرب العالمية الأولى بلاد المسلمين عسكرياً، وفرضت أفكارها وطريقتها في العيش في سائر بلاد المسلمين وبالطريق العسكري من شمالي إفريقيا وحتى إندونيسيا التي آمن أهلها بالإسلام بدون قتال أو جهاد بل عن طريق التجار المسلمين وبالتبليغ حصراً، حيث دخل الإنجليز والفرنسيون وأصبحت على الغالب قوانين الديمقراطيات الغربية هي المسيطرة على بلاد العرب والمسلمين وبالقوة المسلحة (قانون نابليون وتعديلاته + الأعراف البريطانية والدستورية)، وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر الدور الأمريكي بصورة واضحة، وعملت الولايات المتحدة على فرض طريقتها في العيش على العالم، وحيث إن طريقتها لا تختلف كثيراً عن طريقة العيش الأوربية فقد استفادت من كل الأعمال (ثقافة، تبليغ) التي سبقتها فيها الدول الغربية الأخرى.

فكانت طريق عيش واحدة لكل دول المعسكر الرأسمالي، مع اختلاف في بعض الأساليب والوسائل. وصرَّح حكام الولايات المتحدة وحكام أوروبا جميعاً بأن لهم طريقة معينة في العيش وفي الحياة يجب أن تسود العالم، ويستغلون أفكار الحريات وحقوق الإنسان من أجل فرض سيطرتهم الفكرية والسياسية والعسكرية.

وعندما يرفض أي شعب من الشعوب أن يذعن لطريقتهم في العيش وفي الحياة، ويرفض أن يختارها بحرية مزعومة، فالجيوش والأساطيل جاهزة لإرغامه. والأمثلة على ذلك كثيرة كما حصل في العالم العربي والإسلامي بعد الحرب العالمية الأولى، وما حصل في

فيتنام ولاوس وكوريا وتايلاند وهاييتي، وإجمالاً خضعت لهذه الظروف دول أمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا، سواء من قبل بريطانيا أو فرنسا أو الولايات المتحدة، ومن قبلهم الألمان والطليان والأسبان وكل من نادى بالديمقراطية الغربية الرأسمالية المكذوبة.

أما الاتحاد السوفييتي المنقرض بعقيدته المادية الديالكتيكية والتاريخية، فقد كان مبدئياً واضحاً، ولم يتبع طريق النفاق الرأسمالي، بل أعلن بشكل واضح أن الشيوعية يجب أن تسيطر على الشعوب إما بالإقناع أو بالقوة العسكرية، ولذلك فرضت أنظمتها على أوروبا الشرقية بالقوة المسلحة وبالقهر، وطبقت أنظمتها الاشتراكية عنوة على الشعوب.

وأصبح التنافس بين العالمين: الرأسمالي الديمقراطي (دار الرأسمالية الديمقراطية)، والعالم الماركسي (دار الشيوعية)، وأخذ كل من المبدأين يعمل على نشر أفكاره إما بالإقناع إنْ حصل وإلاّ بالقوة العسكرية (حروب جنوب شرق آسيا، فيتنام، كوريا.. قهر أوروبا الشرقية بالكامل)، ولَمّا حاولت تشيكوسلوفاكيا الخروج عن الكتلة الشرقية، اجتاحتها دبابات دار الشيوعية.. وغيرها كثير. وبعد انقراض (دار الشيوعية) كدولة وبقائها كفكر، لم يبقَ إلاَّ (دار الرأسمالية الديمقراطية) في العالم الآن. وتعمل هذه الدار علناً على تحويل كل ديار العالم إلى ديار ديمقراطية غربية رأسمالية، من خلال تغيير طريقة حياة العوالم الأخرى وطريقة عيشها، وهذا ما يفتخر به علناً كل الرؤساء الأمريكيين، ورؤساء الوزارة في بريطانيا، والرؤساء الفرنسيون، وقد ظهر ذلك جلياً أيام ما يُسمّى بالحرب الباردة عندما استعمل المعسكران (الداران) باقي العالم أكياس رمل ومتاريس في هذه الحروب.

أما الآن، فإن الديمقراطيات الغربية تعمل علناً بالطريق الفكري والعسكري لاستمرار سيطرة حضارتها وطريقتها بالعيش على العالم. وإنها مستعدة لمنع أي خروج دولي على إرادتها إما بالإقناع (الاقتناع) أو بالقوة العسكرية كما حدث في كل مكان بالعالم إما الجزرة أو العصا. ولهذا أستغربُ استهجان من أسموا أنفسهم مفكرين معاصرين في العالم الإسلامي بتقسيم فقهاء المسلمين الأوائل العالم إلى ديار إسلام وديار كفر وديار عهد، علماً أن هذه المصطلحات يزاولها العالم الغربي الديمقراطي الرأسمالي الآن، وكان

يزاولها المعسكر الديمقراطي (الغربي)، والمعسكر الشيوعي (الشرقي) سابقاً أيام الحرب الباردة. وكان كل معسكر (دار) يحاول السيطرة على الدار الأخرى إما فكرياً إنْ أمكن أو بالقوة العسكرية كما أثبت سابقاً، فما هو الغريب في الأمر!! علماً أن دار الرأسمالية الغربية الآن تمارس أي أسلوب وأي أداة من أجل تحقيق سيطرة دارها على كل الديار الأخرى، دون وجل ولا خجل بطريقة فرض نظام (الفوضى الخلاقة) على شعوب الشرق الأوسط الواسع من إندونيسيا إلى المغرب الذي نادت به وزيرة الخارجية الأمريكية (رايس) علناً وسبقها الرئيس بوش بقوله: «إن وحياً من الله قد هبط عليه لاحتلال العراق وفرض طريقة العيش الغربية على بلاد المسلمين، وإنَّ من ليس معه فهو عليه، فإما دار الخير وإما دار الأشرار». علماً أن كل الحضارات القديمة والحديثة تستعمل نفس المصطلحات إلاَّ أنها تقوم بأعمال السيطرة بدون أي ضوابط مصدرها الوحي، فالإسلام يعمل على نشر أفكاره وتطبيقها، لكن من خلال نصوص شرعية، تمنع قتل النساء والأطفال والشيوخ، ولا تقتل رضيعاً ولا تحرق شجراً ولا تهلك دابة، ولا تغتصب امرأة، بينما ديار الرأسماليين في سعيها للسيطرة على الديار الأخرى قتلت الأطفال والشيوخ والنساء وأحرقت العمران، حتى إنها أحرقت القيم والمبادئ وداست حقوق الإنسان. أين الحريات المزعومة في بلد مثل فرنسا قتلت من الجزائريين مليون شهيد في حرب التحرير، لإحكام سيطرتها على الجزائر وجعل قيمها وطريقة عيشها هي المسيطرة في الجزائر؟ أين قيم فرنسا بالحريات وهي تمنع نساء محجبات اخترن بملء إرادتهن الحجاب الشرعي، وقد فعل ذلك وزير الداخلية الفرنسي، وعلل قراره بأن الحجاب في فرنسا خلاف الحضارة الغربية، وهو مظهر غير حضاري يتهدد طريقة العيش في فرنسا.وما فعلته أمريكا في فيتنام والفلبين وبلاد أخرى يعرفه حتى الإنسان العادي، وما فعلته بريطانيا في بلاد المسلمين قاطبة وغيرها من بلاد العالم أدهى وأمرُّ، كل ذلك من أجل أن تسيطر دار العالم الغربي على ديار المسلمين (العالم الشرقي) فلماذا يخجل بعض علماء ومفكرّي العالم الإسلامي من استعمال هذه المصطلحات التي يستعملها ويزاولها ساسة ومفكرو العالم الرأسمالي الديمقراطي، الذين يعتبرون أنفسهم يطبقون أرقى نظام موجود لحكم الشعوب!؟.

أما إفناء الهنود الحمر من قبل الشعوب الأوروبية فمعروف للقاصي والداني، هذه الحضارة الغربية التي قضت على شعوب بالكامل وبوحشية لا مثيل لها، وبقيادة القسس والرهبان الأسبان، ومَنْ يرغب بالمزيد فليقرأ كتاب المطران الأسباني «برت ولومي دي لاس كازاس» واسمه (المسيحية والسيف) حيث يشرح بالتفصيل الوحشية التي مارسها الأسبان في القضاء نهائياً على شعب بالكامل وهو الهنود الحمر والقضاء على ملايين المسلمين في الأندلس حيث لم يكن أمامهم إلا السيف أو التنصير، والحمد لله على نعمة الإسلام الذي حافظ على كل الديانات في البلاد التي دخلها، ولم يُكْرِه أحداً على الاعتقاد بالإسلام، وترك الناس أحراراً فيما يعتقدون.

ولا أدل على ما ذكرت الحروب التي مازالت قائمة حيث شنت جيوش الولايات المتحدة وحلفائها الغربيين حرباً إرهابية لا هوادة فيها على أهل أفغانستان وأهلنا في العراق بحجة فرض قيمهم الديمقراطية المزعومة على العالم العربي والإسلامي، حيث استباحوا أرض العرب والمسلمين ودماءهم وأموالهم لفرض طريقة عيشهم على أمتنا، وأما اليهود فحدث ولا حرج عن اغتصابهم لفلسطين وطرد الشعب واحتلال الديار وفرض دولة دينية علناً وبكبرياء وإصرار وفخر واعتزاز.

الذمي:

هو كل مَنْ يدين بغير الإسلام وصار من رعية الدولة الإسلامية وهو باقٍ على تدينه بغير الإسلام. والذمي مأخوذ من الذمة وهي العهد، فلهم في ذمتنا عهد أن نعاملهم على ما صالحناهم عليه، وأن نسير في معاملتهم ورعاية شؤونهم حسب أحكام الإسلام. وقد جاء الإسلام بأحكام كثيرة لأهل الذمة، منها أن لا يُفتنوا عن دينهم، وعليهم الجزية فقط، ولا يؤخذ منهم مال غيرها إلاَّ أن يكون شرطاً من شروط الصلح، عن عروة بن الزبير قال: كتب رسول الله (ص) إلى أهل اليمن (**أنه مَنْ كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يُفتن عنها وعليه الجزية**). ومثل اليهود والنصارى غيرهم من المشركين. عن الحسن بن محمد علي بن أبي طالب قال: (كتب رسول الله ص إلى مجوس هَجَرْ يدعوهم إلى الإسلام: «**فمن أسلم قُبِل منه ومَنْ لا يسلم ضُرِبَتْ عليه الجزية، في أن لا تؤكل له ذبيحة ولا تُنكح**

له امرأة») (رواه مسلم وأحمد). وليس ذلك خاصاً بمجوس هجر بل هو عام، ولا تؤخذ الجزية إلاَّ من الذكور البالغين، ولا تؤخذ الجزية إلا من القادر على دفعها لقوله تعالى: ﴿عَن يَدٍ﴾ (التوبة: 29) أي عن قدرة، فإذا عجز عن دفعها لا تؤخذ منه، بل إذا عجز عن الكسب وافتقر لا يكتفي بعدم أخذ الجزية، بل يجب أن يُنفَق عليه من بيت المال كما ينفق على المسلمين. عن ابن أبي جعفر قال: شهدت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة: «أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممَّنْ رغب عن الإسلام واختار الكفر، فضع الجزية على مَن أطاق حملها، وخلِّ بينهم وبين عمارة الأرض فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين وقوة على عدوهم، وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنُّهُ وضعفت قوته وولَّت عنه المكاسب فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه. وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مرَّ بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال: ما أنصفناك إن كنا نأخذ منك الجزية في شبيبتك ثم ضيَّعناك في كبرك. قال: ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه». وعند أخذ الجزية يجب أن تؤخذ بالحسنى لا بالعنف ولا بالتعذيب، وأن تؤخذ بالقدر الذي يحتملونه، فلا يظلمون ولا يؤخذ منهم فوق قدرتهم. عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه أن عمر بن الخطاب أتي بمال كثير، قال أبو عبيد: أحسبه قال: من الجزية فقال: إني لأظنكم قد أهلكتم الناس، قالوا: لا والله ما أخذنا إلاَّ عفواً أو صفواً. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله الذي كان يرى بقاء الجزية على مَنْ أسلم هروباً من الجزية فقال في كتابه: (إن الله بعث محمداً (ص) هادياً ولم يبعثه جابياً).

وقد أوصى الإسلام بمعاملة الذمي معاملة حسنة. فيرفق به ويُعان على أمره، ويجب أن يقوم المسلمون على حمايته وحماية ماله وعرضه، وأن يُضمن له قوته ومسكنه وكسوته. عن أبي وائل عن أبي موسى أو أحدهما بإسناده أن رسول الله (ص) قال: «**أطعموا الجائع وعودوا المريض وفكّوا العاني**»، قال أبو عبيد: وكذلك أهل الذمة يجاهد من دونهم وتُفتك عناتهم. وعن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه ذكر في وصيته عند موته (وأوصي الخليفة من بعدي بكذا وكذا وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله (ص)

خيراً، أن يقاتل من ورائهم، وأن لايُكلفوا فوق طاقتهم). ويترك الذميون وما يعتقدون وما يعبدون لقول الرسول (ص): (مَنْ كان على يهوديته ونصرانيته فإنه لا يُفتن عنها) ومعنى لا يفتن عنها أي لا يكره على تركها بل يترك عليها. وتركه عليها يعني تركه على عقيدته وعبادته. وليس هذا خاصاً بأهل الكتاب بل يشمل المشركين أيضاً، لقول الرسول (ص) عن المجوس: (سُنّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب..) ومثل المجوس باقي المشركين.

والذميون مثلهم مثل المسلمين حاملون لتابعية الدولة ولهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات إلا ما استثني بنص خاص وتجري بينهم معاملات البيع والشراء والإجارة والشراكة والرهن وغير ذلك بلا فرق بينهم وبين المسلمين، فقد ابتاع الرسول (ص) طعاماً من يهودي بالمدينة ورهنه درعه. وأرسل إلى يهودي يطلب منه ثوبين إلى الميسرة. وكل هذه المعاملات يطبق عليها أحكام الإسلام مع الذميين.

وهكذا يكون الذميون كالمسلمين رعية للدولة الإسلامية كسائر الرعايا، لهم حق الرعوية وحق الحماية وحق ضمان العيش وحق المعاملة بالحسنى وحق الرفق واللين، ويجوز لهم أن يشتركوا في جيش المسلمين وأن يقاتلوا معهم، ولكن ليس عليهم واجب القتال وإذا قاتلوا مع المسلمين تسقط عنهم الجزية، لأن دفع الجزية هو لقاء عدم تكليفهم بالقتال كما أن المسلمين مكلفون لتأمين الحماية والأمان لهم، ولقد أعاد أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه الجزية لأهل حمص بعد فتحها عندما لم يتمكن من حماية أهلها ضد الروم. ولهم ما للمسلمين من الإنصاف وعليهم ما عليهم من الانتصاف، وينظر إليه أمام الحاكم وأمام القاضي وعند رعاية الشؤون وحين تطبيق المعاملات والعقوبات كما يُنظر للمسلمين دون أي تمييز، فواجب العدل لهم كما هو واجب للمسلمين.

وعليه فإن الذميين يعاملون أحسن المعاملة ويُطبَّق عليهم ما ورد في الشرع، إلاَّ أن يتضمن عهد صلحهم شروطاً فتنفَّذ عليهم الشروط كما ورَدَتَ.

فالإسلام في صريح القرآن لا يكره ذمياً على اعتناق الإسلام وترك عقائده، بل يمارسها بحرية تامة تحت نظام الإسلام، كما يمارس المسلم عقيدته الآن في أمريكا وأوروبا، تحت نظام الولايات المتحدة الفدرالي، أو الأنظمة الأوروبية سارية المفعول،

فالمسلم في أمريكا وأوروبا ـ البلاد التي تدّعي الحرية ـ لا يستطيع أن يخالف النظام العام (نظام الدولة)، وإذا خالفه يُسفَّر أو يُسجن، وهذا حال كل الدول في أي عصر من العصور، وإن القوانين الغربية صارمة بهذا الخصوص ولا تسمح بأي خروج عن طريقتها بالعيش، وما جرى في البوسنة والهرسك ليس ببعيد من سحق للمسلمين وإكراه لهم على ترك عقائدهم واغتصاب للقاصرات وإحراق للبلاد، علماً أن الجميع من أصل (عرق) واحد سواء أكانوا مسلمين أم أرثوذكس. فالحمد لله على نعمة الإسلام الذي اعتبر الإنسان واحترمه لإنسانيته فقط بغضِّ النظر عن دينه وجنسِهِ والرسول يقول: (**مَنْ آذى ذمياً فقد آذاني ومَنْ آذاني كنت خصمه يوم القيامة ومَنْ كنت خصمه خَصَمْتَه**) (الحديث رواه أبو داود). وإن الناس أجمعين مسلمين ويهود ونصارى ومشركين بحاجة الآن إلى عدالة الإسلام وسماحته، واحترامه لآدمية البشر، فلقد عاش أهل الكتاب يهوداً ونصارى في بلاد المسلمين مئات السنين ولم يهدم لهم كنيسة ولا كنيس، محترمون في عقائدهم وأحكامهم لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، قال عليه الصلاة والسلام: (أنا خير مَنْ وَفّى بذمته..) (الحديث رواه أحمد)، ولم يظلم ويحتقر اليهود في العالم المسيحي إلا بعد أن خرج الإسلام من الساحة الدولية، وتُرك اليهود إلى بطش الرأسمالية المسيحية في العالم الغربي، ولم يقتل اليهود في الأندلس إلا بعد خروج المسلمين وسحقهم، ولم نقاتل اليهود في فلسطين إلا بعد أن اغتصبوا الأرض وداسوا المقدسات وطردوا أهلنا من ديارهم.

وإن الدول المتحضرة الآن عندما تدخل بلاداً أخرى قَسْراً وعنوة فإنها تسرق كل شيء وتنهب خيرات البلاد. وهذا ما حصل في الحرب العالمية الأولى والثانية وما يحصل الآن في النظام الدولي الجديد وليس العراق وأفغانستان عنا ببعيد، فالحمد لله على عدالة الإسلام الذي احترمَ الإنسان بغضِّ النظر عن دينه ومذهبه أو جنسه أو لونه.

حكم البغاة وقطّاع الطرق:

إن قتال المسلمين فيما بينهم ليس جهاداً ويكون على وجهين: قتال البغاة، وقتال قطّاع الطرق، والبغاة قسمان: قسم خرج على تأويل في الدين فأخطأ فيه، كما هو حال

خروج معاوية والي الشام نسأل الله له المغفرة على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وكما حدث في خروج عائشة رضي الله عنها بعد أن انعقدت الخلافة لأمير المؤمنين علي رضي الله عنه بالبيعة الشرعية، وقتال أهل البغي حدث كثيراً في تاريخ المسلمين، كما حدث في تاريخ كل الأمم والشعوب المتخلفة والمتحضرة فالإنجليز والفرنسيون والأمريكان والروس كلهم قتلوا بعضهم وخرج فيهم مسلحون على الدولة والنظام، وقتل الملايين من هذه الشعوب في الفتن والثورات الداخلية، حيث لم يقتصر ذلك على المسلمين كما يقول بعض المستشرقين وتلامذتهم في بلادنا، وأن تاريخ الإسلام كان دائماً صراعاً على الحكم، والحقيقة أنَّ كل البشر تصارعوا على الحكم، وأن المسلمين كانوا أقل الشعوب والأمم صراعاً على الحكم إذا ما قيس تاريخ المسلمين بتاريخ الرومان واليونان قديماً، والولايات المتحدة والإنجليز والفرنسيين والألمان والطليان والأسبان حديثاً، وكل من قرأ التاريخ يعرف ذلك.. وقسم أراد لنفسه دنيا فخرج على حاكم مسلم بويع بيعة شرعية على كتاب الله وسنة ورسوله، أو على مَنْ هو في حكمه.

فأمَّا الذين خرجوا على تأويل في الدين فلهم حكم خاص وهم البغاة، وأما الذين خرجوا يريدون الدنيا، فإن لم يخيفوا الطريق ويأخذوا مالاً ولا سفكوا دماً فهم من قسم البغاة وينطبق عليهم حكمه. وأما إن تعدوا ذلك إلى إخافة الطريق. أو أخذ مال مَنْ لقوا، أو سفك الدماء، انتقل حكمهم من حكم البغاة إلى حكم قطّاع الطرق.

والبغاة هم الذين خرجوا على الدولة ولهم شوكة ومنعة، أي هم الذين شقّوا عصا الطاعة وشهروا في وجهها السلاح وأعلنوا حرباً عليها، ولا فرق في ذلك إن خرجوا على سلطان عادل أو سلطان ظالم، وسواء خرجوا على تأويل في الدين أو أرادوا لأنفسهم دنيا، فإنهم كلهم بغاة ما داموا قد شهروا السلاح في وجه سلطان الإسلام. وهؤلاء على الحاكم أو مَنْ ينيبه عنه في الولاية أن يراسلهم فيسألهم ما ينقمون من السلطان؟ فإنْ ذكروا مظلمة أزالها، وإن ادَّعوا شبهة كشفها، وإن ألبِسَ عليهم فاعتقدوا أن ما فعله مخالف للحق وهو ليس كذلك، عليه أن يبيِّن لهم دليله ويظهر لهم وجه الحق، لأن الإسلام أمر المسلمين أن يشهروا السيف في وجه الحاكم إذا أظهر الكفر البواح، وثبت عليه ذلك

بالبرهان القاطع. فإنْ ادَّعوا خروجهم لشيء من ذلك إجابة لطلب الشرع فيجب عليه أن يبين لهم وجه ما يشتبهون فيه، فإنْ رجعوا عن البغي تركهم، ولا يجوز بقاؤهم على خروجهم، وإنْ لم يرجعوا قاتلهم وجوباً، ولكن لا قتال حرب، بل قتال تأديب. ولذلك يُحَرَّم قتالهم بما يعمُّ إتلافهم إلاَّ لضرورة، فلا يصح أن يضربوا بالطائرات ولا بالقنابل المحرقة ولا بالمدافع الثقيلة، إلاَّ إذا كانت هناك ضرورة قصوى تقتضيها الأساليب التأديبية لا الأساليب الحربية. ويُحَرَّم قتل ذريتهم أو قتل الهارب منهم، فمن ترك القتال منهم ترك، وإذا قتلوا أحداً لا يقتلون به، وإذا أسر منهم أحد حُبِسَ وعومل معاملة المذنب لا معاملة الأسير لأنه ليس بأسير، ولا يحلُّ أخذ شيء من أموالهم، لأنهم رعية اقتضى تأديبهم اتِّبَاعَ أسلوب القتال معهم، ولذلك لا يُعتبر قتالهم حرباً ولا جهاداً.

والأصل في حدِّ البغاة قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات: 9). فهذه الآية قد اعتبرت هؤلاء البغاة مؤمنين، فلم يخرجوا بالبغي عن الإيمان، وهي صريحة بوجوب قتالهم، وفي إسقاط قتالهم إذا فاؤوا إلى أمر الله، وفي أنهم قد أسقطت عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم سواء أكان مالاً أو نفساً. وهي تدل في قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ على وجوب مراسلتهم قبل قتالهم. فهذه الآية تثبت عقوبة البغاة، وتبينها ما هي، وهي قتالهم حتى يرجعوا، ولكن بعد مراسلتهم ومحاولة إزالة ما دفعهم إلى الخروج من مظلمة أو شُبهة أو خطأ أو ما شاكل ذلك.

وإذا تمركز أهل البغي في جزء من البلاد الإسلامية، ونصبَّوا قضاة لهم يقضون بين الناس، وأقاموا حكاماً يحكمون الناس، مطبقين أحكام الإسلام، فإن حكم قضاتهم نافذ كحكم أهل العدل، وتصرفات حكامهم كتصرفات أهل العدل، ما دامت سائرة حسب أحكام الشرع. فإذا قَدِرَ الحاكم عليهم أو رجعوا إلى حظيرة الدولة كانت جميع أحكامهم نافذة، لأنها أحكام إسلامية من حكام نُصبَّوا بناء على شُبهة الخروج. وما دام القرآن اعتبرهم مؤمنين، وما دام لا يصحُّ أن يُتعرَّض لهم، إلاَّ بما لا بدّ منه لتأديبهم فقط،

فتصرفاتهم كلها كتصرفات أي مسلم ممَّن هم في طاعة سلطان الدولة، وقتالهم إنما هو واجب من واجبات الدولة، ولا يؤثر اعتبارهم واعتبار أحكامهم ما داموا مسلمين ويطبقون الإسلام.

أما قطاع الطرق الذين خرجوا على الدولة لدنيا يصيبونها وعن طريق القتل والسلب فقطعوا الطريق وأخافوا الناس، فحكمهم الشرعي واضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: 33)، وهو حد الحرابة، فإن قتلوا فقط قتلوا، وإن قتلوا وأخذوا الأموال قتلوا وصلبوا، وإن قتلوا واغتصبوا النساء وأخذوا الأموال وسفكوا الدماء بوحشية جماعية، قتلوا وصلبوا وقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف في الساحات العامة.

لذلك كان لا بد من التفريق بين ما هو من القتال أو الجهاد أو قتال أهل البغي والحرابة، حتى يدرك المسلمون واقع كل حكم شرعي، حيث خلافه يؤدي إلى الوقوع في مهالك قد تهلك الحرث والنسل.

الإرهاب:

المعنى اللغوي:

الإرهاب في اللغة مشتق من أصل الفعل الثلاثي رهب وبابه طرب، وإرهابي هي مصدر الفعل أرهب، وأرهبه بمعنى خوفه، والرهبة توحي دائماً شدة الخوف والفزع والهلع والاضطراب والانهيار المادي والنفسي، وكل هذه المعاني تلاحظ في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (البقرة: 40)، ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ (الحشر: 13)، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (النحل: 51).

المعنى الشرعي:

لا يخرج المعنى الشرعي للإرهاب عن المعنى اللغوي، حيث يوحي بالخوف والجزع والهلع والرعب، ولكن الشرع قد حدد طريقة ووسيلة وغاية استخدام الإرهاب وحالاته، فجعل تسخير هذا المعنى وتحقيقه لحالات صحية غايتها وهدفها إظهار القوة لإحداث الرهبة وممارستها في حالات تضع العدو في موقف الخائف والوجل والحذر من أن يقوم بأي اعتداء على المسلمين، لأن هذا الاعتداء لن يحقق أغراضه بل سيرتد عليه لأن موازين القوى ليست في صالحه، مما يجعله يرتدع عن إيذاء المسلمين ويطلب المسالمة والموادعة، وكل هذه المعاني متحققة في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: 60). هذه الآية الكريمة تحسم الموضوع في معنى الإرهاب عند المسلمين، حيث تأمرهم باستحواذ كافة ومختلف صنوف الأسلحة والتدريب والتخطيط التي تجعل الدول الأخرى ترهبهم وتحسب لهم ألف حساب قبل أن تقوم بأي اعتداء عليهم، فتوادعهم وتسالمهم لأنها تدرك أنه لا طائل لها من الحرب معهم لأن موازين القوى في صالح المسلمين، وهذا يفرض على المسلمين الاستحواذ على كافة الأسلحة المتاحة في عصرهم، وإن يكونوا سباقين في الإبداع والاختراع الذي يمكنهم من أن يسبقوا الدول الأخرى في كل صنوف التكنولوجيا المتطورة، سواء أكانت الأسلحة تقليدية أم جرثومية أم نووية بالإضافة إلى قوة الاقتصاد ليكون الآخرون بحاجة للمسلمين وليس العكس، فإن القوة الاقتصادية في هذا الوقت متزامنة مع القوى العسكرية، بل هي العمق الذي يمد القوى العسكرية ويحافظ عليها وعلى استمراريتها، ويكفي أن نذكر القارئ بأن من العوامل المباشرة لانهيار الاتحاد السوفييتي هي ضعف اقتصاده الذي لم يمكن قيادته السياسية بالاستمرار في سباق التسلح أمام الولايات المتحدة، علماً أن الاتحاد السوفييتي حاز أحدث الأسلحة التقليدية، ولكنه لم يستطع أن يحافظ على جاهزية أسلحته النووية، ولم يستطع أن ينافس الولايات المتحدة في مخططها الذي سماه الرئيس (ريغان) حرب النجوم، وإن كل الاقتصاد السوفييتي لا يستطيع أن

يدعم مخطّطاً يكافئ برنامج حرب النجوم الأمريكي، الذي يمكن الولايات المتحدة من تدمير صواريخ السوفييت قبل أو بعد انطلاقها من قواعدها ووصولها إلى هدفها، فتكون الضربة الأولى لصالح الأمريكان وليس لصالح السوفييت، فكان على قيادة جورباتشوف أن تختار إما منافسة الولايات المتحدة في برنامج مماثل لحرب النجوم أو توقيع معاهدات (سالت 1، سالت 2) التي تحافظ على نفوذ السوفييت السياسي، فتحدِّث أسلحتها النووية، بالإضافة إلى دعمها ببرنامج مماثل لحرب النجوم، واختارت القيادة السوفييتيّة توقيع معاهدات تحولها إلى دولة من الدرجة الثانية أمام الولايات المتحدة، حيث اقتصادها غير قادر على تمويل برنامجها النووي الذي يمكنها من أن تكون كفئاً للولايات المتحدة. فلم يستطع الاقتصاد السوفييتي دعم المخططات العسكرية للقيادة السياسية، وأصابت الرهبة وسيطر الخوف والجزع على القيادة السوفييتيّة، وطلع جورباتشوف بسياسة (البروستريكا والجلوسنست) لإعادة بناء البلد وفضل إطعام الناس على أن يكون قوة عظمى منافسة للولايات المتحدة، وحدث ما حدث منذ بداية عام 1989م في الاتحاد السوفييتي وتفكك البلد إلى دويلات واندثرت الشيوعية، وعادت البلاد إلى ما قبل العهد القيصري عام 1917م، فاستطاعت الولايات المتحدة عن طريق الإرهاب الحميد والصحي إنهاء دولة عظمى وهي دولة الاتحاد السوفييتي. وهذا ما كان عليه حال العرب والمسلمين منذ البعثة النبوية، حيث كانت لهم السيادة والريادة عندما كانوا أقوياء، وعندما اختلَّ التوازن لصالح غيرهم من الدول حلَّ الضعف والانهيار وسيطرت الجهات الأخرى عليهم.

ولذلك على المسلمين أن يملكوا في كل وقت القوى التي يرهبون بها الآخرين، بالشكل الذي يجعل الدول الأخرى تسالمهم وتصالحهم وتوادعهم وتحسب لهم ألف حساب قبل أن تعتدي عليهم أو تحط من قدرهم، وحال المسلمين كحال غيرهم من الدول العظمى التي جعلت نفسها في قوة تمكنها من مسالمة الناس وردعهم إذا أساؤوا التقدير. كما فعل الرسول (ص) عندما دَخَلَ مكة فاتحاً، فقسم جيشه إلى كتيبة خضراء وصفراء.. وحملوا المشاعل ووقفوا بالليل على جبل أبي قبيس، فأنهار مشركو مكة لهذا المنظر وطلبوا الاستسلام.

إذن الإرهاب بالمعنى الشرعي عند المسلمين، هو ظاهرة صحية وحميدة، تجعل الدولة والمجتمع في وضع قوي يردع غيرهم عن قتالهم والاستهانة بهم، أي هي أعمال وسلوك داخلي وخارجي يجعل العدو يوادع ويهادن من غير حرب ولا قتال، فالإرهاب بالمعنى الإسلامي يساعد في منع الحروب والقتال بين الدول والشعوب لإحلال الصلح والسلام.

الإرهاب في شرعة الغرب:

وهو مشتق من كلمة (Toririzm) الإرهاب، ومنه (Toririst) إرهابي ويعنون به أن تقوم دول أو جماعات أو أفراد بأعمال مادية خلاف القوانين والأعراف والمواثيق الدولية، وشرعة حقوق الإنسان، من قتل وتدمير وحرق، واستعمال لأسلحة محظورة دولياً، ويُطال ذلك المدنيّين الآمنين في أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، علماً أن أعمال المقاومة ضد المحتل قد استثنتها كافة الشرائع الدولية من أعمال الإرهاب.

بتطبيق هذا التعريف المُجمع على صحته من قبل الهيئات الدولية وباختصار، نرى أن الولايات المتحدة بشكل خاص والعالم الغربي بشكل عام قد مارسوا كل صنوف الإرهاب الذي يُتهم الآخرون بها سابقاً وحالياً ولاحقاً. من يقرأ تاريخ الولايات المتحدة يجد أنها بنيت وأسست على الإرهاب الداخلي ثم الإرهاب الخارجي، داخلياً وصل أبناء قطاع الطرق واللصوص من أوربا فأفنوا الهنود الحمر بكل الوسائل القذرة، ثم قتلوا بعضهم في حروب الشمال والجنوب، والشرق والغرب، بأعمال حرق وسلب ونهب واغتصاب يندى لها جبين الحيوان قبل جبين الإنسان والتاريخ شاهد على ذلك.

مارست الولايات المتحدة الإرهاب الخارجي في كل حروبها بدون استثناء، كما حدث في فيتنام وكوريا والعراق وأفغانستان وأمريكا اللاتينية وأفريقيا على سبيل المثال لا الحصر، ما جرى من استعمال أسلحة محرمة دولياً كالنابالم واليورانيوم المنضد والليزر، وحرق وإتلاف للممتلكات بالشبهة، فكم قصفت عمارات كاملة لاحتمال وجود شخص واحد مقصود فيها، وكم جربت أسلحتها الحديثة على البشر لتطويرها ومعرفة جدواها، حتى إنّها أول وآخر من استعمل السلاح النووي في هيروشيما وناغازاكي علماً أنه لا

حاجة لإبادة البشر، إلا لسبب واحد هو تقصير أمد الحرب وتقليل خسائرها، لأن حربهم مع اليابان باتت محسومة ومنتهية بدون استعمال الأسلحة النووية وكان السلاح النووي هو وسيلتها الإرهابية التي ما زالت ترهب بها الشعوب والأمم.وما جرى في معتقلات غوانتينامو وأبو غريب دليل قاطع على أفعالها التي قصدت بها الإرهاب فقط، عندما سربت الصور التي تشمئز منها النفس البشرية وتقشعر لها الأبدان، من أجل تحقيق مصالح سياسية واقتصادية.

أما على الصعيد الفردي فإن اختطافها لرئيس دولة (بنما) الجنرال ـ نوريغا ـ دليل قاطع على أن عملها الإرهابي المقصود منه إرهاب كافة حكام العالم الثالث، بأن من يسير معها ليس مستبعداً أن تكون نهايته كنهاية رئيس بنما، علماً أن السبب الرئيسي لخطفه كان بسبب تورط الكثير من القيادات الأمريكية في تجارة المخدرات المشاركين بها مع الرئيس نوريغا.

وحدث ولا حرج عن الإرهاب الداخلي والخارجي الذي مارسه البريطانيون والفرنسيون والأسبان والبرتغاليون وغالبية الشعوب الأوربية فيما بينهم وضد غيرهم. وحروب الكاثوليك ضد الأرثوذكس والبروتستانت يندى لها الجبين. والحروب الصليبية مثال صارخ على ذلك، فقد كانت الحملات الكاثوليكية تقتل الأرثوذكس قبل قتل المسلمين، فلقد أسقط الكاثوليك القسطنطينية ودخلوها عام 1204م، ولقد نهب وأحرق ودمر فرسان الرهبان اللاتينيون كل شيء حتى الكنائس وخاصة كنيسة (الحكمة الإلهية) في اسطنبول واستباحوا المال والأعراض. أما فرسان الهيكل وفرسان الرب وفرسان القديس يوحنا، فقد نهبوا وأحرقوا وأتلفوا في طريقهم إلى القدس الأرثوذكس أينما كانوا وخاصة في بلغاريا، كما ذكر المؤرخ (لامونت) الذي أرخ للحروب الصليبية فقال: (لقد شارك هؤلاء لكسب مغانم الدنيا أكثر مما فعلوا في سبيل إعلاء مجد الرب، ولقد حملوا الصليب حباً بالمغامرة والمخاطرة، أو فراراً من رتابة حياتهم المملة أو تخلصاً من ألسنة زوجاتهم السليطة).

والموضوع يطول في ذكر الإرهاب الديني والطائفي والمذهبي عند الغربيين، ويكفي أن تقارن بين دخول الصليبيين للقدس ودخول صلاح الدين رضي الله عنه، هم أحرقوا وأتلفوا واغتصبوا حتى سبح عشرات الآلاف من قاطني القدس مسلمين ومسيحيين في دمائهم، بينما صلاح الدين عفا عن الصليبين الذين بقوا أحياء في القدس وأرسلهم إلى ديارهم، وغسل القدس وطهَّرها من رجسهم بماء الورد والياسمين والزعفران.

وتكفي شهادة المستشرق الخبيث البريطاني الأصل والأمريكي الجنسية (برنارد لويس)، والذي يعتبر مستشاراً للرئيس بوش والمحافظين الجدد لشؤون العالم الإسلامي عندما يذكر في كتابه الجديد (الإسلام وأوربا) فيقول: إن رؤية الإسلام الفقهية للحروب، بأنها منظمة ومقننة وأنَّها لا تمت إلى الإرهاب بصلة، وأنَّ المسلمين لم يكونوا في كل عهودهم مصدرين للقهر والاستبداد، حيث كانت الكنيسة في العصور الوسطى الأوربية أعلى سلطة آنذاك تنفي وتحرق وتعذب وتفتش في الضمائر، وكان المسيحيون واليهود المضطهدون يهربون إلى الشرق المسلم طلباً للحربة والأمان.

وأختم هذه المحاضرة بمقارنة معاملة الولايات المتحدة لمن تسميهم محور الشر من الدول الأسيوية مثل كوريا الشمالية وإيران وسوريا، فهي تفاوض كوريا الشمالية الند للند ومن خلال تبادل المصالح فيما يخص سلاحها النووي بعد أن تم التفجير النووي وانتهى، بينما تريد أن تفرض على إيران التوقف عن برنامجها النووي، لا لسبب إلا لأنها بلد مسلم، فهي يجب أن تكون في محور الأشرار ويجب أن لا تحوز سلاحاً نوويّاً فلماذا هذا السلاح حلال على غيرها حرام عليها، كما اعتبرت سوريا من محور الشر لأنها تقف ضد مخطط أمريكا المسمى (الفوضى الخلاقة) والحقيقة هي الفوضى الهدامة، هذه الفوضى التي ستولد ديمقراطية غربية استبدادية مكذوبة لما يسمى الشرق الأوسط الواسع، مرهبة سوريا بالمحكمة الدولية كسيف مسلط عليها عن طريق ابتزازها بقوة قرارات الأمم المتحدة التي فصَّلتها على مقاس مصالحها، وبقوة الإرهاب الدولي الاستبدادي الذي خدم مصالح الولايات المتحدة، كما تحاول الولايات المتحدة إرهاب هذه الدول بكل ما أوتيت

من قوى محمولة على البارجات وحاملات الطائرات والصواريخ بعيدة المدى، بالإضافة إلى الحصار الاقتصادي، إنه إرهاب حقيقي وابتزاز قسري حتى تُخضع القيادات والشعوب، إشارة إلى ما جرى في قيادة وشعوب أفغانستان والعراق، إنه الغرب الإرهابي حقيقة وواقعاً وتصرفاً وسلوكاً، ولكن هذه هي الدنيا لا صوت ولا مكانة لضعيف والقوي هو صاحب الحق ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

آمل أن أكون بهذه المحاضرة قد أوضحت فوارق القتال والجهاد والإرهاب كمصطلحات تساعد القارئ والباحث على الفهم الصحيح الذي يميز بين هذه المصطلحات.

والحمد لله رب العالمين

مركز ثقافي ـ داريا

2007/6/30

انتهى بعون الله تعالى

4 / رجب/ 1428هـ

19/ 7/ 2007م

الفهرس

مقدمة 5

الجزء الأول: الميكافيلية الأمريكية بين العقل والعاطفة 9

مدخل في الميكافيلية السياسية 9

الأمير تشارلز يدعو إلى استلهام الإسلام لمقاومة المادية الغربية 25

الإسلام والعالم الغربي 29

الولايات المتحدة استعملت هنتنغون صندوق بريد لإيصال أفكارها للآخرين

والأمير تشارلز فهم الرسالة 36

كلينتون الجمهوري وطوني بلير المحافظ 41

لماذا يتهم مارتن أنديك الآن؟ وهل ليبرمان يسقط آل غور؟ 45

أثر الموقف الدولي في نشوء وانهيار الدول العظمى 52

ماذا يجري في العالم 55

هل تستطيع الولايات المتحدة أن تحتكر العالم بدون شركاء؟ 59

ماذا تريد الولايات المتحدة ؟ 64

لماذا اجتمع بلير وبوش في بلفاست؟ 68

لماذا احتلت الولايات المتحدة العراق؟ 73

صدام حسين يملك أو لا يملك أسلحة تدمير شامل 79

أزمة حكم في الولايات المتحدة أسبابها ونتائجها 82

من بلفاست إلى لندن 86

الولايات المتحدة ـ العراق هل انتفاء السببية يوجب التعويض؟ 89

من يستغل الآخر؟ الأصولية الإنجيلية أم اليهودية الصهيونية؟ 93
أمريكا وبريطانيا وأسلحة الدمار الشامل 99
الولايات المتحدة أجهضت الديمقراطية في العالم 101
السياسة الأمريكية بين الأيديولوجية والبراغماتية 106
سقوط فندق فلسطين آثاره ونتائجه 113
هل انتهت صلاحية الرئيس بوش؟ 117
أمريكا لم تخسر حرب فيتنام فهل تخسر حرب العراق 122
هل غدا السلاح النووي نمراً من ورق؟ 125
هل تسوق الولايات المتحدة إسرائيل إلى جهنم؟ 130
هل أنهى المحافظون عقد استنجار بلير العمالي؟ 136
من ورط من بالعراق الولايات المتحدة أم المملكة المتحدة؟ 140
دور الولايات المتحدة في دخول الصين لإفريقيا 144
هل نجحت بريطانيا بفرض نفسها شريكاً للولايات المتحدة 148
الجزء الثاني: هل السنة النبوية وحي من الله؟ أو اجتهاد؟ 153
كيفَ نفهَمُ السُّنَّةَ ونُطَبِّقُها 168
الأصالة والمعاصرة 183
الكتاب والقرآن.. أخطر كتاب عرفته الساحة الإسلامية/ صحيفة الشرق الأوسط .. 187
المستقلة تحاور الدكتور والمهندس السوري محمد شحرور عن أهم آرائه وأطروحاته . 193
د. محمد شحرور: من الممكن أن تكون نصرانياً مسلماً لا تؤمن بمحمد (ص)
الإسلام ليس عقداً بين الله والناس بل هو ميثاق وكذلك الإيمان
التعصب للحجاب هو تعصب لتقاليد عربية تعود إلى القرن السابع الميلادي 202

الرد/ د. منير الشواف (للمستقلة) 202
لا علاقة لفكر د. شحرور بالإسلام بل هو مزيج من خيالات ابن عربي والماركسية
كيف تنهض الأمم 230
قاعدة العين بالعين والسن بالسن 236
الرسول لا يجتهد بالوحي أو عصمة الرسول من عقائد المسلمين 245
الحاسة السادسة..... 255
لعنة دولي 258
الاستقرار والحركة 260
الموقع ـ المسؤولية ـ المنصب..... 261
خطاب مفتوح إلى دعاة المجتمع المدني..... 263
معنى أن تكون حزبياً..... 266
رد على مقال للأستاذ المحامي نذير سنان ـ تعديل قانون الأحوال الشخصية 269
مشكلتنا أن يكون القاضي قاضياً والمحامي محامياً 280
هناك سيناريو رابع رداً على ما كتبه الأستاذ فندي في صحيفة الشرق الأوسط ... 283
استطلاع الآراء حول استثمار أرض مدينة المعرض 287
المكر والسذاجة/ رد على الدكتور غسان الرفاعي 291
رد على معوقات الإصلاح الديني/ رد على المهندس عدنان الرفاعي 295
في الرد على مقالة التطوير والتحديث والإصلاح للدكتور أسامة حبوس..... 305
المرأة في الإسلام ما لها وما عليها 311
معنى عدم أهلية المرأة لتولي الحكم 320
معنى ناقصات عقل ودين..... 323

المرأة بين واقعية المعاصرين وتراثية التقليديين 337
جدلية العروبة والإسلام 343
رد على مأمون فندي/ نهاية خطاب التطرف 348
طالب التفسير عارف ـ الأفغاني وعبده..... 353
العلم والعلمانية بين النظرية والتطبيق 356
الجزء الثالث: الشورى والديمقراطية بين مساحة الالتقاء والافتراق..... 361
الشورى والديمقراطية بين الملائكية والواقع البشري/
رد على الأستاذ شوقي بغدادي 374
رد على مقالة هل الإسلام دين ودولة/ للأستاذ نهاد الغادري..... 380
رد على السيد بريجنسكي/ قناة الجزيرة الفضائية/ برنامج من واشنطن 384
د. حبش منكر للسنة أم جاهل في علم أصول الفقه 390
جدلية القتال والجهاد والإرهاب 395